

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة للترجمة 2021

مراد ميرزا "حسام السلطنة"

رحلة مكة

1881-1880

من طهران إلى الحجاز
عبوراً بالآستانة ومصر والشام

ترجمها عن الفارسية:

عبد الكريم جرادات

مكتبة

سر من قرأ

المتوسط



هداية السبيل وكفاية الدليل
رحلة مكة

لزنسى تشرين 23

لزنسى غزوة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. اصحح الكود

telegram @soramnqraa



حقوق النسخ © 2022 منشورات المتوسط - إيطاليا.

26 11 2023 مكتبة
t.me/soramnqraa

"Safarnama Mecca" by "Murad Husam al-Saltana"

copyright © Murad Husam al-Saltana

Arabic translation copyright © 2022 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: السلطان مراد ميرزا "حسام السلطنة" / المترجم: عبد الكريم جرادات
عنوان الكتاب: رحلة مكة. من طهران إلى الحجاز عبوراً بالآستانة ومصر والشام
الطبعة الأولى: 2022

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري



دار السويدي للنشر والتوزيع

أبو ظبي، ص.ب: 44480 / الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 0097126447474 / فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com

ISBN: 979-12-80738-38-7



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120 / 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - الطابق الأول / ص.ب 55204.

www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة للترجمة 2021

مكتبة | سُرَّ مَنْ قَرَأَ

مراد ميرزا "حسام السلطنة"

هداية السبيل وكفاية الدليل

رحلة مكة

1881-1880

من طهران إلى الحجاز
عبوراً بالآستانة ومصر والشام

ترجمها عن الفارسية:

عبد الكريم جرادات

يشرف على هذه السلسلة: نوري الجراح

المتوسط



استهلال

مكتبة

t.me/soramnqraa

هذه سلسلة جديدة من أدب اليوميات، تتعلّق هذه المرّة بالنصوص المترجمة عن لغات أخرى، تفتح نافذة على يوميات، كتبها رحّالة أجنبي، وهي تأتي في سياق مشروع "ارتياذ الآفاق" الذي شكّل، أساساً، تحدياً لإمكانات الكُتّاب العرب وميولهم الأدبية، وحافزاً لكتابة أدب اليوميات، إن في فضاء السّفَر أو في فضاء الآخر، حيث تقيم، اليوم، نخبة من الكاتبات والكُتّاب العرب المهاجرين عن أوطانهم، والمنفيّين منها، بفعل الاستبداد والقمع والحروب وضياع الحرّيات.

وقد حضّت هذه الجائزة، الأولى من نوعها في الثقافة العربية، الكُتّاب العرب الجُدُد على استئناف مغامرة الكتابة في هذا اللون الأدبي الذي كان قد شهد ضموراً واختفاءً على مدار عقود، فأنعشت الرغبة في مقارنته، وراحت اليوميات تخرج إلى النور، إن من خلال منشورات "المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياذ الآفاق" أو من خلال منصّات وناشرين هنا وهناك في دنيا العرب.

هي سلسلة، نُوسّع معها من مساحة التفاعل مع أدب اليوميات استقبالاً ونشراً، بما يتعدّى النصوص الفائزة بالجائزة إلى ما هو أبعد وأوسع. نباشر نشرها بالتعاون مع "دار المتوسط - ميلانو"، بوصفها مشروعاً جديداً، وُلد في المغترب الأدبي العربي، ويُعبّر، في كثير من منشوراته، عن نزوع أصيل إلى الكتابة الحرّة والتفكير الحرّ، ويشترك مع

"مشروع ارتياد الآفاق" خصوصاً في بحثه عن سُبُل جديدة ومبتكرة في بناء جسور ثقافية بين ضفَّتَي المتوسط، وهو ما يُمكن من خدمة فكرة انفتاح الثقافة العربية على العالم وثقافته، والتعريف بأفضل ما تُنتجه قرائح الأجيال الجديدة من الكُتَّاب العرب الذين لا يعتبرون أنفسهم قارّة منعزلة، ولا يرون حاضراً لثقافتهم، من دون التفاعل الحيّ مع الثقافات الأخرى خصوصاً في هذه البحيرة العظيمة، ولا يرون مستقبلاً زاهراً لها، ما لم تكن نتاجاتهم الأدبية والفكرية وتطلُّعاتهم الثقافية جزءاً أساسياً من تطلُّعات الثقافات الكبرى في البحر المتوسط.

شكّل أدب اليوميات عماد مشروع "ارتياح الآفاق" الذي يعتبر، اليوم، مشروعاً فريداً من نوعه في الثقافة العربية، لكونه اعتبر أن أدب السَّفَر والتواصل مع الآخر هو الاختبار الأهمّ، والدليل الأسطع على انفتاح ثقافة على ثقافات أخرى. ولطالما نظرنا إلى سطور يوميات الرحّالة والمقيمين في المنافي وديار الاغتراب، بوصفها مُدوّنات، تُشكّل وثائق أدبية وتاريخية معاً، وهي لوحات فنيّة مدهشة، تكشف عن مشاعر حميمة وخلجات وجدانية فيّاضة، وخواطر وانطباعات، ترصد المرئيات، وغالباً ما تُثري القُرّاء بحدس شاعريّ وابتكار فنيّ وجمال في التعبير، عبر خيال يعانق الواقع، ويوقظ الذاكرة، فيأتي بالمتع والمدهش. مرايا تتعكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تُستكشَف، ولا يمكن استكشافها إلا بالأدب، وقد استنفذ التسجيل والتصوير المباشر غايتهما، ووُلد في العصور الحديثة أدب يوميات، يجعل من أصحابه شعراء وفنّانين أكثر منهم مُدوّنون وقائع. اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعياً وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معايشة الناس

والمُدُن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير عبر نصوص حيّة عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان.

نَبَّهْنَا مراراً خلال سنوات عملنا في هذا اللون الأدبي إلى أن أحد أهداف ما حَقَّقْنَا ونشرناه من كُتُب اليوميّات والرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكّل عن طريق السَّفَر والإقامة في ظهراني الآخر، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الكُتَاب، والانتباهات التي ميّزت نظرهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب اليوميّات، على هذا الصعيد، يُشكّل ثروة معرفيّة كبيرة، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادّة سرديّة مُشوِّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمدهش ممّا التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء، ويحلّلها، ويراقب الظواهر، ويتفكّر بها.

يندرج هذا الكتاب المترجم في سلسلة رحلات الحجّ التي شرع "المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق" في تحقيق مخطوطاتها العربية، وترجمة مخطوطاتها المكتوبة بلغات أخرى. وقد تكفّلت "دار السويدي"، بالتعاون مع دور نشر عربية مرموقة، بنشرها في سلسلة مُهداة إلى روح الشيخ زايد باني نهضة الإمارات. من المنتظر في المرحلة الأولى منها أن تبلغ هذه السلسلة من الكُتُب المئة كتاب، موازية لسلسلة الرحلات الكلاسيكية، وسلسلة الرحلات المعاصرة، والتي بلغت مجتمعة أكثر من ثلاثمئة كتاب، حُقِّقت ونُشرت بفضل جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة، وفي إطار مشروع "ارتياح الآفاق" تحت مظلة "المركز العربي للأدب الجغرافي".

رحلات الحجّ تعتبر في الثقافة العربية أدباً قائماً في ذاته، وهي فرع من أدب الرحلة، له قيمة كبيرة لما يذخر به من معارف وعلوم مختلفة، ولما يرسمه على طول خطّ السّفَر لمحامِل الحجّ من علامات وإشارات متنوّعة، تصنع كلّها عبر توالي المحطّات التي يمرُّ بها سَفِراً حضارياً ضخماً ومتكاملاً من أسفار النشاط الإنساني المادّي والرُّوحِيّ عبر العصور.

هنا في هذه السلسلة العربية يجري التأسيس، وللمرّة الأولى، لموسوعة رحلات الحجّ التي من المنتظر أن تُشكّل خزانة متكاملة من ثمرات الأقلام لحُجّاج علماء وأدباء ومتصوّفة وباحثين عن المعرفة عرباً ومسلمين. هذا الكتاب يدخل أيضاً في باب الرحلة المترجمة عن لغات أخرى، والتي اعتبرنا أن نصوصها تفتح نافذة على عين شرقية لرحالة أجنبي، جابوا شرقاً، يعتبر امتداداً لشرقهم، على اختلاف مرجعياتهم ومشاريهم ومقاصدهم، ومن بين هؤلاء، كان الحُجّاج إلى بيت الله الحرام.

محَمَّد أحمد السويدي

هذه الرحلة

تعتبر هذه الرحلة واحدة من أهم رحلات الحج المكتوبة باللغة الفارسية، ليس فقط للمكانة التي يتمتع بها صاحبها، بوصفه من بين أشهر الأمراء القاجاريين، فهو عمُّ الملك ناصر الدين شاه، وشخصية سياسية بارزة وواسعة النفوذ من شخصيات العصر القاجاري، ولكن، أيضاً لكونها رحلة ذات مسار طويل عبر قارّات ثلاث، وسَفَر في البرِّ والبحر، وعبر الممالك، من إيران إلى روسيا، فتركيا ومصر والحجاز، فالشام. واستقبل خلال رحلته من قِبَل السلاطين والملوك والحكّام ورجالات الدول بحفاوة كبيرة، وأُقيمت له المآدب، ومُنح الأوسمة، وجرى استقباله وتوديعه بمراسيم رسمية واحتفاء شعبي. ولا غرو في ذلك، فقد كان حسام السلطنة الشخصية الثانية بعد السلطان القاجاري. وقبل قيامه بهذه الرحلة إلى الحجّ، والتي استمرّت أكثر من تسعة شهور ما بين 6 آب (أغسطس) 1880، و23 أيّار (مايو) 1881، فإن صاحب هذه اليوميات سبق له أن رافق الملك ناصر الدين شاه في رحلته الأولى إلى أوروبا سنة 1873.

على أن هذه الرحلة هي أكثر من رحلة على الحجّ، فالمحطّات التي توقّف فيها الرحّالة، واللقاءات التي أجراها مع الملوك والحكّام باسم الحُكْم القاجاري، والصور التي نقلها والسطور التي دوّنها في وصف المُدُن والناس والأحوال، إنما تجعل منها صفحات بالغة الأهميّة عن زمنها.

من المعروف أن غالبية رجال البلاط القاجاري ممّن كتبوا رحلاتهم في أواخر القرن التاسع عشر لم يُكَلِّفوا أنفسهم عناء تدوين وقائع رحلاتهم، وما حفلت به من أخبار ومشاهدات وخواطر، فقد "كان كلّ واحد منهم يصطحب معه كاتباً، ليكتب ما يُملي عليه صاحب الرحلة"، ولم يشدّ صاحب هذه اليوميات عن هذا التقليد، فقد استصحب معه الكاتب ميرزا رضا، ف"كان ملازماً لركاب حسام السلطنة، وكان يخطُّ على عجل ما يُمليه عليه سُمُو الأمير يوماً بيوم".

وإذا كان "الطابع العامّ لجُلّ الرحلات التي قام بها الشاه ورجالاته حاشيته مرتبطة بالمرح، واحتساء القهوة، وتدخين النرجيلة، وتبادل المجاملات مع الآخرين"، فإن يوميات حسام السلطنة احتوت على ما هو أكثر قليلاً من ذلك، من حيث إنها حفلت بمعلومات أخرى قيّمة.

إلى جانب دقّته في الترجمة، وأمانته في النقل من الفارسية إلى العربية، في لغة سلسة ورائقة، بذل المترجم جهداً كبيراً في ضبط أسماء الأعلام والأسماء الجغرافية، وحاول شرح ما غمض، وتصويب ما يمكن أن يكون خطأ، وقع فيه الناسخ أو حتّى المؤلّف، لا سيّما في ما يتعلّق بأسماء الأماكن ومواقعها والشخصيات وتواريخها ممّا ورد في متن النصّ الفارسي وحواشيه. وقد استحقّ عن هذه الترجمة جائزة ابن بطوطة - فرع الرحلة المترجمة.

جائزة ابن بطوطة

مقدّمة المترجم

أدب الرحلات من المصادر المعرفية الإنسانية الهامّة، لاعتماده على نقل الواقع المائل، واهتمامه بالوصف الدقيق، مبتعداً عن المبالغة والتهويل، أو التهميش والتقليل، فالرحّالة، هم غالباً، أمناء في النقل، تستوفّوهم الأمكنة والأزمنة، وتستهوهم طباع البشر على اختلاف الديار والأمصار، لا تفوتهم شاردة ولا واردة إلا أخذوها بالعبرة والاعتبار، وذكرها فيما سطّروا من أسفار، لذلك يُعتبر هذا الأدب مصدراً مهماً من مصادر الوقوف على التراث الإنساني، والاطّلاع على عادات وتقاليد الشعوب، ومعرفة أحوال البلدان والعمران، يرجع إليه الأدباء والعلماء، والجغرافيون والمؤرّخون، والمثقفون والدارسون.

كثيرون هم مَنْ يعتقدون أن أدب الرحلات أقرب إلى الجغرافيا منه إلى أيّ منحنى إنساني آخر، والحقيقة أنه، وفضلاً عن اهتمامه بالبقاع، نجده يسبر جميع جوانب الحياة، فلا يغفل عن التاريخ، وإن كاد يمرُّ عليه بلمحات خاطفة، إلا أنه يشير إلى مكنون، يمكن الاستقراء من بين ثناياه، ولا يتجاوز أحوال الناس التي تُنبئ بطُرق حيواتهم، وأساليب معاشهم، ولا يُهمل ذكّر البنيان والعمران لتعلُّقه بحضارات الأمم، وفي الوقت ذاته، لا يغيب أدب اللسان عن مخطوطات المرتحلين. فهو أدب متعدّد الأوجه.

فالقارئ لأدب الرحّالة يكتسب معرفة، لم تكن لتتحقّق له لولا

التدوين، ويجوب أمكنة، لم يصلها ليري ما لم يُبصر، وكأنه يترأى له عياناً، ويعايش مجتمعات، لم يعرفها من قبل، فيتلمس غناهم وفقْرهم، فتبدو له تفاصيل البقاع، ويخبر أطوار الناس، ويطلع على عادات الشعوب، وهو يطالع صفحات كتاب دون أن يبرح مكانه.

ومن حُسْنِ الحظِّ أن ينبري في كلِّ حقبة زمنية، وفي كلِّ بقعة مكانية مَنْ يتصدَّى لهذا الجنس الأدبي الرفيع، ليُقرب بين الناس، ويوائم بين الأمم بما يُدوّن من ذِكرٍ لبعض الأقطار، فلا تجد فجوة عبر تسلسل التاريخ منسيّة من التسطير والتحبير، لتبقى الإنسانية متّصلة الحلقات.

وكما حظي هذا الأدب باهتمام الرّحالة السابقين على مرّ العصور الغابرة، والمستشرقين في العصور الحديثة، فقد حظي باهتمام الشعب الإيراني، وبدأت مقدّماته مع رحلة ناصر خسرو التي تعود على ألف من السنوات، لكنه بدأ في الشيوخ مع العصر الصفوي، وازدهر في العهد القاجاري، وأكثر من شغف به العاملون في البلاط القاجاري، ومقرّبو السلاطين دون غيرهم من طبقات المجتمع، لكثرة أسفار هؤلاء بحُكم أعمالهم، وترامي أطراف ولاياتهم، فدوّنوا رحلاتهم الداخلية والخارجية إلى أوروبا والهند والدولة العثمانية وروسيا والشام ومصر والعراق، وأولوا جُلَّ اهتمامهم لبيت الله الحرام، والأماكن المقدّسة، فوصفوا المُدن التي مرّوا بها، والأمم التي خالطوها.

لتأتي الترجمة من بعد، فتنتقل هذه التدوينات من لغة إلى أخرى، فتُقرب الشُقّة، وتسهّل المشقّة على القُرّاء والمطالعين والدارسين والباحثين، لتضع بين أيديهم كتاباً بلغتهم، نقلته من لغة كاتبه بتفاصيل المحتوى، وبدقّة المعلومة، وجوهر المعرفة بأمانة وإخلاص، ومن دون تحيُّز أو تعصّب لرأي، وبلا غلوّ أو مغالاة، أو زيادة أو نقصان، كي لا يقع خلل في المعنى، فيخرج الكتاب عن سياقه.

في ترجمتي لهذا الكتاب، لم أزد على ما نقلتُ من بين دَقَّتِيهِ من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، مع اضطراري إلى توضيح بعض المقاصد التي ربَّما يمَسُّها الإشكال إمَّا لُبُعْد زمن التدوين عن الزمن الحاضر، فاختلَّت بعض أسماء الأعلام والمعالم، أو لاختلاف اللفظ على لسان الكاتب غير المتمكِّن من لغات بعض الأمم التي مرَّ بديارها، فأحدث اختلافاً في المعنى، فَعَمَدْتُ إلى إيضاح ذلك في حواشٍ، دفعاً لما قد يعتقدُه القارئ خطأ، وقع فيه المؤلف، أو تحريفاً وقع فيه المترجم.

عملتُ على ضبط أسماء الأماكن، والتعريف بها، وتحديدِها وتعيينها بعدما تعدَّر على محقِّق الكتاب القيام بهذا العمل، وهو الذي ذكر في مقدِّمته للكتاب أنه: "من الطبيعي أن لا تتمكَّن في الظروف الحالية من ضبط دقيق لحركات الأعلام المذكورة في النصِّ من أشخاص أو معالم، لا سيَّما المناطق الجغرافية، وفي بعض المواطن، وجدنا أن بعض الأعلام مضبوطة بالحركات، ولم يكن أماننا إلاَّ اعتمادها كما هي".

هذه الرحلة المكِّيَّة امتدَّت لمدَّة تسعة شهور وعشرين يوماً، وقد بدأت يوم السبت التاسع والعشرين من شعبان 1297 هجرية، الموافق 6 آب (أغسطس) 1880 ميلادي، وختمها صاحبها يوم الاثنين الثالث والعشرين من جُمادى الآخرة سنة 1298 هجرية، الموافق 23 أيار (مايو) 1881 ميلادي، هي من أولى الرحلات الفارسية المتأخِّرة التي تُترجم إلى العربية، بعد رحلة الكاتب الإيراني جلال آل أحمد بالطائرة إلى مكَّة والمدينة عام 1964 ميلادي، والتي كانت أقرب إلى العمل الروائي، ويبرز فيها الكاتبُ، في كثير من المواقع، بُغْضَهُ للعرب، ونفوره منهم، فإنني أرجو بأن تكون هذه الترجمة بمثابة محاولة لإعادة فتح الباب أمام

ترجمات مستقبلية للرحلات الفارسية، لإثراء المكتبة العربية، فهالك الكثير من مخطوطات الرحلات لم تُطبع بعد وَفُق ما أشار إليه محقق الكتاب رسول جعفریان، وما هو مثبت في ملحق هذا الكتاب.

أضع هذا السُّفر بين يدي المهتمين، دون أن أُقِم نفسي في اجتزاء بعض مفاصل متن الكتاب في هذه المقدمة، أو ذُكر بعض تفاصيل الرحلة الزاخرة، تاركاً لهم سبر أغواره، وتقصي رحاب آفاقه، ليقروا حياة اجتماعية وسياسية، ويستطلعوا حقبة إنسانية وتاريخية، جاءت بين ثناياه، تشير بلا مواربة أو لبس إلى واقع حال، إن اختلف أشخاصه وزمانه، لم يختلف كثيراً جوهره.

د. عبد الكريم جرادات

مقدّمة المحقّق

د. رسول جعفريان

"حسام السلطنة"⁽¹⁾، هو نجل عبّاس ميرزا، من رجالات الدولة البارزين، ومن الشخصيّات المرموقة في العهد القاجاري⁽²⁾. شغل عدّة مناصب في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة، أهمّها تسنّمه حُكم ولايات مختلفة، ويعدّ فتح مدينة هرات⁽³⁾ الحدث الأهمّ في حياته إلّا أن عواقبه كانت وخيمة، وأبرزها انفصال المدينة عن إيران، بمؤامرة وخيانة من ميرزا آغا خان النوري الصدر الأعظم آنذاك⁽⁴⁾. وكان حسام السلطنة رجل المرحلة بامتياز، قيل عنه: إنّه أقوى وأبرز أبناء عبّاس ميرزا، وهذا ما يتّضح لنا من خلال أهميّة المناصب التي أوكلت إليه، وحساسيتها، وسنعرض هنا نصّين من ترجمته: نصّاً موجزاً، وآخر مفصّلاً، الأوّل دوّنه محبوبي الأردكاني، والثاني لمهدي بامداد.

ذكر محبوبي الأردكاني نبذة عن حياة حسام السلطنة في تعليقات المآثر والآثار⁽⁵⁾ فقال: "تشرّف بأداء مناسك فريضة الحجّ في عام 1297

(1) حسام السلطنة هو: السلطان مراد ميرزا المشهور بلقب "حسام السلطنة". (المترجم).

(2) القاجار: هم قبيلة من أتراك الأوغوز الذين استوطنوا مع قبائل أخرى في المنطقة التي تضمّ الآن أرمينيا وأذربيجان وشمال غرب إيران، وتولّوا السلطة بعد الدولة الصفوية عام 1779م. (المترجم).

(3) هرات: مدينة أفغانية تقع غربي أفغانستان. (المترجم).

(4) الصدر الأعظم: لقب عثماني يُعبّر عن منصب حكومي في زمن سابق، يقابله في وقتنا الحالي مُسمّى: رئيس الوزراء. (المترجم).

(5) تعليقات المآثر والآثار: مؤلّف الكتاب هو اعتماد السلطنة، محمّد حسن بن علي (1259-1313هـ). (المترجم).

هجرية، وقد وافته المنية إثر نوبة قلبية، أصابته يوم الاثنين الموافق الثاني من جمادى الأولى عام 1300 هجرية قبل غروب الشمس بست ساعات، وعن عمر يناهز السابعة والستين، وتوفيت زوجته (عالية خانم) بعده بخمس سنوات، إذ وافاها الأجل يوم السبت الحادي عشر من صفر عام 1305 هجرية، وحسام السلطنة هو جدُّ أحمد شاه⁽¹⁾ لأمه، وكان رجلاً صلباً قاسي القلب، ويعدُّ الرجل الثاني في الأسرة القاجارية بعد عباس ميرزا، وقد خمنوا ثروته بمليون وخمس مئة ألف تومان⁽²⁾، وممَّا يجدر ذكره أنه عُرف بلقب فاتح هرات في تلك الحقبة الزمنية".

ويقول عنه مهدي بامداد: "وُلد السلطان مراد ميرزا الملقب بحسام السلطنة، وهو الابن الثالث عشر لعبّاس ميرزا نائب السلطنة⁽³⁾ في ربيع الآخر من عام 1233 للهجرة، ووافته المنية في اليوم الثاني من جمادى الآخرة لعام 1300 للهجرة، ودُفن في دار الحُفّاط⁽⁴⁾ في حرم الإمام الرضا، عليه السلام، وإن كان تاريخ وفاته استناداً لما نُقش على قبره هو الثاني من جمادى الآخرة، إلا أن الصواب أنه توفّي في الثاني من جمادى الأولى وفق ما ذكره اعتماد السلطنة، إذ بيّن أنه في العام ذاته تمّ تعيينه والياً على خراسان، وبينما كان يتهيأ للانطلاق إلى وجهته، باغته الأجل في السابعة والستين من العمر".

(1) أحمد شاه قاجار: ملك بلاد فارس، (1909-1925) وهو آخر الملوك من الأسرة القاجارية. (المترجم).

(2) صحيفة خاطرات اعتماد السلطنة، ص 243. والتومان: عملة إيرانية، لازالت تُستخدم إلى جانب الريال الإيراني. (المترجم).

(3) ذكر سلطان مراد ميرزا في المجلد الثالث من منتظم الناصري، والمجلد التاسع من روضة الصفاء على أنه الابن الحادي عشر لعبّاس ميرزا نائب السلطنة، وفي فصل القاجارية من كتاب ناسخ التواريخ ذكر أنه الابن الثالث عشر.

(4) دار الحُفّاط: من الدور التي بنتها جوهر شاد بيكم آغا، المقتولة في هرات بأمر من السلطان أبي سعيد بن محمّد ابن ميران شاه بن تيمورلنك. (المترجم).

ويذكر بامداد، أن اعتماد السلطنة محمد حسن خان كتب في مذكراته اليومية ليوم الاثنين الثاني من جمادى الأولى 1300 للهجرة قوله: "توفي اليوم قبل الغروب بست ساعات حسام السلطنة عم الملك، وهو في عز نشوته، وأوج سطوع نجمه، وكان قد صدر أمر بتوليته حُكم ولاية خراسان قبل عدة أيام، وقد قدّم مقابل ذلك المنصب خمسة وعشرين ألف تومان كهدية للحكومة، وكان من المقرر أن يتوجّه اليوم إلى خراسان لتولي حُكم الولاية، إلا أن حُكم القضاء والقدر غير وجهته إلى الحياة الآخرة".

ومما جاء في الترجمة أنه: "في الوقت الذي كان فيه السلطان مراد ميرزا في الأيام الأخيرة من حياة والده حاكماً على أرسباران⁽¹⁾ قواجه داغ، قصد محمد شاه هرات للحيلولة دون وقوع أعمال شغب وعنف في المناطق البختيارية، بتحريض من الأجانب، وتم إرسال السلطان مراد، وبرفقته جيش جرّار مُكوّن من ستّة آلاف من الجند إلى شمن غندمان، وفي عام 1266 هجرية منح لقب حسام السلطنة بعد اعتراف سالار⁽²⁾ بالهزيمة، واكتمال الفتوحات التي حقّقها السلطان مراد في خراسان".

ويضيف بامداد: "في عام 1264 هجرية، وبعد اختيار الميرزا تقي خان أمير كبير⁽³⁾ حسام السلطنة، وتكليفه بمهمّة القضاء على سالار،

(1) أرسباران: منطقة جبلية شاسعة، تقع شرق شمال محافظة أذربيجان الشرقية الإيرانية. (المترجم).

(2) سالار: هو محمد حسن خان سالار والي خراسان، تمّ قتله بأمر من ناصر الدين شاه بعد قيامه بتمرد للانفصال عن إيران. (المترجم).

(3) الميرزا تقي خان أمير كبير: رئيس وزراء الحكومة الإيرانية في بداية عهد ناصر الدين شاه القاجاري لمدة ثلاث سنوات، وهو مؤسس دار الفنون، أول مؤسسة أكاديمية في إيران، ونشر صحيفة وقائع اتّفاقية أول صحيفة إيرانية، وبمؤامرة من أعدائه تمّت تنحيته من منصبه، ونُفي إلى كاشان، وقتل بأمر ناصر الدين القاجاري في حمام (فين) في مدينة كاشان، ودُفن في مدينة كزنلاء. (المترجم).

توجّه من طهران إلى خراسان. وفي عام 1265، وبعد تنحية أخيه حمزة ميرزا حشمت الدولة، تمّ تعيين سلطان ميرزا بدلاً منه والياً على خراسان، واستقلَّ بحُكم الولاية بشكل كامل بعد أن أعدم حَسَن خان سالار في عام 1266، وبقي على سُدة الحُكم حتّى عام 1270، حيث تمّ عزله، وعيّن أخوه فريدون ميرزا فرمان بدلاً منه، وفي عام 1272، وبعد حُكم دام أكثر من عامين، تُوفيَّ فريدون ميرزا في مشهد، وتسلّم حسام السلطنة، وللمرّة الثانية، حُكم الولاية، ودام حُكمه عليها حتّى عام 1275، ونظراً لأعمال الشغب والفوضى التي وقعت في هرات من جانب، ولتحركات أمير دوست محمّد خان بتنسيق مع البريطانيّين، وبايعاز منهم لضمّ هرات إلى مملكته من جانب آخر، وجّهت الحكومة الإيرانية فرماناً إلى الوالي، تأمره بالحركة إلى هرات، وبسط سيطرته عليها، فعمل، في بادئ الأمر، على إرسال سام خان رئيس قبيلة زعفرانلو على رأس ألف وخمس مئة رجل، إلّا أنه لم يلقَ ترحيباً لدى خوانين⁽¹⁾ هرات، فاضطرَّ حسام السلطنة للذهاب بنفسه، وفي السابع من صَفَر 1273 تمكّن من احتلالها، وخالف بذلك أهواء البريطانيّين ورغباتهم، فاستعرت الحرب التي جلبت الكثير من الدُمل والهوان لإيران، ووضعت أوزارها بمساع حثيثة من العميل البريطاني الصدر الأعظم ميرزا آغا خان النوري لإخلاء هرات، وتوقيع معاهدة باريس المشؤومة في السابع من رَجَب لعام 1273، تمّ بموجبها تنازل الحكومة الإيرانية عن أفغانستان بأسرها إلى الحكومة البريطانية، وقبل إبرام المعاهدة بين الحكومتين، أوفد حسام السلطنة الرُّسل، وصاح بأعلى صوته ب: أن هناك تمرداً كبيراً في الهند، وهذه فرصتكم لانتزاع حقوقكم من البريطانيّين، اسمعوا وعُوا، لا تبيعوا ممتلكاتكم بثمن بخس، لا تجزعوا من مجيء السفن البريطانية إلى

(1) خوانين: كلمة تركية استُخدمت فيها علامة الجمع العربية، ومفردها خان، وهي لقب كان يُطلَق على سادة التركمان. (المترجم).

بوشهر، ليس بمقدور البريطانيين الوصول إلى مناطق أبعد من بُرازجان⁽¹⁾، وعلى الرغم من المراسلات المتوالية، والنداءات المتتابعة من حسام السلطنة، إلا أن الحكومة الإيرانية أوفدت فرخ خان الكاشي عبر إسلامبول إلى باريس في الحادي عشر من ذي القعدة عام 1272، وفي السابع من صفر 1273، وقبل وصول الموفد الإيراني إلى باريس تم فرض السيطرة الكاملة على مدينة هرات، فأرسل حسام السلطنة كتاباً إلى الملك، يخبره بالفتح، وأعلمه ببدء تمرّد الجيوش الهندية، واستأذنه بالتوجّه نحو الهند، برفقة مَنْ معه من الجند⁽²⁾، غير أن العميل الأجنبي الصدر الأعظم آغا خان بذل كل ما بوسعه لإقناع الملك، برفض طلب حسام السلطنة، وقدّم له الشواهد والأدلة على أنّ حسام السلطنة سيستولي على حُكم إيران بالمجان، إن أذن له بالتوجّه إلى الهند، وفي هذا الصدد يقول محمّد يوسُف الهراتي في الصفحتين 129 و130 من كتابه عين الوقائع: لقد وعد البريطانيون الصدر الأعظم ميرزا آغا خان النوري، بتقديم رشوة له، إن أمكنه إقناع الملك بالتخلي عن هرات، وبالفعل، أصدر الملك فرماناً إلى المرحوم حسام السلطنة يأمره بالانسحاب من هرات، والعودة إلى مشهد؛ لتكفّ الحكومة البريطانية عن مهاجمة الموانئ الفارسية، وقد ردّ حسام السلطنة على كتاب الملك قائلاً: ليس جديراً بالحكومة الإيرانية الانسحاب من مدينة هرات في الوقت الراهن، لأننا تكبّدنا خسائر فادحة، وقد يتسبّب الانسحاب بأضرار جسيمة، تمسّ الحكومة الإيرانية وشعبها، لكن الصدر الأعظم الذي كان قد بيّث النيّة وعقد العزم على تسليم هرات إلى الحكومة البريطانية كتب ردّاً على حسام

(1) بُرازجان: ثاني أكبر مدينة في محافظة بوشهر جنوب غرب إيران، وتبعد عن ميناء بوشهر 65 كيلومتر. (المترجم).

(2) رسائل حسام السلطنة السلطان مراد ميرزا المحفوظة في المكتبة المَلِكِيَّة.

السلطنة قائلاً: من طريقة ردك على أمر السلطان والدولة، بدا جلياً طمعك بالاستيلاء على المملكة والسلطنة، وهو ما دعاك للتشبث بهرات، فإن كنت تحسب نفسك فرداً من الحكومة الإيرانية، ومن مردي الخير للملك، فم بإخلاء هرات على الفور، وعد أدراجك إلى مشهد".

وقال: "ولأن حسام السلطنة لم يكن ذا حظوة لدى الحكومة البريطانية، وكذلك لدى ميرزا آغا خان النوري، فقد تم استدعاؤه عام 1275، وعين بدلاً منه حمزة ميرزا حشمت الدولة والياً على خراسان، وفي وزارة الميرزا محمد المستوفي قوام الدولة، تم تنصيب حسام السلطنة، وإيفاده والياً لفارس بديلاً عن طهماسب ميرزا مؤيد الدولة. وفي عام 1277، وعلى أثر قضية مزو⁽¹⁾ المشينة التي وقعت عام 1276، وهلكت خلالها جُلُّ القوَّات الحكومية (ما يناهز الثلاثين أو الأربعين ألف شخص)، قام الملك بعزل حشمت الدولة وقوام الدولة من منصبَي ولاية خراسان ووزارة المالية فيها، وأحضر حسام السلطنة من فارس، ليوليه حكومة خراسان للمرة الثالثة، وكلف الملك رئيس تشريفاته محمد ناصر خان القاجار دولو الملقَّب بظهير الدولة بتولي منصب وزير المالية وقيادة الجيش في الولاية، وبعث به إلى خراسان، من أهم إنجازات حسام السلطنة خلال مدة حكمه الثالثة التي استمرت حتى عام 1281 منع اعتداءات التركمان على حدود خراسان ونواحيها، ووقف زحفهم. وفي عام 1282 تم تعيينه والياً للمرة الثانية على فارس بدلاً من مسعود ميرزا يمين الدولة ظل السلطان، وبقي فيها حتى عام 1285، ومع مطلع عام 1286 تم تعيين مسعود ميرزا ظل السلطان للمرة الثانية حاكماً على ولاية فارس، وعين حاج محمد قلي خان القاجار دولو آصف الدولة

(1) قضية مزو: سلسلة من الحروب بين الحكومة الإيرانية والتركمان امتدت من عام 1276-1278 هجرية. (المترجم).

وزيراً للمالية فيها، وفي عام 1287، تمّ تعيين حسام السلطنة حاكماً على يزد، لكنّه استاذن بإرسال ابنه الأكبر أبي الفتح ميرزا مؤيّد الدولة، ليصبح حاكماً على الولاية نيابة عنه".

وأضاف بامداد: "في منتصف هذا العام - أي عام 1287، وفي العشرين من جمادى الآخرة -، قصد ناصر الدّين شاه عراق العرب بين النهريّن عازماً زيارة العتبات المقدّسة⁽¹⁾، فتولّى حسام السلطنة مرافقته، وكان مسؤولاً عن أمن وحماية معسكر الملك. وفي عام 1288، وبالإضافة لتولّيّه ولاية يزد، تمّ تعيينه للمرّة الرابعة والياً على خراسان، وفي السنة ذاتها، أُحيلت إليه ولاية أصفهان عوضاً عن يزد، وطلب بإرسال حاكم يزد أبي الفتح ميرزا مؤيّد الدولة، ليكون في خدمة والي أصفهان محمّد حُسينّ مستوفي التفرشي ناظم الملك، وأوكل إدارة حكومة يزد بالنيابة عنه إلى مير دوست محمّد خان معير الممالك، صهر ناصر الدّين شاه وابن معير الممالك نظام الدولة، ولم يلبث طويلاً حتّى تمّ عزله عن ولاية خراسان، لعدم امتثاله لأوامر الصدر الأعظم الحاجّ ميرزا حُسينّ خان مشير الدولة، وعُيّن بدلاً عنه الحاجّ حُسينّ خان شاهسون شهاب الملك أمير تبخان، وبسبب عزله عن الولاية، تعمّقت الضغينة في قلبه على مشير الدولة، وفي الزيارة الأولى لناصر الدّين شاه إلى أوروبا عام 1290 كان حسام السلطنة من الملازمين لركاب الملك. وفي عام 1291، وحينما كان الحاجّ ميرزا حسنّ خان مشير الدولة وزيراً للخارجية، ووزيراً للحرب، كان يعمد حسام السلطنة إلى الحطّ من شأنه على مرأى ومسمّع العموم، ممّا اضطرّ مشير الدولة إلى تنظيم شكوى بحقه إلى الملك. وفي نهاية عام 1293 كُلف حسام السلطنة بحكومة كردستان وكرمانشاه بدلاً من بديع الملك الميرزا حشمت السلطنة،

(1) العتبات المقدّسة: الأماكن التي دُفّن فيها أئمة الشّيعة في العراق. (المترجم).

واستقرَّ حينذاك في مقرِّ الحكومة في كرمانشاه، وقام بتسليم ابنه أبي الفتح ميرزا إدارة الحُكْم في كردستان نيابة عنه".

حول رحلة حسام السلطنة

شهد أدب الرحلات إقبالاً وتزايداً ملحوظاً في العصر القاجاري، ومن أهمِّ دلائل بروزه اهتمام العلماء وأهل الرأي والمشورة بالرحلات المتوقِّرة لديهم، والمكتوبة باللغات الأوروبية، وإن كانت كتابة الرحلات قد لاقت رواجاً متواضعاً في البلدان الإسلامية، إلا أنَّ كتابات الرُحَّالة الأوروبيين كان لها عميق الأثر في ظهور وتنامي أدب الرحلات في العهد القاجاري، وبأمر من ناصر الدِّين شاه، وآخرين من رجال البلاط، تمَّ نقل عدد كبير من هذه الرحلات إلى اللغة الفارسية، وتحتفظ المكتبة الوطنية الإيرانية، ومكتبات أخرى بنسخ كثيرة من تلك المخطوطات ضمن قائمة النسخ الخطيَّة، كما قام الشاه وآخرون من بلاطه بتقليد الأوروبيين في تدوين رحلات أسفارهم، إلا أنَّ هنالك فرقاً جلياً بين هذه الرحلات وتلك، لأنَّ الطابع العامَّ لجُلِّ الرحلات التي قام بها الشاه ورجال حاشيته مرتبطة بالمرح، واحتساء القهوة، وتدخين النرجيلة، وتبادل المجاملات مع الآخرين ... وما هو من هذا القبيل. وعندما نُلقِي نظرة على رحلة ناصر الدِّين شاه إلى أوروبا، أو رحلة عَضُد المُلْك إلى العتبات، نجد أن هذا النهج هو المتَّبَع في كتابة رحلاتهم، ومع ذلك نجد أن بعض تلك المخطوطات تحتوي على مواضيع ثقافية واجتماعية وتاريخية، تُحَفِّز الباحثين والدارسين لطباعتها، والإفادة منها.

ومن المواضيع الرائجة في تلك الكتابات المتعلقة بهذه الحقبة ما تمَّ تدوينه خلال رحلات الحجِّ، ومن أشهرها: رحلة فرهاد ميرزا، ونائب الصدر، ومخبر السلطنة، وقد طبعت جميعها، واستحوذت الحوادث التي كانت

تقع للحُجَّاج في طريق الحجّ - نظراً لبُعد المسافة - لحيّز غير قليل من مساحة التدوين، ومن أمثلة تلك الرحلات رحلة مكّة لمحمّد ولي ميرزا التي قمنا بطباعتها ضمن مجموعة نحو أمّ القرى، ورحلة حسام السلطنة إلى مكّة، وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وبالرغم من وجود تشابه واضح بين محتوى هذه الرحلة والرحلات الأخرى لرجال البلاط، من حيث احتواؤها على الكثير من الأمور الشخصية، غير أنّنا نجد بين طيّاتها معلومات أخرى قيّمة، ومن اللافت في الرحلات الخاصّة برجال البلاط أنّ أغلبهم لم يكلف نفسه عناء تدوين رحلته، وكان كلّ واحد منهم يصطحب معه كاتباً، ليكتب ما يُملي عليه صاحب الرحلة.

لم يصلنا شيء من مؤلّفات حسام السلطنة غير كتابه هذا في رحلته تلك، وهو شاهد ينمُّ عن ذكاء وإمام المؤلّف بالأدب، والصناعة، وقضايا زمانه السياسية والاجتماعية، وإن كان لا يضاهاه أخاه فرهاد ميرزا معتمد الدولة أحد مثقفي رجال العصر القاجاري، إلّا أنّ حسام السلطنة حرص على تدوين رحلته الموسومة بهداية السبيل وكفاية الدليل إلى الحجّ، كما فعل من قبل فرهاد ميرزا في سفره للحجّ عام 1292 هجرية.

فبعد رحلة فرهاد ميرزا بخمس سنوات، بدأت رحلة حسام السلطنة في شهر شعبان 1297 للهجرة، وانتهت في جمادى الآخرة من العام التالي، وقد ذكر مستنسخ الكتاب في ذيل المخطوطة أنّ الكاتب ميرزا رضا كان مُلازماً لركاب حسام السلطنة، وكان يخطُّ على عجل ما يُمليه عليه سُمُو الأمير يوماً بيوم، ولم يتسنّ لحسام السلطنة أو لغيره ترتيب هذه المواضيع ونشرها، يقول مستنسخ المخطوطة التي اعتمداها كنسخة أساسية: "أنّ السيّد حُسين قلي خان مخبر الدولة، الوزير العامّ لمكاتب البرقيات في ممالك إيران، وبعد فراغه من مشاغله ومهامّه الوزارية والشخصية،

كان يُكرّس جُلَّ اهتمامه لقراءة الكُتُب وجمّعها، وعندما وقعت بين يديه مسوِّدة هذه الرحلة، عزم على استنساخها، ليُخلِّد الرِّمَانُ رحلَةَ ذلك الأمير العظيم، والاحتفاظ بنسخة منها في مكتبته الخاصَّة، وبنسخة أخرى لمطالعة القُرَّاء، فاستدعاني أنا غلامه، لكي أُعيِّن كاتباً لاستنساخ المخطوطة، وامثالاً لأوامره المباركة، قمتُ بتكليف بعض الكُتَّاب، ولكن، كان من المتعذَّر قراءة المخطوطة واستنساخها إلَّا في حالة أن يُمليَ أحدُهم مسوِّدتها عليهم، ولم يكن هذا بالأمر اليسير من جانب، ومن جانب آخر، فأنا غلام من غلمانه، وليس بوسعي التلكُّؤُ في تنفيذ أمره المطاع أو تناسيه، لهذا، ومع ضعف بصري، وكثرة مشاغلي المكلف بها من جنابه، قمتُ باستنساخ المخطوطة، وانتهيتُ من نسخها في غضون خمسة أشهر، وإني لأجد نفسي من أهل السعد لامتثالي لأوامر حضرة المعظِّمة، ويحدوني الرجاء بأن يكون هذا الجهد المتواضع ملحقاً لخدماتي السابقة، وأن يحظى بالملاحظة والعناية في حَرَمِ ساحته المباركة".

مستنسخ النسخة التي بين أيدينا، أي كاتب السطور السابقة هو علي علي آبادي، الذي قام باستنساخها عام 1323 هجرية، بخطِّه الأنيق الحَسَن، ونسخته هذه محفوظة في مكتبة مجلس الشورى الإسلامي، وتمَّ تحقيق هذه الرحلة وطباعتها بالاعتماد على النسخة المذكورة.

ومن الطبيعي أن لا تتمكَّن في الظروف الحالية من ضبط دقيق لحركات الأعلام المذكورة في النصِّ من أشخاصٍ أو معالم، لا سيَّما المناطق الجغرافية، وفي بعض المواطنين، وجدنا أن بعض الأعلام مضبوطة بالحركات، ولم يكن أماننا إلَّا اعتمادها كما هي، فجميع العناوين الواردة في الكتاب هي كما جاءت في المخطوطة، إلَّا أننا أجرنا تعديلاً على قِلَّةٍ منها لإضفاء لمسة جمالية عليها، فعلى سبيل المثال: ورد في المخطوطة العنوان في شرح الإسكندرية، فاقصرناه على الإسكندرية.

نص الرحلة

الانطلاق من إيران

مكتبة

t.me/soramnqraa

بدأت الرحلة يوم السبت، التاسع والعشرين من شعبان 1297 هجرية

امتثالاً لقوله جلّ جلاله: (وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)⁽¹⁾، وعملاً بأمره تعالى بجعل الحجّ ركناً من أركان الإسلام، وركيزة من ركائز الإيمان، وفرض مُبرم، وطاعة مقدّسة، فقد أكرمني الله في طليعة عام الحوت السعيد، الموافق لسنة ألف ومئتين وسبع وتسعين للهجرة، برخصة السيّد الأقدس، جلالة قدر القدرة، الظلّ الإلهي، أرواحنا فداه، لأداء هذه الفريضة، فسارعتُ إلى تجهيز نفسي لهذه الرحلة، وأعددتُ العُدّة لها، وبما أنّ مُصاحبة عالم خبير، وفاضل بصير، ومنادمته من المقتضيات الطيّبة في كلّ حين، تخيّرتُ سيادة افتخار الواعظين الحاجّ مُلاً باقر الواعظ⁽²⁾ لمرافقتي ومصاحبتي في هذه الرحلة، وهو من الأخيار الأبرار، وسلكتُ طريق المقصد بطيب منادمته وحُسن معاشرته، وكما يقال: إن في معاشرة العلماء شرف الدنيا والآخرة.

(1) القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية 97.

(2) الحاجّ مُلاً باقر الواعظ، يُعدُّ من الوُعَاظ النابهين في تلك الحقبة، وعندما يتطرّق عَضُد المُلْك في رحلته إلى العتبات لوعظ مُلاً باقر يقول: حقّاً إنك لا تجد واعظاً في مرتبته؛ فهو فضلاً عن العلم والزهد، ولباقة اللسان ورشاقة البيان، يُعدُّ من الداعين والمُضحين في سبيل الحكومة الأبدية. (رحلة العتبات العاليات، علي رضا عَضُد المُلْك، باهتمام من: حسن مرسلوند، ج162، طهران، 1411هـ).

فمع عشية يوم السبت، التاسع والعشرين من شهر شعبان المعظم، الموافق للحادي والعشرين من شهر مرداد الجلاي⁽¹⁾، وبما يوافق السادس والعشرين من شهر آذار الميلادي، غادرت بيتي تحثني عزيمتي، سالكاً طريق أكبر آبادو، غير آبه بسعد الساعة ونحسها، فالقدر غالب وقاهر على تدابير البشر⁽²⁾، وكما قيل شعراً:

يُدْبِرُ بِالنُّجُومِ وَلَيْسَ يَدْرِي وَرَبُّ النُّجُومِ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ⁽³⁾

وقيل نثراً: أهل التسبيح والتقديس لا يؤمنون بالتربيع والتدليس. وإن لم أكن من المتقين، إلا أن حُبهم منقوش في سويداء قلبي.

أقمتُ في حديقة معالي أمين المُلك في أكبر آباد، ولم يكن في نيّتي المكوث طويلاً، إلا أن انشغالي بإنجاز بعض أعمالِي مدَّ إقامتي حتّى يوم الثلاثاء العاشر من رمضان، وخلال هذه المدّة حضر لمجاملتي ووداعي الأمير الأعظم معالي نائب السلطنة أمير كبير، روعي فداه، واعتماد السلطنة، وحشمت الدولة، ومعالي الأجل الأكرم سيادة مستوفي الممالك، والقائد الأعظم، وآخرون من الوزراء الأحباب، وجامعو الرسوم الأطياب.

وعند الزوال، تركنا الحديقة في أكبر آباد قاصدين حديقة ميرزا مرتضى ابن المرحوم ميرزا زين العابدين في البرز، والمسافة بينهما وفقاً لمحمول البريد خمسة فراسخ⁽⁴⁾، فنزلنا في تلك الحديقة إلى زوال اليوم الذي يليه.

(1) التقويم الجلاي: نسبة إلى السلطان السلجوقي جلال الدولة ملك شاه. (المترجم).

(2) لقد قرأنا في ترجمة المؤلّف حينما تمّ تعيينه للمرّة الأخيرة والياً على حمراني خراسان، بأنهم رأوا أنّ ساعة الانطلاق هي ساعة سعد، إلا أن الأجل باعته، ووافته المنية!

(3) قائل البيت هو الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز. (المترجم).

(4) فراسخ: للبريد مقياس بحسب المسافة، ومقياس بحسب الزمان: أمّا بحسب المسافة، فهو

تقع البلدة على يمين الطريق بين الشرق والشَّمال، وتقع الحديقة عند انتهاء طريق البلدة، وفي باحتها وقرب بوابتها بُنيت بيوت سفليَّة، وأخرى علويَّة، تفتقر للزخرفة إلا ما ندر، وعلى طريق بلدة البرز، يقع نُزل شاه آباد، وهو من أوائل النُّزل على طريق قزوین.

عشية يوم الأربعاء، الحادي عشر من رمضان، تركنا حديقة ابن ميرزا زين العابدين قاصدين السُّليمانیَّة، واتَّخذنا من عمارة الديوان المكوَّنة من بهو ومضيف وحديقة وحمام، وبرج شاهق وقلعة منيعة منزلاً حتَّى زوال يوم الخميس. المسافة ما بين حديقة ابن ميرزا زين العابدين والسُّليمانیَّة تُقدَّر بثلاثة فراسخ وَفَقاً لمحمول البريد، وفي خارج القلعة هناك خان، وعدَّة حدائق تُعرَف بفراش آباد، وسبق أن كتب الحاجَّ المستطاب معتمد الدولة، دام إقباله، في كتابه هداية السبيل وكفاية الدليل شرحاً ثرياً عن الباني، وتاريخ بناء عمارة السُّليمانیَّة⁽¹⁾. وفي عمارة الديوان دُوِّنت أسماء الأجداد، وإخوة الملك الشهيد، وأجداد الخاقان، المغفور له، طاب ثراه، ورُسِّمَت صورهم على جانبي القاعة من الجنوب والشَّمال، ولم يكن اسم رضا قلي خان القاجار ورسمه بينهم، إلا أنني وجدتُ رسمه على الجانب الأيمن الغربي من الطابق العلوي.

ومع حلول مساء يوم الخميس، غادرنا السُّليمانیَّة مُتوجِّهين إلى نيكي إمام، فعبرنا الجسر المَبني قديماً على نهر كرج الذي ينبع من جبال أرنكه⁽²⁾، وبعد سبع ساعات من المسير ليلاً، وصلنا مُنهكين إلى وجهتنا، فنزلنا خان حصارك الذي يقع على مقربة من قرية كمال آباد،

اثنا عشر ميلاً، أي أربعة فراسخ، وأمَّا بحسب الزمان، فمسيرة يوم. (المترجم).

(1) السُّليمانیَّة: رحلة فرهاد ميرزا، ص 21-20 طهران، 1407 هـ.

(2) أرنكه: تقع في مدينة كرج التابعة لمحافظة البرز. (المترجم).

وليست بعيداً عنها حُسَيْنُ آباد ملكي، وكلتا القريتين تقعان على حَدِّ طريق قزوين.

لقد كان خاناً بديعاً حقاً، يحوي إسطبلاً للخيل، وحظيرة للدواب، بُنيًا خارج الخان، ليبقى المكان نزيهاً، وفيه حجرات رحبة مُؤثَّثة بالمناضد والمقاعد، ومُهَيَّأة بوسائل الراحة، ومُعَدَّة بعناية لاستقبال المسافرين، والعاملون فيها يتسابقون على الخدمة في إعداد الشاي والنرجيلة، وتحضير ما لذَّ وطاب من أصناف الطعام، وهنالك ليوان إزاء الغرف، يطلُّ على حديقة غنَّاء، تسرُّ الناظرين، يخرقها ماء النهر من كلِّ جوانبها، فتضفي على المكان سِحراً خلَّاباً.

ويضمُّ الخان غرفاً فسيحة رائعة، خُصِّصت للمُجَلِّين وأصحاب الشأن الرفيع، تطلُّ منها شرفات على حوض دائري وسط حديقة رحبة، فيها أصناف مختلفة من الأشجار الياضانية، تُلقِي ببهجتها على الناظرين، وتقع على يمين الخان رابية مخروطية الشكل بهيئتها الطبيعية.

وقد تمَّ تشييد سراي رحب، تحوطه عدد من الحجرات، يقابل تلك الحجرات ليوان تتوسَّطه سقيفة، تعلو بركة، ومن حول البركة خمائل حدائق في غاية التشذيب والتنسيق، تتوشَّى بالأزهار والرياحين، ويُوليها القائمون عليها عناية فائقة، لتبقى زاهية نضرة، وعلى يسار هذا السراي الذي يحاكي قصر الخورنق الشهير يقع مزار سليل النبي نيكى إمام.

وتوجد في المزار بقعة تحتضن ضريحين متباعدين، تمَّ تجديد بنائها، نُقش على شاهد أحدهما اسم الهادي، وعلى الشاهد الآخر اسم علي النقي، وحسب قول القائم على المزار أنَّهما من أحفاد الإمام موسى الكاظم، عليه السلام، وفي كتاب بحر الأنساب⁽¹⁾ نجد من بين أولاد

(1) كتاب بحر الأنساب: مؤلَّفه محمَّد بن أحمد بن عميد الدِّين علي الحُسَيني النجفي، يشتمل على أسماء وأصول وفروع وتواريخ ومناقب ومزارات ووَفِيَّات عموم السادة الأشراف في بقاع

محسن بن الإمام موسى الكاظم من سُمِّي بالهادي، ويستدلُّ على حداثة زمن البقعة باسم نيكي⁽¹⁾ الذي يعني الجديد باللغة التركية، أي أن المزار ليس له قِدَم في الزمن.

وبعد شروق شمس يوم الجمعة، الثالث عشر من رمضان، غادرنا خان نيكي إمام مُتوجِّهين إلى خان زياران وقشلاق على مسافة ثلاثة فراسخ ونصف، وحين وصولنا قُبيل غروب الشمس تقدَّم خمسة جنود قزاق نانكلي من قاطني قرية هشتجرد، وأجروا سباقاً للخيل، أظهروا فيه مهارة فائقة، غير أن المفاجأة المؤسفة حصلت عندما تهاوى أحدهم عن ظهر جواده إلى الأرض من شدَّة نشاطه، وسقطت قُبَّعته عن رأسه، وقد انبهر الحضور بلياقته العالية، وبراعته المتقَّنة حين نهض سريعاً من مكانه، وامتنى فَرَسُهُ ثانية، وواصل السباق، وتلك ميزة الخيالة القزاق الإيرانيين الذين يُتقنون فنون الفروسية بخفَّة ورشاقة. أقمنا في هذا الخان حتَّى مساء يوم السبت، الرابع عشر من رمضان، واطَّلعنا قبل تَرَكَ المكان على خان كوندِه الذي يضاهاه خان حصارك تزيناً وترتيباً.

بالإضافة إلى الخانات الأربعة التي ذكرناها على طريق قزوين، شاهدنا ثلاثة عشر معسكراً، توزَّعت مواقعها قرب بقعة السليل المعصوم، وقرب جسر نهر كرج، وقرية كريم آباد التي يملكها معالي حاجي مُلَّا علي المجتهد، سلَّمه الله، وتقع إلى جانبها قلعة عبد الله خان، وتُحاذيها بساتين كلاك، وتُجاورها شمن كمال آباد، وقريب منها سريل كردان، وليست بعيدة عنها بساتين هشتجرد، وبساتين هيو، وتحدُّها كرنه ويونس آباد وبيدستان وعُرة بساتين قزوين، ولغايات تسهيل عبور العربات

الأرض كافة. (المترجم).

(1) نيكي: الكلمة ليست موجودة في اللغة العثمانية، وربما أُريد بها الكلمة العثمانية (يني) (yeni)، بمعنى طازج أو جديد. (المترجم).

والعَرَّادَات الحربية، أُقيمت على مجاري المياه والقنوات اثنتان وخمسون قنطرة، كما تمَّ تشييد الخانات للنُّزلاء، وانتشرت المعسكرات لحفظ الأمن، وبثَّ الطمأنينة في أنفس الناس، ذلك كلُّه جرى باهتمام وعناية معالي أمين السلطان، وبإشراف آغا باقر أرباب، ولو قُدِّر لهذا الطريق بأن يصل إلى رشت أو أذربيجان، لحقَّق فوائد جمَّة.

قزوين

تقع مدينة قزوين بمحاذاة جبل البرز غرب طهران، يفصلها نحو فرسخ واحد عن سفح الجبل، وباني المدينة هو سابور ذو الأكتاف⁽¹⁾ كما ذكر المؤرِّخون، وقد شيَّد الأمراء الإسماعيليون قلاعاً منيعة في جبال الموت، ما زالت ماثلة للعيان إلى الآن، منها قلعة الموت التي تستقرُّ على بُعد ستَّة فراسخ من قزوين، وتقع ما بين شرق قزوين وشمالها، قيل إن أشهر هذه القلاع هي قلعة لامسة القوية المستحكمة، وقد بُني سور قزوين بأمر من زبيدة زوجة هارون الرشيد، ولفظ قزوين وفُق حساب الجُمَّل الذي يوافق أرقام الحروف يقابل مئة وستَّة وسبعين، وهو التاريخ الهجري لبناء السور.

وبما أنني قدِّمتُ في شهر رمضان، عمدتُ إلى دخولها ليلاً، كي أخفِّف عن الحاكم والمحكوم عناء الاستقبال، فرأيتُ أنه تمَّ تجديد بناء بواباتها بإتقان، يلفت الانتباه، ومنها البوابة التي تقع في ضواحي طهران التي دخلنا منها، لها ثلاثة مداخل، تطلُّ على شارع عريض ممتدِّ، يبلغ طوله ألفين وسبعين ذراعاً، يتناثر عدد كبير من البيوت على جوانبه،

(1) سابور ذو الأكتاف: الملك شابور الثاني، أو سابور ذو الأكتاف (-309 379 م)، وهو أحد ملوك الفُرس الساسانيِّين. (المترجم).

تبدو وكأنها خربة، ولم يتمّ تحديث بنائها، الأمر الذي يُقلّل من بهجة الشارع، ورونقه.

شُيّد على يمين الشارع نُزُلٌ كبيرٌ في غاية البهاء والروعة، له بابان: باب الحظيرة ومقرُّ العربات من جهة اليمين، والباب الآخر مدخل للعمارة، يفضي إلى الغرف السفلية، والأدراج المؤدّية إلى الغرف العلوية مصنوعة من الخشب، وفُرشت بالسجّاد الإفرنجي المنقوش برسوم بديعة، تنساب من الغرف العليا شرفات تطلُّ على شارع عال قابي قرب المسجد، الشرفات رحبة وزاهية، وتُشرف من الجنوب والشّمال على ساحات الليوان، الساحة الشّمالية أوسع من الجنوبية طولاً وعرضاً، وقد تمّ بناء غرف مزخرفة شرق الساحة وغربها، وبداخلها المقاعد والمناضد، لكلّ غرفة ثلاث نوافذ خشبية من ثلاث جهات، ليتمكّن من بداخلها من التمتع بمنظر الشارع وأشجاره، وحين ينسدل الظلام، يبدو البيت مُزهراً من السُرُج والفوانيس المضيئة والشموع المتلألئة التي تشعُّ من النوافذ، حلّة البيت ذات رونق بهي، لم ألحظ مثله حتّى في بلاد الإفرنج مع ما يتوفّر لديهم من أعمال الزينة ومستلزماتها، في هذا المكان يجد الزائر حُسن الكرم وكمال الضيافة، وتتهيأ له أسباب الراحة.

بعد أن جبتُ جنبات النُزُل، قصدتُ عمارة الديوان التي كانت تُعرف منذ العصر الصفوي بدولت خانة، أبقيتُ الحاشية والأتباع بمعية معالي الحاجّ مُلاً باقر الواعظ في النُزُل، وذهبتُ برفقة ولديّ أبي النصر ميرزا⁽¹⁾ ومُحمّد ميرزا إلى منزل نواب عَضد الدولة؛

هنا في قزوین، وافانا الميرزا حاجي آغا مُلاً باشي، ليلتحق بقافلة الحجيج إلى مكّة.

(1) أبو النصر ميرزا هو ابن مؤلّف الكتاب حسام السلطنة، والذي لُقّب بعد وفاة أبيه بحسام السلطنة.

توقَّفنا يوم الأحد، الخامس عشر من رمضان، في بيت نواب عَضُد الدولة، وحضر للقائي ظهيرة اليوم وفي المساء يعقوب ميرزا، وإسحاق ميرزا، وبعض العلماء والسادة. مكثنا حتَّى مساء يوم الاثنين، السادس عشر من رمضان في عمارة الديوان، وعندما تأهَّبنا للمغادرة، جاء جمع لوداعي، وحضر نواب عَضُد الدولة وآخرون لمرافقتي خارج المدينة، فاعتذرتُ منهم، وقمتُ بتوديعهم. قُبيل المغرب بساعة، غادرنا مدينة قزوین عبر بَوَّابة جیلان التي تُعرَف باسم قوي⁽¹⁾ میدان، وقد سُمِّيت هذه البَوَّابة بهذا الاسم الذي يعني العَنَم باللغة التركية، لأنَّهم غالباً ما كانوا يجلبون العَنَم للبيع خارج هذه البَوَّابة، كَنَّا تَجَّه غرباً، وحينما تخطَّينا البساتين، أصبحت حركتنا ما بين الغرب والشَّمال، وعلى الطريق الذي نسلكه تقع نظام آباد، وتليها حُسَيْن آباد، وبعدها تغيَّر اتِّجاه الحركة نحو الشَّمال، بعد مُضي أربع ساعات من الليل، دخلنا قرية آغا بابا. مضت بضع سنوات على انتقال مِلِكِيَّة القرية إلى معالي علاء الدولة أمير نظام، تمتاز باحتوائها على حصن وحمَّام وتلَّاجة⁽²⁾، وتقع في ناحية قاقران التي تشتهر بشدَّة الرياح.

نزلنا مخيِّماً، كان قد أُعدَّ لنا قرب ساقية، وقريباً من بستان لأشجار اللوز، يضمُّ خمسة آلاف شجرة، تمَّت زراعته زمن الحاج آغا محمَّد ملك التجَّار المالك الأوَّل لهذه القرية، وصباحاً حضر معالي علاء الدولة لتحيِّتنا، ومن بَعْدُ، أكمل مهمَّته في التفتيش على أمور البلدة قياماً بواجبه الإنساني.

(1) قوي میدان: اللفظ باللغة التركية (كويون). (المترجم).

(2) تلَّاجة: نوع من الأبنية الإيرانية القديمة لحفظ الثلج الذي يُجمَع في الشتاء، ويُحَفَظ لاستخدامه في فصل الصيف. (المترجم).

بيك كندي

صبيحة يوم الثلاثاء، السابع عشر من رمضان، تركنا قرية آغا بابا، لتَّجِه، وعلى بُعد ثلاثة فراسخ، إلى بيك كندي، وهي ضمن أملاكنا، ومن طهران، حيث انطلقنا حتَّى قرية كوهين على مشارف وجهتنا الجديدة، كانت تسير العربة التي أَسْتَقَلُّهَا بسهولة، وبصحبتي الحاجِّ مُلَّا باقر الواعظ، وعندما توَعَّرت الطريق، تَرَجَّلْتُ منها وامتنطيتُ صهوة الجواد، وفور وصولي، قصدتُ قنوات الري في حسام آباد، ثمَّ رجعتُ إلى المنزل، وسكنتُ الخيمة وسط البساتين.

أَمْضَيْتُ يوم الأربعاء، الثامن عشر من رمضان، وبتُّ ليلة الخميس في بيك كندي، جهَّزْتُ نفسي لإحياء ليلة القَدْر مع دخول ليلة التاسع عشر من رمضان، وفي أثناء قيام تلك الليلة ذكر معالي مُلَّا باقر الواعظ مصائب أهل البيت، وفتح على أرواحنا أبواب السعادة.

باشنار

انطلقنا يوم الخميس، التاسع عشر من رمضان مغادرين نحو باشنار، والمسافة بينها وبين بيك كندي ستَّة فراسخ، الطريق ورغم خُلُوهَا من المنزلاقات إِلَّا أَنَّهَا وَعِرَةٌ، وصعبة العبور، وهنالك مضيق جبلي، ليس ذا سَعَةٍ، يفصل الجبال عن بعضها، وينساب منه قليل من الماء، والجبال الشاهقة والمتقاربة ترمي بظلالها على المضيق، فلا تكاد تصله أشعة الشمس إِلَّا قَلِيلًا. اشتدَّت وعورة الطريق، ولم أتمكَّن من اجتيازها راكباً، فترجَّلْتُ.

قُبيل المغرب بساعتين، بلغنا المنزل، كانوا قد أعدُّوا المخيمَّ قرب

مياه شاهرود، إذ كانت بيوت خان باشنار العلوية إلى حدٍّ ما خربة، وقرب نهر طارم. وبعد مسافة قليلة من الخان، يدخل السائر مدينة شاهرود.

كان يجري العمل على بناء مركز كبير لاستراحة سعاة البريد في باشنار، وكانوا منشغلين ببناء خزَّان ماء أيضاً من قَبَل الديوان الأعلى، وبإشراف الأستاذ أكبر المعمار، كان الخزَّان مُحكَم الصنعة، قد بلغ من الإنجاز حدَّ السقف، ومعمار هذا البناء ومشرفوه خيَّموا بالقرب من الموقع، ليراقبوا عملية البناء.

باشنار من توابع طارم السفلى، ويكثر فيها البعوض في هذا الفصل، حتَّى إنني ومَنْ يرافقني لم نتمكَّن من النوم ليلة الجُمعة، في هذه الليلة أيضاً عقد الحاجُّ مُلاً باقر الواعظ مجلساً لذكُر مصائب أهل البيت، عليهم السلام.

منجیل

يوم الجُمعة، العشرون من رمضان، قصدتُ منجیل بعد طلوع الفجر بساعة، المسافة إليها أربعة فراسخ، واتَّجاه المسير بين الغرب والشَّمال، وهي قرية عامرة، تقع قرب ملتقى نهري شاهرود وقزل أوزن، وبعد أن يلتقيَ النهران، يُطلق عليهما اسم نهر سفيد رود الذي يعبر من لاهيجان ورشت، ويصبُّ في بحر قزوين، وعلى يمينه منطقة رحمت آباد، وعلى اليسار رودبار الزيتون، وقد بُني عليه جسر مستحکم ذو سبع قناطر، ليتمَّ العبور عنه إلى جيلان، وقد ثبَّت جلاله الأقدس صاحب الفخامة المَلَكِيَّة، أرواحنا فداه، تاريخ بناء هذا الجسر في رحلته من رشت إلى الإفرنج، ورَقم هذه الدرر: في سابق الأيام، كان هناك جسر خشبي

عليه، حيث يصعب على القوافل المرور عبره، قد مضت بضعة أعوام على بناء جسر مستحکم على النهر، بميزانية ممنوحة من خزانة الدولة، وبإشراف الحاجّ مُلاً رفيع.

على يمين الطريق من باشنار، توجد ساحة، يقطنها عدد من قبيلة سكن، ومنها قطعنا مسافة حتّى بلغنا جسر لوشان الذي يبعد عن منجیل ثلاثة فراسخ، ترجّلتُ لأشاهد صنعة بنائه، كان جسراً محكماً متيناً، قد دُشن في نهاية حكومة الملك الشهيد، وبهمة الحاجّ محمّد هادي تاجر الوساطة من أهل قزوین، وقد فرغ العمل منه في أوائل حكومة الخاقان المغفور طاب ثراه، لكنه تعرّض لأضرار في عهد حكومة ضياء الملك وتمّ ترميمه.

يقع الجسر على نهر شاهرود طالقان، وهو مصبّ نهريّ الموت ورودبار وغيرهما، يعبر نهر شاهرود من تحت الجسر، ليتّجه من الجنوب الغربي إلى الشّمال الشرقي، ويفصل بين طارم السفلى وأملاك عمار لوى جيلان، لم أشاهد أيّ قرية قرب الجسر، وأقرب قرية له هي لوشان التي تبعد عنه نصف فرسخ، ويقوم القاطنون هناك بتوفير متاعهم ومستلزماتهم من تلك القرية، في الطريق، وعلى مقربة من جسر لوشان، شاهدتُ خمس عربات عسكرية، تحمل معدّات لضرب المسكوكات، تتّجه بها إلى دار الخلافة بمساعدة بعض العمّال.

عندما اجترنا الجسر، أصبحت حركتنا بين الغرب والشّمال، وبعد أن قطعنا مسافة بدت لنا غابة من أشجار الزيتون وأشجار مختلفة قرب النهر، نزلنا بها، لتناول طعام الغداء، ثمّ استكملنا المسير في طريق وعرة، على يمين سفح الجبل، وحين اطمأنت بنا الأرض، بدت لنا صحراء منجیل.

على قارعة الطريق، وقف جمع من سادة طارم السفلى وعلمائها والعمدات فيها، وأبدوا لي رضاهم عن أداء حاكمهم خدا داد خان، وسخطهم على أصلان خان، وشاهوردي خان، وكربلايي مصطفى، وأعلموني أن هؤلاء الثلاثة قاموا بنهب بيت ميرزا يعقوب المباشر، وأخذوا محاصيله، وارتكبوا عدّة تجاوزات.

وبعد اجتيازنا أولئك النَّفَرِ جاءنا أحمد خان رسول أمير الأمراء العظام الوالي عبد الله خان، يسطحِبُ معه فَرَسَيْنِ وأربعة من الخَدَمِ وعدّة فرسان، ونصبوا لنا الخيام في صحراء منجیل المکتظّة بأشجار الزيتون، فترجّلتُ، وأخذتُ قسطاً من الراحة، عصفتُ في أثنائها رياح منجیل الشديدة التي يُضْرَبُ بها المثل، فتسبّبت في كسر عمود الخيمة، وأنا نائم، لكن، ولله الحمد، لم أُصَبْ بأذى.

كان هبوب الرياح شديداً، تصدّها الجبال العالية من جهة الشّمَال، فتعيثُ بأغصان أشجار الزيتون، لتميلها نحو الجنوب، وإن كانت شدّة هبوب الرياح مدعاة لتكدير الخواطر، إلّا أنّك في الصيف لن تضمن رغد العيش لولاها، لكثرة البعوض، فالريح تحملها معها، ومع أوّل الغروب، خَفَّتْ وطأة الرياح، وفي الليل سكنت.

دخلنا منجیل مع المساء، وكان باستقبالي الحاكم آغا داش سلطان برفقة عدد من الفرسان، وجاءني السادات الطارميون طالبين برقية إلى النائب عَضُد الدولة، فكتبْتُها لهم، وسلّمْتُهم إيّاها.

يوم السبت، الموافق للحادي والعشرين من رمضان، غادرنا منجیل بعد طلوع الفجر قاصدين رستم آباد، كانت المسافة بينهما خمسة فراسخ، واتّجاه الحركة بين الشّمَال والشرق، عند انطلاقنا، قصدتُ

ملتقى نهري قزل أوزون وشاهرود، وبعد أن اجتزتُ الجسر كان النهر على يمين الطريق الواقعة بسفح الجبل. كان المرحوم الحاجُّ مُلاً رفيع قد عمل على تسوية الطريق، بأمر من الحكومة، وقد أتقن العمل فيه، فأصبح عبوره سهلاً. وفي قرية المرحوم المعتبرة، صادفنا سوقاً طويلاً اجتزناه، فأتضح لنا معالم بقعة في قمة الجبل على يمين نهر سفيد رود، قيل إنها مدفن لسيد من سلالة الرسول؛ ورغم محاولة التحقق إلا أننا لم نتمكن من معرفة اسمه ونسبه.

وصلنا إلى غابة، تكثر فيها أنواع مختلفة من الأشجار، أغلبها من أشجار الزيتون. ترجلنا إلى جانب النهر، لتناول طعام الغداء. كان المكان جميلاً، وبدت لنا معالم جسر مهدوم، ما زالت دعامة من دعائمه صامدة في الماء. بعد برهة من الزمن، غادرنا قاصدين المنزل.

أقيمت الخيام بمحاذاة النهر، وخارج القرية، في باحة خضراء نضرة، كان الجو لطيفاً، ولا وجود للبعوض ليلاً، بعض الحاشية كانوا قد نزلوا إلى جانب مركز البريد، واتخذوا سطح خرّان الماء الذي كان قد بناه المرحوم مُلاً رفيع منزلاً لهم، كان خرّاناً كبيراً، وقد بُني فوقه مسجد طلق من الجهات جميعها، يرتكز على سبعة أعمدة مبنية من الآجر، يبلغ عرض كلِّ عمود سبع حبات آجر.

ناحية رستم آباد تضمُّ عدّة قرى، وهي من توابع رود بار الزيتون، وفي قرية بُشته مركز لاستراحة سعاة البريد، الحاشية الذين اتخذوا من سطح الخرّان منزلاً لهم، ضاقوا ذرعاً بالبعوض والأفاعي، فقد شاهدوا أفاعي رابطة ذيولها ببعضها بين خشب السقف، قال أهل تلك القرية: إن أفاعي رستم آباد أشدُّ سُماً من أفاعي جيلان.

يقع قزل أوزون قُبالة مركز سعاة بريد رستم آباد، وإلى الجنوب من رشت نرى أمانا جبل دُلفك الذي تصليّ باتجاهه أكثر العوامّ، قيل إن في هذا الجبل ثلّاجة طبيعية ... والعهدة على الراوي.

السليّل هاشم

يوم الأحد، الثاني والعشرون من رمضان، غادرنا رستم آباد متّجهين إلى بقعة السليّل هاشم على بُعد ثلاثة فراسخ، الحركة تتّجه بين الشّمال والشرق، ومعظم الطريق تسير في سفح الجبل، ونهر سفيد رود يجري على اليمين، وأشجار الغابات تكلّل الجبال، فتخفي معالمها، ومن بين سيقان الأشجار في قواعد الجبال، يظهر التراب باللون الأبيض اللؤلئي إلى جانب الطريق، وعلى السفوح، تكثر أشجار البلّوط الصلبة التي يبلغ ارتفاعها أكثر من عشرين ذراعاً، والخضرة الدائمة تبعث النضارة والصفاء في الأمكنة، فيخالها الناظر الجنّات الأربع.

بعد مسير نحو فرسخ، وصلنا إلى نقل بر. أُقيمت هناك بناية لصيانة الطريق مسقوفة بألواح الخشب، فيها غرفتان، غرفة على اليمين، وأخرى إلى اليسار، بينهما ممرّ، وكان عبورنا من خلال الممرّ بين الغرفتين، وبعد فرسخ سنصل إلى البقعة.

توجد أنهر كثيرة شديدة الجريان، أكبرها نهر بسياه رود الذي بنى عليه الحاجّ مُلاً رفيع جسراً يخدم المارة، ثلثا تكاليفه من أموال الخزانة الحكومية، ودفع ثلث تكلفة البناء المرحوم الحاجّ أبو القاسم اليزدي، كانت السماء ملبّدة بالغيوم، وتمطر رذاذاً خفيفاً، وجوّ الصحراء والجبال معطرّ بنسائم الأزهار، وخمس ساعات تفصلنا عن الغروب.

وصلنا للمنزل، وكان باستقبالي أكبر خان البيكركي، وقد نُصبت الخيام بمحاذاة النهر، وقُبالة سدٍّ، اتُّخِذَتْ حواجزه من الخشب، جرى ترتيب أخشاب هذا السدِّ على شكل مثلثات بثلاث قوائم، يتمُّ تجهيز القوائم خارج الماء، وبعد إعدادها، يدخل إلى الماء ذو خبرة في هذا الأمر، ليقوم بنصبها في النهر، ثمَّ يتمُّ ربطها ببعضها، وتُشدُّ من الطرفين بأغصان الأشجار لمضاعفة متانتِه ومنعته، أُقيم هذا السدُّ، ليوصل ماء النهر صيفاً إلى ناحية كهْدُم وغيرها من النواحي عندما ينخفض منسوب المياه، ثلث مياه السدِّ تذهب إلى البحر، وثلثان إلى الزراعة في النواحي المجاورة، أمَّا في موسم وفرة المياه في الربيع، فيصبُّ السدُّ ماءه في البحر على الأغلب.

كانت ليلة القَدْر، فقام الحاجُّ مُلاً باقر الواعظ بذكر مصائب أهل البيت، وقرأ حديث الكساء، فاستفدنا أيَّما فائدة، ورقت قلوبنا، بعدها أحيينا ليلة الثالث والعشرين من رمضان.

في يوم الاثنين، الثالث والعشرين من رمضان، وبعد الفجر بساعتين، قصدنا سنكر وسوق يوم الاثنين، اتَّجهنا شمال شرق لمسافة ثلاثة فراسخ ونصف، وقد أرسل والي جيلان إلينا عربتين، ركبتُ واحدة، ووضعتُ الأخرى في خدمة سيادة الحاجِّ مُلاً باقر.

نزّلنا عند وصولنا إلى بقعة السليل هاشم، وامتطينا الخيول. تقع البقعة على يسار الطريق، وفي مكان مرتفع، عُرسَتْ في المكان عدَّة أشجار حرجية مرتفعة، وكان الفناء محاطاً بليون خشبي، وعلى مقربة منه من جهة اليمين، يوجد قبر معصوم نام الذي كان مُتولّي هذه البقعة قديماً، وقد وافته المنية عام ألف ومئتين وتسعة للهجرة، فدُفن فيها، ووضَعوا شاهد قبره على الجدار. التقيتُ ثلاثة من المشايخ من أولاد

وأحفاد المتولّين القدامى، حيث يسكنون البقعة، سألتُ: بمن يتّصل نسب السليل؟ فجاء الجواب: أنه من أولاد الإمام السجّاد، عليه السلام.

وعلى أحد الألواح، أثبت الدرويش حسن نسب السليل بهذه العبارة: الأمير هاشم بن محمّد بن عبد الله بن حمزة بن جعفر بن محمّد الحنفية ابن أمير المؤمنين، عليه السلام. ولم يتسنّ لي التأكّد من صحّة ما ذكّر في اللوح، لمت متولّي البقعة على عدم تصحيح نسب السيّد الجليل عبر هذه السنين، فقد ذكّر هاشم في كتاب بحر الأنساب من بين أولاد أزهر بن الإمام زين العابدين، عليه السلام.

في طريق عودتنا إلى المنزل، وقبل مسافة فرسخين من وصولنا، رأينا مركزاً معتبراً لسُعاة البريد، تمّ إنشاء المركز في قرية سرادان من توابع ناحية كهدم، بناه المرحوم قاسم خان الوالي من وجوه خزّانة الدولة، كما قام بإنشاء الجسور، واهتمّ بتسوية الطُرق. وبعد فرسخ، وصلنا إلى سوق يوم الخميس في شاه آغا جي، وتتعدّد الروايات حول تسمية شاه آغا جي، بعضها يقول إنّ شجرة ضخمة كانت في هذا المكان، فجاءت التسمية؛ ويعتقد آخرون أنّ أحد السلاطين قام بغرس شجرة بيده في المكان، فأطلق الاسم لهذا السبب، لأن لفظ آغا جي في التركية يعني الشجرة، وهذا ما يشبه لفظ (شاه راه) في الفارسية الذي يعني الطريق الواسع.

يعود سوق الخميس إلى الميرزا عبد الوهاب المستوفي الجيلاني الذي أقامه في أملاكه الخاصّة، وهو سوق بمساحة كبيرة، تحوطه الحوانيت، يجلس الكسّبة في ساحات السوق، وفي يوم الخميس من كلّ أسبوع، يأتي الناس من النواحي، ليشتروا حاجياتهم لسبعة أيّام. وللسوق مدخل ومخرج من الطرفين. وقرب إحدى البوّابات، قام

الميرزا عبد الوهاب المستوفي ببناء حَمَّام كبير، له أبواب صغيرة مُطلَّة على الصحراء مُحدِّثة منظرًا خلَّابًا، ويحتوي الحَمَّام على مكان لتبديل الملابس.

كان المكان ذا صفاء وبهاء، فنزلنا في حديقة محمَّد المستأجر لتناول طعام الغداء. كانت العمارة في وسط الحديقة، والبيوت السفلية والعلوية مَبْنِيَّة من الخشب وَفَقًا للعرْف الجيلاني، وقد غُطِّيت الأسطح بالفخَّار.

وأفضل من سوق شاه آغا جي سوق يوم الاثنين المَبْنِيَّ بالكامل من القَرْمِيد والجِصِّ، والواقع في سنكر، فقد بناه معين التجَّار الجيلاني وآخرون، وَبُنِيَتْ في أعلى بَوَابته شرفات، وَقُبَالَة الشرفات شجرة حرجية ضخمة الساق، سامقة الطول، تشبه شجر الدَّرْدَار، وتعود مِلْكِيَّة السوق الآن إلى أكبر خان البيكلر بيكي حاكم أنزلي وعُمدتها، وحين نزلناه، قام بيكلر بيكي بإضافتنا وإكرامنا، وقد حضر إلى السوق كُلُّ من الوالي، ويحيى ميرزا نائب الحكومة، ومحمود خان الفومني، والميرزا محمَّد علي اللاهيجاني الديوان بيكي، وعلي خان مشير الوزراء، وميرزا طاهر بن عبد الوهاب المستوفي لتأدية مراسم الاستقبال، عائدين إلى منازلهم في المساء.

يوم الثلاثاء، الرابع والعشرون من رمضان، وقبل خمس ساعات من المغرب، انطلقنا من سنكر، وحضر الوالي ومستقبلو أمس ثانية في ساعة الحركة خارج المدينة لوداعي، والتقيتُ في منتصف الطريق بالنائب الأوَّل للقنصلية الروسية الذي تسلَّم إدارة القنصلية بعد وفاة القنصل السابق، وبرفته بعض الخيول، قاموا بوضعها في مقطورة القطار الخاصَّة بالخيول، كانت المسافة من سنكر حتَّى مدينة رشت فرسخين، واتَّجاه

الحركة ما بين الشَّمال والشرق، قبل المدينة بفرسخ، اصطفَّ على جانب الطريق شقيق المرحوم ميرزا زكي نايب وأقاربه لاستقباله. أوقفتُ العربية، وتبادلتُ الحديث معهم، ومضيتُ في طريقي. وعلى مقربة من المدينة، وعند جسر بناه الحاجَّ محمَّد باقر، اجتمع جميع الأهالي من الكسبة وغيرهم لاستقباله. تحدَّثتُ معهم أيضاً.

قُبيل المغرب بساعتين، دخلتُ حديقة الناصرية التي بناها المرحوم قاسم خان الوالي، في وسط الحديقة تقع عمارة، تحتوي على غرف سفلية وعلوية، وقد شيَّد ضياءُ المُلك في الحديقة كوخاً في غاية الحُسْن، وكان الجوّ في الحديقة مريحاً، ويبعث على الانتعاش.

ولكثرة الأمطار في مدينة رشت، تُسَقَّف عماراتها بالفخَّار، واسمها طِبْقاً لحساب الجُمْل الذي يوافق أرقام الحروف يدلُّ على تاريخ بنائها الموافق لعام تسع مئة للهجرة، وفي هذه المدينة، تقع بقعة فاطمة شقيقة الإمام علي بن موسى الرضا، عليه السلام، وهي البقعة المعروفة عند العوامِّ ببقعة لال شوي، والتي تعني ستُخرَس، فقد قيل إن شاباً ثملاً مرَّ في المنطقة وهو يُعْنِي، فسمع صوتاً يقول: لال ولاي! فأصيب بالبُكْم، وخرَّ صريعاً على الأرض في لحظته، وبعد الحادثة، قاموا بالتنقيب في المكان، فعثروا على قبر فاطمة.

يوم الأربعاء، الخامس والعشرون من رمضان، أقمنا في حديقة الناصرية، وقد حضر صباحاً على التوالي الذين كانوا يقصدون مكَّة، وهم كلُّ من الوالي ميرزا ومشير الوزراء، والحاج ميرزا نصر الله المستوفي، ومُحمَّد تقي خان القاجار، وحضر قُبيل المغرب بثلاث ساعات نائب القنصل، برفقته الميرزا عبد الله المترجم اللنكراني، وكان رجلاً ذكياً فِطْناً، ومع أنه كان يحاور مستعيناً بالمترجم، إلَّا أن الجيلانيَّين قالوا إنه

يعرف الفارسية، وعلى دراية بالعربية، ولأني كنتُ مدعوًّا من قبل عمّتي المكرّمة، وهي زوجة محمود خان الفومني، ذهبتُ ليلاً إليهم، وقمتُ بالاعتسال في حمّامهم، وبعد خمس ساعات، رجعتُ إلى الحديقة.

تُعرّف مدينة رشت بجوّها الماطر، واستمرَّ هطول المطر هذه الليلة حتّى الصباح، وقد قمنا بإرسال الخيل وبعض الحمولة والخيام إلى أنزلي، بمعونة حسن خان وبعض المستخدمين.

يوم الخميس، السادس والعشرون من رمضان، كنّا ضيوفاً في بيت عبد الله خان الوالي، وقد حضر علماء المدينة للحفاوة بنا. عند المغرب، جاء إلى الحديقة مشير الوزراء علي خان ابن المرحوم نظام الدولة الذي كان قائماً بأعمال أمور جيلان الخارجية، سأل عن التذاكر وجوازات السّفَر، إن كنّا جلبناها معنا من طهران أم لا؟ لأنّنا لم نلفظ في دار الخلافة لهذه الأمور، أحضر الميرزا حبيب الله الأمين التذاكر الحكومية، فاستلمنا منه تذاكر المرافقين، ليعرضوها على الروس لحظة صعودهم على متن السفينة، فقام نائب القنصل الروسي بالتوقيع خلف التذاكر، المرافقون الذين حُجّرت لهم التذاكر هم الأمير أبو النصر، الميرزا حمد الميرزاي، ابن المرحوم نائب الولاية، معالي الحاجّ مُلّا باقر الواعظ المُلّا، ميرزا رضا الكاتب⁽¹⁾، ميرزا سيّد مهدي الطبيب، ميرزا علي خان الناظر، محبوب مؤتمن الخزّنة، تولت قلي الساقى، نجف قلي عامل الساقى، محمّد صادق الفرّاش، محمّد إبراهيم الفرّاش، بهرام القهوجى، الأستاذ حُسَيْن المزيّن الخاصّ، إمام قلي النادل، الأستاذ حسن الطّبّاخ وعامله، مهدي الساقى وعامله، هادي بك نائب كبير الفرّاشين، حُسَيْن قلي خان الذي وسّط لدينا مشير الدولة، لكي نأخذه برفقتنا، عطا خان

(1) ميرزا رضا الكاتب: هذا الشخص هو كاتب هذه الرحلة الذي كان المؤلّف يملي عليه مشاهداته، وهو يُحرّرها.

الفَرَّاش، الحاجّ شكر الله خان كبير الحَرَس، ميرزا تقي شقيق ميرزا علي خان، غلام عطا خان، غلام الحاجّ شكر الله خان، غلام ميرزا علي خان، غلام الحاجّ مُلاً باقر الواعظ، مُلاً محمّد علي غلام المُلّا.

في يوم الجُمعة، السابع والعشرين من شهر رمضان، حضر الوالي ڤڤ جهاء المدينة برفقة أكبر خان البيكلر بيكي لوداعنا، وقُبيل الغروب بخمس ساعات ونصف، غادرنا حديقة الناصرية قاصدين بير بازار التي تقع جنوب شرق أنزلي، حيث وجهتنا، تستغرق المسافة من الوقت ساعة ونصف، كانت العربة تتحرّك بسهولة على الطريق الممهّدة بين الغابات، قُبيل الزوال بأربع ساعات، دخلنا بير بازار، فصعدنا إلى شرفة المنزل المخصّص بانتظار وصول الحمولة، كانت قد أُعدّت لنا بضعة زوارق جميلة منمّقة، واستقرّ الوابور البخاري المَلَكِيّ بعيداً عن مصبّ النهر بقليل، مسافة الطريق من بير بازار حتّى الوابور المَلَكِيّ تستغرق ساعة ونصف، ومنها حتّى أنزلي ساعتين، ومن نهاية النهر حتّى أنزلي، يوجد مستنقع، يمتدّ شرقاً وغرباً، طوله ثمانية أميال، وهو يعادل المسافة الواقعة ما بين جيفة من توابع رشت إلى كبور من توابع أنزلي، وعرضه جنوباً شَمالاً يساوي ثلاثة فراسخ، أي ما يعادل المسافة بين أنزلي حتّى تولم، ويبلغ عمقه في أقصى الأماكن أكثر من اثني عشر ذراعاً.

أخذنا مواقعنا في الزوارق، وانطلقنا قبل الغروب بساعتين. نائب صدر جيلان ومُحمّد تقي خان القاجار اللذان كانا ينويان الذهاب لمكّة المكرمة جلسا في الطرّادة⁽¹⁾، والوالي وأكبر خان كانا برفقتنا. بعد مضي ساعة ونصف، بلغنا الوابور المَلَكِيّ، فانتقلنا إليه من الزوارق، وتمّ ربط الطرّادات الحاملة للأمتعة والحاشية بالسفينة، وانطلقنا. كان منظرنا في غاية الدّهش. بعد ساعة من الليل، وصلنا إلى مرفأ أنزلي. كانوا قد زبّنا

(1) الطرّادة: القارب. (المترجم).

العمارة المحاذية للمرفأ بالفوانيس، فبدا مشهداً في غاية الجمال والروعة، كما تمّ تزيين سفينة الحاجّ شيخ علي قرب المرفأ بالسُّرُج، وهي سفينة تجارية. نزلنا من السفينة المَلَكِيَّة، وتوجَّهنا إلى عمارة منوشهر خان، حيث كان جمع غفير من الناس مُصطَفاً إلى جانبها، لتوديع جَمْع من الحُجَّاج، سينطلقون إلى مكَّة المَكْرَمَة، وجَّهنا إليهم حديثاً، وواصلنا المسير.

أنواع البواخر

في اللغة الروسية، يُطلق اسم براخن على الباخرة، لأنّ كلمة براخت باللغة الروسية تعني البخار، وفي الفرنسية تُسمّى وابور، والاسم يعني البخار أيضاً، تتحرّك السفن البخارية بطريقتين، بعضها تتحرّك مستعينة بدواليب التبديل، والبعض الآخر يعتمد على الحركة الحلزونية، النوع الأوّل أقدم من الثاني، ومخترع الباخرة الدولابية هو دنيز بابان، وقد ذكرنا كيفية اختراعها وسببه بالتفصيل في كُتُب الفيزياء.

ولمّا وجد البحّارة وأغلب الغرافة أنفسهم عاطلين عن العمل إثر هذا الاختراع، قاموا بتحطيم الباخرة، ممّا أدّى إلى يأس المخترع، وبات هذا الاختراع مهجوراً وغير رائج حتّى عام 1812 ميلادي حين قام روبرت فولتون بتبني فكرة بابان، وعمل على تطوير السفينة الدولابية، فلاقت رواجاً من جديد، وكانت أوّل سفينة تُبحر وتسير في البحار، وسمّيت بالمُدبّبة.

وفي عام 1736 ميلادي، اخترع أحد المهندسين السويديّين الباخرة الحلزونية، فراج هذا الاختراع على السفينة الدولابية التي توقّفت لسنوات طويلة، لمّا تعرّضت له من إهمال، لولا تطوير فولتون لها، مع أنّها أقدم اختراعاً من الباخرة الحلزونية.

للباخرة الدولابية عجلتان مُجَنَّحتان في وسط طرفي الباخرة، وعندما تغوصان في الماء تعملان على دفع الباخرة إلى الأمام؛ أمَّا الباخرة الحلزونية، فلها ثلاثة أو أربعة أجنحة منحنية خلف السفينة، تشبه الحلزون، تدور حول محور مواز لطول الباخرة، وعندما تتحرَّك هذه الأجنحة في الماء، تؤدِّي لدفع الباخرة إلى الأمام.

الوابور المَلَكِيُّ من النوع المَجَنَّح، يبلغ طوله واحداً وثلاثين ذراعاً، أي ما يقارب مئة قَدَم.

في أنزلي، وصباح يوم السبت، الثامن والعشرين من رمضان، قمتُ بجولة حول عمارة معتمد الواقعة وسط الحديقة، فيها غرف سفلية وعلوية محاطة من الجهات الأربع بليونان، كلُّ العمارة مُغطَّاة بالخشب، بناية ذات هيئة مناسبة؛ لها حمام بُني في جهتها الغربية، يضمُّ مكاناً لتبديل الملابس، له بُوابة صغيرة مطلَّة على الحديقة، وإلى الشرق من هذه العمارة هنالك عمارة أخرى محرومة من بعض المميَّزات، وبعد جولتي، خرجتُ لمشاهدة البرج السلطاني.

تمَّ بناء هذا البرج من قِبَل الحكومة، وعلى يد معالي ميرزا سعيد خان مؤتمن المُلْك حينما كان في وزارة الخارجية، وإدارة حكومة جيلان، وهو يتشرَّف الآن بتولية العتبة الرضوية المقدَّسة⁽¹⁾، ومن ثمَّ واصل بناءه ميرزا محمَّد حُسَيْن المستوفي، بأمر من المرحوم نظام الدولة نائب حكومة جيلان، بعد ذلك، تمَّ إكمال البناء على يد معتمد المُلْك في حكومة جيلان.

يتشكَّل البرج من خمسة طوابق، كلُّ طابق يحيط به ليوان من كلِّ

(1) العتبة الرضوية المقدَّسة: هو الاسم الذي يُطلق على حَرَم ضريح علي بن موسى الرضا، ثامن أئمة الشِّيعة في مدينة مشهد في إيران. (المترجم).

الجهات، وممرّات بين الغرف، وقد تمّ تشييد البناء كلّهُ باستخدام الآجرّ والحجرّ والجصّ، ما عدا الممرّات التي بُنيت من الخشب المنقوش، ويتوفّر فيها كلّ ما يلزمها من السجّاد والمناضد والمقاعد والمرايا وأدوات الإنارة. يقع البحر ما بين شمّال البرج وشرقه، ولئلاً يتأثّر البرج بالرطوبة، تمّت إحاطة البناء من الجهتين المواجهتين للبحر بسياج من القصب. يبلغ ارتفاع البرج اثنيّ وعشرين ذراعاً، وقرب مياه المستنقع أنشئ سدٌّ، تهدّم جانبه الشرقي، بسبب نفاذ المياه من الحاجز.

كان الجوُّ اليوم معتدلاً، فالشمس مشرقة، والبحر هادئاً. وفي هذا اليوم، أبحرت باخرة الحاجّ شيخ علي مستقلّة ثلثة من الحجاج منهم نائب الصدر، والميرزا مهدي شقيق أكبر خان، ولأن هذه الباخرة ليست بذاك الاعتبار، لم تُبحر بها، وانتظرنا باخرة الشركة الروسية التي كان موعد مجيئها يوم الأحد.

تقع أنزلي شمّال رشت، وغرب مستنقع بوغاز⁽¹⁾، وتحيط بها المياه من ثلاث جهات، ويتّصل طرف واحد منها باليابسة من جهة طوالش، وهي شبه جزيرة. هناك جزيرة واقعة في الجهة الشرقية، تُسمّى غازيان، ويفصل بين غازيان وأنزلي مستنقع، يتّصل بالبحر، طوله ثلاث مئة وستين ذراعاً، توجد في غازيان قرية، ومركز للبرقيات، وأبراج محكمة البناء، إلّا أنها تهدّمت إثر طوفان، وفي غازيان لا يلزمك إلّا حفر ذراع واحد في الأرض، لتصل إلى المياه العذبة، وإلى الجنوب من أنزلي، تقع جزيرة، تُسمّى ميان شيته، يصل طولها قرابة ثلاث مئة ذراع، وعرضها ثمانين ذراعاً، وقد نبت القصب وسط المستنقع وبين الجزيرتين، يطلق السكّان اسم قلم كودي على هذه المنطقة، وكما قيل لنا، كان هذا الموضع في

(1) مستنقع بوغاز: بمعنى المضيق. (المترجم).

القديم يابساً، فغمرته المياه بمرور الزمن، أنزلي قرية ذات أهميّة، تتمتع بوجود مساكن ومنازل للقوافل ومدفعية ومعسكر، فيها سوق طويل، يحاذي المرفأ، يعمل به التجار على مختلف أصنافهم، وهذا الميناء مؤهّل لأنواع شتى من العمران والتطور، وقد يتحوّل إلى ميناء، يضاوي موانئ الإفرنج، لو أبدت الحكومة المبجّلة اهتماماً به.

كان يوم الأحد، الموافق للتاسع والعشرين من رمضان موعد وصول باخرة الشركة الروسية، ولأجل هذا قدم القنصل الروسي من رشت، ليُعدّنا للرحيل، لكن الباخرة لم تصل، وأخلّت بالموعد.

الوالي بقي إلى هذا اليوم حاضراً لوداعنا، ولإقبال عيد الفطر، كان عليه الحضور في المدينة لتوفير مستلزمات العيد، فاستأذن منّا، وغادر.

الليلة، وبعد مضي ستّ ساعات من الليل، سقط المطر، وبعد مضي تسع ساعات، عصفت رياح شديدة، كسرت بعض الأشجار في عمارة معتمد، وفي البحر، حدثت تقلّبات عظيمة، فلم نستطع النوم جرّاء هدير الأمواج.

باخرتان تجاريتان للروس، كانتا قد رستا قبل أن يهيج البحر، تلاطم البحر كان قد حطّم سلسلة المرساة لإحدى السفن التي كانت تبعد قليلاً عن المرفأ ممّا أدّى إلى إفلات العنان من يد القبطان وطاقم الباخرة، وفقدانهم السيطرة على دقّتها، كما أن عاصفة البحر وطغيانه زلزلتهم، وشلّت حركتهم. على الفور، قام قبطان الباخرة الأولى التي كانت الأقرب للمرفأ برفع المرساة والحركة احتياطاً وخوفاً من اصطدام الباخرة التي تحطّمت سلسلة مرساتها في البحر بباخرته، والتسبّب بعطبها، إلّا أن تلاطم الأمواج كان أقوى، ممّا أفقده سيطرته عليها،

الأمواج سحبت كلتا الباخرتين حتّى وصلتا قرب غازيان، الباخرة الأصغر ارتطمت بالساحل، ودُمّرت كلياً، والثانية الأكبر علقّت في الطين قريباً من الساحل، فتعطّلت بعض معدّاتها، لكنّ، ولله الحمد، لم يمسر ركّاب الباخرتين سوء، وكانوا في مأمن من الغرق والأذى، وكما ذكر سگان أنزلي، فإنّهم لم يعهدوا بأنّ طغيان بحر قزوين تسبّب في انجراف سفينة بخارية إلى المستنقع، وعدّوا هذا الحدث من الغرائب والعجائب. في تلك الليلة، بلغتنى برقية من قائد الجيش، يطمئنُّ فيها عن حالنا، وقمتُ بالردِّ على برقيته.

يوم الاثنين، آخر أيّام شهر رمضان، ركب القنصل مرافقاً أكبر خان البيكلر بيكي في الطرّادة قاصدين غازيان، ليتفقّدا حالة الباخرتين، وللقيام بتحضير العمّال والأدوات اللازمة لإخراجهما وإصلاحهما، إن دعت الحاجة، ونحن نشاهد بالمنظار من الطابق العلوي في عمارة معتمد حالة الباخرتين، وتلاطم أمواج البحر، وطوفان الماء.

رجع بيكلر بيكي، وقدّم لنا شرحاً عن حالة الباخرتين، وتبيّن أنّه لا يمكن تحريك الباخرة العالقة بالطين إلّا في حالة حدوث طوفان شديد آخر، أو ربط الباخرة بباخرة كبيرة أخرى، وجرّها.

قدّم قبطان الباخرة أربعين تومانا كأجرة للغوّاصين، ليأتوه بمرساتها وبقية السلاسل، وبالفعل ذهب الغوّاصون، وأحضروها، وإن كانت السلاسل ومرساة الباخرة ثقلاً جداً، إلّا أنه عندما يدخل جسم ثقيل في الماء يصبح خفيفاً، فينقص وزنه بمقدار الماء المزاح.

للرياح التي تعصف بالبحر والمستنقع وتُسبّب الطوفان أسماؤها عند سگان المنطقة، فيذكرون جيلاور، الخرّري، دشتوا، كناروا، جيلاور

وكند قوش، وأكثر هذه الرياح عتوّاً هي رياح الخَرّري السّماليّة التي تهبُّ من جهة قرية الخَرّر، ورياح دشتوا التي تأتي من الغرب، ورياح كناروا الجنوبية، وهذه الرياح تعمل عند هبوبها على نقل مياه المستنقع إلى البحر، فتزيد من اضطرابه؛ أمّا الرياح التي لا ضرر فيها، فهي رياح جيلاور التي تهبُّ من الجنوب، وهي مفيدة للسفن، وتُسمّى أيضاً جيلومي؛ ورياح كيلوا التي تأتي من الجنوب والشرق، ورياح كند قوش تهبُّ من جهة الشرق.

يوم الثلاثاء، عُزّة سَوّال المكرّم هداً البحر، ولأنّه كان موعد حركة البريد، انهمكتُ في مراسلات دار الخلافة، فكتبتُ عريضة مفصّلة، تشبه الكُتَيْب إلى حضرة جلالة قدر القدرة المَلَكِيّة، روحنا فداه، وأرسلتها إلى السيّد المستطاب الأشرف العظيم أمير كبير نائب السلطنة، رُوحِي فداه، ليعرضها على جلالتِه، وذكرْتُ فيها بعضاً من خدماتي، وفصّلتُ ما واجهتُ من الأمور الطارئة، وختمتها بدعائي لوجوده المبارك، ورجوتُه بأن أكون بمثابة الممثل الخاصّ لجلالة صاحب السعد فائض الوجود المَلَكِيّ، روحنا فداه، في زيارة الأماكن المقدّسة والبقاع الشريفة.

قُبيل الغروب بثلاث ساعات، ركبْتُ طرّادة حكومية، وذهبتُ لمشاهدة الباخرتين الروسيّتين اللتين تضرّرتا من تلاطم البحر. وفي غضون عشرين دقيقة، كنّا في غازيان.

الباخرة الكبيرة التي رَسَتْ في الطين، كانت الأقرب إلى ماء البحر. نظرتُ إليها من بعيد، أدّى قبطان الباخرة الاحترام، ودخل الباخرة بسرعة، ليحضر بضعة مقاعد، لنجلس عليها، نحن، أيضاً، أرسلنا إليه قبطان الوابور المَلَكِيّ، ليتفقّد حاله، ويُعلمه أن الحكومة جاهزة لتوفير أيّ نوع من المعدّات اللازمة لإصلاح الباخرة. طلب منّا مُلِحاً أن نصعد على

متن الباخرة، وأنزلوا السلالم والألواح الخشبية، وهَيَّؤُوا لنا معبراً، صَعِدْنَا على متنها، وشاهدنا الغرف والمستودعات. كان طولها ستين ذراعاً، وعرضها سبعة أذرع، واسمها باللغة الروسية كوما، بعد خروجي من الباخرة، ذهبْتُ لِأَتَفَقَّدَ الباخرة الأخرى، كان موج البحر قد حطَّم جميع ألواحها، وألقاها في ساحل غازيان، وما تبَقَّى من الباخرة هو الحديد وبعض معدَّاتها.

عندما كنتُ أتحدَّثُ مع قبطان الباخرة، بدا مسكيناً وفي حَيْرَة شديدة، وقد ذكر لي أن مَلِكِيَّةَ الباخرة تعود لسيِّدة روسية، وأنها مرهونة للبنك، وأمرها متعلِّقُ به، وأخبرني أنه أبلغ البنك عن الحادثة عبر إرسال برقية.

الأربعاء الثاني من شوَّال توجَّهنا لرؤية مدفعية أنزلي، كانوا قد بنَّوا مدفعية جديدة، وإلى الجانب الشرقي منها، شيَّدوا أبنية أرضية مسقوفة، كمُستقرٍّ للمدفعية، ولحمايتها من الأمطار، وعلوية، يقطنها قائد المدفعية.

شاهدنا اثنتي عشرة عرَّادة مدفع، ثلاثة منها من عيار الاثني عشر باونداً، وعرَّادة واحدة ثماني عشر باونداً، وستُّ عرَّادات من فئة ستَّة باوندات، واثنتيْن من فئة اثنيْن وأربعين باونداً، إحداهما تمَّ نقلها إلى غازيان، ولقد شاهدتُ المدافع عن كثب واحداً تلو الآخر، فوجدتُ اهتماماً بالمحافظة عليها، وصيانتها.

مضى يوم الخميس، الثالث من شهر شوَّال ونحن ما زلنا في عمارة معتمد، ولأنَّه طال أمد مجيء الباخرة، ضاق صدري خوفاً، فموسم الحجِّ يقترب، وخشيتُ أن لا أُوفَّق في تأدية الفريضة، قضينا الليلة مع معالي

الحاجُّ مُلاً باقر، وخاصَّة الأَصحاب، وقرأنا: (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) (1) اثني عشر ألف مرةً بِنِيَّةِ مجيءِ الباخرة، وعسى الله أن يُكْرِمَنَا وَيَمُنَّ عَلَيْنَا بِإرسالِ الباخرة المعهودة، أو أن تصلَ باخرة أخرى، وتُجِينَا من هذه الحَيْرَةِ الكَبِيرَةِ.

من يومِ الجُمعة، الرابع من شَوَّالٍ وحَتَّى مساءِ الاثنيْنِ، السابع منه، كُنَّا منتظرين في أنزلي. اعتدنا خلال تلك الأيام الذهاب صباح مساء، لتفَرِّجَ على البحر. يمتلك السكَّان طرَّادات كثيرة، يستخدمونها لصيد السمك. مشهد صيدهم للسمك لا يخلو من المتعة. هنالك نوع من السمك، يُسَمُّونه إَسْبِيلَه بشع المنظر.

إلى يومِ الاثنيْنِ، السابع من شَوَّالٍ، لم تصل السفينة الروسية المُنتظرة، إلَّا أنها وصلت باخرة جَوَّالَة، تطوف بين ميناء كَزْ (2) ومشهد سر (3) وعاشوراده (4) وشهرنو (5) وتشكشَلر (6) حتَّى تصل إلى باد كوبه (7)، ولأننا كُنَّا عازمين ومرجِّحين الحركة على السكون، وغير راغبين في التوقُّف رضينا أن نستقلَّ الباخرة الجَوَّالَة.

نقلت حملتنا إلى الباخرة الجَوَّالَة، وبعد مضي ساعتين من

(1) قرآن كريم، سورة النمل، الآية 62.

(2) كَزْ: الميناء على بحر قزوين في محافظة جلستان شَمال إيران. (المترجم).

(3) سر: اسمها الحالي بابلسر، إحدى المُدُن الساحلية في محافظة مازندران شَمال إيران. (المترجم).

(4) عاشوراده: جزيرة إيرانية، تقع في بحر قزوين من الشَمال. (المترجم).

(5) شهرنو: هي مدينة تركمان باشي في تركمنستان. تقع على الساحل الشرقي لبحر قزوين. (المترجم).

(6) تشكشَلر: ميناء يقع على بحر قزوين في جمهورية تركمانستان. (المترجم).

(7) باد كوبه: باكو عاصمة الجمهورية الأذربيجانية الواقعة على بحر قزوين. (المترجم).

الذستة⁽¹⁾ ركبنا الوابور المَلَكِيَّ، ووصلنا إلى الباخرة الجوّالة، استغرق ركوبنا على متنها ساعة وربع. يبلغ طولها مئتي قَدَم، وعرضها خمسة وعشرين قَدَمًا، وتصل قوّتها إلى مئة وعشرين حصاناً، كانت تقطع فرسخين في الساعة بهدوء، وتستوعب أربعين ألف جالون من الحمولة، كلُّ جالون يعادل خمسة أمانان ونصف المَنّ من أمان تبريز⁽²⁾، وتستهلك بالحرّق خمسة وثلاثين جالوناً من النفط الأبيض كلَّ ساعة. تمَّ صنع هذه السفينة في عام 1859 ميلادي بتكلفة، بلغت مئتين وتسعين ألف منات⁽³⁾، وهي عملة ورقية روسية، تُباع في سوق العملات بما يقارب الثلاثة آلاف وخمس مئة دينار، تُنسب هذه السفينة إلى شقيق الإمبراطور الروسي، وقد سُمّيت باسمه.

كان قبطان السفينة كبير السنّ أحمر الوجه، ماهراً في توجيه دقّتها، ونائبه يُعرَف بنيكولا، وهو رجل حَسَن المنظر والحضور، كان جُلُّ طاقم السفينة مؤدّباً، وكانوا يحملون ثلاث مئة صالد⁽⁴⁾ إلى تشكشكر، وكانوا يُزوّدون السفينة بماء الشرب من نهر الفولغا الذي سيأتي شرحه فيما بعد، ويقومون بعملية تقطير الماء داخل السفينة، كان الماء المقطّر صافياً عذباً، كذلك كان على متن السفينة عدد من زوّار الأراضي المقدّسة⁽⁵⁾ سيترجّلون في ميناء كَز، وعدد من حُجاج بيت الله الحرام. كان البحر اليوم هائجاً، وقد تسبّب في تقلُّب أحوال أكثر ركّاب

(1) الذستة: تُطلَق على الساعة الثانية عشرة ظهراً، أو الساعة الثانية عشرة ليلاً.

(2) أمانان تبريز: المَنّ التبريزي يعادل ثلاثة كيلو غرامات. (المترجم).

(3) منات: العملة الرسمية لجمهورية أذربيجان في الوقت الحاضر. (المترجم).

(4) صالد: نوع من الحجر، يُستخدَم كمِجدَح. (المترجم).

(5) الأراضي المقدّسة: المقصود هنا مدينة مشهد الإيرانية. (المترجم).

السفينة، والوحيدون الذين لم تتقلب أحوالهم أنا واثنان أو ثلاثة من المرافقين، بقية الركاب كانوا مُتقلبي الأحوال، كلُّ منهم مُلقى في مكانه، يصدق عليهم قوله تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)⁽¹⁾، ولكن، ولله الحمد، اجتزنا هذه المحنة بخير وسلام. رويداً رويداً هدأ البحر، وعاد الركاب إلى صوابهم، بعد مرور عشرين ساعة، وقريباً من الفجر مررنا بمحاذاة مشهد سر.

الثلاثاء الثامن من شوال وعند الطلوع، وصلنا إلى عاشوراده، لم يكن هناك طريق للباخرة، ولم يكن البحر مساعداً في تلك النقطة لعبور البواخر، وكان الطريق خطراً، وعلى البواخر أن تمرّ من محاذاة المكان وصولاً لميناء كز، ومن ثم، يعودون أدراجهم إلى عاشوراده.

لا جرم، مكثنا بمحاذاة عاشوراده لبضع دقائق. كان أصحاب المناصب مستقلين ثلاثة طرّادات، دخلوا الباخرة، فجلسوا مع طاقمها حول طاولة، وانشغلوا بالحديث وتناول الأطعمة والمشروبات. كانت ترافقهم ثلاث نساء. بقوا جالسين بهذا الحال حتّى وصلت الباخرة بعد ساعة إلى محاذاة ميناء كز، فأرست هناك.

كانت الحركة اليوم نحو الشرق، والبحر هادئاً، وما إن وصلت الباخرة إلى ميناء كز حتّى أرست، كان التوقّف لأربع ساعات، نزل زوّار مشهد إلى الميناء، جاء رجل أفغاني شيعي من رشت⁽²⁾ قاصداً زيارة مكّة المعظمة، لكنّه استوحش من تلاطم البحر، فانصرف عن زيارة بيت الله الحرام، وقصد مشهد المقدّسة. صعد مسؤول برقيات هذه المدينة على متن السفينة للقائي، سألتُه عن أحوال طهران، وسررتُ ببشارة صحّة المزاج

(1) قرآن كريم، سورة العنكبوت، الآية 65.

(2) رشت: مدينة في شمال إيران على بحر قزوين. (المترجم).

لجلالة القدس المَلَكِيَّة، أرواحنا فداه، وسلَّمني برقية من معالي مخبر
الدولة، فحواها إبلاغ كلِّ الولايات بخلع قائد الجيش من كلِّ مناصبه
ومراتبه، وتعيينه والياً على قزوين.

بعد أربع ساعات، انطلقت الباخرة نحو الغرب، فوصلت ثانية إلى
مشارف عاشوراده، ترجَّل أصحاب المناصب المرافقون للنساء الثلاث،
وبعد نزولهم، أبحرت الباخرة نحو الشِّمال قاصدة تشكشلىر، وبعد مضي
ساعتين من ليلة الأربعاء وصلت، وأرست.

الأربعاء، التاسع من شوَّال، وبعد ساعتين مضتا من الدسته، كنَّا
في مرفأ تشكشلىر. جاؤوا بالطرَّادات، وأنزلوا إليها الصالديات بأثقالها
وأعمالها. لقد خفَّ الازدحام، وتخلَّص ركَّاب السفينة المحاصرون بين
أكوام الحمولة منها، لما تُسبِّبه من ضيق المكان وإعاقة الحركة، فلثلاثة
أيام والركَّاب يعانون أشدَّ المعاناة، فجاء فرج بعد شدة، وفرحة بعد
كُرْبَة، ووافق الحال قول الشاعر:

عسى الكَرْبُ الذي أَمْسَيْتُ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرْجٌ قَرِيبٌ⁽¹⁾

جاء عدد من أصحاب المناصب الروس الذين كانوا في تشكشلىر،
وبرفقتهم امرأة، لتفقد السفينة، ولقاء القبطان، احتسوا الشراب،
وتحدَّثوا معاً. كانت حكومة الروس البهية قد أحدثت عمراناً وحصناً
مناسباً قُبالة البحر، وأجرت استعدادات كثيرة، ومن خلال مشاهدتنا
عبر المنظار، اتَّضح لنا حصن منيع مستحکم، كذلك قاموا بإنشاء
سوق ومستودع وعمارات، رافعين علَم حكومتهم فوق المنجنيق، وقد
أقاموا عدَّة كُشكات، كان التركمان الذين يُعتبرون من الأتباع والخدم

(1) البيت للشاعر الجاهلي هُدْبَة بن حَشْرَم. (المترجم).

يسكنون هناك، وشاهدت خيولاً كثيرة، ورأيتُ جمعاً غفيراً من الناس قُبالة البحر، ينظرون إلى الباخرة، كما كان هناك مخيمٌ منظمٌ، يضمُّ عساكر كثيرين.

شهر نو

الخميس العاشر من شَوَّال، انطلقنا نحو الشَّمال، وقُبيل الدسطة بساعتين ونصف، وصلنا قرابة شهر نو، فأرست الباخرة، واستقرت. عند الطلوع، غادرنا قاصدين التجوال، كانوا قد مدُّوا جسراً من المرساة حتَّى المرفأ، ثلثاه مصنوع من الخشب والثلث الآخر من الصخور والتراب، كانت ملكيَّة هذه المدينة منقولة من حكومة إيران العليَّة إلى حكومة الروس البهية، واسم المنطقة قديماً قِرل سُو؛ ولأنَّ الروس قاموا ببناء مدينة هناك، يُسمِّيها الفُرُس شهر نو⁽¹⁾، وبالروسية يُطلقون عليها اسماً يقارب هذا المعنى، عبرنا الجسر، ودخلنا البلدة إلى سوق ممتدٍّ، أُقيم قُبالة البحر، يضمُّ حوانيت منظمَّة، كان الأرامنة منشغلين بالبيع والشراء، وقد بنوا كنيسة رائعة أمام الجسر، وعلى يمين الكنيسة، تقع عمارة ذات منظر خلَّاب للجنرال قنصل الروس، وقريباً من الجسر أنشئ مصنع لتحلية المياه، يسحبون الماء المالح من البحر، باستخدام الدواليب، ويقومون بتحليلته، ومن ثمَّ، يُرجعون المياه المالحة عبر الأنابيب إلى البحر ثانية. قمنا بجولة في أطراف البلدة، بقدر ما أَسعَفنا الوقت. حقاً لقد اهتَمُّوا بعمرانها، وعن قريب، ستصبح مدينة ذات شأن.

تمتدُّ سلسلة جبلية من الشرق نحو الغرب، وعلى سفوحها عمارات عدَّة مبنية على مسافة متساوية من بعضها، وبالقرب من السلسلة،

(1) شهر نو: تعني المدينة الجديدة. (المترجم).

تجري مناورة عسكرية في ثلاثة مواقع، وعلى امتداد اليابسة المحاذية للسلسلة الجبلية، غرسوا أعمدة خشبية للبرقيات، تصل إلى كل ولاية من ولايات الروس، وكان العمل جارياً على مد سكة حديد من المنطقة، وقريباً من المرفأ كانت قد أرست سبع عشرة سفينة بخارية وشراعية، وشوهدت سفن شحن كبيرة في الماء، كانت تنقل الحمولات إلى السفن الأخرى.

باد كوبه

الجمعة، الحادي عشر من شوال، دخلنا باد كوبه، كان اتجاه الحركة غرب جنوب، وحتى الوصول إلى المدينة، أنشئت جسور كثيرة ابتداءً من ميناء السفن، أكثرها لفتاً للانتباه جسر الجمارك الممدود من الألواح الخشبية الذي أرست بجانبه الباخرة، فتمّ الوصل بينها وبين المرفأ بلوح خشبي، ليكون معبراً.

الجميع من حاكم ومحكوم لم يكونوا على علم بقدمنا، ومع أننا كنّا نحمل رسالة للحاكم من قبل السفارة الروسية، لم نجذب إخبارهم قبل الموعد، لأنّ الغاية من السّفَر هو أداء الواجب، لا مزاحمة الحاكم وأرباب المناصب.

لكن، عندما اتّضحت معالم باخرتنا من بعيد، وكان بيرقنا يحمل شعار الأسد والشمس⁽¹⁾، عرف الناس بمقدمنا، فاجتمع عدد من الإيرانيين والمسلمين قبالة المينا، بداية، صعد مساعد قلعة بيكي شهر ببذلته الرسمية على متن السفينة، واستأذن لمقابلتنا، وقدّم اعتذاره لعدم

(1) شعار الأسد والشمس: بعد الثورة الإيرانية، تمّ تغيير شعار البلاد من الأسد والشمس إلى لفظ الجلالة (الله). (المترجم).

علمه بساعة وصولنا، وذكر أن الحكومة لم تخبرهم رسمياً، وطلب قبول الاعتذار، سألتُ عن الحاكم، فردَّ قائلاً: أَنَّهُ ذهب إلى مشتى ثُقَلَيْس⁽¹⁾، وأن نائب الحكومة موجود بدلاً عنه، وهو الآن نائم. سلَّمْتُه رسالة السفارة الروسية في إيران، وغادر على عجل، ثم حضر النائب الأوَّل والنائب الثاني باللباس الرسمي المرصَّع بالنياشين، واستأذنا للقائنا، أذنتُ لهما. فقاما بواجب الاحترام، وأفصحا عن مدى مسرَّتَهما وسعادتهما بقدمونا، نحن أيضاً تلافيفنا معهم، وغادرا. ومن بعد جاء نائب الحكومة بزِيَّه الرسمي ونياشينه الحكومية مستأذناً، فأذنتُ له، ودار حديث لائق، فحواه مدُّ جسور المودَّة بين البلدين. كان يتكلَّم بالفرنسية، ونجلي أبو النصر ميرزا كان يقوم بمهمَّة الترجمة، كان قد التقى بي في محطة القطار في السنة التي كنتُ مرافقاً فيها لركَّاب جلاله القدس المَلَكِيَّة، روحنا فداه، إلى ثُقَلَيْس، كما قام بزيارة لإيران، لقد كان إنساناً ذكياً وذا وقار، وبعد ختم المجلس، ترجَّل من الباخرة، وذهب إلى منزله.

مدينة باد كوبه بيوتها المتقابلة من المُدُن الإيرانية القديمة، وهي الآن من ضمن الممتلكات الروسية. تقع جهة الشَّمال على سفح جبل بمحاذاة بحر قزوين. يبلغ عدد سكَّانها خمسة وعشرين ألف نسمة، منهم خمسة آلاف من الروس والأرامنة، وأكثر السكَّان من المسلمين⁽²⁾ والشِّيعة، أزقتها القديمة ضيقاً ومتعرجة، فأحدت الروس أزقة وشوارع واسعة، وعمارات شاهقة، وبنوا عدداً من الكنائس، وقد يُسمِّيها البعض باكوبه بدلاً من باد كوبه، وسكَّان تلك المنطقة غالباً ما يُسمُّونها باكو، ويقال إن سبب تسميتها باد كوبه أن لفظ باد قمه، يعني الريح التي تهبُّ من قم والأراضي الرملية، ولأنَّ المنطقة محاطة بالأراضي الرملية، ودائمة هبوب الرياح، سُمِّيت بهذا الاسم، ومع كثرة الاستعمال تبدَّلت إلى باد كوبه.

(1) ثُقَلَيْس: عاصمة جمهورية جورجيا. (المترجم).

(2) المقصود هنا أهل السُّنة. (المترجم).

يبلغ طول الحديقة الحكومية في البلدة ستّة آلاف ذراع، وهي من الأراضي المضروبة⁽¹⁾، وفي وسط المدينة القديمة وبشقّ الأنفس شيّدوا حصناً يضمُّ خزائن ولاية شيروان وعمارتيها، وما زال الحصن قائماً، ويقع بجانبه برج دختر⁽²⁾ الذي يبلغ طوله أربعين ذراعاً، ومن الأبنية القديمة مسجد، بناه الشيخ خليل الله يضا هي الشبستان⁽³⁾، وقد بُني بلا ساحة ومقصورة، وبلا سقف، فكان يبدو وكأنه معبد قديم لعبدة الأصنام، إلّا أن سلاطين الإسلام فيما بعد أقاموه على النحو الذي يجب، ويُقدَّر عُمره بسبع أو ثمان مئة سنة، كما قام الروس ببناء مصنع للسفن قرب البحر، وإنشاء مصفاة للنفط، ويقومون بتشغيل الفَنَار⁽⁴⁾ ليلاً لهداية السفن، إلّا أن المدينة تفتقر إلى الماء العذب، لذا، قليلاً ما يقومون بغرس الأشجار.

قُبل باد كوبه من جهة الجنوب بفرسخ واحد، تقع بقعة، تعتبر مقصد زيارة السكّان، تُعرَف باسم بي بي هيئت، وهي شقيقة الإمام الرضا، عليه السلام، وتُعرَف بالسليل ده شيخ، وقد تمَّ بناء كنيسة ذات قبة سداسية الزوايا في المنطقة.

السبت، الثاني عشر من شوّال، ذهبنا لمقابلة نائب الحكومة، كان يمتلك عمارة جيّدة، وبقرها حديقة، يجتمع فيها أهالي المدينة كلّ مساءً، حين دخولنا كان نائب الحكومة على عتبة الباب مستقبلاً لنا ببذلته الرسمية ونياشينه الحكومية، ومن بين النياشين وسام لواء إيران، جلسنا وتجادبنا أطراف الحديث، وعهدتُ إليه بمقام سفارة المسلمين

(1) الأراضي المضروبة: أرض خضرة، يكثر فيها الندى.

(2) برج دختر: اسمها باللغة الأذربيجانية (قر قلعه سي)، أي قلعة البنت. (المترجم).

(3) الشبستان: مكان مخصّص في المساجد، يتعبّد وينام فيه الصُوفِيُّون. (المترجم).

(4) المنارة أو الفَنَار عبارة عن برج أو مبنى يقع بالقرب من الشاطئ أو في عرض البحر، ويبعث الضوء من منافذ في أعلى المنارة لهداية السفن ليلاً. (المترجم).

في باد كوبه، فتعهّد بذلك ملاطفاً، لكنّه طلب أن يكون معه قائم بالأعمال الحكومية، ليكون طرفاً لمساءلة الحكومة والردّ عليها.

قديماً كان القنصل في المدينة أكبر خان، ولما اشتكى منه الناس، غادر، وبقيت القنصلية بلا مأمور. كان جبار بيكي من قبل إيران موجوداً، وكان يُبيت في رأسه حُلْم القنصلية، لكنّ، لوضاعة مكانته، لم يكن مُرحّباً به لدى نائب الحكومة، فطلب منّا تنسيب قنصل ذي اعتبار. دار الحوار في هذه الجلسة باللغة الفرنسية، وبترجمة نجلي أبي النصر ميرزا، بعد إكمال الحديث وتدخين النرجيلة وشرب الشربات⁽¹⁾. غادرنا بالتوديع عند مدخل العمارة، وصار من المقرّر أن نذهب مساء لمشاهدة بالاخانه وسوارخانه⁽²⁾.

اليوم، وعند ذهابنا إلى بيت نائب الحكومة، حضر إلى جانب المرفأ آغا علي كبير التجار وغيره من الإيرانيين مبددين سعادتهم بلقائنا، قالوا: إن حضور الأمراء الإيرانيين أصحاب الوجاهة والمقام إلى ديارنا يُعدُّ مدعاة فخر لنا. فتلاطفتُ معهم، وتفقّدتُ أحوالهم فرداً فرداً.

أعدّدت لي عربة فارهة خارج المرفأ من قبل الحكومة، قلعه بيكي وطاقم الحكومة وعدد من فرسان القزاق كانوا معنا حتّى بيت نائب الحكومة، وبعد خروجنا، ذهبنا جميعاً إلى المسجد، مكثنا لنصف ساعة، تلاطفنا خلالها معهم، وأجزلنا العطاء إلى الخُدّام والمسلمين الحاضرين، ومن ثمّ، عدتُ إلى الباخرة.

عند المساء حضر نائب الحكومة مُعلّقاً وسام إيران، وبرفقته قلعه

(1) الشربات: بالفارسية والتركية (شربت)، وهو مشروب شعبي، ويكون إعداده عادة من الفواكه أو بتلات الزهور. (المترجم).

(2) بالاخانه وسوارخانه: قصبتان من قصبات باكو مشهورتان بإنتاج النفط، وُطلّق على سوارخانه باللغة الأذربيجانية سوارخانه. (المترجم).

بيكي والنوَّاب، وكانوا قد جهَّزوا العربات قُبَّالة المرفأ، لنذهب لمشاهدة بالاخانه وسوارخانه، جلستُ أنا ونائب الحكومة وأبو النصر ميرزا ومعالي الحاج مُلاً باقر الواعظ في عربة، والآخرين في عربة ثانية، بلغنا المكان الذي علينا أن نستقلَّ فيه الشُّمَنْدُفِر⁽¹⁾. ترَجَّلنا من العربة، وركبنا عربة بخارية فارهة، المرافقون وحاكم بالاخانه وسوارخانه جلس كلُّ منهم في مكانه، فوصلنا صابونجي⁽²⁾، ولعدم امتداد سكة الحديد بعد هذا المكان، ترَجَّلنا من الشُّمَنْدُفِر، واستقلَّينا العربات، لنصل بالاخانه على بُعد مسافة، تستغرق ساعة ونصف بعربة مسرعة. صحراء المنطقة هي مصدر النفط. تمَّ حفر ما يقارب المئتي بئر فيها، صنعوا من الخشب آلات يستخرجون بها النفط من الآبار، ومن ثمَّ، يتمُّ نقله بواسطة العرَّادات إلى المدينة، يومياً يتمُّ شحن ما يقارب الثمانية آلاف جالون، الآبار عميقة، لذلك يتمُّ استخراج النفط، بواسطة المعدَّات.

حفروا بئراً جديدة ذات سعة كبيرة، وقد ثبتوا عليها دولاباً حديدياً، ليكون استخراج النفط حِكْراً عليهم. فور وصولنا، ذهبنا إلى تلك البئر، كانوا قد استحدثوا حولها بحيرات، يملؤونها بالنفط المستخرج، وحين قاموا بتحريك الدولاب، بدأ فوران النفط من الفُوَّهة نحو بحيرة على بُعد عشرة أذرع، اتَّضح لنا أن عائدات هذه البئر تبلغ اثني عشر ألفاً وثلاثين ألفاً منات يومياً، وإن لم يُحكَموا إغلاق فُوَّهة البئر بالدولاب الحديدي، سيستمرُّ التدفُّق، ذهبنا إلى مصنع آخر بالقرب منها، كانت دواليب كثيرة تُستخرج النفط، ومن ثمَّ، تقوم بتكريره، كانوا بداية يعزلون الماء، ومن ثمَّ، يقومون بتحريك الدواليب لضخَّ النفط إلى الأنابيب الحديدية الممتدة حتَّى مصانع سوارخانه.

(1) الشُّمَنْدُفِر: القطار البخاري.

(2) صابونجي: قصبة من قصبات باكو. (المترجم).

بعد مشاهدة كيفية استخراج النفط، ركبنا العربة، وذهبنا إلى سوارخانه، استغرقت المسافة ساعة واحدة، الصحارى الممتدة على مساحة أربعة آلاف ذراع مربع كانت تنفث بخار النفط، بسبب مجاورتها للآبار، لقد انحبس البخار في طيَّات الأرض، وتُشبع التراب به، ولو حفرت بمقدار ربع ذراع لتساعد البخار، واتَّصل بالأكسجين، ليتحوَّل إلى غاز، فيشتعل مع أدنى شرارة، ولا دخان له قطُّ، وعندما يتساعد إلى الجوّ دون اشتعال، لا يختزن الحرارة العالية، ولا يتأذى منه الجسم عند الملامسة، لكن، كلّما تصاعد أكثر، واختلط بالهواء، تزداد حرارته، ويزداد أثره على الأجساد.

هنا يقومون بتحويل الموادّ الأوّلية إلى النفط الأبيض، بتخليصه من الشوائب حتّى يصلح للاحتراق، وقد مدُّوا أنابيب حديدية من المصنع إلى ساحل البحر، لكي يقوموا بشحنه في السفن، وتسليم ما تمَّ بيعه إلى الزبائن، وقد سهَّلوا الأمر على البائع والزبون.

قرب المصنع حفروا بئراً، ونصبوا عليها أنوباً، وحين فتحوها فُوَّهَة الأنبوب، وأشعلوه، تشكَّلت شعلة من أبخرة النفط، أضاءت الصحراء المحيطة بالمكان.

من ثمَّ، ذهبنا لمشاهدة مصفاة التكرير، خرَّان البخار تحت الأرض وخارج المصفاة، وكانوا قد وضعوا في باحتها يميناً وشمالاً عدَّة أجهزة شفت لتصفية النفط وتبييضه، بواسطة قدور كبيرة موضوعة على أفران، تقوم بعملية تحويل النفط الأسود إلى الأبيض، لكلِّ قدر أربعة أو خمسة أفران على مسافة قريبة من بعضها، وقد قاموا بتعبئة أنبوب من الحديد، يشبه القرينة⁽¹⁾ الصغيرة أمام كلِّ قدر، وعلى الأرض، يعبر من خلاله بخار النفط، ليعود بين المواقد، ويشتعل بالكبريت.

(1) القرينة: سلاح ناري مُفوَّه، كان الجنود يستخدمونه في قديم الزمان.

بعد ذلك، ذهبنا إلى معبد النار القريب من المصنع، والذي تمّ بناؤه في عهد العجم، للمعبد ساحة شاسعة مربعة، تحوطها حجرات، لكلّ منها منفذ، يشتعل متى ما أوصلوا إليه النار، وفي وسط الساحة سقف، يقوم على أربعة أعمدة، تتشكّل بينها أربعة أقواس مفتوحة من الجوانب كافة، تتوسطها حُفيرة، أوجدوا فيها بئراً مزوّدة بأنبوب، يقومون بفتحه وإشعاله متى أرادوا، وعلّقوا حبلًا في السقف موصول الطرفين، في جانب من ساحة الفناء، كانت شعلة من النار تخرج من الأرض، كلّمّا كنّا نُنحّي التراب عنها برأس العصا، كانت تلتهب وتمتدُّ، ورأينا في أعلى بؤابة فناء المعبد صخرة منقوشة، عليها بضعة أسطر باللغة الفهلوية المسمارية، لم نعلم ما كتبوا، وكان لا أحد يستطيع قراءتها⁽¹⁾.

بعدها استقلّينا العربات، فوصلنا إلى قرية صابونجي، ومنها ركبنا الشُمندُفر، وبعد اجتياز سكة الحديد، ركبنا العربات ثانية، وبعد مضي نصف ساعة من الليل، بلغنا مشارف العمارة في المدينة، وقبالة عمارة الكربلائي حُسين ابن الحاجّ عبد العلي، ولضيق الطريق، تمرّدت خيول العربات، وأفلت العنان من سائق العربة، فانقلبت رأساً على عقب، فسقطت أرضاً، أنا ونائب الحكومة وولدي أبو النصر ميرزا ومعالي الحاجّ مُلاً باقر الواعظ، لكنّ، ولله الحمد، لم يُصَبّ أحدٌ منّا بأذى.

جلستُ قليلاً على المصطبة إثر ألم في قدّمي، وبعد ذلك، ركبنا في العربة حتّى وصلنا المرفأ، أوصلني نائب الحكومة إلى الباخرة، فودّعني، وعاد إلى المنزل، وقد أبرقنا اليوم إلى القنصل الميرزا أحمد خان، وأعلمناه أننا نغادر باد كوبه غداً قاصدين حاجي طرخان⁽²⁾.

(1) كُتِب بيتان من الشُّعر باللغة الفهلوية المسمارية بقالب المزدوج، وترجمتها: (اصطُقت النار مرتصّة قوية - لمّا وصل أهل أصفهان إلى باد كوبه)، (يُهَيئُون المعبد بعيد النيروز - فارتقى شأنهم في عام 1158 هـ).

(2) حاجي طرخان: هكذا تُسمّى بالفارسية، وهي مدينة (أستراخان) الروسية الحالية. (المترجم).

بحر الخَزَر و بحر قزوين

مساء الأحد الموافق للثالث عشر من شوّال، جاء نائب الحكومة وكلُّ طاقمه لوداعنا قبل انطلاقنا من باد كوبه. فُييل الغروب بثلاث ساعات، عبرنا بمحاذاة آبشاران⁽¹⁾، تكثر على هذه السواحل أجمّات من الأثل، هنالك برج مربع مَبنيّ لأجل إنارة الفنار البحري، يقوم بمهمّة المحافظة عليه عدد من العوائل، ومصفاة للنفط، قد أفلس صاحبها، فأمست متروكة، تمّت مشاهدة جزيرة تقع باتّجاه آبشاران، تُسمّى سِنْد، كما شاهدنا عدّة سفن شراعية راسية، هاج البحر مساءً، واستمرّ الوضع حتّى الصباح ممّا أدّى لتقلُّب أحوال أكثر الركب، كان اتّجاه الحركة نحو الجنوب والشرق.

يوم الاثنين، الرابع عشر من شوّال، بعد مضي ساعتين من النهار، وصلنا قرب دريند⁽²⁾ التي تقع على سفح جبل مرتفع شرق البحر، معمور ثلاثها، وذات أجواء لطيفة، كانت الحركة متمايلة نحو الغرب، ومن ثمّ، باتّجاه الشّمال، أوقفنا الباخرة، ومكثنا لساعة واحدة، كانت آثار جدار الحصن القديم بائنة، قيل إنّه كان يمتدُّ إلى سفح الجبل، إلّا أنهم ردموه تدريجياً، وأقاموا مكانه مدينة أخرى، وذكّر أنّ الذي بناه من الجبل إلى البحر أنوشروان العادل⁽³⁾، وكان يُغلق بوّاباته ليلاً.

(1) آبشاران: شبه جزيرة، تمتدُّ داخل بحر قزوين، وتقع شرق جمهورية أذربيجان، وتعتبر من أكثر المناطق كثافة سكانية في الجمهورية. (المترجم).

(2) دريند: مدينة ساحلية، تقع في داغستان، على ساحل بحر قزوين. (المترجم).

(3) أنوشروان العادل: هو كسرى الأوّل، أحد ملوك الفُرس (-501 579 م). (المترجم).

بطروسكي (1)

الثلاثاء، الخامس عشر من شَوَّال، وصلنا إلى بطروسكي، أُرست
الباخرة لساعة واحدة. كانت المدينة عامرة، وأراضيها خضراء نضرة،
تضاهي جيلان⁽²⁾. كانوا قد رَكَّزوا مدفعية صغيرة على التلِّ، ومدفعية
كبيرة أخرى على تلٍّ آخر ما بين التلِّ الأوَّل والمشفى، وكان فنار توجيه
السفن على يمين المدفعية الصغيرة، وقيل إنه بُني قديماً، وبما إنَّه لم
يكن كافياً استحدثوا موقع المدفعية الكبيرة، وقد بنى المهندسون الروس
وطاقمهم عمارة على يسار المدفعية القديمة، عرضها ثلاثة أقواس، القوس
الجنوبي مفتوح لدخول البواخر، وكانوا قد فرغوا من بناية الطاقم إلا أن
عمارة المهندسين لم تكتمل. أغلب الأشجار النابتة أمام العمارة من الجوز
والصَّنَوْبَر والدَّرْدَار، يحسبها الناظر من بعيد شجر سَرُو، وبُنيت وسط البحر،
باستخدام أحجار عظيمة، جلبوها بواسطة رافعات الأثقال دائرة، تُسَمَّى
في اصطلاحهم ليماي، لحفظ البواخر من طغيان الماء، هذا البناء محاط
بالماء من كلِّ جانب، ويشبه جدار القلعة، وقد أحدثوا سَكَّة حديد فوقه
لنقل الحمولة بالَعَرَّادَات من وإلى المدينة والميناء.

انطلقت الباخرة بعد ساعة. قُبيل الغروب بأربع ساعات، وصلنا حيث
مصبُّ نهر الفولغا في البحر، هنا تواجه الباخرة خطورة في الإبحار لضحالة
المياه، أحضروا سفينة أخرى أصغر حجماً، لم تكن تعمل بقوة البخار،
ربطوها بسفينة صغيرة، تعمل على السولار، لكي تقوم بجَرِّها، فاتقلنا
إليها، توقَّفنا ثلاث ساعات لنقل أمتعتنا إلى السفينة الثانية، انطلقنا قُبيل
الغروب بنصف ساعة. سرنا وسط البحر لأربع ساعات، ولم يكن الشاطئ
واضحاً قطُّ، دخلنا النهر ليلاً، وخرجنا منه إلى البحر.

(1) بطروسكي: هي نفسها مدينة (نوفوروسيسك) الروسية، وهي أضخم ميناء تجاري روسي
على البحر الأسود. (المترجم).

(2) جيلان: مدينة تقع شمال إيران محاذية لبحر قزوين. (المترجم).

يُسَمَّى نهر الفولغا العديل أيضاً، يبلغ طوله ألفاً وثمان مئة وخمسة وثلاثين كيلومتراً، والكيلومتر يعادل ألف ذراع، مفردة كيلو تعني ألف، والمتر بالفرنسية أقلّ من الذراع، والذرة تعادل متراً وثمانية وأربعين جزءاً من ألف جزء من المتر⁽¹⁾، وصولاً إلى حاجي طرخان، يتّجه النهر نحو الشّمال، وفي بعض المواطن نحو الشّمال الشرقي، يتجاوز عرض هذا النهر ألف ذراع، وفي بعض المواقع، يتّسع، فلا يُشاهد الشاطئ، وعمقه يصل إلى أربعة أو خمسة أذرع، ماؤه سريع وعكِر، لكنه عَذْب قِرَاح، شواطئه خلّابة، والضفّتان مرتفعتان، رأينا قطعاناً من الخنازير البلق والسود ترتع في جنباته، وتكثر حوله الغربان والرزازير الكبيرة آكلة الأسماك، وطيور أخرى، أغلب قبائل قتلوق من عبدة الأصنام يقطنون قرب النهر في أخواص، يمتلكون مواشي كثيرة من بقر وخراف وخيل، وأكثر سكّان السواحل يمتنون الصيد، ليس عندهم حدائق ومزارع إلا نادراً، ولم نشاهد غير حديقة واحدة، وتكثر على السواحل الغابات من أشجار صَفْصَاف الهرة والصَفْصَاف المعروف. للنهر ضفاف عظيمة، فيها بعض الجُرُر، كذلك شاهدنا قرية كبيرة على ضفة النهر، وهي من توابع الحاجّ طرخان، وقد أقاموا في كلّ قرية كنيسة مجلّلة، سنبقى نسير في النهر حتّى نصل بعون الله إلى سراتسين⁽²⁾، حيث سكك الحديد.

بحر قزوين

وبما أننا وبكلّ حذر خرجنا من بحر قزوين، ودخلنا نهر الفولغا، فلا

(1) هكذا وردت في الأصل، وهي غير متوافقة مع القياسات المعروفة، علماً بأن الذرة هي وحدة وزن، وليست وحدة مسافة. وبساوي وزنها نصف سدس القطمير. (المترجم).

(2) سراتسين: اسمها باللغة الروسية (ساراتوف)، وتمتدُّ 34 كم على ضفتي نهر الفولغا. (المترجم).

بأس من شرح مقتضب لتبيان حالات البحر، كي نعطي شيئاً من المعرفة البسيطة عنه.

بحر قزوين سهل الهلاك، وصعب المسلك لعدم اتّصاله بالبحار الأخرى، وليس له مدٌّ وجَزْرٌ، لونه أسود، وقَعْرُه مليء بالطَّمْر، ونسبة الأملاح في مياهه أعلى من البحار المالحة الأخرى، بسبب آبار النفط المحيطة به، ويصحُّ القول عنه بأنه بحيرة أكثر ممّا يقال عنه بحر، ولا نفع فيه سوى الأسماك، وقيل إن ألفاً وخمس مئة سفينة صيد تجوبه كلّ سنة، والعُهْدَةُ على الراوي.

تحدُّ البحيرة من الشَّمَال حاجي طرخان، ومن الشرق التركمان وخوارزم، ومن الغرب داغستان والقوقاز وشيروان⁽¹⁾، ومن الجنوب الغربي جيلان، ومن الجنوب الشرقي أستر آباد⁽²⁾، ويبلغ طولها من الشرق إلى الغرب مئتين وستين فرسخاً، وعرضها مئتي فرسخ، ومحيطها ما يقارب الألف والخمس مئة فرسخ، وبمحاذاة باد كوبه يصل العرض إلى مئة وتسعين ذراعاً، ويبلغ أقصى عمق لها تسع مئة ذراع، وكامل مسطّح البحيرة ثلاث مئة وعشرة أذرع، ويُطلق عليها أهل المنطقة اسم بحيرة خَزْر⁽³⁾، باعتبار أن خَزْر بن يافت قام ببناء مدينة قرب نهر أتل⁽⁴⁾ الذي يصبُّ وأنهر أخرى في هذه البحيرة، قيل إن عدد الأنهار التي تصبُّ فيها بلغ ألفاً وأربع مئة نهر، منها نهر جرجان

(1) شيروان: مدينة في جمهورية أذربيجان، تقع على الساحل الغربي لبحر قزوين. (المترجم).

(2) أستر آباد: مدينة جرجان على ساحل بحر قزوين شمال إيران. (المترجم).

(3) بحيرة خَزْر: يُطلق في الفارسية على بحر قزوين اسم بحر الخَزْر. (المترجم).

(4) الموقع الجغرافي لهذه المدينة محلّ اختلاف، وردت عدّة أقوال في معجم دهخدا، منها: أنها قرية من بلاد الخَزْر، ومن المحتمل أن يكون اسم النهر الفولغا أو الأورال، والقول الصحيح هو الفولغا.

وجيحون وأراس وكر وسفيد رود، وفيها عدّة جزر خالية من السكّان، تغمرها المياه، وتُغطّيها الأشجار؛ إحداها جزيرة سياه كوبه التي تمتاز بنباتاتها المعطّرة، كذلك تُسمّى بحيرة التُّرك والأعاجم وباب الأبواب وطبرستان وجرجان وآبسكون⁽¹⁾، وآبسكون مدينة صغيرة محاذية لبحر قزوين، أو هي جزيرة من جزّره، وقد دُفن فيها محمّد خوارزم شاه، ومكانها الحالي مغمور تحت الماء.

الأربعاء، السادس عشر من شوّال، صعدَ إلى السفينة مستقبلين لنا كلُّ من الميرزا أحمد القنصل وطاقمه، وبرفقته حاكم حاجي طرخان، ولواء المشاة ببذلته الرسمية ونياشينه الحكومية، كانوا قد جلسوا في المقصورة الأولى، ونحن كنّا في منام الباخرة، فاستأذنوا لمقابلتنا. في البداية، طلبنا القنصل ميرزا أحمد خان، وتكلّمنا معه، ومن ثمّ، طلبنا الحاكم، فاللواء.

كلُّ منهم قام بأداء واجب الاحترام، مُفصّحين جميعهم عن مدى مسرّتهم من دخولنا، نحن أيضاً تلاطفنا معهم، وبما أنّ القنصل في بداية لقائنا طلب منّا أن نتناول وجبة الغداء في القنصلية، وقد أخذ وعداً من الحاكم، كي يحضر وقت الغداء، قبلنا طلبه، وخرجنا من الباخرة باتجاه القنصلية.

كان طريقنا عبر جسر الجمارك، حضر الإيرانيون قريباً من بداية الجسر فارشين السجّاد في طريقنا احتراماً لنا، تلاطفنا معهم، وعبرنا وصولاً إلى العربات التي أُعدّت ومعها فرسان القزاق، ركبنا، واتّجهنا نحو القنصلية. جاء سيّد إبراهيم التبريزي إلى القنصلية. تفقّدتُ أحوال الجميع؛

(1) آبسكون: قد كتبها المؤلّف أبستكون، وكتبها ياقوت آبسكون، اسم مدينة على شاطئ طبرستان، والمسافة بينها وبين جرجان ثلاثة أيّام أو 24 فرسخاً.

ولأنهم ذكروا محاسن الميرزا حُسَيْن الواعظ أثينا عليه، وقمنا بتقدير جهوده، بعد مغادرتهم، جاء رئيس دائرة الشرطة وطبيب فرسان القزاق، فجلسنا قليلاً، وتحدّثنا، ثمّ ذهبنا. بعدها بدأنا الحديث مع القنصل ميرزا أحمد خان حتّى جُهِّزَت مائدة الغداء في صالة أخرى. وحين وصول الحاكم بدأنا تناول الطعام، كان طبّاخ القنصلية المسلم قد أعدّ أصنافاً من الأطعمة الإيرانية والإفرنجية، قُدِّمت للحاكم من الأغذية الإيرانية، أكل منها، فطابت له، وطلب المزيد، وقضينا المجلس بالفكاهة والضحك. بعد الغداء، ذهبنا إلى صالة أخرى، احتسبنا فيها القهوة، ودخّنا النارجيلة، ودعنا الحاكم وغادر، وفي المساء ذهبنا لملاقاته، وأدبنا واجب الاحترام، وبعد الحديث واحتساء القهوة وتناول المثلّجات رجعنا إلى الباخرة وقد مضت ساعة ونصف الساعة من الليل.

وصل الوابور الكبير التابع للقنصل، لنستقلّه، بعد أربع ساعات من أوّل الليل، قمنا بتوديعهم، وانطلقنا متّجهين نحو الشّمال، وبعد مضي ساعتين من الدسّة، وصلنا إلى مرفأ حاجي طرخان.

كانت باخرة كبيرة بقدرة مئتين وعشرين حصاناً، يصل طولها باصطلاح الروس إلى تسعة وثلاثين ساجناً، والساجن يعادل ذراعاً واحداً، وعقدة واحدة إيرانية، وعرضها أربعة ساجنات، وارتفاعها مئة وخمسة عشر ساجناً، ثمانية عشر منها في الماء، وتحمل قدر عشرين ألف بوت⁽¹⁾، تقطع عشرين فرستا⁽²⁾ في الساعة الواحدة، كلُّ سبعة فرستات تعادل فرسخاً واحداً، وقد مضت عشر سنوات على صنعها.

(1) بوت: هو وزن من الأوزان الروسية، يعادل خمسة أمان ونصف تبريزية. (المترجم).

(2) فرستا: هو وحدة قياس روسية قديمة لقياس الطول، ويساوي 1.0668 كم. (المترجم).

حاجي طرخان

هذه المدينة مرتفعة، وتقع بين شُعْبَتَيْنِ من النهر، إحدى الشُّعَابِ تمرُّ بمحاذاة المدينة، والأخرى من وسطها، وقد مدُّوا عليها جسوراً كثيرة لخدمة الناس.

مدينة واسعة، تتمتع بشوارع جيِّدة، ذات بنايات ومساجد وكنائس، وفيها منتزهات شعبية كثيرة، يجتمع فيها العامَّة والخاصَّة مساءً وليلاً، وفيها المسجد الناصري الذي يعود للمسلمين، وسُمِّي تبرُّكاً باسم جلالته، وقد بُني على غرار الطوابق العلوية، يتمُّ الصعود إليه بالسلالم الخشبية.

كُلُّ سَكَّانِ هذه البلدة من التتر والإيرانيِّين والروس والشركس والغالوق والقزاق وغيرهم من الأقوام، يصنعون المدافئ في هذه المدينة على طراز خاصٍّ، بحيث يكون مقرُّها في زاويا العُرْفِ، فيعدُّون المواقد من البلاط الأبيض، ويجعلون لها منافذ نحو الخارج، ومن ثمَّ، يُوصِلُونَ الهواء الساخن إلى العُرْفِ عبر هذه المنافذ.

يوم الخميس، السابع عشر من شهر شوَّال المكرَّم، سرنا في نهر الفولغا باتجاه الشَّمَالِ.

مكتبة

t.me/soramnqraa

ساراتسين

يوم الجمعة، الثامن عشر من شوَّال، وصلنا مرفأ ساراتسين قبيل الفجر بعد أن قطعنا مسافة ثلاث مئة كيلومتر، تقع هذه المدينة على مرتفعات إلى جانب نهر الفولغا، تمتدُّ المدينة طولاً بمحاذاة النهر الذي تمرُّ شُعْبَةٌ منه من وسطها، فتقسمها إلى شطْرَيْنِ، مدُّوا جسراً على النهر

لعبور المارة، وجعلوا قُبالة الجسر سلالم خشبية، ليصعد المشاة من خلالها، كي يدخلوا فضاء المدينة المرتفع، أمَّا العربات، فتسلك طريقاً على يمين الجسر، ولأن رجلي بعد سقوطي من العربة ما زالت تؤلمني، وقد ظهرت علائم النَّقرس. ركبنا العربة، وذهبنا من جهة اليمين، وصعدَ المرافقون والحمولة والأثقال عبر السلالم، وبما أن مستلزمات الحركة لم تكن جاهزة، ذهبنا إلى عمارة، فسكنا فيها إلى حين توفُّرها، ومن ثمَّ، يكون الانطلاق.

قبل ستِّ سنوات من الآن، كانت هذه المدينة قرية صغيرة، وقد عمَّرها الروس حديثاً، فلحداثتها لم تكن بذلك الرونق، وليست مُزينة على غرار مُدن الإفرنج الأخرى.

كنا اليوم وحتى قبل ساعة من المغرب في مدينة ساراتسين، تمَّ حجز التذاكر وتوفير أسباب الحركة، فانتقلنا من سير البحر إلى سير البرِّ، إذ انطلقنا في اليااسة مستقلِّين القطار البخاري نحو الشِّمال الغربي، طرفاً سكة الحديد مليئان بالمزارع والخضرة والأشجار والغابات، تتخلَّلها بنايات ذات اعتبار.

قطعان الخراف والخنازير والخيل ترتع في المروج، وحيثما وُجدت الأنهار، مدُّوا الجسور، لتبقى سكة الحديد متَّصلة، وأينما كان هنالك جبل قاموا بشقِّ طريق فيه، يُسمَّى تُل (1) وسقفوه لتعبر من وسطه عربات البخار، الغابات المحيطة بسكة الحديد في منتهى الجمال، تبدو منتظمة على سفوح جبال خلَّابة، يستمتع الناظر بمشاهدتها، ولا تكاد تجد بقعة تخلو من الخضرة. عند ذهابنا لسكة الحديد قام حاكم سراتسين بواجب الخدمة، وقد أخذنا معنا منها المشهدي نصر الله التركي الذي يُتقن الروسية.

(1) تُل: النفق. (المترجم).

سكّة الحديد

اعلم أنّهم يُسمُّون سكّة الحديد شُمنْدُفِر، شُمنُ بمعنى الطريق،
وحرف الدال زائد، وفِر تعني الحديد.

يتشكّل القطار البخاري في سكك الحديد من قِدر البخار، وخلفه
الفرن، وعلى كلّ جانب من جوانب القدر هناك أسطوانة تتحرّك فيها
المضخّة مُحدّثة بخار الماء الذي يخرج من مدخنة القدر، يتّصل بالقطار
البخاري عربة أخرى، تحمل مخزون الفحم والماء، وتسير بواسطة المضخّة
التي تُحرّك العربة الأولى.

يتّصل بالقطار البخاري مقطورات عدّة، تُسمّى واغُن، تتخلّلها نوافذ
زجاجية، تُطلُّ على المروج، تتّصل كلّ منها بالأخرى عبر جسور حديدية
صغيرة، والناس يتنقلون من مقطورة إلى أخرى، وكأنها غرف صغيرة
وكبيرة مضاءة ذات منظر جميل.

تُصنّف هذه المقطورات إلى درجات مختلفة، فالتى لها أغطية من
المخمل، فهي الدرجة الأولى، والتي أُغطيّتُها من الماهوت⁽¹⁾، فمن
الدرجة الثانية، وذات أغطية الجلد، فتلك الدرجة الثالثة، وحسب
ذلك، تختلف أسعار تذاكرها، وكلُّ من غرف الدرجات الثلاث تُسمّى
مقصورة، والأولى أكثر اعتباراً من الأخرين، وقد وضعوا للشخصيات
فيها المناضد والكراسي المتميّزة، وكلُّ العربات البخارية مزوَّدة
بمصابيح، تشعل ليلاً.

إذا كان القطار البخاري حامل بضاعة تجارية، فإنه يقطع سبعة فراسخ

(1) الماهوت: نوع من القماش، يُصنَع من الصوف. (المرجم).

في الساعة، وإن كان حاملاً للمسافرين فقط، فيقطع اثني عشر فرسخاً، وهو أسرع من الباخرة بمرات، لعدم وجود الموانع في طريقه، وفي بعض الأحيان، تخفُّ حركة القطار البخاري، لتصل خمسة وعشرين فرسًا في الساعة، وقيل إن القطار البخاري القوي يقطع ألف ذراع في الدقيقة الواحدة، ولو يُسرُّ له أن يسير في البحر، لجاب المحيط في ثمانية وعشرين يوماً، ومخترعه هو استيفن الذي صنعه في عام 1829 ميلادي في بريطانيا، وأطلق عليه اسم الصاروخ.

يبلغ طول السكك الممتدَّة في أرض روسيا واحداً وعشرين ألف كيلومتر.

لوازم سكَّة الحديد

أولاً: استاسيون، وهو نقطة توقُّف لتشحيم العجلة والعَرَادات، ومحطَّة استراحة للركَّاب، يتناولون فيها الطعام، ويحتسون القهوة، وهو بمثابة التُّرل. توجد فيه جميع أنواع الأُطعمة، والمسافة بين كلِّ استاسيون وآخر ثمانية عشر فرسًا، حيث يتوقَّف القطار البخاري لبضع دقائق.

ثانياً: غرفة البرقيات المصنوعة من الخشب، والمسافة بين محطَّات البرقيات هي ثلاثون عموداً خشبياً من أعمدة البرقيات.

ثالثاً: الآبار التي زُوِّدت بالمضخَّات، ويقومون بسحب المياه منها للقطار البخاري متى ما دعت الحاجة.

رابعاً: القراول، غرفة صغيرة، تتَّسع لشخص واحد، يقوم بحراسة الأسلاك، وإشعال المصابيح ليلاً.

خامساً: المخزن، وهو غرفة مُسَقَّفة طويلة مصنوعة من الخشب، تُفَرَّغ فيها الحمولات، كي تبقى مَصُونَة من الأمطار.

سادساً: عدد من عربات الخيول، لكي لا يتأخَّر المسافرون والبضاعة، وينتقلون بها حيثما شاؤوا.

سابعاً: الجاندارم، وهو الشرطي الذي يكون حاضراً في كلِّ استاسيون مع رئيسها لحراسة الطريق.

ثامناً: جدار مصنوع من الخشب والألواح بمحاذاة السكَّة، يمنع تساقط الحصى نحو السكَّة حين هبوب الرياح، ويُسمَّى شَبْر.

قراس (1)

السبت، التاسع عشر من شوَّال، دخلنا قراس قبيل المغرب بأربع ساعات، وكما تقدَّم ذكره، شاهدنا في الطريق بنايات واستاسيونات ومزارع، وفي كلِّ بيت ضيافة، كان قطار البخار يمكث لبضع دقائق، فيصعد بعض الركَّاب، ويترجَّل آخرون.

الصعوبة الكامنة في سكك الحديد هي استبدال القطار ونقل الحمولات، في هذه النقطة، تمَّ استبدال القطار ونقل الحمولة إلى قطار آخر، مكثنا في الاستاسيون لساعتين ريثما انتهوا من الإجراءات، القطار الثاني يتكوَّن من أربع وعشرين مقطورة متَّصلة مع بعضها، بينما كان الأوَّل مُكوَّن من ثلاث وثلاثين مقطورة، وحيثما تُستبدل القطارات، كانوا يستبدلون بالتذاكر أخرى.

(1) قراس: هي مدينة (قارص) التركية، وهي نقطة العبور بين الأناضول والقوقاز، وكانت من ضمن أراضي الأتحاد السوفيتي السابق. (المترجم).

أَزْل (1)

الأحد الموافق للعشرين من شهر شَوَّال كانت الحركة نحو الجنوب، بعد مضي أربع ساعات من الدسطة دخلنا أزل، وهي من المُدُن الروسية المعتبرة، وفيها نُزْل لائق. كانت ولاية ذات بنايات نظيفة مُنمَّقة، وشوارع معبَّدة، بلطوها كلَّها بالحجارة. يمرُّ نهر كبير، اسمه أكا⁽²⁾ من وسط المدينة، وهو أصغر بقليل من نهر الفولغا الذي من منبعه إلى المدينة مسافة خمسة وثلاثين فرستا، مدُّوا فوق النهر جسراً خشبياً قوياً، تعبر عليه العربات، وشاهدنا كنيسة كبيرة، يبدو أنه تمَّ بناؤها حديثاً.

تضمُّ المدينة من السكَّان سبعين ألف نسمة، وتجد فيها أنواع الفواكه والبقوليات. معظم تجارة القمح في روسيا تتمُّ فيها، وهنا استبدل العربية القطار البخاري، كان خمس عشرة مقطورة متَّصلة مع بعضها، فتوقَّفنا لخمس ساعات، وقد زال الألم من رِجْلي، وبتُّ أسير بلا ألم.

كَيْف (3)

يوم الاثنين، الحادي والعشرون من شهر شَوَّال، انطلقنا نحو المشرق، رأيت نُزلاً مرموقاً، ومصانع كثيرة في الطريق، اصطفت القطارات البخارية إلى جانبها حتَّى تُصلِّح. شاهدتُ في الصحراء قرية، فيها عشب أحمر وقمح أسود، وكما قيل إن لهذا القمح طاقة كبيرة، ويُستهلك لإطعام الجيش. بعد الظهر بساعة، وصلنا إلى قرية، فيها جسر مُحكم البناء،

(1) أزل: واسمها باللغة الروسية (أريول). (المترجم).

(2) أكا: واسمه باللغة الروسية (أوكا). (المترجم).

(3) كَيْف: كيف عاصمة جمهورية أوكرانيا. (المترجم).

يبلغ طوله فرستا واحداً، وشاهدنا فيها كنيسة كبيرة مزخرفة، وعلى مقربة من النهر، كان مصيف الجنود، إذ يتواجد في المكان فوجان من العسكر، وشاهدتُ أكثر من خمسين مستودعاً للغلات، كانت مليئة بالحبوب. وصولاً إلى كَيْف، شاهدنا على امتداد ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ غابات منتظمة نضرة. قُبيل المغرب بثلاث ساعات، دخلنا المدينة، ونزلنا في النُّزل رثماً يتمُّ استبدال القطار.

تقع مدينة كَيْف على مساحة، تتخللها المرتفعات والمنخفضات، وهي من المُدن الكبرى في روسيا. قبل ثمان مئة عام، كان يُطلق عليها اسم روسيا الصغيرة. يبلغ عدد سكاّنها مئة وعشرين ألف نسمة، وفيها ثلاث مئة وخمس وستون كنيسة بين صغيرة وكبيرة. يتواجد فيها أربعة أفواج من الجنود، وفوجان من القراق، واثنان عشر مدفعاً، تمرُّ سكك الحديد من وسط المدينة، وهي أكثر جمالاً وبهاءً بمرّات من حاجي طرخان. كان حاكم المدينة قد توجه في مهمّة إلى بطرسبرغ، وكان قائد الأفواج حاضراً، المسافة من هذه المدينة حتّى مدينة إدسا⁽¹⁾ تبلغ ستّ مئة فرستا، وإلى وارسو⁽²⁾ ثمان مئة فرستا، بقينا حتّى ساعة ونصف مضت من الليل، فانطلقنا بعد استبدال القطار، وكلُّ النُّزل التي مررنا بها كانت ذات رونق وأُبهة، والجوُّ اليوم كان ماطرأ.

في الشُّمندُفر

الثلاثاء الموافق للثاني والعشرين من شوّال كانت الحركة نحو الشرق

(1) إدسا: واسمها باللغة الروسية (أوديسا)، وهي من المُدن الكبرى في جمهورية أوكرانيا. تقع على ساحل البحر الأسود. (المترجم).

(2) وارسو: عاصمة بولندا. (المترجم).

إلى إدسا، شاهدنا في الطريق أودية خلّابة، وغابات جميلة، وبيوت ضيافة مرغوبة، كما رأينا مصانع عدّة، وكانوا قد زرعوا شَمَنْدراً كثيراً في هذه الطريق، وتبيّن لنا بعد التحقّق أنّ في إحدى نواحي هذه المنطقة ضاحية اسمها باولي، يقومون فيها بإنتاج سكر المكعبات من الشّمندر.

المسافة من باولي إلى حدود النمسا، والتي تُسمّى هونغري، تبلغ مئة وعشرين فرستا، بعد مضي أربع ساعات من الليل، دخلنا إدسا، قنصل إيران لم يكن حاضراً، كان قد قصد مياه العيون الحارّة للمعالجة، والد القنصل الذي كان رجلاً مُعمّراً ثرياً، وذا وجهة، حضر فور وصولنا لاستقبالنا عند القطار البخاري، وقام بدعوتنا إلى القنصلية، فلبينا دعوته. ذهبتُ أنا برفقة ولدي أبي النصر ميرزا، ومُحمّد ميرزا، والقهوجي، والساقي إلى القنصلية، وقمنا بإسكان المرافقين الآخرين في خان قريب منّا، والد القنصل كان رجلاً عارفاً بالأدب، ولقد كان قنصلاً لبلجيكا. كان يعمل بتجارة الحبوب، كما كان شريكاً في خطّ سكك الحديد، وله عمارات جميلة مزينة، أضافنا وأكرمنا من صميم قلبه، وقد منّ علينا كلّ الامتنان، بطيب معاشرته.

كانت له حليمة عاقلة، وابنان وابتنان، أحد أبنائه قنصل إيران هنا، وابنه الثاني كان يتكفّل بترتيب أمور والده الشخصية، إحدى بناته متزوّجة، وتسكن معهم في العمارة ذاتها، والبنات الأخرى لم تتزوّج بعد، كلّهم كانوا على قدر من المعرفة، ويُتقنون الفرنسية بامتياز، ومع أنّ مترجمهم كان المشهدي حَسَن التركي من طاقم القنصلية الروسية، ويُتقن الروسية، لكن القنصل كان يتحدّث بالفرنسية، وولدي أبو النصر ميرزا كان يقوم بمهمّة الترجمة، وإن كُنّا ضيوفاً عند القنصل، لكنّ، غالباً ما كان طبّاخنا يقوم بإعداد طعامنا الخاصّ ليل نهار، وبمنتهى طلاقة الوجه، كُنّا نتجنّب طعام الإفرنج.

كانت هذه المدينة قديماً متعلّقة بالحكومة العثمانية، لكنها الآن من البلاد المحتلّة لدى الروس. قبل سبعة وتسعين عاماً كانت هذه المدينة غابة وملاذاً لِلْصَّوَص، وقد عمرت على مرّ السنين، فبدأت العمارة فيها قبل خمسة وعشرين عاماً، كان ريشي ليو الفرنسي المؤسّس الأوّل لهذه المدينة، وقد مُنح الجنسية الروسية لخدماته، وبَنَوْا له نَصْباً تذكاريّاً.

فتح هذه المدينة بسكاویش، وانضوت تحت الحُكْم الروسي. مدينة في منتهى الجمال. تقع بمحاذاة البحر الأسود، ومُطلّة عليه، غالباً ما تكون أراضي هذه المدينة مُسطّحة، وقد قاموا بتنظيمها وَفَقّاً للقواعد الهندسية.

نظّموا فيها أُرُقّة وشوارع مُنسّقة، كلّها مفروشة بالحجارة. وسط الشارع فُرش بالحجارة الكبيرة، من أجل مرور العربات، والطرفان بالحجارة الصغيرة لعبور المارة، وغرسوا أشجار الروبينيا دائمة الخضرة على طرفي الشارع، فتبدو متساوية الشكل والارتفاع، والرّائي يشاهد على الطرفين طوابق من البنايات المنمّقة الجميلة، والمصاييح الغازية المنصوبة التي تشعل ليلاً، لتبدو في منتهى الصفاء، ووضعوا في بعض الشوارع تماثيل مُتقنة التّحت.

تكثر في المدينة العمارات والأبنية العالية، والحدائق، وبيوت الضيافة، ودُور العرض التي تضيء على المدينة مزيداً من التميّز، شوارعها في غاية النظافة، لا تعثر فيها على ذرّة من التراب، أو عود من القشّ، وإنك لا تجد في كلّ بلاد الإفرنج مدينة بهذا الجمال. يبلغ عدد سكّانها مئتين وخمسين ألف نسمة، دون وجود لأيّ إيراني فيها إلا إن كان عابراً أو مقيماً لعدّة أيّام.

يوم الأربعاء، الموافق للثالث والعشرين من شوّال جاء لملاقاتنا حاكم

إدسا، وهو برتبة جنرال، دار بيننا حديث مناسب، وقد دعاني للذهاب بجولة، ولأنني كنت متعباً، اعتذرتُ إليه. قضيتُ اليوم وليته بالاستراحة.

يوم الخميس، الرابع والعشرون من شوال، جاء قنصل الحكومة العثمانية صباحاً ببذلته الرسمية ونياشين حكومته لملاقاتنا، كان يجيد الفرنسية أيضاً، وتحدّث إلينا بالفرنسية والعثمانية، وغادرنَا بعد نصف ساعة.

استهوانا التجوال اليوم، فذهبنا برفقة مضيفنا القنصل إلى إحدى الحدائق، شاهدنا تماثيل جميلة في بعض الشوارع، ومعدّات الإطفاء الرائجة في بلاد الإفرنج، وبعد الجولة، عدنا أدراجنا إلى المنزل.

في يوم الجمعة، الخامس والعشرين من شوال بلعّتنا برقية من معالي معين المُلك⁽¹⁾ تفيد أنّ جلالة السلطان العثماني قام بتعيين عمارة كوك صو لضيافتنا، وإرساله منيف باشا ومسؤول التشريفات حتّى ساحل البُسفور لاستقبالنا. أرسلتُ لجلالته رسالة شكراً مُعلماً لجلالته بأنني سأنطلق غداً من إدسا، وسيكون وصولي بعد غد إلى بوغاز⁽²⁾ إسلامبول، في هذه الأثناء، جاء القائم بأعمال الخارجية العثمانية المقيم في إدسا، واسمه الميسيو قودرياسف، واستأذن للقائنا، بعد حصوله على الإذن، دخل وجلس، كان لنا حديث مناسب معه، وغادر بعد ساعة. كان رجلاً فطناً مُطّلعاً مُتقناً للُّغة، وهو الذي قام بترجمة برقية معين المُلك التي كانت باللغة الفرنسية.

مساءً ركبنا وذهبنا في جولة، وقمنا بترخيص مشهدي نصر الله التركي الذي كُنّا قد جنّنا به للترجمة، مرسلين إيّاه عند حاكم ساراتسين، وقد كتبنا كتاباً للحاكم، وأرسلنا له هدية.

(1) معين المُلك: السفير الإيراني في إسلامبول. (المترجم).

(2) بوغاز: هو مضيق البسفور الذي يصل ما بين مياه البحر الأسود وبحر مزمرة. (المترجم).

السبت الموافق للسادس والعشرين من شَوَّال، انطلقنا من إدسا، فجننا بمحاذاة البحر الأسود، وجلسنا في الباخرة الفرنسية، وقد حضر لوداعنا كلُّ من الحاكم، ورئيس الشرطة، ووكيل المطافئ، والقنصل برفقة نجله وصهره، ومُنظَّم مهامَّ الخارجية، وانصرفوا بعد الوداع.

البحر الأسود

يُسَمَّى هذا البحر بالفارسية البحر الأسود، لأن لون مائه يضرب إلى السواد، ويُسَمَّى أيضاً الأزرق. تصبُّ فيه أنهار كثيرة، ومياهه مالحة جداً، ممَّا يجعل طَعْم السمك فيه ليس لذيداً، والبحر ليس عميقاً كثيراً، فأقصى عمق له في الموانئ الشَّمالية يصل إلى ألف وواحد وعشرين قَلَّاجاً⁽¹⁾، وليس فيه مدُّ وجرُّ. تتخلَّله جزيرتان أو ثلاث تجاه إدسا، لم تكن موضع اهتمام. بعد مضي ساعتين من النهار، تحرَّكت الباخرة الفرنسية، فانطلقنا. كانت باخرة كبيرة ومجهزة، فقد أوصلوا ماء البحر باستخدام المضخَّات إلى أغلب النقاط فيها، ويتخلَّصون من الشوائب بعد استخلاص الماء العذب في البحر، فالماء طاهر قابل للاستعمال دون حيلة. عمَّال الباخرة وطاقمها في منتهى اللباقة والأدب، كان البحر اليوم هادئاً دون أيِّ تلاطم، والليلة حتَّى منتصفها كانت لطيفة.

في منتصف الليل، هبَّت رياح قوية، فانحرفت الباخرة عن مسارها قليلاً، لكنها لم تكن تلك الريح التي تُسبِّب تموج البحر، قام القبطان برفع علم الشمس والأسد احتراماً، وقام برسم الخدمة، كانت الحركة في عرض البحر نحو الجنوب، ومررنا بمحاذاة مرفأ أريكلي⁽²⁾.

(1) قَلَّاجا: قياس طول اليدين معاً. (المترجم).

(2) أريكلي: هي مدينة في مقاطعة طرابزون التركية على البحر الأسود. (المترجم).

الوصول إلى إسلامبول

يوم الأحد، الموافق للسابع والعشرين من شوال، وصلنا إلى بوغاز إسلامبول قبيل المغرب بخمس ساعات. فحضر لاستقبالنا كلُّ من معالي معين المُلْك كبير السفراء مع طاقم السفارة، وبرفقتهم السادة منيف باشا الوزير المختار السابق لدى طهران، ومنير بيك رئيس التشريفات، والمترجم الأوَّل للحكومة العثمانية العليَّة. كنتُ أعرف منيف باشا سابقاً، فقام معالي معين المُلْك بالتعريف بالآخرين، فتلاطفتُ مع الجميع.

صعدتُ من داخل الباخرة إلى السطح، فجلسنا على الأرائك، وانشغلتُ بالحديث مع المستقبلين. أعدوا لنا الوابور⁽¹⁾ السلطاني الخاص، فنزلنا إليه برفقة منيف باشا ورئيس التشريفات متوجهين نحو عمارة كوك صو الواقعة على يسار ساحل بوغاز، ثمَّ تبعنا معالي معين المُلْك في واور آخر برفقة الآخرين، وبصحبه معالي سليمان ميرزا الذي وصل إسلامبول عن طريق تبريز، وكان قد حضر لأجل استقبالنا.

عمارة كوك صو

هذه العمارة من أبنية السلطان عبد المجيد خان، عمارة متوسّطة البناء، تُسمَّى بالفارسية كلاه فرنكي، أي القُبَّعة الإفرنجية. تتكوّن البناية

(1) الوابور: اليخت. (المترجم).

من ثلاثة طوابق، الطابقان العلويان هما لجلوس الأجلَاء والمحترمين، والطابق السفلي لجلوس الخَدَم والحَشَم.

تمَّ بناء الجدران والسلالم كلُّها من الرخام المحجَّر والمشجَّر بشكل متقن، وتتوفَّر بها كلُّ أدوات الزينة من الشمعدانات والثريات والطاولات والكراسي والمرايا الكبيرة، ولا زالت المنامات منذ عهد السلطان عبد الحميد خان على أحسن حال إلى الآن.

ساحة كبيرة تُطَوَّق العمارة، تطلُّ على الخارج، من خلال أبواب كبيرة في ثلاث جهات، أحدها صوب الجنوب، على أرض تكسوها الخضرة، والثاني نحو الشَّمَال مقابلاً بوغاز، والثالث باتِّجاه الغرب محاذٍ للنهر، والحرَس يقف على جميع تلك الأبواب، وحوطوا العمارة بالحدائق، وغرسوا فيها شتَّى أنواع الورود.

هنالك بركة صغيرة إلى جنوب العمارة محفوفة بالخضرة النضرة، ومفتوحة من أحد الجوانب، تطلُّ على وادٍ واسع وخضرة كثيفة، يقصدها الناس من رجال ونساء للتنزُّه كلَّ مساء، لا سيَّما أيَّام الأحد. بُني بمحاذاة بوغاز بيت للسقاية، ومصطبة مرتفعة محاطة بالأشجار، ومظلَّلة، تجلس أغلب النساء فيها، كذلك بني مسجد قُبالة العمارة في الجهة الجنوبية، يقيمون الصلاة فيه، له إمام للجماعة وخُدَّام، أمَّا وجه تسمية العمارة كوك صو، فجاء نسبة إلى لون مياه النهر الذي يمرُّ بمحاذاتها، باتِّجاه بوغاز، فكلمة كوك تعني باللغة التركية الزرقة، وكلمة صو تعني الماء.

استضافة جلاله السلطان العثماني

بتكليف من جلاله السلطان عبد المجيد خان الذي ما زال متَّكناً

على سرير المُلك، متمكناً ومتمتعاً باستقلالية تامة، استضافنا معالي منيف باشا الذي كان يقضي معظم ليليه في العمارة، وحينما ينوي الذهاب إلى البيت، كان يستأذن بعد تناول العشاء، ويرجع في الصباح.

مشرف المطبخ المَلِكِيُّ يُوسُفُ أفندي، ورفقة اثنين وعشرين من طاقمه مخيّمين في الوادي، يقومون بالطبخ ليل نهار، وكانوا يُحضرون الغداء والعشاء الفاخرين على طاولة الطعام، كنّا نتناول الطعام مستخدمين السكّين والشوكة، ويقوم على خدمتنا أحد عشر نادلاً، بإشراف السيّد محمّد مسؤول الخدم، والسيّد محمّد مأمور الخزانة الخاصّة في المجلس، وكان علي بيك المساعد الخاصّ، والأجودان⁽¹⁾ مع العقيد مصطفى بيك، ونائب واحد، وخمسة وعشرون حارساً، وسلطان واحد، برفقة تسعة عشر من رجال الأمن، كانوا جميعاً رهن الخدمة ليل نهار، كنّا ندعو علي بيك معنا على الطاولة لمكانته، والآخرين كانوا يقومون بمهامهم، ويدومون على الخدمة.

جهّزوا لنا زورقين، ووابوراً بخارياً، سلطانياً جميلاً باسم مسرّت، مع قبطانه وطاقمه الثمانية والعشرين جانب العمارة في بوغاز، لكي نركب على متنه متى ما شئنا التجوال، وأعدّوا خمسة أحصنة خاصّة مجهزة ومزيّنة ومزركشة، يرافقها عمّال الإسطبل، لنركبها متى أردنا التنزّه، وكانت هنالك باخرة كبيرة مع قبطانها، وستّة عشر عاملاً، مهمّتها نقل المؤن إلى العمارة. لقد قاموا بواجب الضيافة بمنتهى الاحترام والتبجيل.

كنّا قد وزّعنا المرافقين لنا، فأرسلنا أبناء الأمراء، ومعالي الحاجّ ملّا باقر الواعظ، وملّا باشي، وكبير الكتّاب، والطبيب، والناظر، والساقي

(1) الأجودان: رتبة عسكرية فرنسية، وهي مُستخدمة في الجيش المغربي. (المترجم).

والقهوجي إلى عمارة كوك صو، والآخرين إلى مدينة إسلامبول، كان معالي معين المُلْك قد عيّن لهم منزلاً، فكانوا ضيوفاً عنده، وكثيراً ما كان يزورنا ليل نهار، ولم يغفل عنّا، فقد تحمّل عناء كثيراً، ومن محاسن الصدف أنّ منزله كان قريباً، لأنّه كان في موسم الاصطياف، وكان يمتلك بيتاً صيفياً تجاه روملي في حيّ بَيْك قُبَالَة كوك صو قرب السفارة، وقليلاً ما كان يذهب إلى المدينة.

بوغاز

بوغاز تعني باللغة التركية تنكه، والتي يُسمّيها العرب بالمضيق، وبالفرنسية يُسمّى المضيق الطبيعي الذي تعبر المياه من خلاله دِثْروا، كما يُسمّى المضيق الصناعي الذي يصل بحرَيْن ببعضهما قناة.

بوغاز إسلامبول هو مضيق طبيعي، تعبر من خلاله مياه البحر الأسود بمنتهى السرعة، فتصبُّ في البحر الأبيض وبحر مَرْمَرَة. يتجاوز طول المضيق الفرسخين، ويبلغ عرضه ألف ذراع، ويبلغ عمقه إلى مئة ذراع في الوسط، ويتراوح ما بين العشرة إلى العشرين ذراعاً في الضفاف، تخترقه ليل نهار سفن كبيرة، وزوارق تعمل على السولار بأحجام مختلفة، تعمل على نقل الناس بالأجر، يمكن للوابور الصغير الذي يعمل على السولار أن يقطع المضيق، أمّا الزوارق الشراعية وذات المجاديف، فيهدّدها الخطر بالغرق مع أدنى طغيان للبحر، الوابورات التي تعبر المضيق ليلاً مزوّدة بمصابيح خضراء، وأخرى حمراء على جهتي اليمين واليسار احترازاً من التصادم.

المناخ في جنوب بوغاز حار بسبب هبوب رياح الجنوب عبر اليايسة، ويُسمونها لُدْس، وفي شمّالها بارد لانطلاق الريح من جهة

البحر، ويُسمونها برياز، ويُسمون الطرف الواقع جنوب بوغاز، وهو الطريق من البحر الأسود تجاه إيران أناضولي حصاري، وهو تراب آسيا ممتداً وصولاً ل طهران والصين، ويطلقون على الطرف الشمالي منها روملي حصار، وهو تراب أوروبا.

ساحل بوغاز في الجانبين يتشكل من مرتفعات ومنخفضات، وتُسمى بوادي ماهور⁽¹⁾، بنى الوكلاء والوجهاء وغيرهم عمارات وبنيات عالية، ومساجد متعالية على طرفي الماء عند الشاطئ، وكلها في غاية الجمال، ولم نشاهد في أية ولاية عمارات على طرفي الماء، كما شاهدنا هنا، وكأن بوغاز إسلامبول انفردت عن غيرها في هذا، تكثر أشجار السرو والصنوبر في المنطقة، وكثيراً ما كانوا يغرسون الأشجار في المقابر.

جانب روملي أكثر اعتباراً من جانب أناضولي، لأن جلاله السلطان ومنتسبيه يسكنون في ذلك الجانب، ومعظم البنيات الحكومية موجودة هناك، وقد يأتي وجهاء إسلامبول وسفراء الدول الصديقة للإقامة هنا في موسم الاصطياف، ووالدة السلطان عبد العزيز الشهيد، وسلطان مراد المعزول من سكان هذه المنطقة.

من العمارات الشهيرة في روملي عمارة يالي شراغان التي بناها السلطان محمود، وعمارة دولمه باغشه سي التي بناها السلطان عبد العزيز، وتُسمى، أيضاً، بشيك طاش، على اسم المكان الذي تقع فيه، وعمارة يلدز التي كان يسكنها جلاله السلطان عبد المجيد خان، وعمارة فاطمة سلطان بنت عبد المجيد خان المجاورة للبحر، وعمارة رشيد باشان، وعمارة معين الملك السفير الإيراني، وعمارات أخرى لسفراء الدول الصديقة، فكلها بنيات شاهقة.

(1) الماهور: سلسلة من الروابي تشكلت على سفح الجبل.

ومن العمارات الشهيرة الواقعة في الجانب الأناضولي عمارة بيكلر بيكي المسمّاة على اسم الحيّ الواقعة فيه، وقد شرفهم جلالة الملك ناصر الدين شاه في رحلته الأولى إلى الإفرنج بنزوله في هذه العمارة، وعمارة كوك صو التي نزلنا فيها، وعمارة إسكي سراي، وتقع في مكان مرتفع، وهي عمارة قديمة للسلطين العثمانيينُ غدت مهجورة، ويحيط بها سياج مُستحکم منيع، ومعسكر سليمية، وعمارة فرهاد باشا، والشريف عبد المطلب شريف مكّة الحالي، وعمارة قرقلعه سي⁽¹⁾ التي كانت موضعاً لجلوس ابنة قسطنطين، وقد بُنيت في وسط الماء، وحكاية بنائها لا تخلو من العبرة، ملخصها أن هذه البنت كانت تعاني من وسواس لسع الأفاعي، فقاموا ببناء العمارة لها في وسط مياه بوزغاز، لتكون في مأمن، وقد حدث أن جاؤها بسلة من العنب، فناضت أفعى، كانت تختبئ بين قطوف العنب، فلسعتها بغتة، فماتت (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)⁽²⁾، وبما أن أغلب العمارات في إسلامبول مبنية من الخشب والألواح، فكثيراً ما كانت تشتعل العمارات، ويُطلقون على تلك الحرائق اسم يانقين.

وفي جانب روملي، وقريباً من المدينة شيّدوا برجاً مرتفعاً مشرفاً على المدينة بأسرها، وحيثما كانت تظهر معالم دخان، فإنها تدلُّ على يانقين، كان حُرَّاس البرج يقومون بإعلام السكّان بمكان الحريق، فيجتمع الناس، ويقومون بإطفائه أو هدم المنزل، كي لا تتسرّب النيران إلى البيوت الأخرى.

منذ مدّة قرّروا أن يُشيّدوا العمارات باستخدام الحجارة، ليكونوا في مأمن من حادثة يانقين، وغالباً ما تتعرّض العمارات التي تُبنى من

(1) قرقلعه سي: لفظها باللغة التركية الحديثة (قركاليسي). (المترجم).

(2) ورد نصّ الآية في عدّة سور، منها: سورة الأنعام، الآية 96 وسورة يس، الآية 36.

الخشب للحريق، وهم بينونها من الخشب، لأن معظم مُدُنهم تستقرُّ قرب البحر، ولا يتوقَّر إلاّ القليل من الحجارة هناك، ولقلّة كلفتها بالمقارنة مع التكاليف الباهظة للبناء بالحجارة إن أحضروها من أماكن أخرى بواسطة البواخر، وبما أن الحديث وصل إلى هنا، فمن الجدير أن نذكر حالات مدينة إسلامبول وأبنيتها وعماراتها ومساجدها، وبعدها نأتي على بيان ما شاهدناه.

إسلامبول

كانت تُسمّى إسلامبول قديماً القسطنطينية، وهي منسوبة إلى قسطنطين، فبعد أن قام السلطان محمّد الثاني، نجل السلطان مراد الثاني بفتح المدينة في عام 858 لقب بالفتح، وأطلق اسم إسلامبول عليها، وتعني مفردة بول باللغة التركية الكثرة، ومعنى الاسم أن الإسلام كثير في هذه المدينة، وقد ذكروا وجوهاً أخرى لتسميتها، لا يطول المقام لذكرها، تضمُّ المدينة ثلاثة أحياء، أحدها بيك أوغلو، ويقطنه الأرامنة والإفرنج، وهو الأكثر إعماراً من الحيّين الآخرين، والحيّ الثاني إسلامبول ذاتها التي يقيم فيها المسلمون، ويتكسّب الأرامنة وغيرهم فيها، ومدُّوا جسراً حديدياً بمنتهى الاستحكام بين حيّ بيك أوغلو وإسلامبول، يبلغ طوله ثمان مئة قدّم، وعرضه ثلاثين ذراعاً، بحيث يمكن أن تسلكه العربات، ويعبره المشاة ليل نهار للانتقال من هذا الحيّ لذاك مقابل نصف شاهي عند الذهاب أو الإياب، ويبلغ مجمل إيرادات عبوره ألف تومان يومياً، وفي هذا الحيّ تكثُر المساجد العالية التي تطفق شهرتها الآفاق، ولا تجد نظيراً لها في المعمورة منها مسجد آيا صوفيا ومسجد السلطان سليمان، وسنُفصّل ذكراً كلّ مسجد على

حَدَّة في موقعه، والحَيِّ الثالث هو إسكودار، وتقع فيه عمارة السلطان القديمة إسكوسرا⁽¹⁾.

في هذه المدينة، يستطيعون إحضار البضائع التجارية، وبكُلِّ سهولة من أقصى بلاد العالم عبر البحر، لذلك تجد فيها كلَّ ما هو نفيس ومُحَبَّب من البضاعة، وتفوق سعة الأراضي العثمانية عموم الممالك الأوروبية، ومع أن ولاية البلغار وبوضيا⁽²⁾، وهي بلاد البوشناق خرجت عن سيطرة العثمانيين، إلا أن كلَّ تلك الأراضي ببرِّها وبحرِّها ما زالت تحت سيطرتهم، ويُسمُّون السلطان العثماني سلطان البرِّين وخاقان البحرِّين.

العمارات السلطانية

عمارة دولمه باغشه سي من عمارات السلطان عبد العزيز؛ وهي عمارة بمنتهى إبداع الحُسن، معظم السلالم والجدران مَبْنِيَّة من الرخام، وضعوا أربعة عشر عمود رخام منقَّشاً في وسط العمارة، ترتفع مع ارتفاع السلالم فصاعداً، وقد مُلئت البناية بالأعمال اليدوية، ولذلك سُمِّيت باغشه سي، فيها حديقة كبيرة، يتوسَّطها حوض في مركزه جبل صناعي صغير، وتجري المياه من أطراف الجبل إلى الحوض. بُنيت في العمارة غرف أرضية وعلوية، ومن فوقها غرف طويلة وعريضة، وكلُّها مُزَيَّنة ومُجهَّزة بأثاث السلطنة من كلِّ الأصناف الفاخرة، وضعوا مرايا كبيرة، فتحوا ظهرها طاقات، وفرشوا سجاجيد ممتازة، وعلَّقوا لوحات جميلة وتُريَّات أنيقة، وهناك زهريات كبيرة وصغيرة، وطيور مُحنَّطة مختلفة غريبة وعجيبة، وكأنها ما زالت حيَّة، تقع العمارة عند انتهاء حَيِّ قلاته في بشيك تاش، وحَيِّ فندقلي من الأحياء المتَّصلة بها.

(1) إسكوسرا: وصاب لفظها باللغة التركية (إسكي سراي). (المترجم).

(2) بوضيا: البوسنة.

عمارة بيكلر بيكي في الأناضول بُنيت على نسق البناءات الإفرنجية والإيرانية والعثمانية، جدرانها وسلالمها مبنية من الرخام، وتوجد قاعة فسيحة فيها، جُلُّ سقفها مصنوع من الخشب والألواح، تقع قُبَّالَتَهَا حديقة كبيرة، تحتوي على تماثيل للأسود قد أبدعوا في نحتها، وفي محيط البناية حديقة أخرى على شكل طبقات، تعلو بعضها، وطريقها فسيحة محفوفة بالدرابزينات والأشجار، تمرُّ من خلالها العربات، وتتخلَّلُها مصابيح الزيت المضاءة، وزينوا جدران كلِّ طبقة من طبقات الحديقة بشجر اللبَّاب الملتصق، فتبدو الجدران خضراء نضرة، وفي ساحة الحديقة، قاموا بتنظيم الجُنَيْنَات الخلابة على الطراز الإفرنجي، حديقة الحيوانات تقع في الطبقة العلوية، وقيدوا الفهود والأسود وسط غرف خاصّة بها، ومن حولها سياج حديدي منيع، تجد في حديقة الحيوانات أنواع الببغاوات مختلفة الألوان، وكثيراً من أصناف الطيور، وأنواع الوحوش.

الغرفة التي كانوا قد زينوها بالخشب المنحوت المزخرف كانت بمنتهى التميُّز، وطلبت بالألوان الأخاذة، جميع أدوات الزينة وأثاث السلطنة متوفّر في الغرف، أرضيتها مفروشة بحصير من النوع الفاخر، وعند إسكان أحد الضيوف فيها، تُفَرَّش بالسجّاد الإفرنجي، وفي أسفل القاعة الكبيرة حوض من الرخام، تُصَبُّ فيه التماثيل المختلفة المحيطة به الماء من أفواهها، تمَّ إعداد الحوض من قطعة واحدة من الرخام بأعمدة، نوافذ العمارة العريضة والطويلة تُفَتَّح للخارج، وأتقن صنع النوافذ الثقيلة، بحيث يستطيع الطفل رفعها وإنزالها وتثبيت مقدار فتحها بالقدر الذي يشاء دون أيِّ عناء، ودون استخدام رَزَّة للتثبيت، وعُطِّيت جدران العمارة بأقمشة إفرنجية، لها مميّزات خاصّة، وفي الطرف الأعلى من الحديقة بنى السلطان محمود عمارة من ثلاث غرف، وأمامها

بحيرة كبيرة، وبقيت زينة الغرف المنمّقة منذ عهد بانها، في القسم العلوي من العمارة حمّام من الرخام ذو إنارة كافية، وفيه مكان مخصّص لتبديل الملابس، وله نوافذ تُفَتَّح نحو المروج، ويتزوّد بالماء الساخن والبارد من خزانين، وتنسكب المياه في حوض الحمّام من صنابير كثيرة.

عمارة يالي شراغان، كانت عمارة بديعة قبل أن يلحقها الخراب في عهد السلطان عبد العزيز، ثم أُعيد تجديد بنائها لاحقاً، تقع في جانب روملي، بناها السلطان محمود، وأغلب جدرانها وأعمدتها وسلالمها مصنوعة من الرخام جلبوه من بحر مَرْمَرَة، تتخلّلها خطوط سوداء غير ملساء، وغالباً ما يتكوّن رخام الأرضيات والجدران من قطعة واحدة، ويوجد بها حمّام من الرخام، وهنا يبنون حمّاماتهم غير بعيدة عن العمارات، بل أحياناً داخلها، ويكون سطحها مساوياً لسطح الغرف، وتحت أرضية الحمّام فراغ، كي يسلّطوا النار من الخارج، ليسخن رخام أرضية الحمّام، وعندما يُفَتَّح صُنْبُور الخزان الساخن، يصبح هواء الحمّام أكثر سخونة، مصدر ماء الصنابير يقع خلف الحمّام في موقع تسخين المياه، وعندما يقومون بفتح الصنابير، يتدفّق الماء الساخن من إحداهما، والبارد من الأخرى، وفي الحمّام أحواض صغيرة وكبيرة من الرخام.

قُبالة العمارة في الجانب الآخر، توجد حديقة، يفصل بينهما زقاق، ومدّوا جسراً إليها، ليكون مدخلاً للسلطان وحرّمه، وفيها عدّة أُسُود، وبيغاوات جميلة الألوان، وطائر الدرّاج الذهبي الأسترالي، وأنواع أخرى من الدرّاج إفريقية وهندية وصينية، وشاهدتُ نمرّاً يتميّز جلده بنقاط بيضاء فضلاً عن الخطوط السوداء، وهناك الكثير من الحيوانات فيها.

وقد قام جلالة السلطان ببناء عمارة في عامنا هذا، لها اعتبارها من النواحي جميعها.

نسب السلاطين العثمانيين

اعلم أن جلالة السلطان عبد الحميد خان المترَّبَع على العرش في وقتنا الحاضر، وشقيقه المعزول السلطان مراد الخامس، هما ولدا السلطان عبد المجيد خان، والسلطان عبد المجيد خان هو النجل الأكبر للسلطان محمود خان الثاني، والسلطان عبد العزيز خان الذي مات مقتولاً النجل الثاني، وللسلطان عبد العزيز خان ولد، اسمه عز الدين يُوسُف، والعلة من وراء عدم تمكُّن عزِّ الدين يُوسُف من اعتلاء العرش بعد مقتل والده أن القانون العثماني يحتمُّ على أن تكون ولاية العهد لأكبر السلالة العثمانية، وقد أخفقت مساعي عبد العزيز خان لتنصيب عز الدين يُوسُف في منصب ولاية العهد، لعدم نزول الأوصياء عند رغبته، وبعد قتله، قاموا بتنصيب السلطان مراد أكبر السلالة العثمانية، وأجلسوه على عرش السلطنة، فكانوا يميلون نحوه، ويرونه شخصاً حليماً. ولما طرأت تغييرات على أحواله، قاموا بعزله، وأودعوه السجن، وأجلسوا السلطان عبد الحميد خان بدلاً منه، وهو الآن في كمال استقلاله، وعُمره المبارك تسعة وثلاثون عاماً.

السلطان بايزيد خان هو نجل السلطان محمَّد الفاتح، في شهر ربيع الأوَّل من عام 886 هـ جلس على العرش، وفارق الحياة في مُحرَّم عام 918 هـ.

السلطان سليمان هو نجل السلطان سليم الأوَّل، جلس على العرش في عام 926 هـ، وقد حكم ثمانية وأربعين عاماً، فوافته المنية في عام 974 هـ وكان عُمره يناهز ستَّة وسبعين عاماً.

السلطان أحمد خان نجل السلطان محمَّد خان الثالث، وُلد في عام

999 هـ، وجلس على العرش في عام 1012هـ، وكلمة بختي⁽¹⁾ بحساب الحروف تساوي تاريخ جلوسه، جلس في سنّ الرابعة عشرة، ودام حكمه أربعة عشر عاماً، وتوفيّ في شهر ذي القعدة من عام 1026هـ.

السلطان عثمان نجل السلطان مصطفى خان الثاني، جلس على العرش في عام 1168هـ بعد شقيقه السلطان محمود خان الأوّل، فدام حكمه ثلاث سنوات.

السلطان محمود خان نجل السلطان عبد الحميد خان، وُلد في رمضان عام 1199هـ، وجلس على العرش في الرابع من جمادى الآخرة عام 1223هـ، ووافته المنية يوم الاثنين، الموافق للتاسع عشر من شهر ربيع الآخر عام 1255هـ، ودام حكمه واحداً وثلاثين عاماً وعشرة أشهر وأربعة عشر يوماً، في عام 1241هـ قام بقتل طائفة نيكي شريك⁽²⁾.

السلطان عبد المجيد خان النجل الأكبر للسلطان محمود خان الثاني، وُلد في الرابع من شعبان عام 1238هـ، وجلس على العرش في التاسع عشر من شهر ربيع الآخر عام 1255هـ. في عام 1259هـ قام بنزع سيطرة محمّد علي باشا عن الشامات والحرّمين بدعم من الحكومة البريطانية البهية، وقد حدثت وقعة سوسته بل⁽³⁾ في عام 1271هـ، ووافته المنية في الثامن عشر من ذي الحجة الحرام عام 1277هـ.

السلطان عبد العزيز خان النجل الثاني للسلطان محمود خان الثاني، جلس على العرش في الخامس عشر من شهر ذي الحجة

(1) بختي: تعني السعد. (المترجم).

(2) نيكي شريك: هم الإنكشاريون (الجنود الجدد). (المترجم).

(3) سوسته بل: هي عاصمة شبه جزيرة القرم. (المترجم).

الحرام عام 1277هـ، في عام 1279 توجّه إلى مصر، وعام 1284هـ إلى باريس.

المسجد العالية

مسجد آيا صوفيا، ومسجد السلطان سليمان هما من المساجد الشاهقة والمعروفة، فكلُّ مَنْ مرَّ من تلك الطريق من سادة وعامّة قد شاهد الاثنيْن، وعرفهما، وقلّما تجد مسجداً يبلغ مسجد آيا صوفيا طولاً و عرضاً وارتفاعاً.

يبلغ طول المسجد مئتين وتسعة وستين قدماً، وعرضه مئتين واثنين وأربعين قدماً، وارتفاعه خمسة وخمسين متراً، ويرتفع على مئة وخمسة عشر عموداً صغيراً وكبيراً مستخدمة في الأسفل والأعلى وفي المخرج وفي الأقواس المربّعة وسط المسجد، وكلُّها من قطعة واحدة، أعمدته اثنا عشر السفلية من حجر السماق، في وسطه مكانان للسقاية مصنوعان من الرخام المنحوت قطعة واحدة، فيهما صنابير ماء من كلّ الجهات تشبه الملائكة المقرّبين الأربعة شكلاً.

علّقت على جوانب الطابق العلوي لوحات كبيرة، كتبت بماء الذهب، خُطّت عليها أسماء الله الحُسنى والرسول وعليّ والحسنين والخلفاء الثلاثة، وخصّص في الطابق العلوي مكان للسلطان، يقيم الصلاة فيه.

يتجاوز عُمر المسجد الألف وثلاث مئة عام. في البدء كان كنيسة، وقد حوَّله السلطان محمّد الفاتح إلى مسجد بعد فتح إسلامبول، وهذا سبب انحراف محرابه.

ولأن معظم الناس على علم بهذا المسجد، اكتفيتُ بهذا القدر من الحديث عنه.

يأتي في المرتبة الثانية بعد مسجد آيا صوفيا مسجد السلطان سليمان الذي بناه السلطان سليمان الأوّل نجل السلطان سليم، للمسجد أربعة أعمدة قطعة واحدة، يبلغ محيط كلّ منها خمسة أذرع تقريباً، وحجارة الجدران من الرخام المنقوش المخطّط، ويضمُّ صحن المسجد الواقع في الطرف الشرقي رواقاً، يحوطه خمسة وعشرون عموداً، سبعة منها لحقها ضرر؛ وكان جلاله السلطان قد أمر بتجديد بنائها.

والآخر هو جامع السلطان محمّد الفاتح، وهو أوّل مسجد تمّ بناؤه في إسلامبول، فقد بُدئَ بناؤه في جُمادى الآخرة من عام 867 هـ بعد عام من فتح المدينة، وانتهى العمل منه في رَجَب عام 870 هـ؛ له عشرون عموداً، ستّة منها كبيرة، وقُبَّتَه أصغر وأقلُّ ارتفاعاً من المساجد الأخرى، وفيه مدرسة.

ثاني المساجد التي بُنيت في العهد الإسلامي في إسلامبول مسجد السلطان بايزيد نجل السلطان محمّد الفاتح الذي بدأ بينائه في عام 903 هـ، وانتهى العمل منه في عام 911 هـ، يقع قرب ميدان عسكرية، وهو جامع صغير، في وسطه أربع قواعد حجرية، وفي وسط كلّ قاعدة نصبوا عموداً من قطعة واحدة، يضرب لونه إلى لون السُمّاق، ويضمُّ صحن المسجد عشرين عموداً، كلّ منها من قطعة واحدة.

ثمّ يأتي ذِكر مسجد والدة السلطان عبد العزيز خان، وهو مسجد صغير مُنمَّق، ويُعَدُّ من المساجد الحديثة، إذ انتهى العمل منه في عام 1288 هـ، وبُنيت مدرسة إلى جانبه، أدوات هذا المسجد مُنقَّحة جداً،

فيه سجاد وسُرَادِق من القماش المُوَشَّح ومصاييح وغيرها، وعلقت فيه خمس ثُرَيَّات، تُشعل بزيت الزيتون، إحداها زجاجية كبيرة في الوسط، وأربع منها نحاسية معلقة في الزوايا.

ومن المساجد البارزة في إسلامبول مسجد السلطان عثمان، وجامع السلطان أحمد خان، وهما مسجدان حديثا الإنشاء.

المساجد التي سبق ذكرها لا تُقَارَن بعظمة وهيبة مسجدي آيا صوفيا، ومسجد السلطان سليمان، إلا أنه وجب علينا عدم إغفالها طالما الحديث مسترسل عن المساجد المعروفة في المدينة.

يوم الاثنين، الموافق للثامن والعشرين من شوال، توقفتنا في كوك صو، جاء معالي معين الملك، وبرفته معالي منيف باشا، فتجاذبنا أطراف الحديث معهما، وبعد انتهاء المجلس، ذهب معالي معين الملك إلى سفارة يالي بيك.

يوم الثلاثاء، التاسع والعشرون من شوال قام معالي معين الملك السفير الكبير بدعوتي ودعوة الخواص من أتباعي إلى سفارة يالي بيك لتناول وجبة الغداء. جلست ومعالي منيف باشا في الوابور السلطاني الخاص مرافقاً خاصتي، وانطلقنا مكان دعوتنا.

كانت عمارة السفارة حسنة، تضم جنيئة منمقة ظريفة ذات طبقات، بعد التجوال في الجنيئة، ذهبنا إلى الحمام الخاص بالعمارة، فاغتسلت. جاء لزيارتنا معالي سعيد باشا رئيس الوكلاء الذي كان برتبة وزير، لكنه لم يُمنح هذا اللقب بعد، فتحدثنا معاً في كل المجالات حديثاً ودياً، وغادر.

حضر اليوم كلُّ من إمام جُمُعة أُردييل⁽¹⁾ وأغا حَسَن وكييل الحكومة البريطانية اللذَّين كانا نيويان الذهب لمكَّة المعظَّمة، تناولنا الطعام على الطاولة، وعليها ممَّا لذَّ وطاب من الأَعذية الإيرانية وغير الإيرانية، كان الطعام شهياً. عدنا مساءً إلى عمارة كوك صو.

يوم الأربعاء السَّلخ⁽²⁾ من شوَّال، جاء لزيارتنا معالي عاصم باشا وزير الخارجية، وقد جرى حديث مناسب بيننا.

من المقرَّر أن تتشرَّف اليوم بزيارة جلالة السلطان. فقبيل المغرب بستَّ ساعات، توجَّهتُ برفقة صاحبي المعالي معين المُلْك، ومنيف باشا بالوابور الخاصِّ نحو روملي، وعند وصولنا، وجدناهم قد أعدُّوا لنا جانب عمارة شراغان يالي عربية خاصَّة مربوطة بأربعة أحصنة، يرافقها سلاح الفرسان.

كان جلالتُه جالساً في غرفته الخاصَّة بعمارة يلدز، جلستُ أنا وصاحبنا المعالي والمرافقون لعشر دقائق في غرفة أخرى، ثمَّ توجَّهنا لجلالة السلطان بواسطة الحاجب، كان واقفاً عند الباب، ينظر إلينا باحترام، دخلنا أنا والأمراء ومعالي معين المُلْك، وطأطأنا رؤوسنا برسم الاحترام، ووقفنا بنهاية الأدب، فقال: بسم الله، تقدِّموا.

تقدَّم جلالة السلطان عبد المجيد، ووقف إلى جانب الكرسي، وقال: اجلس هنا، أردتُ أن أجلس بعيداً احتراماً لجلالتُه، فقال: اقترب أكثر، وأجلستني قربه بإصرار، وكان الفاصل بيني وبين السلطان كرسي واحد، ثمَّ أذن لمعالي معين المُلْك والأمراء أن يجلسوا، فجلسوا.

(1) أُردييل: مدينة إيرانية، تقع شَمال غرب البلاد قرب الحدود مع أذربيجان. (المترجم).

(2) السَّلخ: يُسمَّى اليوم الأخير من الشهر السَّلخ. (المترجم).

كان بعض خواصّ خَدَم السلطان حاضرين أيضاً، فتفقَدنا، وسأل عن أحوالنا، وتلاطف معنا، وتحدّثتُ مع جلالته بمنتهى الأدب عن شؤون تخصّ الاتحاد والاتّفاق بين الدولتين العليّتين، وتطرّقتُ إلى السّلم والصفاء القائم بينهما.

كان جلالته يتكلّم بالتركية، وكنتُ أَرُدُّ عليه بالتركية⁽¹⁾، وأستعين بمعالي معين المُلْك في بعض المفردات الإسلاميّة، ليَتَّضح الكلام أكثر، استدعى جلالته ابنه الأصغر، وكان مرتدياً بذلته العسكرية متوشّحاً بالفانسقة⁽²⁾، فقرأ لنا صحيفة قراءة مُتَقَنَة. كانت ملامح الموهبة جليّة على وجناته وحركاته.

طال بنا المقام، جلالته كان بمنتهى الأدب والوقار، فأمرنا أن نحضر في إحدى الليالي على مائدة العشاء، فقلتُ لجلالته: هذا من دواعي الشرف لي أن أحضر ثانية لأنهل من فيضكم المبارك، ومن ثمّ، استأذنتُ، فنهض جلالته، ورافقني حتّى عتبة الباب، وقال: عليّ أن أُعرِّفَكَ بِخاصّة خَدَمِي، والجمع الحاضرين في المجلس.

فعرّف بكُلِّ من معالي وكيل باشي، وغازي عثمان باشا مشير الخلوة، وصمد باشا أمين الخلوة، ونجيب باشا فريق الخلوة، وهو بمنزلة رئيس الخَدَم، ورضاي بيك كبير الكتاب، وخليل باشا الأجودان، والكلُّ كان منشغلاً بخدمة السلطان، ومن ثمّ، ذهبنا إلى غرفة أخرى، لشرب العصائر واحتساء القهوة، ثمّ توجّهنا إلى محاذاة بوغاز، فركبنا الوابور السلطاني قاصدين عمارة كوك صو. وفي المساء تجوّلنا برفقة منيف باشا.

(1) بما أن القاجار كانوا من القوميات التركية التي حكمت إيران، فقد كانت التركية الآذرية لغة البلاط والسلاطين. (المترجم).

(2) الفانسقة: وردت خطأ في أصل الكتاب (فالسقة). والفانسقة في الروسية هي نوع من البنادق التي كانت مُستخدمة في إيران آنذاك، وحرّام الذخيرة أيضاً يُسمّى فانسقة. (معجم دهخدا).

يوم الخميس، عُرِّدَ ذِي الْقَعْدَةِ الْحَرَامِ، وَبَعْدَ الْغَدَاءِ رَكِبْنَا الْوَابُورَ الْخَاصَّ بِرَفَقَةٍ مَعَالِي مَعِينِ الْمُلْكِ قَاصِدِينَ الْمَدِينَةَ لِمَزَارَةِ أَصْحَابِ الْمَعَالِي وَزَيْرِ الْخَارِجِيَّةِ وَالْوَكِيلِ بَاشِي. زَرْنَا مَعَالِي وَكَيْلَ بَاشِي أَوَّلًا، وَمِنْ ثَمَّ، تَوَجَّهْنَا إِلَى بَيْتِ مَعَالِي وَزَيْرِ الْخَارِجِيَّةِ، فَالْتَقَيْنَا بِهِ، بَعْدَ ذَلِكَ قَصَدْتُ السَّفَارَةَ الْإِيرَانِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ الْبَابِ الْعَالِي، صَلَّيْتُ هُنَاكَ. وَبَعْدَ تَنَاوُلِ وَجِبَةِ الْعِشَاءِ وَشَرَبِ الشَّايِ، عَدْتُ أُدْرَاجِي، وَقَضَيْتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، الثَّانِي مِنَ ذِي الْقَعْدَةِ الْحَرَامِ مُسْتَرِحًا فِي عِمَارَةِ كُوكِ صُ.

السَّبْتِ، الثَّلَاثِ مِنَ ذِي الْقَعْدَةِ، ذَهَبْتُ وَصَاحِبَا الْمَعَالِي مَعِينِ الْمُلْكِ، وَمَنِيْفَ بَاشَا، وَالْأَمْرَاءَ، إِلَى بَيْتِ عِدَارَةِ فِرِّ الَّذِي كَانَ وَحِيدَ عَصْرِهِ فِي فَنِّ التَّصْوِيرِ، فَالْتَقَطْنَا لَنَا صُورًا مُخْتَلِفَةً لِلذِّكْرِ.

قَامَ بِتَحْضِيرِ أَدْوَاتِ التَّصْوِيرِ، وَالتَّقَطُّ لِي صُورًا عَلَى ثَلَاثِ حَالَاتٍ، إِحْدَاهَا وَقُوفًا بِبِرِّي الرَّسْمِيَّةِ، وَالْأُخْرَى جُلُوسًا، وَالْأُخْرَى كَانَتْ صُورَةً جَمَاعِيَّةً، وَلِأَنَّ الْجَوَّ لَمْ يَكُنْ مُسَاعِدًا لِالتَّقَاتِ صُورَ أَكْثَر. غَادَرْنَا الْمَكَانَ، رَكِبْنَا فِي الْعَرَبَةِ، وَوَصَلْنَا سَاحِلَ بُوغَازِ. فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ، شَاهَدْنَا الْحَدِيقَةَ الْوَطْنِيَّةَ حَدِيثَةَ الْإِنْشَاءِ، فَزَلْنَا مِنَ الْعَرَبَةِ، وَدَخَلْنَا، كَانَتْ حَدِيقَةً غَنَاءً، مَوْقِعَهَا مُشْرِفٌ عَلَى أَرْضٍ، تَكْثُرُ فِيهَا الْأَشْجَارُ، كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْإِفْرَنْجِ رِجَالًا وَنِسَاءً يَتَجَوَّلُونَ فِيهَا، وَآخَرُونَ يَجْلِسُونَ عَلَى الْمَقَاعِدِ، بَعْدَ ذَلِكَ رَكِبْنَا الْوَابُورَ، وَقَصَدْنَا بَيْتَ مَعَالِي مَعِينِ الْمُلْكِ لِأَدَاءِ الْوَاجِبِ، ثُمَّ عَدْنَا إِلَى عِمَارَةِ كُوكِ صُ.

الْأَحَدَ الرَّابِعَ مِنَ ذِي الْقَعْدَةِ، وَبَعْدَمَا وَصَفْتُ لِي صَاحِبَا الْمَعَالِي مَعِينِ الْمُلْكِ وَمَنِيْفَ بَاشَا قَصْرَ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الَّذِي يَقَعُ خَارِجَ

كوك صو، كان القصر منتزهاً للسلطان، تواعدنا أن نذهب اليوم، وتناول وجبة الغداء هنالك، فقام خَدَم جلاله السلطان المداومون على الخدمة بتحضير طعام الغداء في القصر. بعد مضي ثلاث ساعات من النهار، ركبتُ وبرفتي أصحاب المعالي والأمراء على الخيول السلطانية الخاصّة، وقصدنا المكان، لقد كان حقاً مكاناً خلّاباً، مياهه جارية، وأجوائه ساحرة:

الحبُّ تبكي والرياضُ ضواجِكُ والوقتُ صافٍ والنسيمُ رخاءٌ⁽¹⁾

قضينا وقتاً ممتعاً بفضل الأجواء المهيّأة، ومصاحبة أصحاب المعالي.

مساءً توجّهنا برفقة معالي معين المُلك والأمراء إلى سراي السلطان، جلسنا بادئ الأمر لبضع دقائق في غرفة، كان فيها معالي سعيد باشا والوكلاء، ثمّ دُعينا إلى محضر السلطان، فتشرفنا بزيارته كالمرّة السابقة، وقام جلّالته بملاطفتنا، وحين العشاء، جلستُ مواجهاً للسلطان، ومعالي معين المُلك والأمراء والوكلاء كلُّ جلس في مكانه المخصّص. تناولنا الطعام. كانوا يأتون بصحن إلى السلطان وآخر لي حتّى انتهينا من العشاء. الليلة أيضاً سأل عن أحوالنا مراراً؛ وقدّم لي بنفسه السيجار، وبعد انتهاء المجلس، أذن لنا بالانتقال إلى غرفة أخرى، فجاؤونا بأوسمة ونياشين من قِبَل السلطان، معالي منير بيك شخصياً جاءني بوسام مرصّع، والأوسمة الثلاثة الأخرى جاء بها خَدَم السلطان في المجلس، وسلّموها إلى سليمان ميرزا وأبي النصر ميرزا ومُحمّد ميرزا، وهي من نوع مجيدي درجة أولى، وعثماني درجة ثانية، قمنا بواجب الشكر، وانصرفنا.

(1) لم نفع على قائل هذا البيت.

يوم الاثنين، الخامس من ذي القعدة، وحتى موعد الغداء كنّا في عمارة كوك صو، معالي منيف باشا كان حاضراً، فتجاذبنا أطراف الحديث، وبما أنني كنت في مجلس السلطان قد تطرقتُ إلى قصر السلطان عبد العزيز، وتحدثتُ عن صفائه وعذوبة مائه، قال جلّالته: نحن أيضاً قمنا بإنشاء عمارة حديثة، فيها مياه جارية وجنّينات وغابات طبيعية، وندعوك دعوة خاصّة، لتأتي غداً مساءً لزيارتها.

قُبيل المغرب بثلاث ساعات، ركبنا الوابور برفقة صاحبي المعالي معين المُلْك، ومنيف باشا، خرجنا من بوغاز، ثمّ أحضروا العربات، فركبنا، وانطلقنا.

بداية ذهبنا إلى الإسطبل السلطاني ومكان سرج الخيل، فشاهدناهما، كانا مُرتَبَيْنِ مُنظَّمَيْنِ بمنتهى الذوق والدقّة، من ثمّ، أحضروا لنا عربات وخيلاً، لتتجوّل في الحديقة، فاستقلّيتُ العربة أنا ومعالي معين المُلْك ومنيف باشا، والأمراء امتطوا صهوات الخيول.

كانت الحديقة وكأنها غابات طبيعية مُقسّمة إلى جنّينات، وفي العمارة، شاهدنا عيناً جارية، إلّا أن مياهها كانت ضئيلة؛ بعدها توجّهنا إلى قصر آخر، فتناولنا وجبة العصرونة والشاي.

يوم الثلاثاء، السادس من ذي القعدة، بعد ثماني ساعات قضين من النهار، قام معالي معين المُلْك بترتيب وليمة على شرفنا في سفارة يالي في حي ببك، وقام بدعوة ثلاث مئة من سفراء الدول الصديقة، ووكلاء الحكومة العثمانية، وأعيان وأشراف إسلامبول وكبارها، وزوجات السفراء المبعّلات لتناول وجبة العصرونة وشرب الشاي.

وُضِعَت تشريفات الوليمة في حديقة العمارة التي يقطنها، ولاقتضاء

الفصل أقاموا خيماً، وربّوا الكراسي والطاولات داخلها، وقاموا بتوفير مستلزمات المجلس من كلِّ نوع، لا، بل كانت عدّة مجالس، وليس مجلساً واحداً. كانت أمسيّة رائعة، استمتع الجميع بها.

مكان مائتتي كان منفصلاً، كانت النساء يرقصن مع الرجال بحليهنَّ وَفُق القانون المقرّر في ساحة المجلس، يضعون أيديهم على ظهور بعضهم، وكانوا يحتسون الخمر في مكان مخصّص، ولم يُسبّبوا لي إزعاجاً قطُّ.

لقد تحمّل معالي معين المُلك العناء الكثير، وبذل جهداً كبيراً في إعداد هذه الضيافة الكبيرة، وإكراماً لي، أرسل جلاله السلطان نجله الأكبر، وهو في الثانية عشرة من عُمره، برفقة نجل السلطان عبد العزيز لحضور المجلس.

يوم الأربعاء، السابع من ذي القعدة، وبعد مضي ثلاث ساعات من النهار، حضر فاضل باشا العربي إلى عمارة كوك صو لزيارتنا، كان يتكلّم بالعربية والفارسية، وانشغلتُ معه، فرأيتُ فيه رجلاً عالماً بصيراً خبيراً ومطلعاً على كلِّ مكان.

مساءً ذهبتُ برفقة معالي معين المُلك، والأمراء وخاصة أصحابي إلى المدينة قاصدين السفارة، لنرى بعض الأمتعة النفيسة التي جلبها التجّار.

مساءً يوم الخميس، الثامن من ذي القعدة، ذهبتُ ومعالي منيف باشا إلى المدرسة الحكومية المبنية في بيك أوغلي، فشهدنا حالتها، مدرسة تضمُّ غرفاً عدّة، سفلية وعلوية، تحيطها الأشجار من الجانبين، وفيها حديقة.

لدى دخولنا استقبلنا مدير المدرسة قرحه باشا اليوناني، بداية دعاني إلى غرفته. جلسنا على الأرائك، واحتسينا القهوة، رسموا صوراً لما يقومون بتدريسه من علوم طبيعية وغيرها، وعرضوها في الغرفة. نظرتُ إليها جميعاً، ثمَّ ذهبنا برفقة المدير إلى منام الطَّلبة، كانت خمس غرف واسعة، فيها سرر حديدية لائقة، رُبِّت عليها مستلزمات النوم بشكل أنيق، ثمَّ ذهبنا إلى غرفة أخرى. كان طَلَّبة الخطِّ الفرنسي مشغولين بالكتابة، بعضهم كان يكتب عن الكتاب، والبعض الآخر من خارج الكُتُب. وفي غرفة ثالثة كان الطَّلبة يتعلَّمون الرسم، ينقلون إلى دفاترهم نماذج الأشكال التي رسمها الأستاذ، ثمَّ دخلنا غرفة تُعرَف بحُسن الخطِّ، كان الطَّلبة يقومون بمشق الفرنسية وغيرها بشكل جميل، قام طالب منهم يُعرَف بحُسن خطِّه، فتقدَّم إلى السَّبُورة، وكتب جملة بالتركية مُرحباً بنا مُستخدِماً الخطِّ الفارسي، تلاحظنا مع الجميع، وذهبنا إلى غرفة، تحتوي أدوات طبيَّة، وأحجاراً معدنية، وحيوانات، وغيرها.

قاموا بتشريح جثة إنسان، وعدد من رؤوس الحيوانات، وقد شاهدنا سمكة عظيمة وسط الغرفة، كان رأسها بعد قَطْع أعضائها بحجم منضدة كبيرة، وظهرها يحتوي على سبعين فقرة، وفي الجانب الأيسر من باب المدرسة في الساحة، دخلنا غرفة كبيرة، يتعلَّم الأطفال فيها الجمباز، جلسنا قليلاً نتفرَّج عليهم، طالب اسمه توفيق، كان الأكبر بينهم، يجيد الحركات والتمارين أفضل من زملائه.

اليوم، وتزامناً مع ذهابنا إلى المدرسة، كان قد جاء لزيارتنا في عمارة كوك صو أبو الفضل محمَّد بن عبد الرحمن بن النائب عبد اللطيف خان بهادر، وهو من أهل الهند، فجننا به معنا، يرافقنا إلى المدرسة. كان شاباً ذكياً، أسود البشرة، زار لندن وباريس، ويقصد زيارة مكَّة، وفضلاً عن تمتُّعه بمكارم الأخلاق، فهو من أهل الأسفار في الأنفس والآفاق.

يوم الجمعة، التاسع من ذي القعدة، وبعد تناولنا لوجبة الغداء، ركبنا الوابور برفقة منيف باشا وبعض المرافقين قاصدين السفارة، ومن هناك ذهبنا لمشاهدة مسجد السلطان سليمان ومسجد آيا صوفيا.

يوم السبت، العاشر من ذي القعدة، كنّا منشغليين بمراسلات دار الخلافة، وبما أن أصحاب المعالي، وهم كلُّ من سرور باشا رئاسة الشورى الحكومية، وكامل باشا وزير المعارف، وحسن فهمي وزير النافعة، وجودت باشا وزير العدلية، وحسام الدين أفندي والد معالي فخري بيك السفير الكبير والمتصرف السابق، وعبد الله باشا الوالي السابق للبصرة، وفاضل باشا قد استأذنوا لزيارتي بعد دخولي إلى إسلامبول، ولعدم تسني الفرصة للقائهم لضيق الوقت، إذ علينا الانطلاق بعد يومين، كتبتُ رسائل بأسمائهم، وسلّمْتُها إلى معالي معين المُلك، ليرسلها لهم نيابة عني، وبعد الغداء، قصدنا عمارة بيكلر بيكي لمشاهدتها.

يوم الأحد، الحادي عشر من ذي القعدة، سلّمْتُ الظرف الخاصَّ بدار الخلافة إلى معالي معين المُلك، ليرسله إلى طهران عبر البريد، وقبيل الغروب بثلاث ساعات، ركبنا الوابور، وقصدنا روملي لمشاهدة عمارة دولمه باغشه سي.

أمّا يوم الاثنين، الثاني عشر من ذي القعدة، فقد ذهبنا بعد الظهر إلى المدرسة الأمريكية الواقعة في حيِّ بك. كانت مدرسة مرموقة، تضمُّ أربع مئة طالب، الطابق العلوي يستند إلى أعمدة حديدية، بداية ذهبنا لمشاهدة المكتبة، ثمَّ إلى غرفة فُنُغْرَافُ الكلام⁽¹⁾، حيث كانوا قد اخترعوا آلة لتجربة الصوت، بواسطتها يعملون على تسجيل كلمات الشخص

(1) الفُنُغْرَافُ: هو مُسجِّل الصوت. (المترجم).

بصوته ولهجته، ثم يثُون الكلمات ذاتها بنفس الصوت واللهجة، وكأن الشخص نفسه يتكلم، وتلك الآلة من الاختراعات والصناعات الغربية. وفي غرفة أخرى، رأينا جثث الطيور والوحوش قد حُفظت بطريقة خاصة، وبعض من الأحجار عليها نقوش من أجسام الحيوانات، وشاهدتُ بعض عظام الحيوانات التي يقولون إنها كانت تعيش قبل طوفان نوح، ولم يرها أحد إلى الآن بحُكم انقراضها، والعُهدة على الراوي، ثم دخلنا صفّ الطلاب الذين كانوا يكتبون على الورق بالخطّ الأوروبي.

كان ناظر المدرسة يقرأ بصوت جليّ، وآخر يترجم ما يقول، ومن ضمن ما قال: نحن نتقدّم بالشكر إلى مَنْ شَرَّفنا بحضوره، وكان مدعاة تحفيزنا وتشجيعنا. تلاحظنا معهم، ذاكرين لهم أن انشغالكم بطلب العلم أمر مُحبَّب لدينا.

قُبيل الغروب بثلاث ساعات، كان علينا أن نتشرّف بزيارة جلالته السلطان برفقة معالي معين المُلك والأمراء، وبسبب ألم أصابني في المعدة، قمتُ بإرسال علي بيك الأجودان نيابة عنيّ معتذراً إلى جلالته عن التأخير في شرف اللقاء. وبعد سكون الألم، تشرّفنا بالحضور عند جلالته الذي تقدّم غرفتين لاستقبالنا، فانحنيتُ أمامه، ورحّب بنا كلّ الترحيب، وأنَّهنا إلى غرفته الخاصّة، وأصرَّ على جلوسي إلى جانبه، وأخجلنا من كثرة تفقُّده لأحوالنا، وملاطفته لنا.

وقد شَرَّفنا جلالته السلطان بمنحنا وابوره الخاصّ، ليُوصلنا إلى جُدّة، وكانوا قد أعدُّوا فيه كلّ مستلزمات الضيافة. قام جلالته بتكليف حاشيته كلّ من محمّد أفندي المشرف، ورفعت بيك، وعطا بيك، وأحمد بيك، وأدهم أفندي، وسعاد الدّين أفندي، وكريم أفندي بأن يداوموا على خدمتنا في الوابور، وقد أوصى توفيق بيك وهو من خَدَمه الخاصّ

بقوله: أن هذا الأمير الكهل بمثابة الوالد، وعليكم أن ترعوا جانبه حتى يصل براحة وأمان إلى مقصده. وبعد إصغائي لأوامره الشريفة استأذنته، وغادرنا.

حضر لوداعنا حتى الوابور أصحاب المعالي كل من معين الملك، ومنيف باشا برفقة كل طاقم السفارة، جلسوا قليلاً، وبعد الوداع غادروا.

كان الوابور فخماً، يقطع اثني عشر ميلاً في الساعة، إلا أنه، وبسبب حمولته الثقيلة من الفحم، كان يقطع سبعة أميال في الساعة. كان يرافقنا في الرحلة على متن الوابور قاصداً مكة صفوت باشا الوالي الجديد لمكة المعظمة وعائلته. وكان معنا أيضاً أحمد راسم باشا الذي كان مأموراً في مهمة رسمية إلى سامس⁽¹⁾، والداعي من مأموريته هو أن شخصين من أرامنة تلك المنطقة قدما إلى إسلامبول، وقاما بتقديم شكاوهم من حاكمهم، فقام جلالتهم بإيفاد أحمد راسم باشا، ليتحقق من المسألة، والعمل على حلها.

زود معالي معين الملك الوابور بعلم الشمس والأسد، لكي يرفع في كل مكان، اسم القبطان رفعت بيك، وهو برتبة لواء، وكانت تكلفة الوابور وصولاً إلى جدة ألفين وخمسة مئة لير، تُنفق على شراء الفحم وغيره، ولم تكن هناك أية مهمة للوابور عدا إيصالنا إلى جدة.

أنشد الأديب الأريب الشيخ إبراهيم أفندي أبياتاً عربية حين دخولنا إلى إسلامبول، ثبتها في هذه الصفحة:

أهلاً بحضرة عم مالكٍ نولته عم البرية عدلها والأزمنة

(1) سامس: تقع جزيرة سامس إلى الشمال من بحر إيجه شرق دولة اليونان بالقرب من آسيا الصغرى، وكانت تابعة للدولة العثمانية. (المترجم).

مَلِكٌ بِفَضْلِ جَنَابِهِ كُلِّ الْوَرَى شَهِدُوا وَقَدْ مَدَحَتْهُ كُلُّ الْأَسِنَّةِ
هُوَ نَاصِرُ الدِّينِ الْمُبِينِ وَحَافِظُ الْمَلِكِ الْأَمِينِ بِأَمَّةٍ مُتَمَدِّنَةٍ
أَسَدٌ لَدَى الْهَيْجَاءِ أَشْرَقَ سَيْفُهُ شَمْساً لَوَتْ قَلْبَ الْعَدُوِّ وَأَعْيُنُهُ
وَحَسَامُهُ فَوْقَ الْبَرِّيَّةِ لَامِعٌ لِلَّهِ مَا أَبْهَى سَنَاهُ وَمَا أَحْسَنَهُ
ذَاكَ الْحُسَامُ حَسَامٌ سُلْطَنَةِ الْعُلَى مِنْ مِثْلِهِ وَاللَّهُ صُنْعاً أَتَقَنَّهُ
اللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّ كُلَّ فِعَالِهِ وَخِصَالِهِ عِنْدَ الْوَرَى مُسْتَحْسَنَةٌ
لَا عَزْوُ فَهُوَ فَرِيدٌ ذَا الْعَصْرِ الَّذِي مِنْ كُلِّ فَضْلِ رَبِّهِ قَدْ مَكَّنَهُ
قَدْ زَارَ إِسْلَامْبُولَ ثَانِي مَرَّةً إِذْ رَامَ حَجَّ الْبَيْتِ، ثُمَّ الْأَمْكِنَةَ
فَاسْتَقْبَلَتْهُ وَأَهْلَهَا بِمَرَّةٍ وَبِحُسْنِ تَعْظِيمٍ وَأَحْسَنِ طَنْطِنَةٍ
وَأَجَلَّهُ الْمَلِكُ الْحَمِيدُ وَزَادَهُ لَطْفاً وَأَنْزَلَهُ لِعِزِّ مَسْكَنَةٍ

وَوُخِّتَ كَمَا شَهِدَ الْمُؤرِّخُ قَائِلاً دَارُ السَّعَادَةِ فِي حُسَامِ السُّلْطَنَةِ⁽¹⁾

كَمَا أَنْشَدَ فَيْضِي الشَّاعِرُ شِعْراً بِالْفَارْسِيَّةِ⁽²⁾:

أَضْحَى مُلْكُ الرُّومِ جَمِيلاً نَضْراً، فَبُشِّرِي لَكُمْ، أَيُّهَا الْمَقِيدُونَ،
أَصْبَحَ مُلْكُ الرُّومِ دَارَ الصِّفَاءِ

مَا إِنْ وَطِئْتَ قَدَمًا حَاكِمِ الْمَعْمُورَةِ إِسْلَامْبُولَ، حَتَّى أَضِيءَ
مُلْكُ الرُّومِ بِنُورِ السَّمَاءِ

لَمَّا قَدِمَتْ إِلَيْنَا السَّعَادَةُ مِنْ أَرْضِ إِيرَانَ الْمَغْنِيَّةِ، أَصْبَحَ
مُلْكُ الرُّومِ مَفْعِماً بِالضِّيَاءِ

(1) ذكر عام 1297 في المصراع الأخير هو تاريخ سفر المؤلف.

(2) أصل الأشعار باللغة الفارسية. (المترجم).

تتطَّلع أرض الروم أن تصبح سيِّدة العالم، في لحظة وصول
مقامك المقدَّس وتُشرفها باللقاء

عجباً يقولون إن الروم محرومة من المعصوم! كيف يكون
هذا وقد وطنتها قَدَمًا خضر الهدى؟!!

أرض الروم أصبحت بحراً من الذخائر، وأمواجه دول كلِّها
ثروات، فانظر، يا فيضي⁽¹⁾ إلى الهيبة والشوكة اللتين اكتسبهما
مُلْكُ الروم

قد سُجِّل في التاريخ يوم عظيم، فقد أصبح مُلْكُ الروم
فَرَاديسَ بقدم حسام السلطنة⁽²⁾.

حين انطلقنا من بوغاز إسلامبول، كان اتَّجاه الحركة بين الجنوب
والغرب، فدخلنا في عرض بحر مَرْمَرَة الذي اكتسب اسمه من جزيرة في
وسطه بهذا الاسم، ويُنسب إليها كذلك حجر المَرْمَر المستخرَج منها،
ويُنقل من هناك إلى إسلامبول، وتقع الجزيرة على اليسار، تحيطها ثلاث
جزر أخرى، يبلغ طول البحر مئة ميل بريطاني، وأقصى عمق له ستّ
مئة وثمانية وأربعين قِلاَّجا.

بحر مَرْمَرَة

يوم الثلاثاء، الثالث عشر من ذي القعدة، بعد أربع ساعات مضيئة
من النهار، عبرنا بمحاذاة غلي بولي التي تقع يمينا في أوَّل بوغاز،
حيث دنلس؛ وكان اتَّجاه الحركة نحو الجنوب الغربي، وبما أن الوابور

(1) فيضي: اسم الشاعر. (المترجم).

(2) ذكر عام 1297 في المقطع الأخير وهو تاريخ سَفَر المؤلف.

السلطاني الخاصّ لم تكن له حاجة بهذه القرية، اجترناها دون توقُّف،
وبعد ساعتين، بلغنا شاناق قلعه⁽¹⁾، وتقع في الجانب الشرقي، وإلى
جهة اليسار في وسط بوغاز الذي لم يكن عريضاً جداً.

يجثم حصن على مدخل شاناق قلعه، وفي وسطها بناء شاهق
مُستخدَم من قِبَل المدفعية، وفيه مصنع للأسلحة، وهنالك بنايات
أخرى، وإلى الغرب منها منطقة معمورة، تُسمّى مفتاح البحر مُزوَّدة
بثلاثة أبراج وقوّة بحرية ومدفعية.

أرست قُبالة شاناق قلعه سفينتان تعملان على السولار، وسبع
سفن شراعية، وشاهدنا قافلة سفن قادمة من لندن لشحن القمح من
إدسا وبوتي، وبعد أن تحقَّقنا من الأمر، تبين لنا أن هذه السفن تعمل
على الطحن التدريجي للقمح الموجود في مستودعاتها، بواسطة ذات
الآلة التي تقوم بتحريك السفينة، ودفعها، فيصل القمح إلى لندن
دقيقاً منخولاً في أكياس.

وفي شاناق قلعه تتمُّ صناعة الأواني الخزفية الملونة والمُزَيَّنة، وهو
دليل تسميتها، فالشاناق باللغة التركية تعني أواني الخزف، وقد جاؤوا
بنماذج منها إلى الوابور، فابتاع بعض الأتباع والحاشية من تلك الأواني.

ميناء سَامُس⁽²⁾

الأربعاء الرابع عشر من ذي القعدة، وبعد الدسطة بخمس ساعات

(1) شاناق قلعه: جناق قلعه تقع على مضيق الدردنيل المحوري بين البحر الأبيض المتوسط
والبحر الأسود. (المترجم).

(2) سَامُس: سَامُوس جزيرة يونانية تقع إلى الشَّمال من بحر إيجه، وكانت ضمن الدولة العثمانية.
(المترجم).

ونصف، وصلنا قرابة سَامُس، أرسى الوابور لساعة ونصف، ودَعْنَا أَحْمَد راسم باشا، فركب القارب، وذهب لتأدية مهمَّته. كان قد سمع بوجودنا في الوابور الجنرال المتواجد في الميناء، وهو قنصل بريطانيا وألمانيا، فجاء إلينا مستقلاً القارب، وصَعِدَ. كُنْتُ جالِساَ على القسم المسطَّح والمرتفع من الوابور منشغلاً بمشاهدة القرية. جلس جانبي، وكان يتحدَّث الفرنسية، فتولَّى نجلي أبو النصر ميرزا الترجمة، كان رجلاً أيقناً لبق اللسان؛ وأصْرَأَن يهدينا ممَّا يُنتج في البلدة، لا سيَّما نوع من أنواع الخمور، ذكر اسمه، وكان غافلاً عمَّا جاء في الكتاب والسُّنَّة، فقلتُ له لا حاجة لي بالخمرة، لكن، طلبنا أن يرسل لنا من عنب المُشك⁽¹⁾ الذي تشتهر به المنطقة، فأشار إلى انتهاء الموسم مع وفرة الزبيب منه، كتب اسمه على بطاقة، وسلَّمها لي، وقمتُ بالمثل، وبعد هنيهة، أرسل صُنْدُوقَيْن، أحدهما زبيب، والآخر خمرة، فأعطينا الثاني للقبطان كهدية له ولأصدقائه الإفرنج. بعد قليل، جاء رجل القنصل ثانية بسلَّة من العنب الأحمر، عثر عليه القنصل، فأرسله إلينا؛ كان حُلُو المذاق وطيب الرائحة.

سَامُس من المُدُن القديمة، بناياتها معمورة حتَّى إنك تظنُّ بأنها قد بُنيت حديثاً، فيها غابات ومزارع، تحيط بالجبل وقريبة من المدينة، وكما ذكر لنا أحمد راسم باشا أن إيرادات الحكومة العثمانية العليَّة سنوياً منها تصل إلى أربع مئة ألف قرش، وما يربو على ذلك يُنفق على تنظيم الجزيرة ومصاريف الحاكم. قبل وصولنا إلى الميناء، شاهدنا قرى متعدِّدة على يسار الطريق من توابع المدينة.

اليوم نهراً وليلاً تعرَّضتُ للسَّعَات من قُرَاد الخشب، وهو كائن

(1) المُشك: العنبر. (المترجم).

صغير، يعيش في الخشب والألواح القديمة في السفينة، فأصابتني
بلسعتها من رأسي حتى أخمص قَدَمَيَّ، وقد تسببت لي بوزم وحكّة في
أجزاء من جسمي حتى تقرّح مكان الحكّ، وبتُّ مستيقظاً حتى الصباح.

قُبيل الغروب بخمس ساعات، انطلق الوابور من سَامُس متّجهاً نحو
الشّمال الغربي، وبعد الخروج من ضواحي المدينة، تغيّرت الحركة نحو
الجنوب، وبداية من منتصف الليل اتّجهنا نحو الشرق.

البحر الأبيض وقناة السويس

ميناء رُودُس⁽¹⁾

صباح يوم الخميس، الخامس عشر من ذي القعدة وصلنا إلى رودس، والاسم يعني الليل باللغة اليونانية. تتمتع الجزيرة بأجواء خلّابة لما تُضيفه أشجار الفواكه والحمضيات، بنى خديوي مصر فيها عمارة كمصيف له، يرتادها هو وأقرباؤه وأنسابه.. يقطن المدينة التي تقع في جنوب الجزيرة أربعون ألف نسمة، غير أنه لا رونق لعماراتها وبنياتها. عدد من طواحين الهواء مصفوفة في بداية المنطقة المأهولة، مزار مراد رئيس في تلك المنطقة، وقد أشعلوا مصباحاً فيه، قيل إنه كان قبطاناً ذا مكانة عند الناس، ولذلك يُجّلون قبره.

عمق المياه قرب النهر تبلغ ألفاً وسبع مئة قَلَّاج، وفي الخطّ الذي يسير فيه الوابور ألفان ومئتا قَلَّاجاً، بعد اجتيازنا الجزيرة أمست الحركة نحو الجنوب، فدخلنا البحر الأبيض الذي يُسمّى بحر الروم، وبالتركية آق دنكيز⁽²⁾، وبالفرنسية مِدِي تِرَانِه⁽³⁾.

(1) رُودُس: تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا، في منتصف المسافة بين جزر اليونان الرئيسية وقبرص. تُعدُّ رودس أبعد الجزر الشرقية بالنسبة إلى اليونان وبحر إيجه. (المترجم).

(2) آق دنكيز الاسم باللغة التركية آك دنيز، وآك تعني اللون الأبيض، وكلمة دنيز تعني البحر. (المترجم).

(3) مِدِي تِرَانِه: البحر الأبيض المتوسط. (المترجم).

البحر الأبيض

يَتَّصِلُ البحر بالمحيط بواسطة مضيق جبل طارق، ويحيط بالأراضي الأوربية والآسيوية والإفريقية، ولهذا سُمِّيَ مِدِي ترانه، فمعنى الكلمتين باللغة اللاتينية وسط الأراضي.

مياهه مالحة مُرَّةٌ دون مَدٍّ وجرُّر، وقمنا بذكر وتحديد كلِّ الجزر التي شاهدناها قبل وصولنا إلى البحر الأبيض اسماً ورسماً، لكنَّ ما تبينَّ من خلال خريطة القبطان أن هناك عدَّة جزر لم نشاهدها، لأنها كانت بعيدة عن خطِّ سير الوابور، منها جزيرة قبرص ذائعة الصيت في العالم، وتبعد عنَّا مئة وخمسة وأربعين ميلاً، وبما أننا وضعنا الأساس في رحلتنا على المشاهدات، وليس على المسموعات، فقد تركنا ذكر ما لم نشاهد.

كانت حركة الوابور حتَّى ثلاث ساعات مضيْن من النهار نحو الجنوب الشرقي، ثمَّ انحرفت نحو الجنوب.

يوم الجُمُعة، السادس عشر من ذي القعدة واصلنا السير باتجاه الجنوب في البحر الأبيض الذي كان هائجاً في الليلة الماضية، بسبب الرياح التي تهبُّ من تلقاء المشرق، فأخذ الوابور يتقلَّب يميناً وشمالاً، وأصاب الركَّاب الاضطراب. عند الصباح، وصلنا إلى بورت سعيد⁽¹⁾، هدأ البحر، ورسى الوابور، واطمأنَّ ركبوه، كان القصد من التوقُّف حضور قبطان من الشركة الفرنسية، ليعبر بالوابور من هذا الخطِّ البحري، لأنه لا يسمح للبواخر العبور من دون إذن الشركة الفرنسية، وبينما كنَّا نقرب من المرفأ، مرَّت بجانبنا سفينة نمساوية كبيرة، فاقتربت، وقام ركَّابها بتحنيُّنا بالتلويح والصياح كعادتهم، فردَّ وابور الحكومة العثمانية العليَّة التحية عليهم عبر إطلاق صافرة البوق. اصطفت مجموعة من العسكر

(1) بورت سعيد: هي إحدى محافظات مصر، تقع في شمال البلاد علي ساحل البحر المتوسط.
(المترجم).

وأدّت التحية العسكرية، وأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة. جاء إسماعيل باشا محافظ بورت سعيد ببذلته الرسمية إلى متن السفينة لزيارتي، تحدّثُ وإيَّاه لبضع دقائق، وغادر. بعده حضر ببذلته الرسمية كلُّ من خيرى باشا الوزير المؤتمن على ختم خديوي مصر، ويوسف باشا، وحسين فرزي مساعد أركان الحرية مُبلِّغين إيَّانا أن خديوي مصر على اطلاع بقدومنا، وقد أوفدنا قبل يومين، لنبارك قدومكم، وقالوا: إن كنتم تنوون المكوث في مصر، فأبلغونا، لنخبر جلالة الخديوي، لا، بل إنه يدعوكم دعوة خاصّة، لتشرّفونا بحضوركم، وتمكثوا لعدّة أيّام من أجل السياحة والتنزّه. من جانبي، رددتُ عليهم بمنتهى الذوق والأدب قائلاً: إن الوقت ضيق، ويجب أن نتخذ الحيطة مخافة أن لا نصل في الزمن المحدّد إلى زيارة بيت الله الحرام، أعدكم إذا كان في العُمُر بقية أن نقدم مصر في الإياب، لأتشرّف بخدمة جلالة الخديوي.

بعد مغادرتهم، كنتُ أنوي الذهاب إلى مدينة بورت سعيد للاغتسال، آدم محمّد بيك العامل في قنصلية حكومة إيران العليّة كان حاضراً، وأبلغنا أن القنصل توجّه إلى المصيف للنقاهاة، وأنه يوجد حمّام ماء بارد في القنصلية، يمكنني أن أغتسل فيه.

بعد وجبة الغداء، جلست في القارب قاصداً المدينة، وكان الدليل آدم محمّد بيك العربي، فدخلتُ القنصلية، واغتسلتُ بالماء البارد، ثمّ ذهبتُ إلى المتنزه الوطني، فتجوّلتُ به، وعدتُ أدراجي إلى الوابور، وأرسلتُ نجلي أبا النصر ميرزا برفقة والي مكّة الجديد إلى منزل محافظ بورت سعيد لزيارته وباشاوات مصر الآخرين.

مكثنا اليوم والليلة قبالة المرفأ بانتظار تزويد الوابور بالفحم الذي كان على وشك النفاد، وكان كلُّ طاقم السفينة مشغولاً بنقل الوقود

من الغروب حتَّى الصباح، ولم يستسلموا للنوم، وأمسى متن الوابور ملوئاً بغبار الفحم.

تكثر سفن السولار والسفن الشراعية والزوارق وسط المياه، وقدمت اليوم ثلاث سفن: فرنسية ونمساوية وبريطانية، وسفينة أخرى كبيرة ذات طابقيْن كانت قادمة من الصين وصلت إلى بورت سعيد، فأرست، وعند المساء، انطلقت قاصدة إسلامبول.

بورت سعيد

تقع مدينة بورت سعيد بمحاذاة بحر الروم، وقد مضى على عمارتها تسعة عشر عاماً، سطحت فيها شوارع واسعة، وأحاطوها بحوانيت وعمارات ذات رونق، وبنّوا في طرفيها الشرقي والغربي مرفأً طويلاً متيناً، وعلى مقربة منه، فتحوا شارعاً مستويّاً، فيه عمارات وجمارك الشركة الفرنسية والبريطانية والنمساوية والعثمانية، وتُرى أعلام الدول الأربع مرفرفة فوق العمارت. فصلوا مياه نهر النيل العذبة القادمة من نهر الإسماعيلية نحو السويس، ونقلوها من الشارع الغربي للقناة عبر أنابيب إلى المدينة لسُقيا الأهالي، ويوجد في المدينة مركز للبرقيات.

كان الجوُّ وكأننا في بداية برج العقرب، والورد الأحمر موجود بكثرة في المدينة، وقد أحضر لي نجلي أبو النصر ميرزا بعد لقائه بالباشاوات باقة يانعة منه.

يوم السبت، السابع عشر من ذي القعدة الحرام، وبعد مضي ساعتين من النهار، وصلنا القناة، كان اتّجاه الحركة بشكل تلقائي صوب الجنوب، ويجدر بنا أن نشرع بوصف القناة أوّلاً، ومن ثمّ مشاهداتنا الشخصية.

قناة السويس

قناة السويس مضيق صناعي ناتج عن حفر الأراضي الواقعة بين بحرَيْن لوصولهما ببعضهما، كان هناك مضيق، يُشكّل فاصلاً بين آسيا وإفريقيا، يقع بين بورت سعيد والسويس، يمرُّ الناس من خلاله عبر اليابسة للتنقل بين القارَّتين، وقد حاول فراعنة مصر قديماً أن يزيلوا هذا الفاصل، كي يتَّصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر تقريباً للمسافة بين البحرين، إلاَّ أنهم لم يُفلحوا.

في عصرنا الحالي، ويوم الثاني عشر من شهر شعبان عام 1286 هجرية، بدأت شركة فرنسية، وبإشراف المهندس الفرنسي لسبس، بحفر خندق من بورت سعيد حتَّى السويس مستخدمين المعدَّات الصناعية المتطوِّرة، وأجريت فيه مياه البحر الأبيض، لتتَّصل بمياه البحر الأحمر في مجرى، أُطلق عليه اسم قناة السويس، وقد مضى أحد عشر عاماً على إنجاز القناة.

عرض القناة يتراوح بين أربعين إلى مئة متر، وعمقها ما بين ستَّة وعشرين قدماً حتَّى تسعة وعشرين قدماً، أي ما يعادل ثمانية إلى تسعة أذرع، وطولها خمسة وثمانون ميلاً، وقد أبدعوا حقاً في شقِّ هذه القناة، وعلى صخرة في مرفأ السويس، نصبوا تمثالاً نحاسياً لوجه لسبس تقديراً لإنجازه العظيم.

عندما انتهى العمل من شقِّ القناة، حضر لتدشينها باحتفال عظيم كلُّ من إمبراطور فرنسا، وإمبراطور روسيا، وإمبراطور بروسيا⁽¹⁾، وإمبراطور أمريكا، وإمبراطور بلجيكا، ومملكة بريطانيا، وإمبراطور إسبانيا، والسلطان

(1) إمبراطور بروسيا: الإمبراطورية الألمانية. (المترجم).

العثماني، وخدويي مصر، وإمبراطور النمسا، وإمبراطور الروم، وإمبراطور السويد والنرويج، وإمبراطور الصين، والعاقل البرتغالي، والملك البرازيلي، والعاقل الإيطالي، وكان من حقهم أن يحتفلوا بهذا الإنجاز العظيم الذي يختصر خمسة وعشرين يوماً من زمن العبور من قارة آسيا إلى قارة إفريقيا.

قاموا بتوزيع أسهم هذه القناة على أربع مئة ألف سهم، مئة وستة أسهم لخدويي مصر، وقد اشتراها البريطانيون منه طوال هذه السنوات، لقد تغير وضع القناة، فجرت مياهها على الجانبين في الصحراء مشكلة ثلاث قنوات وبحيرتين.

عندما تنطلق من بورت سعيد تجد القناة أولاً، ويبلغ طولها واحداً وأربعين ميلاً، وعرضها في معظم النقاط مئة متر، وفي آخر ثمانية أميال عن نهاية القناة يتضاءل العرض، ليصبح أربعين متراً.

تقع اليابسة غربي القناة، فيها شارع مدوا تحته أنابيب لنقل ماء النيل إلى بورت سعيد، وترى أعمدة التلغراف مغروسة إلى جانب الشارع، وهنالك مستنقع ليس عميقاً شرق القناة، تسير فيه الزوارق، وبينه وبين القناة الأولى سائر من الشرق، تبلغ مسافته عشرين أو ثلاثين ذراعاً. بعد أن نبتعد عن المستنقع مسافة أحد عشر ميلاً وصولاً لليابسة، ترتفع الأرض، ثم بعد اثني عشر ميلاً نقرب إلى مياه المستنقع ثانية، وعلى الجانب الغربي في الصحراء عدة نقاط مغمورة بالمياه، تتسرب إليها من القناة، وبعد الانتهاء من القناة الأولى يتفرع الطريق قريباً من الإسماعيلية، فتظهر البحيرة الأولى، كانت تضاريس أرضها طبيعية قبل أن يغمرها الماء، فتشكلت فيها جزر صغيرة، يبلغ طول هذه البحيرة ثمانية أميال، وعمقها ضئيل، وبعدها تظهر القناة الثانية التي يبلغ طولها

أربعة أميال، ويكثر القصب وشجر الأثل على طرفيها، ثم تظهر البحيرة الثانية التي يبلغ عمقها ما بين ستة أو سبعة قلاجات، وهي صالحة لسير الوابور فيها، وأخيراً تظهر لنا القناة الثالثة، حيث تنتهي على مقربة من السويس، ويتكشّف لنا الخليج منها.

يُسمّى الماء الواقع قريباً من السويس خليجاً، بسبب سلسلة الجبال القريبة، ومنه عبر النبي موسى، عليه السلام، وقوم بني إسرائيل في عام 1492 قبل الميلاد، وفيه أُغرق فرعون وقومه.

يقع جبل سيناء ما بين خليج السويس والعقبة، ومن خليج السويس فصاعداً، ندخل إلى البحر الأحمر، من بورت سعيد وصولاً إلى السويس أنشؤوا إحدى عشر نُزلاً على الجانب الغربي، وكلُّ بضعة أميال هناك محطةٌ أمنيّة، يجاورها مركز للبريد، وغرسوا أعمدة حديدية في الماء، ترتفع في بعض المواقع خمسة أذرع عن سطح الماء، لحمل المصابيح على جانبي الطريق، المصابيح الواقعة في الشرق سوداء اللون، أمّا التي في جهة الغرب، فهي حمراء، وكلُّها ذات رؤوس دوّارة، عندما تشعل ليلاً، تضيء كلّ ما حولها.

في القناة الثانية والثالثة، وضعوا أعلى المنارة مصباحاً كبيراً أكثر ارتفاعاً من بقية المصابيح، وبدءاً من فتحة القناة حتّى مرفأ السويس، وضعوا شواخص، تبيّن خطّ السير، تمرُّ السفن من بينها، وكلّما قلَّ عمق المياه، ثبّتوا شواخص حمراء مخروطية الرأس على الطرفين، وتمّ رصف أكثر القنوات بالحجارة من الجانبين، كي لا يتساقط الحصى، وتنهار الأتربة في القناة، لا سيّما القناة الأولى، لكن، وفي أغلب النقاط، انهدمت الأرصفة، وسقطت حجارتها في القناة، وعلى طرفي القناة، غرسوا أعمدة خشبية قصيرة، بفواصل منظّمة، ليتمّ ربط الوابورات بها

عند الضرورة، ثم عملوا على تقسيم كلِّ ميل إلى عشرة أجزاء، وثبَّتوا عموداً خشبياً في كلِّ جزء من الأجزاء العشرة، وأخذت الأعمدة الأرقام من (1-10)، وإلى جانبها ثبَّتت أرقام الأميال الخمسة والثمانين، لتدلَّ الأعمدة على المسافة المقطوعة بالأميال وأجزائها، في حالة تعطلَّ إحدى السفن، كذلك اخترعوا سفينة هجينة الشكل، كبيرة الحجم، لشطف الوحل من قاع القناة، بواسطة الدواليب، وإفراغه في اليابسة، كي لا يتكدَّس الطُّمي في الأعماق، وكانت هذه السفينة تسير بطاقمها كالسفن الأخرى، صناعة هذه السفن وكيفية تركيبها جديرة بالمشاهدة، وقد أتقنوا صناعتها بمهارة فائقة، ويبدو أن هذه السفينة لم تكن الوحيدة، فقد صنعوا أمثالها للغرض نفسه.

وبما أن قيادة الوابور في القناة يجب أن تكون بحیطة وحذر شديدین، فقد تُرکت دفة قيادة الوابور السلطاني من بورت سعيد للقبطان الفرنسي، وقد أُرست قُبالة الساحل سفينة عثمانية، وثلاث سفن بريطانية، إحداها كبيرة وجميلة جداً حتَّى يعبر الوابور السلطاني.

ونحن نسير في القناة رأيتُ سفینتین فرنسیّتین صغیرتین قادمین من الجنوب والشَّمال، وعبر واپور بريطاني صغير قاصداً الشَّمال، وسفينة كبيرة كانت تسحب الوحل من وسط الماء، وإبلاً كثيرة تسرح عند الساحل، وشاهدتُ محطَّتي توقُّف من بورت سعيد حتَّى الإسماعيلية التي اقترنا منها قُبيل الغروب بساعتین ونصف، فتبيَّنت لي على الجانب الغربي منها استراحة جميلة، تمَّ بناؤها على المرتفعات، وبمحاذاتها مرفأ صغير، وعلى الجانبین بُنيت غرفتان خشبیَّتان، يجلس بجانبهما أطفال ونساء متفرِّجون، وبينهما جسر حديدي متواضع، يتَّجه للأعلى متَّصل بالاستراحة، وأسفله ستُّ غرف خشبية كبيرة مخصَّصة للحُرَّاس والعمَّال.

تقع الإسماعيلية غرب القناة، تلوح عماراتها وحدائقها وأشجارها من بعيد، وبدت لنا البحيرة الأولى، وشاهدنا عدّة مصابيح، تعلو أعمدة حديدية في الماء، وانطلاقاً من هنا، أصبحت الحركة نحو الجنوب الغربي.

بعدما حان زمن العبور من قُبالة الإسماعيلية، انتهت مهمّة القبطان الفرنسي، فحلّ مكانه قبطان آخر، جاء من الإسماعيلية، يستقلُّ وابوراً صغيراً، قُبيل الغروب بساعة ونصف، انتهينا من البحيرة، وبدت لنا القناة الثانية، فشهدنا استراحة أخرى وغرفتين وضيعتين وجُنيّة جميلة، وبعد مسافة قليلة، شاهدنا عيناً للمياه العذبة، ثبّتوا عليها أنبوباً معدنياً لنقل المياه، بواسطة إلى السفن، ثمّ لاحظنا استراحتين على مقربة من الساحل، ووابوراً آخر كان يقوم بتنظيف القناة، بعدها بنصف ساعة، شاهدتُ استراحة أخرى، تضمُّ أربعة غرف وعدّة أشجار مغروسة إزاءها، وعندما انتهت القناة الثانية، ظهرت معالم البحيرة الثانية ومصباح كبير في منتصف الماء على الجانب الشرقي، يبلغ ارتفاعه أكثر من خمسة أذرع، ولاحت لي معالم واپور صغير من جانب الغرب رسا ليلاً، ومن العادة أن ترسو السفن عند الغروب، وتتوقّف عن الحركة.

يوم الأحد، الثامن عشر من ذي القعدة، تحوّلت الحركة جهة الشرق. تقلّص عرض البحيرة، ورويداً رويداً، اتّجه الواپور نحو الجنوب الشرقي. بعد مضي ساعة من المسير، شاهدنا استراحة ذات اعتبار، وبعد مضي ساعتين وربع من الدسته، لاحظنا من بعيد في الجانب الغربي قطار بخار متّجهاً من السويس قاصداً مصر.

غرّست أعمدة البرقيات في الجانب الغربي، وشاهدنا جبلاً ذات منظر جميل خلّاب، ورأينا بالمنظار استراحة وعدّة قرى وأشجاراً بعيدة

جدّاً، ووابورين كبيرين كانا في وسط المياه يقومان بعملية التنظيف، وكذلك استراحة كبيرة، تضمُّ ثلاث غرف، إلى جانبها بستان من أشجار التين، وغرفة كبيرة بمحاذاة المياه، انتهت البحيرة الثانية، فلاحت معالم القناة الثالثة.

يوم الاثنين، التاسع عشر من ذي القعدة، وبعد مضي ثلاث ساعات من الدسته، شاهدنا استراحة في الجانب الغربي، تحتوي على ستِّ غرف مرتّبة، وقد غرسوا أشجاراً قبالة الغرفة الأخيرة، ووضعوا أمام كلِّ غرفة سياجاً خشبياً على حافة القناة، وتوجد قريباً من الاستراحة عين ماء عذبة، مدُّوا منها أنبوباً كالعين السابقة، لتزويد السفن بالمياه.

وفي الجانب الشرقي، غرفة وأدوات لعدّة عمّال كانوا منشغلين برصف الأحجار جانب الساحل، بعد مضي ثلاث ساعات ونصف الساعة من الدسته، وصلنا شرقاً إلى مكان، بُنيت فيه لوحة، حُطَّت عليها كلمة احظر، ويقصدون بها أن على السفينة أخذ الحيطة والحذر حين العبور من هذا الخطّ.

ونعود إلى الجانب الغربي، إذ توجد استراحة خلّابة مشجّرة، يصل منها جسر خشبي إلى ماء القناة، وفيها مياه عذبة، تمتدُّ منها أنابيب حديدية، وشاهدتُ زورقين أحمرين، كانوا يستخدمونهما لجلب الأحجار، هنا كنّا قد بلغنا نقطة فيها شاخسة تشير إلى الميل الرابع والثمانين؛ تقلّص عرض القناة كثيراً، وكان الأطفال يسبحون في أطرافها وحول الوابور، ويطلبون الخبز من الرّكّاب، لاحت لنا مدينة السويس في الأفق غرباً، وعمارة بيضاء في مركزها، وسفينة كبيرة أرسّت في المرفأ، وقد غرسوا عمود الميل الخامس والثمانين على الجانب الغربي.

بعد خمس ساعات مضين من الدسطة، بلغنا القرائتين الأولى⁽¹⁾، وفيه أبنية متعدّدة أمامها أشجار كثيفة، يبدو المكان أخاذاً، وحينما اجتريته، كنّا قد وصلنا إلى محاذاة مصنع السفن، فشهدنا أدوات شحن التراب، بعدها وصلنا إلى محاذاة القرائتين الثاني، فأرسي الوابور في خليج السويس، وقد بدا لنا من بعيد زورق صغير الحجم، يعمل على السولار، وحين اقترب تبين لنا أن خمسة من أصحاب المناصب في السويس كانوا على متنه، وقد جاؤوا لاستقبالنا، وهم كامل باشا قائد البحرية المصرية، ورؤوف باشا حاكم السويس، وحسين فهمي بيك قائد الحرس ومسؤول وابورات مصر، وديار رئيس القرائتين، برفقة نجله لذي، وحين وصولنا، أطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة لتحيتنا.

صعد أصحاب المناصب على متن الوابور، وبعد أن استأذنوا دخلوا القمرة التي كنتُ جالساً فيها، فتحدثنا في مواضيع مختلفة، ثم ودّعونا، وانصرفوا.

كانت عدّة سفن تعمل على السولار وشراعية، وأخرى بريطانية حاملة للحُجاج قد أرسلت في الخليج قبلنا بيومين، وقد انطلقت نحو جُدّة تزامناً مع وصولنا، شاهدنا شرق الموقع الذي أرسى فيه وابورنا جبلاً قريباً منّا، وآخر بعيداً غرباً، وفي الجانب الشرقي، كانوا قد بنوا سدّاً على اليابسة، ليكون مانعاً من تسرّب مياه الخليج.

مدينة السويس

تعتبر السويس من الموانئ القديمة، فبعد أن تهدمت قلرم الواقعة

(1) القرائتين: مفردة تركية تعني الفرسان المستقرّين خارج الجيش، ومهمّتهم الحفاظ عليه. (المترجم).

على بُعْد نصف فرسخ تجاه الجبل الشَّمالي، واندثرت، أصبحت السويس التي تقع عند نهاية شُعبَةِ البحر الأحمر عامرة، وهي مَبْنِيَّة على سفح جبل صغير، مناخها حارٌّ، وعدد قاطنيها اثنا عشر ألف نسمة، تكثر فيها أشجار البرتقال والتفاح والحمضيات، وقد قام إسماعيل باشا بشقِّ نهر الإسماعيلية من نهر النيل، لتزويد المدينة بالماء العذب، ومدُّوا سككاً للحديد من مصر وصولاً إليها، حيث يقطعون المسافة في خمس ساعات، إذ يبلغ طولها على الخطِّ المستقيم سبعين ميلاً.

عندما أرسى الوابور السلطاني قُبيل الغروب بأربع ساعات في خليج السويس، كانت هناك باخرة عثمانية متَّجهة من الجنوب نحو الشَّمال، فلما رأتنا نكَّست أشرعتها برسم السلام والاحترام، وقام وابورنا، أيضاً، بالمثل وَفَقاً للقانون نفسه.

قُبيل المغرب بساعتين، كانت حركتنا بين الجنوب والشرق، وسنسير لخمس ساعات في خليج السويس، ومن ثمَّ ندخل مياه البحر الأحمر، وجود بعض الجبال وسط البحر قد يُعرِّض باخرتنا للخطر، جاءنا دليل عربي، واستقرَّ في قمره القبطان، وأصبحت قيادة الباخرة تحت أمره، فالجلاوِزة⁽¹⁾ والأدلاء العرب يعرفون الخطوط، ويستطيعون إيصال السفن إلى برِّ الأمان.

وبينما كنَّا نسير لنصف ساعة في الخليج، مرَّت من جانبنا سفينتان عظيمتان متَّجهتان نحو الجنوب، إحداهما ذات ثلاث صواري، والأخرى ذات أربع صواري. بعد مضي ثلاث ساعات من الليل، خرجنا من خليج السويس، ودخلنا البحر الأحمر، وقُبيل الفجر بثلاث ساعات، عبرنا من موضع إغراق فرعون.

(1) الجلاوِزة: مفردة تركية تعني الفرسان المستقرِّين خارج الجيش، ومهمَّتهم الحفاظ عليه. (المترجم).

البحر الأحمر

قديمًا كانوا يُسمُّون البحر الأحمر ببحر القُلْرُم، لأن مرفأ قُلْرُم كان عامراً آنذاك، فأخذ البحر اسمه قبل أن ينهدم ويؤول للخراب، كما يُطلقون عليه اسم بحر النُّوبَة، لالتِّصال البحر بشواطئ النُّوبَة، أمَّا عن تسميته الحالية، فقد ذكروا أقوالاً عدَّة، منها قولهم: إن هذا البحر يتمتَّع بمرجان وصخور وأسماك حمراء مربَّعة الشكل، وعندما تصل أشعَّة الشمس إلى المياه، يضرب لونها إلى الحمرة، والعثمانيون يُسمُّونه بحر الشابِّ، والكلمة تعني بالتركية الزجاج⁽¹⁾، وبما أنهم كانوا يستخرجون الزجاج من أطراف هذا البحر، ويرسلونه إلى الولايات، أطلقوا عليه الاسم. يضمُّ البحر جزراً عدَّة، ويحتوي البحر سمك التَّبَّان وسمك القِرْش، والنوع الأوَّل أطول من الثاني، بحيث يبلغ طوله ثلاثين أو أربعين متراً، فيما لا يتجاوز طول سمك القِرْش خمسة إلى ستَّة أمتار، ومهما قام الغوّاصون من صيد المرجان واللؤلؤ الرديء واليُسر⁽²⁾ الأبيض والأسود، إلَّا أن هذا البحر ليس مفيداً كما ينبغي.

يصل عمق الماء في هذا البحر إلى ألف وأربعة وخمسين قَلَّاجاً،

(1) الرَّاجُّ من الفارسية: زَاگ، الجمع: زَاجَاتٌ، هو الاسم التاريخي العربي الذي كان يُطلق على أملاح الكبريتات، وهي أملاح حمض الكبريتيك. (المترجم).

(2) اليُسر: نوع خاصٌّ من المرجان، يُستخدَم في صنع (السُّبحات)، وهو نوعان: يُسر مصري، ويُسر حجازي. (المترجم).

وتتواجد جزيرة على اليمين تُسمى شدوان⁽¹⁾ ممتدة من الشّمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، وقد ذكروا أن طولها يبلغ اثني عشر ميلاً، وعرضها أربعة أميال، والمسافة بينها وبين السويس مئة وسبعون ميلاً، وهي جزيرة صخرية جدباء، لا ماء فيها، ولا زرع، تسكنها الأفاعي.

يتوسّط البحر حجران بارتفاع ستين قدماً، يُسميان بالأخوين، ويقوم الريّان بالسير بعيداً عنهما حتّى لا يتعرّض للخطر.

وابتداءً من هذا البحر من جانب السويس حتّى بحر جُدّة هناك ثلاث فنارات بحرية لإرشاد الملاحين والبحّارة، الفنار الأوّل في الجانب الغربي وسط المياه قريباً من الساحل، والاثنتان الآخريان، وهما الأهمّ يقعان في وسط البحر، وقد أتقنوا صنعهما.

الفتار الأكبر يبلغ ارتفاعه فوق الماء مئة وخمسة وعشرين قدماً، خمسة عشر قدماً تحت الماء، والظاهر منه يعادل أربعين ذراعاً، ويبلغ قطره ثمانية عشر قدماً، تحيطه غرفة زجاجية، يقيم فيها أربعة حُرّاس، تقع في مكان مرتفع، يُسمى أبو الكيزان، يبلغ ارتفاعه واحداً وستين قدماً عن سطح البحر، وعرضه أربعة عشر قدماً، وعلى بُعد خمسة وعشرين ميلاً من جزيرة شدوان.

يعتري البحر المدُّ والجُرُّ بحالته الطبيعية مع حركة القمر، فمع وصول القمر إلى دائرة نصف النهار، يكون المدُّ، ومن نصف النهار فصاعداً أوان الجُرُّ، وتمتدُّ كلُّ حالة منهما ستّ ساعات.

يوم الثلاثاء، العشرون من ذي القعدة، وبعد مضي أربع ساعات من النهار، رأينا الفنار الأوّل من بعيد. وبينما كنا نتناول الغداء في صالة

(1) شدوان: جزيرة تقع بالقرب من مدخل خليج السويس وخليج العقبة بالبحر الأحمر. (المترجم).

الباخرة، شاهدنا الثاني، ومن ثمّ، لاحظنا جزيرتين صغيرتين بين الشّمَال والغرب، لا تبعدان عن بعضهما إلّا قليلاً، وتبدوان من بعيد وكأنهما متّصلتان، قبل الفجر بأربع ساعات، عبرنا بمحاذاة الحجرين الكبيرين، لكننا لم نلاحظهما، بسبب ظلمة الليل.

يوم الأربعاء، الحادي والعشرون من ذي القعدة، هبّت الرياح، وماج البحر، فبدت بوادر الاعوجاج في سير الباخرة. قبيل الغروب بخمس ساعات ونصف، شاهدنا الفنار الثالث من بعيد؛ لم نتمكن من مشاهدة حالته بشكل جيّد، لكنه كان مرسوماً على خارطة القبطان؛ شكل الفنار على هامش الخارطة كان غريباً وبديعاً.

يوم الخميس، الثاني والعشرون من ذي القعدة، وبعد ساعتين مضتا من الدسّة، وصلنا إلى محاذاة رابع⁽¹⁾ المحاذية لجُحفة، وهي من المواقع التي يُحرّم فيها حُجّاج الشام ومصر، غير أنه ونظراً لتخريب جُحفة في الوقت الراهن؛ قاموا بتعيين رابع ميقاتاً للإحرام.

تطبيقاً لأحكام المناسك قرّرنا أن نُحرّم في وسط البحر من محاذاة رابع، فأمرنا بإيقاف الباخرة المملّكية، في موضع متقدّم قليلاً حذراً وحيطة، فأرست، بدأنا بمستحبات الإحرام أوّلاً من تنظيف الجسم والغُسل والدعاء بعد فريضة الظهر؛ ثمّ قمنا بواجبات الإحرام، فارتدينا قطعتين من القماش أوّلاً، ونوينا ثانياً أن نقوم بعُمْرة التمتع من حجّ الإسلام طاعة لله وقرية له، وثالثاً قمنا بالتلبية، وهي على النحو الآتي: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شريكَ لكَ لَبَّيْكَ، إن الحمدَ والنعمة لكَ والملك، لا شريكَ لكَ". وقد حرّمتُ على نفسي أربعة وعشرين، وهي صيد البرِّ، والتمتع بالنساء ودواعيه، والاستمنا، والتطيّب،

(1) رابع: إحدى مناطق مكة المكرمة، تقع على ساحل البحر الأحمر في إقليم نَهامة. (المترجم).

ولبس المخيط، والاكتحال، والنظر في المرآة، ولبس الحذاء والجورب، والفسوق، والجدال، وقتل الحيوان الساكن في البدن، ولبس الخاتم، ودهن الزيت، وقصّ الشَّعر، وتغطية الرأس وتظليله، وتقليم الأظافر، وقلع الأسنان، وقطع شجر الحَرَم وحشيشه، وإخراج الدم من البدن، وحمل السلاح، وتغطية الوجه، ولبس المجوهرات.

وقبل النيّة، وقفنا جميعاً برفقة معالي الحاجّ مُلاً باقر، فقرأنا دعاء مُستحبّاً، ثمّ قرأنا النيّة، وقمنا بالتلبية؛ خشعت الأفئدة، ورقّت، وانصرف الجميع من المجلس مُلبّين باكين عُراة الرؤوس والأرجل، منعتين من كلّ التعلّقات الدنيوية، فشكرتُ الله على هذا الحال، لأنني نلتُ وفزتُ بهذه النعمة العظيمة، وسوف أحرم ثانية احتياطاً في سعدية⁽¹⁾، وهي وادي يَلْمَم، ولن يُورّقني عناء الطريق للوصول إليها.

عند الغروب، وقبل جُدّة بأربعين ميلاً، أُرست الباخرة، لأن البحر مليء بالجبال المغمورة، فلا يمكن السير ليلاً، وسط تماوج البحر، تقلّبت أحوال معظم الركبّاب.

يوم الجُمعة، الثالث والعشرون من ذي القعدة، انطلق الوابور عند الصباح، ليلة البارحة كان راسياً نحو الغرب، لكنه انحرف نحو الجنوب والشرق، عند الانطلاق، كانت الجبال بائمة من جهة الشرق، صعدَ القبطان برفقة أحد الجلاوِزة وثلاثة آخرين على السارية، يراقبون جُدّة من بعيد بالمنظار، والوابور يسير بحيطه وحذر، هذه الحالة أربكت الركّاب، لكن، بحمد الله ومَنه، اجترنا هذه العَقبة دون أيّة خطورة وإصابات.

قُبيل الغروب بست ساعات وصلنا قُبالة جُدّة، فأرسي الوابور، كانت

(1) سعدية: كان اسمها يَلْمَم قديماً، وحالياً معروفة باسم السعدية، تقع جنوبي مكّة المكرمة. (المترجم).

سفينة بريطانية خلفنا على متنها عدد من حُجَّاج شيراز منهم معالي نصير المُلك⁽¹⁾، واللواء عبد الحُسَيْن خان⁽²⁾، وغيرهما مع الأهل والعائلة.

تسع سفن كانت قد أُرست في مرفأ جُدَّة؛ وثلاث أخرى كانت تسير، عند وصولنا، قامت جميعها بتنكيس الأشرعة إعظاماً وتوقيراً لنا، وقد رَدَّت باخرتنا التحية بالمثل.

بعد أن رسي الوابور صَعِدَ على متنه مستقبلونا ببذلاتهم الرسمية، كلُّ من علي باشا قائم مقام جُدَّة يرافقه الشريف، ومساعد بيك سبط معالي شريف مَكَّة، وسعادة حَسَن الحظَّاطي أفندي وكيل إمارة جُدَّة الجليلة، وسعدي أفندي المشرف على الرسوم، ومحمود أفندي رئيس التجارة، ومصطفى أفندي المستوفي، واللواء نجيب بيك، ومعهم معالي محمَّد خان قنصل حكومة إيران العليَّة المبعوث من قَبَل معالي معين المُلك، فجلسوا قليلاً، وتحدَّثوا معنا، ثمَّ غادروا.

ما بين مرساة السفن حتَّى المرفأ مسافة طويلة، علينا أن نقطعها حاملين أثقالنا بالزوارق، وقد سبَّبت هذه المرحلة تعباً ومشقَّة للحُجَّاج فضلاً عن خسارة الوقت.

استقلَّينا الزوارق حتَّى بلغنا المرفأ، فأطلقوا تسع عشرة قذيفة مدفعية ترحيباً بنا، وقد اصطفَّ أصحاب المناصب في جُدَّة، برفقة فرقتين من الجنود، وعدد من الرماة، وخيول عربية أصيلة لاستقبالنا قُبالة المرفأ، فتلاطفنا معهم، ثمَّ امتطينا الخيول قاصدين المنزل الذي

(1) الميرزا حسن علي خان نصير المُلك، من مواليد عام 1237 في شيراز، وهو من أعيان فارس، وكان طوال حياته والياً على ولايات عدَّة. انظر: فارسنامه ناصري، ج2، ص967.

(2) اللواء عبد الحُسَيْن خان، من مواليد عام 1244، قد نشأ في بيت قَوام المُلك جدَّه لأُمِّه، وكما نقل الميرزا حَسَن الفسائي، (بدءاً من عام 1291 إلى الآن يتراأس مدفعية فارس المباركة، ويحمل لقب اللواء)، انظر: فارسنامه ناصري، ج2، ص977.

عَيْنَهُ لَنَا مَعَالِي شَرِيف مَكَّةَ، وَغَادِرَ صَفُوتِ بَاشَا وَآلِي مَكَّةَ الَّذِي كَانَ مِرَافِقَنَا فِي الْوَابُورِ السُّلْطَانِي إِلَى بَيْتِهِ، وَأَدُّوا وَاجِبَ الْإِحْتِرَامِ اللَّائِقِ لَهُ تَقْدِيرًا لِمَقَامِهِ الْحُكُومِيِّ.

جُدَّة

مَدِينَةُ جُدَّةَ مَدِينَةٌ صَغِيرَةٌ، تَقَعُ بِمَحَاذَاةِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ. بَيْوتُهَا مِنْ عَدَّةِ طَبَقَاتٍ. فِيهَا مَرْفَأٌ فِي مَنْتَهَى الرِّدَاءَةِ، لَا تَدْخُلُهُ السُّفُنُ، وَتَرَسُو الْبُوَاطِرَ الْكَبِيرَةَ بَعِيدَةً عَنْهُ، بِنَايَاتِهَا وَأَسْوَاقِهَا لَمْ تَكُنْ حَسَنَةً، بَلْ مَعْظَمُهَا غَيْرُ نَظِيفَةٍ، وَتَفْتَقِرُ هَذِهِ الْمَدِينَةُ لِلْمَاءِ الْعَذْبِ، وَسَبَبُ تَسْمِيَّتِهَا مِنْ قَبْلِ الْعَوَامِّ جِدَّةٌ هُوَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ التَّسْمِيَةَ مَأْخُودَةٌ مِنْ قَبْرِ حَوْءِ الْوَاقِعِ خَارِجَ الْقَلْعَةِ فِي الطَّرْفِ الشَّرْقِيِّ، إِذْ تَعْتَبَرُ جِدَّةُ بَنِي آدَمَ، لَكِنْ الْخَوَاصُّ يُسَمُّونَهَا جِدَّةَ بَضْمِ الْجَيْمِ، وَهُوَ يَعْنِي وَجْهَ الْأَرْضِ، وَبَيْنَ جُدَّةَ وَمَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ اثْنَا عَشَرَ فَرَسَخًا، تَسْتَعْرِقُ سِتَّ عَشْرَةَ سَاعَةً.

يَوْمَ السَّبْتِ، الرَّابِعِ وَالْعِشْرُونَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، أَقْمْنَا فِي جُدَّةَ، كُنَّا ضِيُوفًا لِيَوْمَيْنِ فِي بَيْتِ شَرِيفِ مَكَّةَ. كَانُوا يَقُومُونَ بِطَبْخِ الْأَكْلَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَفَقًّا لِعَادَاتِهِمْ، وَيُقَدِّمُونَهَا لَنَا.

الْيَوْمَ اسْتَأْذَنَ لِلْقَائِنَا كُلِّ مَنْ قَنَصَلَ فَرَنْسَا، وَقَنَصَلَ بَرِيطَانِيَا، وَقَنَصَلَ هُولَنْدَا، الْمَقِيمِينَ فِي جُدَّةَ، فَحَضَرَ الْقَنَصَلَ الْبَرِيطَانِي وَالْهُولَنْدِي، وَلَمْ يَحْضُرِ الْقَنَصَلَ الْفَرَنْسِي، بِسَبَبِ سُوءِ حَالَتِهِ الصَّحِّيَّةِ، وَقَدْ أَوْفَدَ الْمُرْتَجِمَ نِيكُولَا، لِيَقْدِّمَ اعْتِذَارَهُ عَنِ عَدَمِ الْحُضُورِ.

أَبْرَقْتُ الْيَوْمَ إِلَى السُّلْطَانِ صَاحِبِ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَا حَوْلَ وَصُولِي وَالْوَابُورِ السُّلْطَانِي، وَجَمِيعِ الْمِرَافِقِينَ بِسَلَامَةٍ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ دُونَ آيَةِ أَضْرَارٍ، أَرْسَلْتُ الْبَرَقِيَّةَ إِلَى السُّوَيْسِ، لِيُرْسِلُوهَا مِنْ مَرْكَزِ الْبَرَقِيَّاتِ هُنَاكَ.

جاء إلى جُدَّة عبر بوشهر⁽¹⁾ كلُّ من نصير المُلك، واللواء عبد الحُسَيْن خان، وفضل علي خان، حاملين معهم ظرفاً من النائب المستطاب معتمد الدولة؛ فسررتُ غاية السرور بسلامته وطيب حاله، وبما أن معظم حاشية السلطان الذين كانوا معنا في الوابور عادوا أدراجهم، كتبتُ أيضاً كتاباً إلى السلطان العثماني، عبَّرتُ فيه عن شكري وتقديري لألطف جلالته السلطانية، ورضاي عن خَدَمِهِ وَحَسَمِهِ.

يوم الأحد، الخامس والعشرون من ذي القعدة، قمنا بإعداد مستلزمات الحركة، كي نطلق مساء نحو السعدية، فنُحرم ثانية من هناك، كان شريف مكَّة قد أرسل قبل يومين نجيب بيك آلي بيكي، برفقة عدَّة فرسان لمرافقتنا في حركتنا، وبعد أن وقَّروا لنا وللأتباع الهواج والخيام، انطلقنا قبيل الغروب.

كانت الخيول الخاصَّة والمشاة، ومعهم فرقتان من الجنود وآلي بيكي وفرسانه حاضرين عند بؤابة العمارة، فركبنا وخرجنا من المدينة، وحين المغادرة، كما القدوم، أطلقوا القذائف أداءً لواجب الاحترام، ومن عتبة البؤابة، أذنتُ للجنود والمشاة بالانصراف.

جلستُ على الهودج، وسرنا. كان معنا آلي بيك، ورفقته قائد كتيبة، وأربعة ملازمون، وأربعة شرفاء، وخمسة من جنود المشاة، وثمانية عشر جندياً، ونظراً لاعتيادهم الأطعمة العثمانية، أمرتُ بإعداد طعامهم على حِدَّة، وَفَقاً لعاداتهم وطريقة طهيهم.

كان الجوُّ اليوم معتدلاً؛ وقد مال إلى البرودة في آخر الليل. وبعد أربعة فراسخ، وبحركة تلقاء الغرب، دخلنا حَجْر عند بزوغ الفجر، كان

(1) بو شهر: مدينة في جنوب إيران على الساحل الشرقي للخليج العربي. (المترجم).

المرافقون والأتباع الذين لم يروا هودجاً من قبل، ولم يركبوا إبلاً قد أبدوا امتعاضهم من حركته، لكن هذه المشقة وهذا العناء هيّن إزاء تلك السعادة والزيارة، ولكلّ زجر أجر (لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ)⁽¹⁾.

يوم الاثنين، السادس والعشرون من ذي القعدة، أقمنا صلاة الصبح في حَجْرٍ، ومكثنا فيها حتّى الغروب.

حَجْرٌ صحراء، تحيط بها الجبال؛ لم تكن عامرة باستثناء موضعين قريبين من بعضهما، شاهدنا فيهما غرفاً من القصب والقش، بنوا الغرف في الموضع الأوّل على شكل حصون مُتَقَنَّة، وفي الموضع الآخر بُنيت الغرف بشكل عشوائي. كان الحُجَّاج يقيمون في هذه الغرف بحالتها القذرة جدّاً، ضربوا لنا خيامنا بعيداً عن هذه الغرف، كي لا نكون قريبين من الازدحام والضوضاء. كان يرافقنا في هذا المنزل ميرزا علي التركي من قبل معالي محمّد خان القنصل، ومُحمّد خان بنفسه سيذهب من جُدَّة إلى مكّة، ليكون في استقبالنا حين دخولنا إليها.

اليوم، وفي منزل حَجْر ارتكب غلام شريف مكّة قتلاً غير مُتعمّد، إذ ضرب جمالاً بالعصا، ففارق الحياة على الفور.

مع غروب شمس اليوم، تركنا هذا المكان. وبعد مسير ما يقارب ستّة فراسخ باتجاه الغرب، بلغنا منزل بئر مُرٍّ، بعد مضي ثلاث ساعات من يوم الثلاثاء.

يوم الثلاثاء، السابع والعشرون من ذي القعدة، مكثنا في منزل بئر مُرٍّ حتّى الغروب. تحيط الجبال بهذا المنزل، وكأنه مضيق. كان

(1) قرآن كريم، سورة النحل، الآية 7.

السلطان عبد الحميد خان قد حفر بئراً في هذا المكان للحُجَّاج، وقد رفع جوانبها، وطعم المرارة في الماء أعطى اسمه للبئر.

كانت خيمتنا قريبة من البئر، وكان قريباً منّا نصير المُلك، وْحُجَّاج شيراز، وشقيق حُسَيْن قلي خان الإيلخاني البختياري. خرجتُ من الخيمة مساءً للفرجة، فخرج كلُّ من نصير المُلك وشقيق الإيلخاني، فتجادبنا أطراف الحديث.

بعد تناول العشاء، انطلقنا جهة الجنوب الشرقي لمسافة ستَّة فراسخ، فبلغنا منزل البيضاء قبل طلوع الفجر، في الطريق، شاهدنا أولاً الأشواك، ثمَّ الصخور، تلتها الغابات والأرض المستوية.

البيضاء

يوم الأربعاء، الثامن والعشرون من ذي القعدة، أقمنا في منزل البيضاء الذي تحيط به الجبال، تعلو سفوحها الغابات، وعلى اليمين، يوجد بئران محفوفتان بالحجارة على طبقتين، ماؤهما عذب سائغ، نصبوا خيامنا على مقربة من إحداهما. شاهدتُ صباحاً عدداً من الحُجَّاج عائدين من السعدية، بحالة إحرام قاصدين مكَّة المعظمة، ولاحظتُ في البيضاء قطيعين أو ثلاثة من الخراف كانت تتَّجه نحو منى، ليضحى بها، وبما أننا سنبلغ السعدية غداً، ونقوم بتجديد الإحرام، قمتُ بإحضار الماء وسط الخيمة، فنظَّفتُ جسمي، ولأني كنتُ أتذكَّر من سفر هرات أنهم كانوا يفركون وينظِّفون أجسامهم بحصا ناعمة، قمتُ اليوم باتِّباع ذات الطريقة، وقلتُ في نفسي أنظر أين هذا الطريق من ذاك؟ أين هرات؟ وأين السعدية؟ والبون بينهما بعيد، وذلك تقدير العزيز الحميد.

بعد تناول وجبة العشاء، انطلقنا من البيضاء باتجاه الجنوب، وعلى اليمين في وسط المضيق، كان الطريق صخرياً حتى نصف فرسخ، ومن ثمّ، اتّسع مع كثرة الأشواك، بلغنا السعدية قبل طلوع الفجر بعد مسير ستّة فراسخ.

السعدية (يَلْمَم)

يوم الخميس، التاسع والعشرون من ذي القعدة، حللنا في السعدية إلى الليل لتجديد الإحرام، الاسم الحقيقي للسعدية هو وادي يَلْمَم نسبة إلى الجبل في الجنوب الغربي، وقيل إن السعدية امرأة كانت قد حفرت بئراً، وبنت مسجداً قُبالة جبل يَلْمَم، فاشتهر المكان باسم بئر السعدية، ثمّ شاع الاسم على المكان عموماً. يقع المسجد فوق جبل صغير، عرضه تجاه الشرق، وطوله تجاه الغرب، والصحن نحو الشّمال، له بؤابة هلالية في وسطه، تُفْتَح إلى الداخل، لكن السقف كان قد خَرَّت منه ثلاثة أعمدة، ولم يبق أحد إلى الآن بترميمها، وفي جانب الباب الهلالي، هناك رِقَان مَقْوَّسَان، لا نوافذ لهما، وأسفل المسجد بقليل ثمة بئر، عمقها خمسة عشر ذراعاً، ومياهها ضحلة قلماً تكفي ذلك الجمع الغفير من الناس.

قُبيل الغروب بساعتين، وبعدما انصرف الحُجَّاج وفضي الوادي، قمتُ بالاعتسال وسط الخيمة، ثمّ الإحرام، واجتمعنا نحن والأتباع، فذهبنا إلى المسجد، وبعد الصلاة والدعاء وعقد النيّة، خرجنا مُلبّين قاصدين الخيام.

وحين الغروب، خرجتُ من الخيمة للاستهلال، فقد كنتُ على علم بالتقويم الإسلامبولي، ولما ثبتت لي الرؤية، طلبتُ آلاي بيك، وأرَيْتُهُ الهلال، كي لا يحدث اختلاف في تحديد يوم عَرَفَة؛ وَوَفَّقاً لرؤيتنا قَدَرْنَا

أن تولّده ليلة البارحة، وأن اليوم هو عُرَّة شهر ذي الحِجَّة، وهذا يعني أن يوم عَرَفة يوافق الجُمعة، وحجَّهم في هذا العام هو الحجَّ الأكبر. قيل إن كلَّ عام يُثبِت فيه القاضي هذا الأمر يُسمَّى في اصطلاحهم الحجَّ الأكبر، والقاضي معيَّن من قبل الحكومة العثمانية العليَّة، والقضاء باقٍ في ذُرَّتِه إلى يوم الدِّين؛ مع أن ما ورد في كُتُب الأحاديث عن الحجَّ الأكبر هو الحجَّ الذي فاز به المسلمون والمشركون معاً في زيارة الكعبة.

حينما يحدث اختلاف في تحديد يوم عَرَفة بين السُنَّة والشِّيعة تضح معالمه في الذهاب نحو عرفات، ومَنْ حدَّد الجُمعة هو يوم عَرَفة يعتبر الخميس يوم التَّروية، فينطلق، ومَنْ لم يثبت عنده يوم عَرَفة بيوم الجُمعة يَعْتبر الجُمعة يوم التَّروية، فينطلق متأخراً.

لقد بدا واضحاً من كلام آلي بيك أنه سيكون هناك اختلاف في تحديد يوم عَرَفة في عامنا هذا، وممَّا حدث اليوم هو أن كهلاً من حُجَّاج الشِّيعة تأخَّر عن القافلة، ولم يبلغ السعدية، وبقي متاعه ومئة وخمسون تومانا مع القافلة، وعندما علمتُ بذلك، أنفذتُ إلى آلي بيك، وأمرته أن يعثر سريعاً على العجوز، ويبلغه السعدية، ويردَّ إليه ماله ومتاعه، لكي يطمئنَّ قلبي، ويهدأ بالي، فأرسل ثلاثة من الرجال على الإبل، وبعد ساعتين، جاؤوا به، وأعادوا له حوائجه، و جاؤوا، أيضاً، بأربعة راجلين، كانوا في الطريق. حقاً كان آلي بيك رجلاً وفيماً في المواظبة على خدمتنا، انطلقنا ليلاً من السعدية، فوصلنا البيضاء⁽¹⁾ صباح الجُمعة.

يوم الجُمعة، عُرَّة ذي الحِجَّة الحرام، مكثنا في البيضاء حتى ساعتين قبيل الغروب، ثمَّ سرنا جهة مكَّة المكرمة، ولمسافة سبعة فراسخ، الإبل

(1) ورد اسم البيضاء من قبل، وهو منزل من منازل الطريق، و(البيضاء) في هذا الموضع منزل آخر. (المترجم).

تقطع فرسخاً كلّ ساعتين، وما بين المسير والتوقف قطعنا المسافة خلال ستّ عشرة ساعة.

عندما بدأنا الحركة من منزل البيضاء كانت على يميننا صحراء، ومن خلال مضيق طوله ربع فرسخ، يعبرون نحو مكّة المعظّمة، وبعده تتسع الأراضي، ليكون الطريق شاسعاً مع أنه محاط بالجبال، بعد مضي ساعتين من نهار السبت، وصلنا في سهل مكّة إلى بركة ماجن التي يغتسل الحجاج فيها، ومن هناك، يحملون نعالمهم في أيديهم، ويقصدون بيت الله الحرام حفاة راجلين، ونظراً لبُعد المسافة، وبسبب العلة في رجلي، لم أتمكّن من السير راجلاً، فجلستُ على الهودج، أسكب الدمع على حالي، لعدم تمكّني من المسير في الأراضي المقدّسة:

ما كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ⁽¹⁾

بنوا بيوتاً كثيرة من القشّ والقصب على يسار تلك الصحراء، وعند سفح الجبل، كي يسكنها الحجاج على كثرتهم. لم يكن المكان نظيف، وكانت الأشواك والقمامة والأتربة مكدّسة فيه.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) البيت من قصيدة لأبي الطيّب المتنبّي.

مكة المعظمة

يوم السبت، الثاني من ذي الحجة، وبعد ثلاث ساعات مضين من النهار، دخلنا مكة. كان سماحة الشريف عبد المطلب شيخ الحرمين الذي يناهز من العمر تسعين عاماً قد أرسل نجله الشريف هاشم لاستقبالنا مع وكيله الشيخ حسن الحظاظي، وفرقتين من العساكر، وفرقة موسيقية عسكرية، وعدد من الفرسان.

قام العساكر والفرقة الموسيقية العسكرية بالتحية، والمستقبلون قاموا بواجب الاحترام وآدابه، تلاطفت مع جميعهم من على الهودج، ومن ثم، أوصلوني إلى المنزل.

عين الشريف لنا منزلاً في عمارته الواقعة وسط المدينة، قريباً من المسجد الحرام على مقدار سوق واحد، وبقي هو في عمارته التي بناها على طريق منى، كانت عمارة منزلنا واسعة، تضم غرفاً سفلية وعلوية، فنزلنا فيها مع كل المرافقين.

كانوا يضربون الطبول أمام المنزل كل صباح ومساءً وفقاً لعاداتهم، وكان في نية معالي الشريف استضافتنا ما دنا في مكة، لكننا اعتذرنا له، فأصر على استضافتنا لثلاثة أيام، ومن ثم، أوقفنا الضيافة.

ولأنني أردت أن أقوم بتهيئة مقدمات زيارة بيت الله الحرام في المنزل، ومن ثم، التشرّف بالحج، لم أتوجّه مباشرة إلى المسجد الحرام عند دخولي إلى مكة.

اغتسلتُ غسلًا مُستحبًّا في المساء، وبعد مضي ثلاث ساعات من الليل، ذهبتُ وجميع المرافقين برفقة الحاجِّ حَسَن المطوِّف لأداء عُمْرَةَ التَّمَتُّع، دخلتُ المسجد الحرام من باب السلام حافي القَدَمَيْن استحباباً واحتراماً، واقتربتُ من الأعمدة، وبلغتُ باب بني شَيْبَةَ وأنا بمنتهى الخضوع والخشوع، ثمَّ قرأتُ دعاء زيارة الرسول استحباباً عند باب المسجد الحرام.

حينما وقع بصري على الكعبة، قرأتُ الدعاء المستحبَّ، وتذكَّرتُ شطر بيت الشَّعْر القائل: وَقَدْ سَعِدْتُ عِيُونَ قَدْ رَأَتْهَا⁽¹⁾.

ثمَّ ذهبتُ نحو الحجر الأسود، فوضعتُ وجوباً الجزء الأوَّل من جسمي بمحاذاة الجزء الأوَّل من الحجر الأسود، وقرأتُ النِّيَّة بهذه الطريقة: نويتُ أن أطوف حول الكعبة سبعة أشواط، من طواف عُمْرَةَ التَّمَتُّع فرضاً من حجِّ الإسلام، طاعة وقرية إلى الله.

ثمَّ بدأتُ الطواف وجوباً من النقطة ذاتها، فطفتُ سبعة أشواط حول بيت الله ومقام إبراهيم، وأنهيتُ كلَّ شوط إلى الحجر الأسود، وكنتُ مواظباً في كلِّ شوط أن لا يجتاز موقع البيت كتفي الأيسر، لا سيَّما في حجر إسماعيل، كذلك كنتُ أستلم الحجر الأسود في كلِّ شوط، فأقبَله، وأمسح وجهي ويدي وكامل جسمي به استحباباً، ولأنَّ أغوات⁽²⁾ الحَرَم كانوا يُطوِّقونني ويُنحُون الناس عني، كنتُ أستلم الحجر بسهولة ويُسر وسط الزحام الكثيف، وكنتُ أُرَدِّد الأدعية المأثورة حين الطواف

(1) الشَّعْر لابن مليح القيسي، من شعراء القرن الحادي عشر الهجري في وصف الكعبة المشرفة، والمصرع الثاني هو: وقد شَقِيَتْ عِيُونَ، لا تراها. (المترجم).

(2) أغوات: كلمة تركية، مفردها آغا، بمعنى سيِّد أو رئيس، وهم جماعة من الناس، تقوم بخدمة الحَرَمَيْن الشريفَيْن في مكَّة والمدينة. (المترجم).

بعد المطوف، ثمَّ ذهبتُ استحباباً في الشوط السابع نحو المستجار الواقع خلف البيت، وعلى مقربة من الركن اليماني، فألصقتُ نفسي به، وقرأتُ دعاء المستجار، واستغثتُ بربي. بعد التفرُّغ من الشوط السابع وقفتُ خلف مقام إبراهيم، فصلَّيتُ ركعتين وجوباً، ثمَّ توجهتُ نحو بئر زمزم، فأدليتُ بدلوي، وأخرجتُ منها الماء، وسكبتُهُ على جسمي من الرأس إلى أخمص القدم، وشربتُ قليلاً منه تيمناً، ثمَّ ذهبتُ وجوباً من الطريق المتعارف غرب الحرم، فخرجتُ من باب الصفا، وعند وصولي إلى ليوان جبل الصفا، ألصقتُ كعب قَدَمي بالجزء الأول من سلالم الصفا، وصعدتُ أربع درجات بطمأنينة، وتوقفتُ، وقرأتُ النية على النحو التالي: اللهم، إني أريد أن أسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، سعي عمرة التمتع قربة إليك.

ثمَّ قرأتُ الأدعية المستحبة، ونزلتُ بالطريقة ذاتها التي صعدتُ بها، وانطلقتُ ماشياً مشياً متوسّطاً حتّى وصلتُ إلى محاذاة المنارة التي كانت بائنة لي، فأسرعتُ مهولاً حتّى سوق العطارين، فمشياً متوسّطاً حتّى ليوان جبل المروة، وقد ألصقتُ كعب قَدَمي بالدرجة الأولى من سلالم المروة، فصعدتُ، ثمَّ عدتُ وذهبتُ نحو الصفا مرّة أخرى كالسابق.

ذهبتُ أربع مرّات إلى المروة، وثلاثاً إلى الصفا، وبعد أن تمَّ السعي، نويتُ أن أقصر للخروج من إحرام حجة الإسلام طاعة وانقياداً وقربة إلى الله، قمتُ بحفّ الشارب، وتقليم الأظافر، وأصبحتُ مُحللاً، فما عدا التحليق، أحللتُ على نفسي كلَّ ما كنتُ قد حرّمته، وبما أُنِي طفتُ الأشواط السبعة مع ضعف جسمي وعلّة رجلي مشياً على الأقدام لحقني التعب، ركبتُ بعد التقصير قاصداً المسجد الحرام،

وقد تَرَجَّلْتُ قُبَيْلَ الْمَسْجِدِ، لِأَقُومَ بِطَوَافِ النِّسَاءِ⁽¹⁾ اِحْتِياطاً وَفَقاً لِأَرَاءِ
بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، وَمِنْ ثَمَّ، وَبَعْدَ تِسْعِ سَاعَاتٍ مُضِينَ مِنَ اللَّيْلِ، عَدْتُ
أُدْرَاجِي إِلَى الْمَنْزَلِ:

طُوبَى لِمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ
وَقَدْ لَجَا إِلَى اللَّهِ فِي سِرٍّ وَإِجْهَارٍ
وَنَالَ بِالسَّعْيِ كُلِّ الْقَصْدِ حِينَ
سَعَى وَطَافَ جَهْرًا بِأَرْكَانٍ وَأَسْتَارٍ
ذَاكَ السَّعِيدُ الَّذِي قَدْ نَالَ مِنْزَلَةً
عَلِيَاءَ فِي دَهْرِهِ مِنْ كُلِّ أَوْطَارٍ
وَكُلُّ مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ غَدَا
بَيْنَ الْوَرَى مُعْتَقاً حَقًّا مِنَ النَّارِ⁽²⁾

يوم الأحد، الثالث من ذي الحجة الحرام، بدلتُ ثياب الإحرام،
وارتديتُ ثيابي، وجاءني زائراً كُلُّ مَنْ ناشد باشا والي مكة السابق،
واللواء حاج عطاء الله خان، ومحمد علي خان نجل المرحوم رضا قلي
خان نائب ايشك آقاسي، فجلسنا للحديث معاً، كان ناشد باشا رجلاً
عاقلاً، تبدو عليه من كلامه أمارات التقوى، كذلك زارنا اليوم ميرزا
مرتضى الطبيب الذي وصل عن طريق الإسكندرية من مصر.

وبما أن جسمي ما زال مُنْهَكاً من أعمال الليلة الماضية، ومع ألم
قَدَمِي، لم أستطع الذهاب إلى المسجد الحرام، فقضيتُ اليوم راقداً
في المنزل.

(1) ليس عند السنة طواف النساء، بخلاف الشيعة الذين يعدونه واجباً على الرجال والنساء،
فلو تركه الرجل حرمت عليه النساء، ولو تركته المرأة حرمت عليها الرجال. (المترجم).

(2) من قصائد الشاعر ابن الطيب الشرقي الفاسي 1698 - 1756 م، مولده بفاس، ووفاته في
المدينة المنورة. (المترجم).

وصف مكة المعظمة

تقع مكة المعظمة على سفوح جبلين، وقد شيّدوا مقراً للمدفعية أعلى الجبل الأيمن الذي منه مدخل المدينة، وهو أقل ارتفاعاً من الجبل الأيسر، وبنوا ثلاثة حصون للعساكر في أماكن متفرقة، أحدها حصن كبير بين الجنوب والغرب على جبل أبي قُبَيْس، والآخر على جبل العمرات غربي جبل أبي قُبَيْس، حيث يقع الحرم الشريف بينهما، والأخير ما يُسمى قلعة فلفل⁽¹⁾ الواقعة بين غرب وشمال جبل أبي قُبَيْس.

مكة اسم لعموم البلدة، وقد ذُكر في تسميتها: لأنها تمك من ظلم فيها، أي تهلكه؛ أو لأنها تمك الذنوب، أي تذهب بها؛ أو لقلّة مائها من قول العرب: مكّ الفصيل ذرعاً أمّه، إذا لم يبقَ فيها لبن.

أمّا بكة، فهو اسم لبقعة الكعبة والمسجد الحرام، وقيل في تسميتها: لأنها تبك أعناق الجبابرة، أي تدفعها؛ وما قصدها جبار إلا قصمه الله تعالى، ولأنها تضع من نخوة المتكبر، فلا يدخلها متكبر إلا ذلّ.

بعض الأزقة في مكة تتخللها الانحدارات والارتفاعات، فيها أسواق وحوانيت كثيرة مبنية وفقاً لقانون العرب، فلم تكن مجللة كما ينبغي، البنايات الشاهقة والعالية هناك حكر على الشرفاء، لا سيما عمارة المرحوم الشريف عبد الله التي تمّ بناؤها طبقات على شاكلة البنايات الإسلامية. أنشئ البناء من الحجارة، ومعظم أبوابها ونوافذها مصنوعة من الخشب المنقش المشجر المنحوت ببراعة، المجلوب من الهند. تعاني مكة من سُحّ المياه، ولا تجد فيها المياه الجارية أو الخزانات أو الأحواض، يقوم السقاؤون بجلب الماء بالقرب من خارج المدينة، ويبيعونه للحجاج وغيرهم، عدد الحمامات فيها

(1) قلعة فلفل: ويطلق عليها اسم قلعة لعلع. (المترجم).

قليل، ومناخها حارٌّ جدًّا، وجافٌ، لذا تجد معظم الناس بعد الحجّ يذهبون إلى المصايف.

يقتصر رونق المدينة على موسم الحجّ، والي مكّة تابع لحُكم شيخ الحَرَمَيْنِ، والأخير مُبجّل عند الناس وذو مكانة، وإذا كان مُوهَّلاً وذا شوكة، فإن حُكمه نافذ على عرب الحضر والبدو قاطبة.

المسجد الحرام

المسجد الحرام يتوسّط مكّة المكرمة، وهو في حُلته الحالية أكبر حجماً منه في عهد النبي، صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، وقد ثبّتوا أعمدة حديدية حول الكعبة، حيث يبدو المسجد القديم، فتتضح سَعَتُهُ. كانت أرضية المسجد القديم منخفضة قياساً مع الأراضي المضافة، يبلغ طول المسجد القديم وهو المسجد الحرام الحقيقي ثلاث مئة وستّة وخمسين ذراعاً، وثمّن الذراع، وهو يمتدُّ من الشرق إلى الغرب، وعرضه من الشّمَال إلى الجنوب مئتان وستّة وستون ذراعاً، وكلُّ ذراع يعادل ثلاثة أشبار، والشبر ثلاثة وثلاثين إصبعاً، والإصبع ستّ حَبّات شعير معتدلة ملتصقة ببعضها بالعرض، وحبّة الشعير تعادل ستّ شعرات ملتصقة من عُرف الخيل، أمّا الآن، فيبلغ طول المسجد الحرام بأراضيه المضافة سبع مئة وخمسة وخمسين ذراعاً، وعرضه أربع مئة وخمسة وستّين ذراعاً، وهذا قول الحافظ ابن عساكر؛ لكن أبا المعالي المشرف صاحب مشير الغرام، فيذكر طوله بمقدار سبع مئة وأربعة وثمانين ذراعاً، وعرضه أربع مئة وخمسة وخمسين ذراعاً، أمّا ناصر خسرو العلوي في رحلته، ذكر أن الطول الشرقي ستّ مئة وثلاثة وثمانون ذراعاً، والطول الغربي ستّ مئة وخمسون ذراعاً، والعرض أربع مئة وثلاثة وثمانون ذراعاً.

تضمُّ الأراضي المضافة عدَّة شوارع مفروشة بالأحجار القاتمة، وعدداً من الساحات الرحبة، يقيم المُصلُّون الصلاة كلِّما اشتدَّ الازدحام، تُحيط بالحرَم عدَّة أروقة ذات أعمدة، تتشكَّل صفوف المُصلِّين فيها.

أبواب الحرَم المبارك

للحرَم المبارك عدَّة أبواب على جوانبه الأربعة، تُفتَح مصارعها للداخل، بعض أسماء الأبواب توافق أسماءها القديمة التي جاء ذِكْرها في الكُتُب، والبعض الآخر تخالفها؛ فالموافقة التي لم تتغيَّر وهي باب العُمرة، وباب إبراهيم في الجانب الجنوبي، وباب السَّلام، وباب العباس، وباب عليِّ الواقع في الجانب الشِّمالي، وباب أمِّ هانئ، وباب المدرسة الأشرفية، وباب أجياد⁽¹⁾، وباب البَعْلَة، وباب الصِّفا في الجانب الشرقي، وباب الزيادة في الجانب الغربي.

أمَّا الأبواب التي تغيَّرت أسماءها، فهي باب الجنائز، وباب بَارَان، وباب المجاهدين، وباب الحرُّورة، وباب السُّدَّة، وباب دار العَجَلَة، وباب السَّكِينَة، وقد ضُبطت جميعها في الكُتُب القديمة على الشكل الذي أوردناه؛ لكن، لها أسماء حديثة في زمننا هذا، على النحو التالي باب الدَّأوديَّة، باب الوَدَاع، باب النَّبيِّ، باب الدَّرِيَّة، باب العَتِيْق، باب البَسْطِي، باب القِبْطِي، باب القَاصِي، باب الحَنَّاطِيْن.

وليس من المعروف ماذا يقابل هذه الأسماء الحديثة من الأسماء القديمة، فعدد الأبواب الحديثة أكثر من الأبواب القديمة، ومنها مَنْ له قوس واحد، ومَنْ له قوسان، ومَنْ له ثلاثة أقواس.

(1) قد ذُكر باب أجياد بباب أجياد الصغير أيضاً.

بناء الكعبة

اعلم أن النبي الخليل، وبأمر من الربّ الجليل، قام ببناء الكعبة وعُمره مئة سنة، وقبل تسعة وثمانين عاماً من ميلاد عيسى، عليه السلام، ونحن في العام ألف ومئتين وسبعة وتسعين للهجرة، فيكون قد مرّ على بنائها ثلاثة آلاف وسبع مئة وسبعون عاماً شمسياً؛ ولم يتغيّر بناؤها لألفين وسبع مئة وخمسة وسبعين عاماً، إلى أن قامت قبيلة قريش بهدم البناء، ورفع بنيانه، وقد كان الرسول، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، آنذاك في الخامسة والثلاثين من عُمره، وظلّت على حالها حتّى اثنتين وثمانين عاماً حتّى قام الملعون الحُصَيْن بن نُمَيْر عام 64 للهجرة بهدمها وحرّقها في عهد يزيد بن معاوية، فانبرى عبد الله بن الزبير لإعادة بنائها على طراز بنيان النبي الخليل، وبقيت على تلك الحالة لتسع سنوات، إلى أن قام الحجاج عام 74 للهجرة بهدم البناء وإنشائه على هيئة أخرى، فأخرج الحجر الأسود من داخل الكعبة، ووضعه خارجها، وفي عهد عبيد الله المهدي بالله أوّل الخلفاء الفاطميّين، دخل أبو طاهر سليمان القرمطي ملك البحرين إلى مكّة في يوم التروية، فقتل ونهب، ونقل الحجر الأسود إلى ولايته، واحتفظ به اثنتين وعشرين عاماً.

يقول صاحب كتاب الخرائن⁽¹⁾ دخل القرامطة إلى مكّة في أيّام الموسم، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأخذوا الحجر الأسود، وبقي عندهم عشرون سنة، وفي غضون هذه الأعوام، لم يزر أحد خلال موسم الحجّ الحجر الأسود، وبقي متروكاً في ولاية القرامطة، وفي عام 339 للهجرة، أي بعد مرور اثنتين وعشرين عاماً، أعادوه، ونصبوه.

لقد طرأت تغييرات وتعديلات كثيرة على بناء الكعبة، فسلطين

(1) كتاب الخرائن: صاحب الكتاب هو أحمد بن محمّد مهدي نراقي -1771 1829. (المترجم).

وملوك العثمانيين والشركس قاموا بإعادة بنائها غير مرة، إذ جدد الملك الأشرف خادِم الحَرَمَيْنِ برسباي⁽¹⁾ بناءها عام 826 للهجرة، ومثله فعل خادِم الحَرَمَيْنِ قايتباي⁽²⁾ في عام 884؛ ثم قام السلاطين العثمانيون بترميمها، وقد نُقِشت أسماءهم داخل البيت على عدَّة أحجار عند الركن اليماني.

عرض وطول الكعبة المعظمة وأستارها

طول البيت يعادل ثلاثين ذراعاً، وعرضه ستَّة عشر ذراعاً، وارتفاعه من قاعدة المسجد ثلاثين ذراعاً، وسماكة جدرانه ستَّة أشبار، وبما أن أرضية البيت الداخلي ترتفع أربعة أذرع عن أرض المسجد، وللسقف غطاء آخر، لذا بلغ الارتفاع الداخلي للكعبة حتَّى السقف سبعة عشر ذراعاً.

تمَّ فرش الأرضية الداخلية للبيت بقطع الرخام الكبيرة والصغيرة، بعضها فيه شقوق وكسور، والآخر لا عيب فيه؛ وغطَّوا الجدران بذات الرخام منقوشة عليه أسماء بعض السلاطين.

زَيَّنوا السقف الداخلي للبيت بالحرير الفاخر، وعلَّقوا قناديل فضيَّة صغيرة على ثلاثة أعمدة خشبية، وهنالك صخرة حمراء طولية، تقع وسط عمودين، كان النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، يُصَلِّيُ عَلَيْهَا؛ وفي زاوية على يمين البيت من الداخل، توجد فتحة تُسَمَّى باب الرحمة، تصل إلى أعلى البيت، لها تسع وعشرون درجة، وغطَّيت الكعبة من الخارج بحلَّة سميقة من الحرير، نُقِشت أسماء السلاطين على نطاقها بخيوط دقيقة صفراء،

(1) برسباي: أحد ممالك مصر. حكم من 825 إلى 841 هجرية.

(2) قايتباي: سيف الدِّين قايتباي. له بصمات كثيرة جداً في الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وهو يُعَدُّ من ممالك مصر، حكم من 872 إلى أن وافته المنية في 901 للهجرة.

تُستبدل الحُلَّة الخارجية في كلِّ موسم حجٍّ، فيما يتقاسم الأعوات الحُلَّة القديمة بينهم؛ وقد يُهدُون قِطْعاً منها للحُجَّاج تيمُّناً وتبرُّكاً.

أركان الكعبة

للكعبة أربعة أركان عند الزوايا الأربع، لكلِّ ركن اسم نسبة إلى المملكة التي تواجهه، ويكون قبيلةً لأهل تلك المملكة، أولها الركن الواقع في الجنوب الشرقي الموسوم بالركن العراقي، والحجر الأسود منصوب في هذا الركن، ثانيها الركن الواقع في الشَّمال الشرقي المُسمَّى بالركن الشامي، وهو بمحاذاة الحجر الأسود، وأهل السُّنَّة يُسمُّونه بالركن العراقي، وهذا ليس بصحيح، لأن الركن العراقي هو ذاته الذي يقع فيه الحجر الأسود، ثالثها الركن الواقع في الشَّمال الغربي الذي يُطلق عليه اسم الركن المغربي، وأهل السُّنَّة يُسمُّونه خطأ الشامي، فالركن الشامي هو الركن الشرقي الذي أسلفنا ذكره، ورابعها الركن اليماني الواقع في الجنوب الغربي، وهذا الركن مُتَّفَق عليه بين الشَّيْعة والسُّنَّة، ولم يختلف الاثنان في تسميته.

باب الكعبة المعظَّمة

يقع باب الكعبة في الجانب الشرقي منها، يرتفع عن الأرض أربعة أذرع، وطوله ستَّة أذرع ونصف الذراع، وعرض كلِّ مصرع من مصراعيه ذراع وثلاثة أرباع الذراع، وله أربع حلقات من الفضة، ومن خلال السُّلَم، تستطيع الدخول إلى بيت الله الحرام.

الحجر الأسود

طول الحجر الأسود بمقدار كَفِّ واحد، وأربع أصابع، وعرضه ثماني أصابع، والحجر مكسور ومقسَّم إلى سبعة عشر قسماً متَّصلة معاً بطُوق فضي. تبلغ المسافة من الحجر الأسود حتى باب البيت أربعة أذرع.

مقام إبراهيم

يقع مقام النبي إبراهيم، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، قُبَالَةَ الكعبة في الجانب الشرقي الجنوبي من البيت، يبعد عنه سِتَّةٌ وَعَشْرُونَ ذراعاً، وله بقعة وضريح صغير مغطَّى بِسُرَادِقٍ، يتجدَّد كلَّ عام، وتقع الصخرة التي هي مَوْطِئُ قَدَمِ النبي إبراهيم حين بناء الكعبة وسط الضريح، يسكبون ماء زَمْرَمَ عند مَوْطِئِ القَدَمِ، ويشربونه تبرُّكاً، وخلف البقعة هناك حُجَيْرَةٌ صغيرة مفتوحة من الجوانب الثلاثة، يُصَلِّي فيها الحُجَّاجُ، وقد قام الملك الأشرف خادم الحَرَمَيْنِ إينال الظاهري⁽¹⁾ بإعادة بنائها، وقد أَرخُوا لإعادة البناء بنقش في الجانبَيْنِ الشرقي والغربي من قاعدة الصخرة، ثمَّ قام الملك الكامل خادم الحَرَمَيْنِ قَانُصُوه العُورِي⁽²⁾ بإعادة بنائها مجدداً في عام 915 للهجرة، وقد نقشوا الاسم والتاريخ على الطرفين الشَّمَالِي والجنوبي من قاعدتها.

حجر إسماعيل

يبتعد حجر إسماعيل عن البيت بمقدار ذراعَيْنِ ونصف من جهة

(1) الملك الأشرف سيف الدِّين إينال العلاني الظاهري الأجرد من مماليك مصر. حكم من 857 - 865 هجرية، وقد ورد في النصِّ (الناصري)، فجرى تصويبه.

(2) قَانُصُوه العُورِي: هو آخر السلاطين المماليك في مصر، دام حُكْمُه من سنة 906 - 922 هـ، وترعَّع على العرش بعده طومان باي، وفي السنة نفسها، فتح العثمانيون مصر.

الركنَيْنِ الشامي والمغربي اللذَيْنِ يدخل الحُجَّاج من محاذاتهما، وهو عبارة عن باحة، يحيط بها جدار حَجْرِي بارتفاع ذراعَيْنِ، وعرضها كذلك، يقع مِيزَاب الرحمة في منتصف سقف البيت من جانب الحجر، فتساقط مياهه هناك، يبلغ طول المِيزَاب ثلاثة أذرع، وعرضه ثلثا الذراع، ومثلهما واقع داخل الجدار، وفي أسفله صخرة خضراء، هي مقام إبراهيم، حيث مدفن إسماعيل وهاجر.

المستجار

يقع المستجار خلف البيت متصلاً بالركن اليماني، وقديماً كان باب البيت من تلك الجهة، واسمه مأخوذ من كونه كان موضع استجارة الأنبياء.

بئر زَمَزَم

تبعد بئر زَمَزَم إلى الشرق من البيت ستّة وأربعين ذراعاً، وقاموا ببناء سور حولها، وارتفعوا بحواف البئر بالرخام، يبلغ عرض البئر ذراعَيْنِ ونصف، وعمقها من الحلقة حتّى مستوى الماء أربعة عشر ذراعاً، ومن الحلقة إلى سطح الأرض ثلاثة أذرع؛ وبالقرب منها بقعتان، إحداهما موضع الساعة، والأخرى موقع المكتبة.

شاذِرْوَان

يُسَمَّى النصف الأسفل من جدار البيت والمكسوّ بالواح الرخام المقوَّس شاذِرْوَان. يبلغ ارتفاعه ثلثي الشبر الواحد، وعرضه نصف ذراع، وطول كلّ لوح ذراع ونصف.

المُصَلَّى

توجد ثلاثة مُصَلَّيات تحيط بالمسجد الحرام القديم، مُصَلَّى المالكية ما بين الركن اليماني والغربي، ويقع قُبَالَةَ حِجْرِ إِسْمَاعِيلَ، ومُصَلَّى الحنفية قُبَالَةَ الحجر الأسود، وهناك مُصَلَّى الحنابلة، ولم يكن للشافعية مُصَلَّى خاصَّ بهم، فهم يقيمون الصلاة قُبَالَةَ مقام إبراهيم، وترتيب صلاتهم كما يلي الشافعية في مقام إبراهيم؛ والحنفية والمالكية والحنابلة في مُصَلَّياتهم.

الصِّفَا والمَرَّوَة

في الوقت الراهن، لا نستطيع أن نطلق مُسَمَّى الجبل على الصِّفَا والمَرَّوَة، لأن الشريف عبد المطلب قام بإزالتها، وبناء مساكن بموضعيهما، وتمَّ تثبيت ليوانين مكانهما، يقوم الناس بالسعي بينهما. تقع الصِّفَا شرق البيت على سفوح جبل أبي قُبَيْس، والمَرَّوَة بين شَمَال البيت وشرقه، والمسافة بين الجبلين ثلاث مئة وأربعة عشر ذراعاً. ثمة سوق ممتدة ودكاكين من الصِّفَا حَتَّى المَرَّوَة، يشقُّ الساعون طريقهم من بينها.

الحَطِيم

ورد لفظ الحَطِيم في الروايات، وهو من أجزاء الكعبة المختلَف عليها؛ يقول البعض هو ما بين الركن الذي فيه الحجر الأسود وبين الباب، وكما جاء في هذه الرواية سُمِّي حَطِيمًا، لأن الناس يزدحمون على الدعاء فيه، ويحطِّم بعضهم بعضاً⁽¹⁾، ويقول صاحب القاموس الحَطِيم حِجْر

(1) كتاب مَنْ لا يحضره الفقيه، ج2، ص 192، ح 2115.

الكعبة، أو جداره، أو ما بين الركن وزَمْرَم والمقام، وزاد بعضهم الحِجْر، أو من المقام إلى الباب، أو ما بين ركن الحجر الأسود إلى الباب، أو إلى المقام، حيث يتحطَّم الناس للدعاء، وكانت الجاهلية تتخالف هناك⁽¹⁾، وإن كانت ترديدات صاحب القاموس كثيرة، لكن الحَطِيم على الأشهر هو إمَّا حِجْر إسماعيل، أو ما بين ركن الحجر الأسود وباب البيت.

يوم الاثنين، الرابع من ذي الحِجَّة، عزمْتُ على الطواف ببيت الله الحرام، فدخلتُ من باب الزيادة، واتَّجَهِتُ حافياً نحو مُصَلَّى الحنيفة. كانت أحجار أرضية شارع المسجد حارَّة جدًّا، تكوي الأقدام. بعد الانتهاء من الأشواط السبعة، صلَّيتُ صلاة الطواف في حِجْر إسماعيل، لأن الطواف كان نَدْباً⁽²⁾، ثمَّ قصدتُ مُصَلَّى الحنابلة، وشرعتُ أقرأ القرآن، لعلِّي أفوز بختمه زمن مكوثي في مكَّة.

كان الشيخ إبراهيم رئيس أغوات البيت حاضراً مع عدد قليل من الأغوات، تلاطفتُ معهم، وسألتُ عن عددهم، فإذ هم خمسة وخمسون خادماً، كلُّهم سود البشرة، أوفدَهُم السلاطين العثمانيون عبر السنين من إسلامبول للخدمة في الحَرَم المبارك، وقد أرسل معنا السلطان العثماني خادميْن في الوابور، أكثرهم كانوا من كبار السنِّ، ورئيسهم شيخ جليل، يُوقرُهُ جميع الأغوات.

إذا لقي الأغوات العناية والاهتمام، فإنهم يُعاملون الحُجَّاج معاملة حَسَنَة طيِّبة، وبغير ذلك، فإنهم يعمدون على تكدير خاطر الحُجَّاج

(1) القاموس المحيط، ص 1415، طبعة مؤسسة الرسالة، وقد قمنا بإصلاح العبارة وفقاً لما ورد هناك.

(2) النَّدْب: ما اقتضى الشرع فعله من غير إلزام. (المترجم).

بتعاملهم الفظُّ. وفي عامنا هذا، أوليْتُهُم الرعاية، وأوصيْتُهُم بمحاسنة الحجيج، وملاطفتهم، فكان لي ذلك، ولم يؤذوا أحداً.

بعد تلاوة القرآن، طلعتُ من باب الصَّفَا وقصدت ناشد باشا والي مكة السابق الذي بيته بجوار المسجد الحرام، وكان نظيف باشا مستشار البحرية حاضراً، فجاء الاثنان لاستقبالي قرب البوابة، فأخذا بيدي، وصعدا بي إلى الطابق العلوي. شربتُ القهوة والشاي، وعند المغادرة ودَّعاني بمنتهى الأدب واللباقة.

استدعى الوالي عربته، فركبتُ وعدتُ أدراجي إلى المنزل، وجاءني مساءً كلُّ من أصحاب المعالي الحاجَّ محمد حُسَيْن نجل المرحوم ميرزا باقر المجتهد التبريزي، والحاجَّ ميرزا يوسُف الدايني، وكان أديباً فاضلاً، فتجاذبنا أطراف الحديث معاً، كما حضر كلُّ من نصير المُلْك، واللواء عبد الحُسَيْن خان، ومُحمَّد تقي خان القاجار، ثمَّ جاءني قائد العسكر، فجلس لساعة قبل أن يغادر، الليلة، ونظراً لإطالة المجلس، لم أنلُ شرف زيارة المسجد الحرام.

يوم الثلاثاء، الخامس من ذي الحِجَّة، عزمْتُ على الطواف ثانية، دخلتُ من باب الزيادة. وبعد أن أكملتُ الأشواط، صلَّيتُ في حجر إسماعيل، وتلوتُ القرآن في مُصلَى الحنابلة، ثمَّ مضيتُ إلى المنزل.

جاءني والي باشا، وكامل أفندي، فجلسنا للحديث، ثمَّ جاءني الميرزا إسحاق مستوفي أذربيجان، وأولاد الحاجَّ كاظم ملك التجَّار التبريزي، ولما علمتُ بوصول صبيَّة النواب المستطاب معتمد الدولة عن طريق الجبل، وهي زوجة وزير الجيش، وبرفقة بنات المرحوم فخر الدولة، قمتُ بكتابة رقعة لهنَّ متفقِّداً أحوالهنَّ.

في المساء، قدم معالي شيخ الحَرَمَيْنِ عبد المطلب، ووالي باشا، حضر الشريف مُستقلاًّ العربة، وبرفته فرقة من الجنود، اصطفوا أمام العمارة. تقدّم معاليه حتّى الغرفة التي كان ينزل بها نجلي أبو النصر ميرزا، فتحدّثنا حول رؤية الهلال وُعرة الشهر، وكان معالي الحاجّ مُلاً باقر حاضراً، وقد بدا جليّاً من إجابات الشريف إثباتاً أن يوم الخميس عُرة الشهر لا يستند إلى دليل غير اللّجاج، فلمّا عرفنا هذه الحال، لم نُولِ القضية اهتماماً، بعد انتهاء المجلس، ودّعنا وانصرف.

ذهبتُ ليلاً إلى المسجد الحرام، فطفتُ طوافاً خاصّاً نيابة عن جلالة الملك وليّ نعمه العباد، روحنا فداه، وطوافاً آخر عن جلالة سلطان الروم⁽¹⁾ الذي أولانا لطفه وعنايته في رحلتنا هذه. وفي هذه الليالي والأيام، سأطوف نيابة عن كلّ فرد من الأمراء العظام، والإخوة الكرام، والوزراء الفخام، والأحباب ذوي المقام، وسأطوف عن كلّ من الخاقان المغفور، والملك المبرور، وباقي المرحومين والمرحومات، واجتنبتُ ذكْر الأسماء ابتعاداً عن الرّياء.

يوم الأربعاء، السادس من ذي الحجة، وبعد مضي ساعتين من النهار، ذهبتُ لزيارة الحاجّ ميرزا حبيب الله المجتهد الرشتي، وهو مجتهد جليل القدر، من أبرز تلامذة المرحوم المبرور الشيخ محمّد حسن، أعلى الله مقامه، فغرفتُ من منهل علمه؛ وتحدّثتُ معه حول الخلاف على رؤية الهلال.

فلم تثبت لسماحته رؤيته يوم الأربعاء، كما أن جميع حُجاج إيران والشام ومصر القادمين عن طريق البرّ والبحر لم يشاهدوا الهلال ذلك اليوم.

(1) سلطان الروم: السلطان العثماني. (المترجم).

بعد انتهاء المجلس، ودَّعَتْهُ، ورجعتُ إلى المنزل، وبينما كنا نقرب من منزل المرحوم الشريف عبد الله، شاهدتُ جمعاً غفيراً مزدحماً من الفرسان والمشاة والجنود مقبلين برفقة معالي الشريف الذي كان جالساً على مَحْمَلٍ مصري، فلم نستطع العبور من شدَّة الازدحام الذي ملأ الرقاق بطوله وعرضه، فاعتلينا مُجْبِرِينَ مصطبة قُبالة عمارة المرحوم الشريف عبد الله. جلستُ على كرسي كان موضوعاً في المكان، ثمَّ عزمتُ على الذهاب إلى البيت إلا أن أقارب المرحوم الشريف عبد الله دعوني لشرب القهوة وتدخين النارجيلة، ولأن المرحوم مات مقتولاً، وجبراً لخاطر ذويه، قبلنا دعوتهم، ودخلنا الغرفة تسلية لمُصَابِهِمْ.

أجلستُوني في صالة الضيافة الخاصَّة بالمرحوم الشريف، وقالوا إنهم لم يفتحوا باب الغرفة منذ أن قُتِل. كانت كلُّ أدواتها وفراشها بمنتهى النظافة والترتيب، جاؤوني بالقهوة والشربات في أوانٍ مُرَّصعة موضوعة على قماشٍ مُطرَّز باللؤلؤ.

حينما علم ابنا أخوي الشريف بوجودي، حضرا على الفور، كانا شائِبَيْنِ مُؤدَّبَيْنِ يتكلَّمان العربية والتركية، فأعربا عن امتنانهما لدخولنا البيت الذي لم يدخله أحد بعد مقتل الشريف، معتبرين دخولنا مدعاة للتفاؤل، أحدهما نجل الشيخ عثمانى، يبدو في العشرين من عُمره، والآخر نجل الشريف عبد الإله، وهو الأكبر.

نهضتُ بعد انتهاء المجلس، فأخذنا بذراعي، ورافقاني حتَّى عتبة الباب، وقد أحضرا حصاناً عربياً مُرَبَّباً بأسلحة ذهبية، فامتطيتُهُ حتَّى المنزل، وفي المساء، قصدتُ زيارة صبيَّة النائب معتمد الدولة دام إقباله، وليلاً ذهبتُ إلى المسجد الحرام، فطفتُ طوافاً مُستحبّاً.

يوم الخميس، السابع من ذي الحجة جاء لزيارتي معالي الحاج ميرزا حبيب الله المجتهد، وعبد الرحمن أمير حجاج الجبل، فتلاطفتُ معهما. سألتُ معاليه عن رؤية الهلال، فقال بأنهم لم يشاهدوا في الطريق هلال شهر ذي الحجة يوم الأربعاء.

اليوم هو الثامن على حساب أهل السنة، وهو يوم التروية، وعليهم التوجه إلى منى استعداداً للصعود إلى مشعر عرفات، وعلى حساب الشيعة اليوم هو السابع من شهر الحج، وسيكون موعد انطلاقهم من مكة غداً، فأمرنا الحاج محمد بالمانعة، وإبلاغ أصحاب القوافل الإيرانية بعدم الخروج اليوم.

يرى بعض العلماء الخروج يوم التروية من المستحبات، ويراه آخرون من الفرض والوجوب، ولأن يوم غد هو يوم التروية وفقاً لحسابنا، رأينا أنفسنا مكلفين شرعاً بالالتزام وعدم اتباع الآخرين، وقد أخذ معظم الشيعة برأينا، فلم يخرجوا.

كان محمد خان القنصل قد أخذ بجانب الحيطة في هذا الأمر خوفاً من ردود أفعال أصحاب الفتن والمفاسد على مخالفتنا؛ لكنني قد أخلصتُ النية في الخروج غداً، ولم آبه لكل هذا. بقيتُ في المدينة، وذهبتُ ليلاً إلى المسجد الحرام للطواف.

هذه ليلة الجمعة، وعليّ أن أغتسل، وأقرأ دعاء الزيارة الجامعة⁽¹⁾. كان قد أحاط الأغوات بساحة بئر زمزم، فذهبتُ، واغتسلتُ هناك، ثم قرأتُ الزيارة، ومن ثم طفتُ سبعة أشواط أخرى.

يوم الجمعة، الثامن من ذي الحجة وفق حساب الشيعة، وعليه يكون

(1) الزيارة الجامعة: الزيارة الجامعة الكبيرة هي: نص من النصوص الدينية عند الشيعة الإمامية المروية بطرقهم عن أئمتهم.

يوم التَّروِيَةِ والنْفِيرِ من مَكَّة. ذَهَبْتُ صَبَاحاً إِلَى المَسْجِدِ الحَرَامِ، فَطَفْتُ، ثُمَّ اغْتَسَلْتُ مِنْ بئرِ زَمْرَمَ، وَمِنْ بَعْدِ، تَوَجَّهْتُ إِلَى حِجْرِ إِسْمَاعِيلَ، فَارْتَدَيْتُ مَلَابِسَ الإِحْرَامِ، وَبَعْدَ مَضَى أَرْبَعِ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ، جَلَسْتُ عَلَى الهُدُجِ قَاصِداً مِنْى وَعَرَفَاتَ.

عَمُومِ الشَّيْئَةِ المَوْجُودِينَ فِي مَكَّة انْطَلَقُوا اليَوْمِ، وَإِنْ كَانَ يُسْتَحَبُّ فِي أَثْنَاءِ الذَّهَابِ إِلَى عَرَفَاتِ المَبِيتِ لَيْلاً فِي مِنْى، لَكِنَّا اخْتَصَرْنَا هَذَا المُسْتَحَبَّ، وَاكْتَفَيْنا بِالمَكُوثِ سَاعَةً فِيهَا، وَتَابَعْنَا المَسِيرَ، قُبَيْلِ الغُرُوبِ بِلَثَاثِ سَاعَاتٍ، بَلَّغْنَا عَرَفَاتَ.

أَقَامُوا خَيْمَتَنَا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ عَرَفَاتِ، وَإِنْ كَانَ الوُقُوفِ فِي اليَوْمِ التَّاسِعِ وَاجِباً فِي عَرَفَاتِ مِنْ بَعْدِ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى المَغِيبِ، أَيْ لِحِينِ الإِفْطَارِ وَصَلَاةِ المَغْرِبِ، لَكِنْ وَقُوفْنَا اليَوْمِ كَانَ مِنْ بَابِ النِّيَّةِ، وَسَيَكُونُ الوُقُوفُ وَالمَكُوثُ غِداً، وَهُوَ وَاجِبٌ، وَليْسَ رُكْناً.

كَانَ مَخِيْمَ المَحْمَلِ الشَّامِي وَالمَصْرِي وَمَعَالِي شَرِيفِ مَكَّة عَلَى يَمِينِنَا، وَنَحْنُ وَالشَّيْئَةُ كُلُّهُمَ عَلَى اليَسَارِ، نُصِبْتُ خَيْمَةَ مُحَمَّدِ خَانَ القَنْصَلِ عَلَى مَقْرَبَةٍ مَنَّا رَافِعاً عَلَيْهَا عِلْمَ الأَسَدِ وَالشَّمْسِ الحَكُومِي، كَمَا ضُرِبَتْ الخِيَامُ لِلعَسَاكِرِ وَالمَشَاةِ وَالضَّبَّاطِ الَّذِينَ كَانُوا مِرَافِقِينَ لَنَا بِأَمْرِ مِنَ مَعَالِي وَاليِ بَاشَا. كَانَتْ صَحْرَاءُ عَرَفَاتِ مَلِيئَةً بِالحُجَّاجِ، لَعَدَمِ مَغَادِرَتِهِمْ مَخِيْمَاتِهِمْ.

المَخِيْمَ المَصْرِي وَالشَّامِي وَمَعَالِي الشَّرِيفِ وَاليِ بَاشَا انْطَلَقُوا قُبَيْلِ الغُرُوبِ مُزَوِّدِينَ بِالمَدْفَعِيَّةِ وَالمَشَاعِلِ، وَبَقِينَا وَالحُجَّاجِ الشَّيْئَةَ فِي عَرَفَاتِ. أَقْمْنَا صَلَاةَ الجَمَاعَةِ بِإِمَامَةِ مَعَالِي الحَاجِّ مِيرْزَا حَبِيبِ اللّهِ المَجْتَهِدِ. كَانَتْ صَفُوفُ المُصَلِّينَ مَكْتَنِّظَةً، وَمِنْ ثَمَّ، أَقْمْنَا مَجَالِسَ العَزَاءِ فِي الخِيَامِ، فَكَانَتْ أَصْوَاتُ البِكَاءِ وَالدَّعَاءِ مُدَوِّيَّةً تَصِلُ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ:

قَوْمٌ عَلَى عَرَفَاتٍ قَدْ وَقَفُوا وَقَدْ بَاهَى بِهِمْ ذُو الْعَرْشِ أَمْلَاكَ السَّمَاءِ
إِذْ قَالَ يَا أَهْلَ السَّمَاوَاتِ انظُرُوا وَفِيَّ وَكَلَّ قَدْ أَضْرَبَ بِهِ الظُّمَأُ
أَشْهَدْتُكُمْ أَنِّي غَفَرْتُ ذُنُوبَهُمْ وَعَفَوْتُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ تَكْرُمًا⁽¹⁾

عرفات

يقع عرفات في الطرفَيْنِ الشرقي والجنوبي من مكة، والمسافة بينهما أربعة فراسخ، وتتخلَّلُ الطريق إلى عرفات منى التي تبعد عن مكة فرسخاً، ثم إلى المشعر الحرام، ويُسمَّى بالمرْدَلِفَةِ أيضاً، وبينه وبين منى فرسخ، ومنه إلى عرفات فرسخان، وقد نصبوا رايتَيْنِ في أوَّلِ الطريق، فَمَنْ اجتازهما، فقد دخل عرفات.

توجد بركة على مقربة من جبل عرفات، يملؤها من ماء زَيْدَةَ. لقد وفَّرت زوجة هارون الرشيد ماء عرفات عبر قناة حُفرت في الجبال ناقلة مياه الأمطار من جبال الطائف إلى عرفات، ثم نحو مكة، والقناة جارية تحت الأرض بمسافة ذراعَيْنِ أو ثلاثة أذرع، وحكاية زَيْدَةَ في حفر القناة مشهورة، لا حاجة لذكرها هنا. كذلك هناك مسجد في عرفات، يقع على يمين المدخل، يُسمَّى مسجد إبراهيم.

يوم السبت، التاسع من ذي الحجة، وبعد مضي ساعتَيْنِ من النهار، ذهبتُ لزيارة الحاجِّ ميرزا يوسُف الدائي، وقبيل الظهر، قصدتُ سفوح جبل عرفات، فاغتسلتُ من ماء القناة وعدتُ أدراجي إلى المنزل، وذكرتُ نيَّة الوقوف وجوباً كما يلي: أقف بعرفات اليوم من الظهر إلى غروب الشمس لحجِّ التمتع من حجة الإسلام قرية إلى الله. ثمَّ أشغلتُ نفسي بقراءة الأدعية المُستحبة، وأقمتُ صلاتي الظهر

(1) لم تُعرف نسبة هذه الآيات. (المترجم)

والعصر بأذان واحد، وإقامة واحدة، وقبل الغروب بأربع ساعات، أمرنا أن ينفخوا بالبوق مُعلنين أن الحركة ستكون عند الغروب، وفي الموعد نُفخ في البوق مرّة ثانية مُعلنًا الانطلاق، فسارت القافلة.

أبقينا منصور الشريف خلفنا، وبرفقته خمسون فارساً، ليقوموا بإيصال مَنْ تَخَلَّفَ عن القافلة من الحُجَّاج، أمَّا نحن والعساكر وأصحاب البنادق والضبطية⁽¹⁾، فكنا نسير وراء الحُجَّاج، لنضمن أمن وانتظام القافلة، بعد مضي ساعتين ونصف من الدسته، بلغنا المشعر الحرام، فأقمنا على اليمين في بطن الوادي استحباباً.

في أثناء مسيرنا إلى المشعر الحرام، قمنا بكلّ المُستحَبَّات، فكنا نسير على اليمين بسكينة الجسم وطمأنينة القلب ذاكرين مستغفرين، وعندما بلغنا التلّ الأحمر، قرأنا الدعاء الخاصّ، وقمنا بتأخير صلاتي المغرب والعشاء حتّى دخلنا المشعر الحرام، فأقمنا الصلاتين بأذان واحد وإقامة واحدة، وحين الوصول للمشعر الحرام، نويتُ كالتالي: أقيم في المشعر الحرام من الليل حتّى الصباح في حجة الإسلام قرينة إلى الله.

يرى بعض العلماء أن المبيت في المشعر الحرام واجب، فعندما نزلنا في بطن الوادي، قرأنا الدعاء الخاصّ، وقضينا الليل بالعبادة والدعاء، ثمّ صعدنا متوضّئين إلى سفح الجبل، نلتقط سبعين حصاةً وفقاً لصفاتها استعداداً لرمي الجمرات.

كان لون الحصوات أزرق قاتماً منقطة، لا صلبة ولا ليّنة، وبحجم الأنامل، كان الجبل مضيئاً لكثرة الفوانيس والمصابيح التي يحملها الحُجَّاج ذكوراً وإناثاً.

(1) ضبطية: في الفارسية كانت تعني شرطة أمن الطُّرُق آنذاك. (المترجم).

قُبيل طلوع الفجر، قرأتُ نِيَّةُ الوُقُوفِ في المَشْعَرِ الحِرامِ، وهي من الأركان، كالتالي: أبيتُ في المَشْعَرِ الحِرامِ حَتَّى طُلُوعِ الفجرِ في حَجِّ التَّمَتُّعِ وجُوباً قربةً إلى الله. وبعد النِّيَّةِ، شرعتُ بقراءة الأُدعية.

مِنِّي

يوم الأحد، الحادي عشر من ذي الحِجَّةِ وَفُق رأي أهل السُّنَّةِ، العاشر منه حسب رأي الشِّيعة، انطلقنا بعد طلوع الفجر، وعندما اشتدَّ وهج الشمس على الجبل، قرأتُ الدعاء المُستَحَبَّ، وكنتُ أذكر الله، وأستغفره بسكينة ووقار، وصلنا إلى الوادي، وهو ابتداء أرضِ مِنِّي، فَهَرُولُنَا استحباباً، أي قمنا بتسريع المركب، وقرأنا الدعاء المُستَحَبَّ.

بقيتُ عن مِنِّي مسافة ميدان، فأرسل لنا الوالي باشا حصاناً نمتطيه مع سايسه، لكنني بقيتُ على الهودج مع القافلة في خطِّ مستقيم حَتَّى وصلنا إلى جَمْرَةِ العَقَبَةِ، فنزلتُ استحباباً، ووقفتُ على بُعد عشرة أذرع، وظهري نحو القبلة، متوضئاً، ولساني مشغول بالدعاء، ثم أخذتُ سبع حَصَوَاتٍ بيدي، وذكرتُ النِّيَّةَ: أرمي سبع حَصَوَاتٍ بِجَمْرَةِ العَقَبَةِ لِحَجِّ التَّمَتُّعِ واجباً قربةً إلى الله.

قمتُ برمي الحَصَوَاتِ، فارتطمتُ بِجَمْرَةِ العَقَبَةِ. عدتُ إلى المنزل، وقمنا بذبح الأُضحِيَّةِ، وقصَّرتُنا، فأصبحتُ مُجَلَّاً عَمَّا كنتُ حرِّمتهُ على نفسي ما عدا النساء والصيد والطَّيب.

قُبيل الغروب بثلاث ساعات، اتَّجهتُ وجوباً نحو المدينة، برفقة الأَصْحَابِ والأَتْبَاعِ والفرسان والعساكر. دخلتُ المسجد الحرام، وقمتُ، كما السابق، بطواف حِجَّةِ التَّمَتُّعِ، والصلاة والسعي بين الصِّفا والمِرْوَةِ.

أصبح التطيبُ حلالاً عليّ، لكنني تجنّبتهُ احتياطاً، ثمّ قمتُ بطواف النساء، وهو واجب، وليس ركناً، فأصبحت النساء والصيد حلالاً عليّ.

الليلة ولمّا طالني من التعب سعيتُ بين الصّفا والمروة ركباً، ثمّ عدتُ إلى منى بعد ساعة مضت من الليل. الليلة قام معالي الشريف ووالي باشا بإطلاق الألعاب النارية في مخيمهم، وفي مخيمنا أمر محمّد خان القنصل بإطلاقها، فكان المخيمان مُنورين، كان للمنظر جلال وهيبة، ومن الواجب أن نبين الليلة في منى، وهي الليلة الحادية عشرة والثانية عشرة حسب رؤية كلّ من أهل السنّة والشيعة لهلال الشهر.

يوم الاثنين، الحادي عشر من ذي الحجة، قصدتُ مخيم معالي الشريف ووالي باشا للزيارة، تطرّفنا إلى شؤون الحجاج، فذكر والي باشا أن عدد حجاج جاوة⁽¹⁾ وهم الآن تحت سيطرة حكم الفلمنك⁽²⁾ ثمانون ألف نسمة، وسائر الحجاج من إيرانيين ومصريين وشاميين قد بلغوا سبعين ألف نسمة، ليكون مجموع الحجاج هذا العام مئة وخمسين ألف نسمة.

عدتُ أدراجي إلى المنزل، فتوضّأتُ، وقرأتُ الأدعية والنية، وقصدتُ رمي الجمرات الأولى والوسطى والعقبة، فرميتُ الحصوات، وفي رمي الجمرّة الأولى والوسطى استقبلتُ العقبة، ثمّ رجعتُ إلى المنزل.

جاءني زائراً كلّ من أصحاب المعالي الشيخ الرئيس، والحاج الميرزا يوسُف آغا، فانشغلتُ بالحديث معهما، وبعد مغادرتهما، ذهبتُ إلى مسجد الخيف، فأقمتُ صلاتي المغرب والعشاء، وفي الليل، ذهبتُ لزيارة بنات المرحومة فخر الدولة.

(1) جاوة: جزيرة تابعة لإندونيسيا. (المترجم).

(2) حكم الفلمنك: حُكم هولندا.

مساء اليوم عاد معالي شريف مكة، ووالي باشا برفقة حُجَّاج مصر والشام إلى المدينة، ومكثنا نحن في منى.

تقع منى بين جبلين إلى شرق مكة وجنوبها، وقد سُيِّدت أبنية وعمارات على طرفي الشارع لمكوث الحُجَّاج، غير أنها لا تفي بالغرض، فيقيم أكثرهم في الخيام، ويذبحون الأضاحي هناك.

مسجد الخيف

يقع مسجد الخيف حين الذهاب إلى منى ميمنة الطريق على سفح الجبل، له صحن كبير، تتوسطه قبة، ولا سياج له، وفيه محراب، أقام خمسة وسبعون نبياً الصلاة فيه، وقيل إن سبعين نبياً دُفِنوا في الخيف، لكن، لا علامة لقبورهم، كذلك قيل إن قبر النبي آدم هو على مقربة من المنارة.

المنارة الوسطى بناها الملك المظفر صاحب اليمن، وقام الملك قايتباي ببناء المنارة التي تقع قرب باب المسجد، وأصل المسجد الذي يقع جنوبي الصحن قد تمّ بناؤه على يد الملك قايتباي في عام 894، وقد ذكر اسمه في أعلى المحراب. للمسجد واحد وعشرون عموداً في طوله، وأربعة أعمدة في العرض، يبلغ طول الصحن مئة وثمانين ذراعاً، وعرضه واحد وتسعون ذراعاً.

قام السلطان أحمد خان نجل السلطان محمد خان الثاني بإعادة بنائه في عام 1025، وقد نقشوا تاريخ البناء الجديد واسم الباني، مع الإبقاء على اسم قايتباي الباني الأوّل أعلى المحراب على حاله.

البارحة، وحين الرجوع من مسجد الخَيْف، جاءني الشريف منصور الذي كانت مهمته مع الحرس العسكريين مرافقتي، والمحافظة على مخيم الحُجَّاج، تكلم بالعربية، وأبدى عزمه على تحصيل ريال فرنسي واحد من الحُجَّاج عن كلِّ جمل، كأجر له ولعساكره، وقال: إن هذا عمل معتاد في كلِّ عام، وقد آن أوانه الليلة، والأمر لكم!، فقلتُ له مع أن هذا المبلغ كبير، إلا أنني سأصدر أمراً لتسديده لكم.

استوضحتُ المسألة من القنصل أحمد خان، فقال: إن هذه البِدعة دَيْدُنُهُم على الدوام، ولا يُراعون فيها الاعتدال، وجهدت السفارة منذ أعوام لإلغائها، والأمر إليكم الآن.

المبلغ الذي كان ينوي الشريف منصور تحصيله كان يربو على خمسة آلاف تومان، في حين أن عدد المحافظين والعسكر مئتان، وأنا تكفَّلتُ بأرزاقهم ومعاشاتهم، ولكن، لخوفي من تغافل العسكر عن حراسة الحُجَّاج، والإهمال في حمايتهم في مواسم الحجِّ المقبلة، أصدرتُ أمراً بتسجيل أسماء سبعين أو ثمانين شخصاً من المعارف وأعيان الحُجَّاج ليدفع كلُّ واحد منهم مبلغاً حسب رغبته، وأنا أيضاً بدوري سأدفع خمسين تومانياً مع خِلة للعسكر، وسنقوم بجمع هذه المبالغ وتقسيمها بينهم، ومع أن عاداتهم التعسُّف في أخذ الأموال الطائلة في كلِّ عام، إلا أن عليهم إنصاف الحُجَّاج في هذا العام وما بعده، لئلا يتضرروا ويتكدر خاطرهم.

يوم الثلاثاء، الثاني عشر من ذي الحجة كان كسابقه. ذهبْتُ لرمي الجمرات، ومن ثمَّ، قمتُ بدفن إحدى وعشرين حصة المتبقية من السبعين استحباباً في وسط الخيمة، وأوعزتُ بتحريك الحُجَّاج نحو مكة.

كان معي في منى ما يقارب عشرين ألفاً من الشيعة من إيرانيين وغيرهم، وحين الانطلاق إلى منى، كان الطريق مكتظاً بالحجاج، فقاموا بإيقاف حركة المرور، وقُبيل الغروب بساعة بلغنا مكة.

ذهبتُ إلى المسجد الحرام، وانشغلتُ بالطواف المُستحبِّ، ثمَّ عدتُ أدراجي إلى المنزل شاكرًا الله على توفيقه إيَّاي في تأدية مناسك حجِّ التمتع، الواجب منها والمُستحبِّ.

الجَمَرَات

الجَمَرَات هي ثلاثة مواضع في منى، يقومون برمي الحصة عليها، مفردها الجَمْرَة، تقع الجَمْرَة الأولى والوسطى في وسط شارع حَيِّ منى، وتكون كالتالي:

نصبوا صخرة كبيرة في الوسط، يرمونها بالحصة، ومن حولها باحة صغيرة، تجتمع فيها الحَصَوَات، جَمْرَة العَقَبَة واقعة في انتهاء الحَيِّ متّصلة بالجدار، لا باحة لها، وهي على يسار الطريق حين الذهاب إلى منى، الجَمْرَة في اللغة تعني الحَصَاة، والصخرة الصغيرة، وبما أن هذه الأماكن الثلاثة تُرمَى بالحَصَوَات، أصبح الاسم مقترناً بها، ودالاً عليها، وفي القاموس: جَمْرُهُ، أعطاه جَمْرًا، وَجَمَرَ فلانًا: نَحَاهُ، ومنه: الجَمَارُ بِمِنَى؛ أو من أَجَمَرَ: أُسْرِعَ، لأنَّ آدمَ رَمَى إبليسَ فَأَجَمَرَ بين يَدَيْهِ⁽¹⁾.

ازدحام الناس وتجوالمهم يوم الأربعاء، الثالث عشر من ذي الحجة حال دون ذهابي إلى المسجد الحرام، فذهبتُ ليلاً، وطفقتُ طوافاً مُستحبّاً، ولم أُحرَم من هذه النعمة، أدَّيتُ الفرض، ثمَّ عدتُ إلى المنزل.

(1) القاموس المحيط، ص 469، مؤسّسة الرسالة، قد قمنا بإصلاح النصّ المذكور وفقاً لهذه الطبعة.

يوم الخميس، الرابع عشر من ذي الحجة، جاء ناشد باشا والي مكة السابق مُودِعاً، كونه سيغادر إلى إسلامبول. كتبنا كتاباً إلى معالي معين المُلك، وأرسلناه معه، ثمَّ جاء ثني السيِّدة غازية التي كانت تحمل وساماً من الحكومة العثمانية العليَّة، نالتُه لشجاعتها ومقاومتها في إحدى الغزوات، وإن كانت بملابس نسائية إلا أنها تمشي مشية الرجال، فمكثت لبضع دقائق، ثمَّ انصرفت. وفي الليل، قصدتُ المسجد الحرام، ثمَّ عدتُ أدراجي بعد الصلاة والطواف.

يوم الجمعة، الخامس عشر من ذي الحجة، عزمْتُ على زيارة شِعْب أبي طالب⁽¹⁾، حيث تقع قبور الكرام في مقبرة الحَجُون الواقعة في انتهاء مدينة مكة على الجانب الأيسر.

هي مقبرة كبيرة، في ساحة واحدة فيها بقعتان؛ تقع البقعة الأولى على الجانب الأيمن، وقد دُفن فيها عبد المطلب وعبد مناف، ولكلُّ منهما ضريح على حدة، وفي البقعة الثانية دُفن أبو طالب، وله ضريحه.

وعلى مقربة من تلك الساحة، دُفنت آمنة بنت وهب أم النبي، صَلَّى الله عليه وآله، والسيِّدة خديجة الكبرى زوجة النبي، عليه الصلاة والسلام، ولكلُّ منهما بقعة خاصَّة وضريح على حدة، غير أن أهل التحقيق يرون أن قبر السيِّدة آمنة واقع في الأبواء قُبل مدينة النبي بثلاثة فراسخ، إذ وافتها المنية هناك.

رجعتُ من زيارة هؤلاء الكرام، وذهبتُ إلى المسجد الحرام بعد مضي أربع ساعات من الليل. قمتُ بالطواف المُستحبِّ، ثمَّ رجعتُ إلى المنزل بعد ثماني ساعات مضيئة من الليل.

(1) من الواضح أنه حتَّى في تلك الحقبة كان الحُجَّاج الإيرانيون يظنُّون أن شِعْب أبي طالب هي مقبرة المُعلَّاء، أو أبي طالب، في حين يقع شِعْب أبي طالب، أو شِعْب بني هاشم، أو شِعْب علي، على مقربة من المسجد الحرام، وهو مَوْلِد النبي أيضاً.

يوم السبت، السادس عشر من ذي الحجة، ذهبتُ إلى موضع ولادة النبي، صَلَّى اللهُ عليه وآله، وأمير المؤمنين، عليه السلام، والسيدة فاطمة الزهراء، عليها السلام.

يقع مولد هؤلاء الكرام في سوق الليل. كان مولد النبي، صَلَّى اللهُ عليه وآله، في حفرة عند بداية الرقاق، فبعد أن تنزل عدّة درجات، تدخل البقعة، فتجد ضريحاً، تتوسطه حفرة صخرية، تضاهاي التنور، وهنا كان مولده، عليه السلام. وهناك محراب في البقعة قيل إنه صَلَّى اللهُ فيها أيام حياته، وتوجد عدّة أقواس، علّقوا عليها ستائر، ومولد أمير المؤمنين أيضاً كائن في ذلك الحَيِّ⁽¹⁾، وله بقعة وضريح ومحراب.

أمّا موقع مولد السيدة فاطمة، عليها السلام، فكان في بيت السيدة خديجة الكبرى في الحَيِّ ذاته، وهو بيت صغير، تقع حجراته على اليمين. وعندما تدخل الدهليز، تجد غرفة صغيرة إلى جهة اليسار، كان يجلس فيها النبي حين نزول الوحي، وفيها محراب قيل إن جبرائيل كان يهبط هناك. في مدخل الغرفة، يوجد موضع، كان النبي يتوضأ فيه، وعلى أيمن الدهليز، هناك غرفة مستطيلة، وفيها مولد السيدة الزهراء، سلام الله عليها، وفيها ضريح صغير، ورَحَى السيدة فاطمة، وهي رَحَى صغيرة. غرفة السيدة خديجة غرفة مربّعة، تقع بمحاذاة الدهليز، وفيها محراب، وهذه الغرف، على الرغم من صغر حجمها، إلا أنها تتمتع بروحانية أسرة، وكأنها من غرف الجنان.

يوم الأحد، السابع عشر من ذي الحجة، أحضروا لنا عدّة جياذ. وبعد مضي ثلاث ساعات من النهار، ركبنا وقصدنا جبل ثُور الذي يقع فيه الغار الذي كان يتعبّد فيه النبي، صَلَّى اللهُ عليه وآله.

(1) هذا ما ورد في كُتُب أهل السنّة، لكنّ، وَفَقاً لما ذكر في كثير من النصوص التاريخية والحديث، أن بيت الله هو مكان مولد أمير المؤمنين، عليه السلام.

يُسَمَّى الجبل تَوْرَ أَطْحَل، وَأَطْحَلُ اسمُ الجبل، والتَّوْرُ هو اسمُ تَوْرَ بن عبد مناف الذي كان قد سكن على الجبل الذي يبعد عن الطرف الأيمن من جنوبي مكَّة مسافة فرسخ ونصف، وهو جبل صلب، من الصعب بلوغ قمَّته في ساعتين، إذ يبلغ ارتفاعه ما يقارب الميل، وموقع الغار في أعلى الجبل، وهو عبارة عن صخرة مجوَّفة، يبلغ طولها خمسة أذرع، وعرضها أقلُّ من ذراعين، والغار ممتدُّ من الشرق نحو الغرب.

باب الغار من الشرق، وهو المدخل، وله منفذ من جانب الغرب، لكنه ضيق، لا يمكن الدخول منه. قُبالة الغار شجرة تُسَمَّى شجريان، وقد تبدو مواقع بحر جُدَّة، وعرفات، ووادي فاطمة، واضحة المعالم من أعلى الجبل.

تسلَّقتُ الجبلَ بمشقة، وركبتُ قليلاً، لكن المركب لم يُسعفني؛ فترجَّلتُ، وبلغتُ الغار مشياً على الأقدام، دخلته، وصلَّيتُ فيه ركعتين هدية إلى روح النبي، صلَّى الله عليه وآله، وقُبيل الغروب بساعتين ونصف، عدنا أدراجنا.

من حُسْن طالعنا أن نسيماً بارداً كان يهبُّ على الجبل، ممَّا سبَّب بالترويح عن الروح، وإلَّا لَمَّا كُنَّا نستطع بلوغ هذا المكان الشريف مع صعوبة الطريق وحرارة الجوّ وضعف بنيتنا، ونظراً لمتاعب الطريق من زيارة الغار، لم أستطع الذهاب إلى المسجد الحرام اليوم.

يوم الاثنين، الثامن عشر من ذي الحجَّة، تشرَّفتُ بزيارة المسجد الحرام، فطفتُ طوافاً مُستحبّاً، ثمَّ عدتُ بعد الصلاة شاكرًا لله على توفيقِي لزيارة بيته في هذا اليوم، وهو يوم عيد الغدير⁽¹⁾.

(1) عيد الغدير: هو عيد يحتفل به المسلمون الشِّيعة يوم 18 من ذي الحجَّة من كلِّ عام هجري، احتفالاً باليوم الذي خطب فيه النبي محمَّد خطبة، عيَّن فيها علي بن أبي طالب مولى

يوم الثلاثاء، التاسع عشر من ذي الحِجَّة، ذهبتُ في الصباح الباكر إلى المسجد الحرام، فطفقتُ طوافَيْن مُستَحَبَّيْن، كلُّ طواف سبعة أشواط.

يوم الأربعاء، العشرون من ذي الحِجَّة، ذهبتُ صوب جبل أبي قُبَيْس الواقع شرق الكعبة مائلاً نحو الجنوب، ويستطيع الناظر مشاهدته من الصحن المبارك، في أعلى الجبل مقامان، أحدهما غير مسقوف، وهو موضع شقِّ القمر، والآخر مسقوف، وهو مكان أذان بلال، وقيل إن قبر شيث وآدم وحواء في الجبل، وبعد رجوعي، قصدتُ المسجد الحرام للطواف وتأدية الصلاة.

جبل النور

جبل النور. ويُطلق عليه اسم جبل حِرَاء نسبة إلى الغار الذي كان يتعبَّد فيه النبي قبل البعثة، وفيه نزل عليه الوحي بسورة العَلَق، وُبعثَ بالنبوة، ولهذا سُمِّي بجبل النور.

يقع الجبل على طريق مَنَى بين شَمَال مَكَّة وشرقها، وقد بنوا في أعلاه قبة بيضاء، تلوح للناظر من بعيد، وفي وسط القبة حجر كبير مشقوق بشكل مائل، يقال إن شقَّ صدر النبي حدث هنا، وعلى مقربة من الجبل، توجد بركة، تقع يسار الطريق، يستسقي منها الحُجَّاج حين الصعود إلى الجبل.

وبسبب ضعف جسمي، ولمشقة الطريق، لم أذهب لزيارة الجبل، إلا أنني قمتُ بالتحقق، لأكتب عنه.

للمسلمين من بعده حسب نصِّ الحديث، حيث يعتقد الشِّيعة بأن النبي قد أعلن علياً خليفة من بعده، في أثناء عودة المسلمين من حجة الوداع إلى المدينة المنورة، في مكان يُسمَّى بغدير خم سنة 10 هـ. (المترجم).

يوم الخميس، الحادي والعشرون من ذي الحجة، ذهبتُ إلى المسجد الحرام، وبعد الطواف والصلاة، قصدتُ المكتبة الحكومية، فيها كُتُب قيِّمة، تشمل كلَّ العلوم، وبسبب الرطوبة التي وصلت إلى بعضها، تلاصقت أوراقها، ومع أنهم فصلوا الأوراق عن بعضها؛ إلا أنه لا يمكن قراءتها إلا بجهد وعناء، سألتُ عن السبب؛ فقالوا إنه بعد السيل الذي اجتاح المسجد الحرام، دخلت المياه إلى المكتبة، فلحقت الرطوبة بالكتُّب.

ذهبتُ إلى موضع الساعة، فتفرَّجتُ عليها. كانت ساعة ممتازة، هذان الموقعان، أقصد الساعة والمكتبة، كانا بالقرب من ساحة بئر زمزم، بعد ذلك، وبرفقة آغا حسن وكيل الحكومة البريطانية الذي كان معي في الطواف، ذهبنا إلى سوق النخاسة، كانوا قد زبَّنا الإمام والعبيد، وأجلَّسُوهم في السوق، لم أشتري أحداً، لأنني لم أعجب بأيٍّ منهم.

كانت السماء اليوم وليلته تهطل بغزارة في مكة، فأصبح الجوُّ منعشاً، وقد علمنا أن الأمطار في طريق الجبل كانت غزيرة أيضاً ملأت البرك، فشكر الحجاج ربَّهم على هذه النعمة.

يوم الجمعة، الثالث والعشرون من ذي الحجة، ذهبتُ مساءً إلى المسجد الحرام، وبعد الطواف المُستحبِّ، التقيتُ بسادن الكعبة المشرفة، فأعلمتُه برغبتِي العودة مرَّةً أخرى إلى المسجد الحرام بعد مضي أربع ساعات من الليل، للتشرف بزيارة الكعبة من الداخل، السادن من قبيلة بني شَيْبَةَ، وقد خُصَّت هذه القبيلة بهذه الخدمة.

بعد مضي ثلاث ساعات من الليل، ذهبتُ إلى المسجد الحرام. اغتسلتُ من ماء بئر زمزم، وفتحوا لي الباب بعد مضي أربع ساعات

من الليل، وضعتُ قَدَمِي على الدرج وأنا بمنتهى الخشوع والخضوع، وقد غمرتني الرهبة والدهشة خوفاً من الله، فَلَهَجَ لساني بالدعاء، وبكَلِّ هدوء صرتُ بين عمودَيْن. صَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ على الصخرة الحمراء، وطفْتُ حول الأعمدة، وألصقتُ جسدي بها، ثمَّ صَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ في كُلِّ زاوية من زوايا البيت، فَتَبَتَّلْتُ بالدعاء والصلاة والاستغفار والاستغاثة أكثر من ساعة من الوقت، حامداً الله على مَنْه وكرمه، لِمَا أولاني من نعمة زيارة بيته الشريف مهبط الملائكة والأنبياء وجبريل، وأنا بهذه الرَّجُل العليلة، فمرَّغتُ وجهي وجيبي بغبار البيت.

بعد التمرُّغ والخروج من تلك البقعة المباركة، شربتُ ماء زَمْزَمَ، وَصَلَّيْتُ رَكَعَتَيْنِ قُبَالَه البيت، وبعد مضي ستِّ ساعات من الليل، عدتُ إلى المنزل.

يوم السبت، الثالث والعشرون من ذي الحِجَّة، قام معالي الشريف عبد المطلب بدعوتي، وأرسل عربته، لِتُقَلِّني، فركبتُ، وقصدتُ بيت الداعي، قام معاليه بواجب الاحترام والخدمة، فتناظرنا في الحديث، ثمَّ حضر صفوت باشا والي مكَّة الجديد، وانضمَّ إلينا.

كانت عمارة معالي الشريف ذات رونق وبهاء، فيها حديقة جميلة، كانوا قد جاؤوا بالبستنحي من إسلامبول، فقام بتنظيم الجُنَيْنة وتشذيبها على الطراز التركي، كانت أشجار السُّدر والتمر الهندي المغروسة فيها قد أينعت، فقطفوا من التمر، وأعدّوا منه الشربات الممزوجة بالثلج، كان سائغاً لذيذاً، فمنذ مدَّة، لم أشرب شراباً بارداً في تلك الديار، فراق لي كثيراً.

بعد تناول الغداء، عدتُ إلى البيت، ثمَّ قصدتُ الحَرَمَ المبارك ليلاً،

دخلتُ من باب الزيادة، كانت صفوف صلاة الجماعة مُرتَّبةً، فبسطوا لي الحصيرة في المُصلَّى الحنفي، اقتديتُ بالجماعة، وبعد الصلاة، طفتُ مرتين، وأقمتُ صلاة الطَّوافين في حجرِ إسماعيل ومقام إبراهيم.

وفي المنزل، جاء لزيارتي صادق أفندي أمين الصُّرَّة⁽¹⁾ موفد خديوي مصر إلى مكة مرافقاً الحملة المصرية، في الخمسينيات من العُمُر، وكان رجلاً عاقلاً غيوراً، جلسنا، فتحدَّث معنا، وقرأ نصّاً باللغة العربية عن بعض الإجراءات والقواعد، لتسهيل حركة الحجاج المصريين للوصول من البحر، وتكملة سيرهم دون حاجة العساكر وتجشُّم العناء، وأبدع في كتابته الفصيحة المسجَّعة.

يوم الأحد، الرابع والعشرون من ذي الحجة، ولاستحباب العُمرة المفردة، ركبتُ برفقة خاصَّة أصحابي، ومعالي الحاجِّ مُلاً باقر الواعظ قاصدين التنعيم، لكي نُحرِّم لتأدية العُمرة المفردة، التنعيم هو موضع في وادي نعمان، يقع بين جبلين، هما جبل نعيم على اليمين، وجبل ناعم على اليسار. يبعد الموقع ثلاثة أميال عن مكة، باتجاه مدينة النبي.

المسجد المَبْنِيُّ هناك مفتوح الأطراف من ثلاث جهات، ومحاط بالغرف، بعد أن اغتسلتُ في إحدى الغرف، صلَّيتُ الظهر والعصر، ثمَّ لبستُ الإحرام، ومن بعد نويتُ وانطلقتُ مُلبياً تجاه مكة، فدخلتها من باب عَرَفة. كانت صفوف الصلاة مرتَّبةً، والشافعيون والحنفيون هم مَنْ كانوا يقيمون الصلاة، جلستُ على الدرج حتَّى يفرغوا من صلاتهم، فطفتُ بالبيت، وصلَّيتُ، وسعيتُ بين الصَّفَا والمَرَّوة راكباً، وعند الغروب، انتهيتُ من أداء العُمرة.

(1) أمين الصُّرَّة: أحد المناصب والعناوين التي تنطوِّق إليها فيما بعد، خلاصة الأمر هو المشرف على مصاريف الحملة المصرية. (المترجم).

عاودتُ الكَرَّةَ، فقصدتُ الحَرَمَ المبارك ليلاً، طففتُ طواف النساء، وعدتُ إلى المنزل بعد الصلاة، وَمَنَّ اللهُ عَلَيَّ اليومَ بختم القرآن الذي شرعتُ بقراءته ساعة حلولي بمكَّة، واستحباباً للأمر، وطلباً للثواب، أعتقتُ جارية لوجه الله، وكان اسمها برلة، كانت الأمطار الليلية تهطل بغزارة، فانتعشت الأجسام، ورقَّت الأرواح.

يوم الاثنين، الخامس والعشرون من ذي الحِجَّة، قصدنا مدينة النبي استجابة لحُكْم الحديث القائل: "مَنْ حَجَّ البيتَ، ولم يَزُرْني، فقد جَفَّاني" ⁽¹⁾، ومساءً ذهبْتُ لتقاء المسجد الحرام، فقمْتُ بطواف الوداع، وكنتُ ألمس الحجر الأسود والركن اليماني والمستجار في كلِّ شوط، وأقرأ الأدعية المأثورة، فحمدتُ الله، وصليتُ على النبي وآله، عليهم السلام، ثمَّ خرجتُ من باب الحنَّاطين، وعدتُ إلى المنزل.

انطلقنا قبيل الغروب بساعة حتَّى بلغنا وادي الزاهر الذي يبعد عن المدينة نصف فرسخ، وفيه مقبرة شهداء الفخِّ، تقع على سفح جبل، فبنوا لهم بقعة، تضمُّ عدداً من القبور، لكن أهل التحقيق يرون أن مقبرة شهداء الفخِّ في الطائف شرق مكَّة المعظَّمة ⁽²⁾، وقد ضربوا خيامنا في تلك الصحراء، وصار موقع خيمتنا من قبل الحكومة قُبالة مقبرة شهداء الفخِّ، وبنوا غرفاً للباشاوات المصريين والشاميِّين، ينزلون فيها حين الذهاب والإياب.

جاء والي باشا لوداعنا في المخيم، برفقة نجل الشريف والعساكر

(1) بحار الأنوار، ج 102، ص 371 و373.

(2) قضية شهداء الفخِّ تتعلَّق بثورة الحسين بن علي بن حسن بن علي بن أبي طالب في عام 169 الهجري. يذكر ياقوت في معجم البلدان ذيل كلمة فخِّ أن موقع فخِّ هو في وادي الزاهر. وقبله أيضاً ذكر أن موضع الفخِّ في طريق التنعيم، وذلك في كُتُب موثَّقة، ككتاب مناسك وأماكن طُرُق الحجِّ للحري، ص 467.

والفرقة الموسيقية والمدفعية، بعد مضي ساعة من الليل، رجعتُ إلى خيمتنا. ينشط الطريق من مكة حتى المدينة المنورة إلى شُعْبَتَيْن.

الشُّعْبَةُ الأولى فرعيّة، ومنازلها: وادي فاطمة، بئر عَسْفَانَ، القَضِيْمَةَ، رَابِع، بئر رضوان، أُمُّ ضِبَاع، الرِّيَّان، السَّمْت الأبيض، بئر العذب، بئر الماشي.

والشُّعْبَةُ الثانية الطريق السلطاني، ومنازلها ذات منازل الشُّعْبَةُ الأولى من مكة حتى رَابِع، ومن هذا الموقع تتفرّع، لتصبح منازلها بئر مستورة، وبئر الحصان، وبئر عَبَّاس، ومسجد الشجرة، وهو التقاء الشُّعْبَتَيْن، ونهايتهما.

سلك الحُجَّاج في عامنا هذا الشُّعْبَةَ الأولى من الطريق، وسوف نصل بعد عشرة أيّام إلى المدينة المنورة، إن شاء الله، ونكون مصداقاً: "لَمَنْ حَجَّ إِلَى مَكَّةَ، ثُمَّ قَصَدَنِي فِي مَسْجِدِي، كُتِبَتْ لَهُ حَجَّتَانِ مَبْرُورَتَانِ". وقوله: "مَنْ زَارَنِي فِي الْمَدِينَةِ، كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً وَشَهِيداً"⁽¹⁾. وسوف نقصد بيت المقدس من المدينة عبر الشام، لنكون زائرین للقبْلَتَيْن.

يوم الثلاثاء، السادس والعشرون من ذي الحجة، ولتأخر انطلاق جميع الحُجَّاج الإيرانيين من مدينة مكة المعظّمة، لعدم توفر زاد الجمال، مكثنا في وادي زاهر على نيّة الانطلاق غداً. ذهبْتُ إلى الخيمة التي أقامها الوالي لتناول طعام الغداء، فوجدنا الذباب يحوم بكثرة حوله، ومع أن مَنْ كان يكشُّ الذباب عنّا كثر إلا أن هذا لم يُجدِ نفعاً، حين الغروب عدتُ إلى خيمتي، وقضيتُ ليلتي.

يوم الأربعاء، السابع والعشرون من ذي الحجة، اجتمع الحُجَّاج في وادي زاهر، فقرّرنا أن نطلق قبيل الغروب بثلاث ساعات. كان العسكر

(1) انظر: الكافي، ج 4، ص 548 و579.

والضبطية والفرقة الموسيقية في صف واحد، وقاموا بواجب الاحترام العسكري، وأطلقوا تسع عشرة قذيفة مدفعية حين الانطلاق.

أذنت للعسكر والفرقة الموسيقية بالانصراف، لكن آلي بيك وعشرين من العساكر والضبطية والشريف عبد الله وسبعة من الشرفاء قاموا بمرافقتنا مبعوثين من قبل معالي شيخ الحرمين ووالي باشا.

كان الوقت الذي تستغرقه المسافة ست ساعات، والحركة بين الشمال والشرق، وقد حللنا في موقعين، الأول في التنعيم لإقامة الصلاة، والآخر على مقربة من قبر ميمونة زوجة النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، لتفقد الحجاج قبيل الصبح بأربع ساعات، بلغنا وادي فاطمة، وقد نصبوا خيمتنا في مكان مرتفع قبالة عين للمياه الساخنة ونخل وزرع. لم نشاهد مياهاً جارية حتى هذا المنزل، معظم الحجاج اغتسلوا وغسلوا ملابسهم من هذه العين، ومكثنا حتى ثلاث ساعات قبيل الغروب من يوم الخميس.

يوم الخميس، الثامن والعشرون من ذي الحجة، وقبيل الغروب بثلاث ساعات، غادرنا وادي فاطمة، وبعد ساعة، بلغنا مضيقاً، يتطلب اجتيازه ساعتين. الجبل الواقع على اليمين ممتد من الجنوب إلى الشمال حتى منزل عسفان، والجبل الواقع جهة اليسار ممتد حتى ساعتين. كان المضيق مليئاً بالصخور الصلبة والكبيرة، وكما سمعنا أنه مخبأ للصيادين.

كانت الحركة أقرب إلى الجانب الغربي من الطريق، ومن هنا فصاعداً، تصبح الواجهة ما بين الشمال والغرب. وقفنا في الطريق في موضعين للصلاة، ويسمى العرب هذا الوقوف بالعواف⁽¹⁾.

وبعد مضي ساعتين من نهار الجمعة، بلغنا بئر عسفان التي تقع في صحراء شاسعة، وتحيطها الجبال، مياهها سائغة، قيل إن الرسول، صلى

(1) العواف: ومعناه الاستراحة. (المترجم).

الله عليه وآله وسلّم، كان قد ألقى بلُعباب فمه في هذه البئر، فأصبحت عذبة، مكثنا حتّى أربع ساعات من غروب الجُمُعة.

الجُمُعة، التاسع والعشرون من ذي الحِجَّة، حضر الأعراب الذين كانوا يأخذون الخاوة مطالبين الحُجَّاج بالدراهم والدنانير.

كان شاهر نصّار، وهو من قبيلة ذات شأن، قد أخذ منّا الخاوة في مكّة، وأبلعنا بأنه سيكتب للأعراب، يُخبرهم بذلك، ولكن الخبر لم يكن قد وصلهم بعد، فطلبنا منهم التريث حتّى حضور شاهر نصّار، فحضر قبل انطلاقنا، ولما علم بالأمر، لجم جماح الأعراب على الفور.

قُبيل الغروب بأربع ساعات، خرجنا من بئر عَسْفَانَ. وبعد مضي خمس ساعات من نهار يوم السبت، غرّة مُحَرَّم الحرام، بلغنا القَصِيْمَةَ، وقد نزلنا في موضعين طوال الطريق.

حين انطلقنا من بئر عَسْفَانَ، كانت الطريق واسعة، ثمّ دخلنا في مضيق جبلي مليء بالصخور الصلبة، بلغ طوله قدر مسير نصف ساعة، وكانوا قد مهّدوا الطريق برصفها بالحجارة من الطرفين لتسهيل مرور الحُجَّاج.

يمتدُّ الجبل من الشرق إلى الغرب، ويقع على جانب من المضيق واد مليء بالصخور ممتدُّ من الشّمَال إلى الجنوب على الجانب الآخر. عندما خرجنا من المضيق اتّسعت الصحراء أماناً، وكانت الحركة ما بين الشّمَال والغرب، والطريق حتّى خمس ساعات مليئة بأشجار الأثل، والسير فيها صعب، لكثرة الحصى الناعم المعيق لسير الجِمال، ويميناً ظهرت لنا طريق حُرّة بالغة الصعوبة.

كلّما اقتربنا من القَصِيْمَةَ، كنّا نقرب من البحر الأحمر، وقُبيل هذا

المنزل بساعتين، اتَّجِه الطريق نحو الشَّمَال، وماء هذه المنطقة كان آسناً غير سائغ، لقربها من البحر.

مُحَرَّم عام 1298 للهجرة

يوم السبت، غُرَّة شهر مُحَرَّم، مكثنا في القَضِيْمَة حتَّى ساعة مضت من الليل، جاءني الشرفاء مساءً، وأبدوا رغبتهم بالتعجيل في الانطلاق ليلاً، وعدم إطالة المكوث حتَّى يلتحقوا بالمخيِّم المصري والشامي، ثمَّ ينطلقون معاً، وفي تديبرهم، أخذ جانب الحِيطة والحذر من مخاطر الطريق، كان المَحْمَل الشامي أكثر استعداداً وعدداً، من حيث المدفوعات، فرأيتُ من الصواب أن أوافقهم الرأي، فأمرتُ بالانطلاق المبكّر، ليتسنى لنا اللحاق بالمخيِّمين الشامي والمصري، لكن الجمالين كانوا غير راغبين بالحركة المبكّرة، بسبب التعب الحاصل للجمال من طوال الطريق، فقمنا بإرضائهم وتدبّر أمرهم.

مع أوّل الليل، وبعد تناول طعام العشاء، انطلقنا من القَضِيْمَة قاصدين رابع، فوصلنا يوم الأحد قبيل الغروب بأربع ساعات. كنّا نسير لعشرين ساعة متواصلة. كانت الأرض مستوية طيلة الطريق، والحركة تجاه الشَّمَال، والبحر الأحمر يقع على يسارنا على بُعد ساعتين أحياناً، وأحياناً أخرى ساعة أو نصف ساعة، معظم الأراضي كانت سَبِيخة، تتخلَّلها أصداف كثيرة بين الحصى، تُظهِر وصول مدِّ البحر وجزِّره إلى هذه المنطقة.

بعد وصولنا إلى رابع، تبين لنا أن المَحْمَل الشامي والمصري قد غادرا المكان، وبقي حُجَّاج الهند وجاوة والمغرب فقط.

معالم الحصن العسكري كانت واضحة أوّل ما ظهر العمران، وبينما كان يمرُّ هودجنا من محاذاته، خرج الشريف دخيل صهر شيخ الحرَمين

الذي كان مُوقِداً لتسيير المَحْمَل الشامي، ودعانا لدخول الحصن، وأنا على أمل أن أجد بيتاً هادئاً، أستريح فيه من المسير وسهر الليل.

ترجّلتُ عن الهودج، ودخلتُ الحصن. شربتُ القهوة، ودخنتُ النارجيلة. وكان الأعراب مجتمعين، فلم أشعر بالراحة، فتركتُ المكان، وعدتُ للمنزل، البارحة واليوم كنتُ مُنهكاً من السهر، ومن شدة ألم الأسنان.

رَابِع

في حين تقع الطائف والمدينة المنورة في منطقة الحجاز، تعتبر رابع من منطقة تهامة، شأنها شأن مكة وجدة وينبوع، وهي ميقات أهل الشام ومصر حالياً بعدما كان ميقاتهم في جحفة الواقعة بين الجبال، فخربت السيول عمرانها، وجرفتُها، وبين الموضعين ثلاث ساعات.

في رابع مياه جارية مرة المذاق، ومياه آبارها عذبة، تكثر فيها بيوتات الرعية وبساتين النخيل، والمسافة بينها وبين البحر الأحمر مسير ساعة.

يوم الأحد، الثاني من مُحَرَّم، مكثنا في رابع لثماني ساعات مضيئة من الليل حتى تمَّ تسوية ما كان بين الأعراب من حسابات مالية، ثمَّ انطلقنا.

الشريف عبد الله الذي رافقنا طيلة الطريق حتى هذا المنزل، قرَّر الرجوع مكتفياً بإرسال نجله لمرافقتنا، فطلب منا كتاباً، نُخبر به رضانا عنه، ليُسَلِّمه لمعالي شيخ الحَرَمَيْن، فكتبنا الكتاب، وأذنا له بالانصراف، كان شيخاً لبيباً ومواظباً على الخدمة طوال الطريق.

يوم الاثنين، الثالث من مُحَرَّم، واصلنا السير دون انقطاع، فبلغنا بئر رضوان بعد مضي أربع ساعات من ليل الثلاثاء، كان منزلاً مكتظاً الأشجار

عذبَ المياه. عند وصولي كان المخيِّمان المصري والشامي لم ينطلقا بعد، فاستسلمتُ للاسترخاء حتى إني لم أستطع تناول العشاء من شدة التعب، وطول الطريق.

في أثناء المسير، غلب النوم على آلي بيك، فأفلتت من بندقيته طلقه، أصابت قدمه، لم تكن إصابته خطيرة، أرسلتُ الميرزا سيّد مهدي الطبيب لمداواته، وتضميده، وهو من متعلّمي مدرسة دار الفنون، تمّ استخراج عدد من الخُرْدُقات من رجله، لقد كان آلي بيك حقاً رجلاً عاقلاً، وقد تجشّم المشقّة والعناء معنا.

يوم الثلاثاء، الرابع من مُحَرَّم، حضر لزيارتنا في الصباح الباكر معالي الحاج ميرزا يوسُف آغا المرافق للحجيج الشامي، فجرى حديث بيننا.

قبل طلوع الفجر، ثارت المدفعية الشامية استعداداً لانطلاق الحُجاج، وكذلك الشأن في مخيِّمنا. كانت الحركة باتّجاه الشّمال والشرق، ومع مضي أربع ساعات من الليل، كنّا قد بلغنا أبا ضِبَاع الذي بُنيت بيوته على سفح الجبل حول غابة نخيل، الجبال الملاصقة للمدينة لم تكن شاهقة، ويتمتّع هذا المنزل بالمياه الجارية.

أقاموا خيمتنا قرب المخيِّمين الشامي والمصري، فنزلتُ في خيمة معالي الحاج ميرزا يوسُف آغا، لنحضر مأتماً، أقامه لمصائب أهل البيت.

كان الشيخ الفرعي بدرجة الاجتهاد من تلامذة المرحوم⁽¹⁾ متوقِّفاً في هذا المنزل، ويقصد مكّة في كلّ عام لإشاعة المذهب الجعفري، وقد استطاع استمالة جمع من الناس للمذهب الشيعي، ولم يتسنّ لنا لقاءه لبعد العمارات عن الطريق، وحلول الظلام.

(1) لم يرد في متن الكتاب المترجم ما يشير إلى اسم المرحوم، ولعلّه أحد الأعلام الذي لا يحتاج إلى تعريف حسب رأي صاحب الكتاب. (المترجم).

المَحْمَل الشامي

تقوم الحكومة كل عام بتوفير مستلزمات الحملة الشامية كافة التي تقصد مكة من ولايات الشام، وزيادة في الاهتمام بحملة الحج تُعين على رأسها أميراً، يتولى قيادتها ذهاباً وإياباً، وكان سعيد باشا منذ عدة أعوام يتولى إمارة مَحْمَل الحج الشامي، فهو إنسان عاقل، له هيبة ووقار، أخلاقه حسنة، تضي عليه الوجاهة، ومن جهة أخرى، تجده صلباً، لا يتراخى أو يتهاون في عمله، فترى القافلة كأنها تسير على الصراط المستقيم لا اعوجاج ولا ميل فيها، وكان حازماً، تهابه الأعراب، وتخشاه.

ويرافق مَحْمَل الحج الشامي مدفعيتان محمولتان على الإبل، ومئتان من الجنود على رأسهم أحد عشر رجلاً من أهل المناصب، يمتطون كرائم الإبل، وبصحبه أمين الصُرَّة، وبيده الميزانية، ليقوم بالإنفاق على أعضاء الحملة ودفع الخاوة التي يستوفيهما الأعراب.

كان تنظيم مخيم المَحْمَل الشامي كالتالي، تُضرب الخيام مرتبة بمحاذاة بعضها بشكل دائري، ويُعطى كل حاج مكانه، ولا يتغير في أي منزل من المنازل التي ينزلون بها، يتم إطلاق قذيفتين في الصباح، إحداهما لإعلام الحجاج بالاستعداد للانطلاق، والثانية ساعة الانطلاق، كما يتم إطلاق قذيفة في كل وقت من أوقات الصلاة، فيتوقف الحجاج

لأدائها، وحين إقامة صلاة الظهر، يتمُّ نصب خيمة للمُبجّلين، لوقايتهم من حرارة الشمس، وعند بلوغ المنزل تُطلَق قذيفة، لكي يترجّل الحُجّاج، وبعد صلاة العشاء، تُطلَق قذيفة، تُنذِر بعدم مغادرة المخيم، وفي المساء، ينتشر عدد من الحرس حول المخيم حتّى مطلع الفجر.

كان المَحْمَل الشامي في غاية التنظيم، يستطيع المرء السير بركبه وهو مطمئنٌ، والإبل الشامية أسرع من إبل الأعراب، وتضمُّ الحملة ألفاً وأربع مئة جملاً، وكان معالي سعيد باشا يُشرف بنفسه على انطلاق المَحْمَل، وقد أرسل لنا خمسة عشر فارساً لمرافقتنا.

يوم الأربعاء، الخامس من مُحرم، غادرنا أبا ضبّاع بحركة نحو الشّمال، بعد مضي ثلاث ساعات، وصلنا إلى مضيق، عيون الماء جارية فيه، ويحيط به النخيل من الجانبين، وقُبيل الغروب بساعتين، بلغنا جبل الرّيّان:

يا حبّذا جبل الرّيّان من جبل⁽¹⁾

سلسلة الجبل في غاية الحُسْن والجمال، تتسامق على سفوحه أشجار النخيل بمساحات شاسعة، وتقع البنايات والحصن إلى جهة اليسار، كان أهل المنطقة رجالاً ونساء مرابطين بمحاذاة الطريق لبيع أطباق التمور والقرب، والأطفال مشغولون بتريد عبارات موزونة، فحواها الدعاء للحُجّاج بقبول حجّهم. مكثنا الليلة في الرّيّان، فكانت ليلة كلّها بهاء لوفرة الماء، وصفاء المكان، ونقاء الجوِّ.

يوم الخميس، السادس من مُحرم، غادرنا مُتجهين نحو الشّمال،

(1) صدر بيت تمامه: "وحبّذا ساكن الرّيّان من كانا"، ومذكور لأكثر من شاعر، منهم: ابن الرومي، وبشار بن بُرد، وجريز. (المترجم).

كانت الطريق صخرية ووَعِرَة، وتتخلَّلها الأشواك في بعض الأحيان، وقبل بلوغ وجهتنا بنصف فرسخ، وعلى جهة اليمين، يقع تلٌّ، فمنه، وحتى بلوغنا المنزل، تبدأ الأرض الحصوية بالاستواء.

قُبيل الغروب بثلاث ساعات، وصلنا وحُجَّاج مصر والشام مقصدنا، واكتملت قوافل الحُجَّاج بعد مضي أربع ساعات من الليل، يُسمَّى هذا المنزل سَمْت الأبيض، جوُّه بارد، فسارع الحُجَّاج لإشعال النار أمام خيامهم بغية الحصول على الدفء.

يوم الجمعة، السابع من مُحَرَّم، وبعد مضي ساعتين من النهار، غادرنا سَمْت الأبيض صوب الشَّمال. في وسط الطريق، مررنا ببئر واقعة إلى جهة اليمين، تُسمَّى البئر العذب. وكانت ذات ماء عَذْب حقاً، قُبَّالَتها نخلتان، وبمحاذاتهما وعلى يسار الطريق ثلاثة جبال مخروطية الشكل، الجبل الأوسط هو الأصغر بين الجبلين الآخرَين، وضعوا أعلى قمَّته صخوراً كبيرة بحجم الإنسان، تتراءى لمنْ يشاهدها في الليل وكأنها بشر، معظم طريق هذا المنزل مستوية، إلَّا في بعض المواقع صخرية، ووَعِرَة.

نحن وحُجَّاج مصر والشام دخلنا منزل بئر الماشي في ستّ ساعات مضيّن من الليل، في حين بلغها الآخرون صباح يوم السبت. قيل إن أحد المارة قام بحفر هذه البئر، ولهذا أطلقوا عليها هذا الاسم.

ضُرَبت خيامنا بعد حصن صغير، سُيِّد في المكان، يضمُّ إسطبلًا وغُرْفاً محاطة بجدار أبيض اللون.

يوم السبت، الثامن من مُحَرَّم، انطلق حُجَّاج مصر والشام قاصدين المدينة المنورة، ونحن بقينا في بئر الماشي، وسوف ندخلها غداً بعد أن نقطع الطريق كاملاً بالغين آخر منازلنا.

أثبتت الكتب أن المسافة بين مكة والمدينة المنورة تبلغ ألفاً وثلاث مئة وسبعة وثمانين ميلاً.

اليوم عصفت بنا رياح شديدة، تسببت في إمالة معظم الخيام، وسقط عمود خيمتنا حين تناول الغداء، لكنني، ولله الحمد، لم أصب بأذى، بعد أن سكنت الريح، ارتفعت حرارة الجو، كان المناخ السائد في هذا المنزل الذي مكثنا فيه حتى خمس ساعات مضيئة من الليل متقبلاً.

الليلة كانت ليلة تاسوعاء، فقام معالي الحاج ملاً باقر الواعظ بذكر مصائب أهل البيت، فرقت قلوبنا رقة عجيبة.

يوم الأحد، التاسع من محرم، بلغنا مسجد الشجرة عند طلوع الفجر، فنزل الحجاج، وأقاموا الصلاة، ومن ثم، دخلنا المسجد الذي هو ميقات أهل المدينة الذي يحرمون منه.

مسجد الشجرة مبني من الحجارة والجص، وشكله مربع، يبلغ طول أضلاعه اثنين وخمسين ذراعاً، وإلى الجنوب منه ليوان، ضربوا عليه قبة بيضاء من الخارج، وفي وسطه محراب. قام زين الدين⁽¹⁾ من أمراء المملكة المغربية بإعادة بنائه عام 861 للهجرة؛ ثم قام قراباش⁽²⁾ بترميمه، تحيطه غابات النخيل، وتكثر حوله الآبار التي يغتسل منها الحجاج قبل الإحرام.

يُسمي الأعراب هذا المكان بيئر علي، وذكر في الأخبار باسم ذي

(1) القاضي زين الدين يحيى، هو زين الدين يحيى بن عبد الرازق الزيني القبطي الظاهري الأستاذ، المعروف بالأنشقر. وُلد ونشأ وتوفي في مصر 791-874هـ، خدّم في مناصب كثيرة؛ وترقى، ليصبح رئيساً للديوان الملكي، ثم رئيساً للإسطبلات الملكية، ثم محافظاً للقاهرة. (المترجم).

(2) قراباش: لم نعثر على الاسم، ويذكر أن بناء المسجد جُدّد في العصر العثماني في عهد السلطان محمد الرابع عام 1058-1099هـ. (المترجم).

الحُلَيْفَةَ تصغير الحُلْفَاءِ، وهو نبت معروف، ربّما كان يكثر في هذا المكان، وذكرت بعض المصادر أن المسافة من ذي الحُلَيْفَةَ إلى المدينة ستّة أميال، في حين يقول الحُدَاة إنها فرسخ ونصف، وكأنها كذلك.

كُتِبَ حديث من صحيح البخاري على أحد جدران المسجد، فحواه أن النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قد صَلَّى في هذا المسجد.

بعد أن أَدَّى الحُجَّاج الصلاة اتَّجَهْنَا ما بين الشَّمَال والشرق قاصدين المدينة المُنَوَّرَةَ، بعد انطلاقنا بقليل وصلتنا أربع عربات واثنا عشر حصاناً، كان قد وَجَّهَهَا إلينا محافظ المدينة فاضل باشا، فركبنا نحن والأمراء، وخاصة أصحابنا، عندما ارتقيتُ سُلَّم العربة، لاحت لي القَبَّة المباركة من بعيد، فترجَّلتُ، وجلستُ على التراب، وسجدتُ شكراً لله، ثم تابعتُ المسير.

كان معالي شوكت بيك شيخ الحَرَم، وبرفقته محافظ المدينة قد أعدَّا مراسيم الاستقبال خارج المدينة، وكلاهما كانا حاضرَيْن، وضربوا خيمتين خارج البوَابَة ممتلئة بالمناضد والمقاعد، وأعدُّوا أدوات القهوة والنجيلة، وأحضروا ثلاث فِرَق، الفرقة الأولى فرقة الفرسان، تضمُّ مئتي فارس، والثانية فرقة المشاة، والثالثة فرقة الحَرَس بزِيَّهم الرسمي، وبرفقتهم جنود المدفعية.

كُنَّا نجامل كلَّ فرقة عند مرورنا من أمامها، ثمَّ ترجَّلتنا، وتوجَّهْنَا نحو الخيمة، برفقة شيخ الحَرَم ومحافظ المدينة، فتلاطفتُ معهما، وإن كنتُ غير راض عن إطلاق قذائف المدفعية تحية لي في أرض أشرف المخلوقات، فالبرِّيَّة كُلُّهَا فداء لتراب قَدَمِيه، لكن إصراري لم يُجِدِ نفعاً، فقاموا بإطلاق تسع عشرة قذيفة.

جاء عقيد الحملة الشامية وعساكره لاستقبالنا، وقد مرّت الفِرَق العسكرية من أمامنا وهم يُحيُوننا بالتحية العسكرية. من بعد، ذهبْتُ برفقة المحافظ والطاقم راجلاً نحو المدينة، ولم نقبل ركوب العربة رغم إصرار المحافظ، ولولا علةٌ قَدَمِي، لقطعْتُ كُلَّ المسافة في تلك الأراضي المقدّسة راجلاً.

دخلتُ من بوّابة السور الجديد؛ وبعدها اجترنا الشارع، وصلنا إلى ميدان، كان محلّ إفراغ الحمولات، ثمّ دخلنا ببوّابة القلعة قاصدين بيت السيّد صافي، كي نغتسل، ثمّ نذهب لزيارة عتبة النبي الخاتم، صلّى الله عليه وآله وسلّم.

بينما نحن في الطريق، شاهدتُ صبيّاً يمتطي جواداً، ومن حوله حشد من الناس، ينقرون الدفوف، فلماً سألتُ، قالوا إن من عادة أهل هذه الديار أن يجولوا بمنّ تجري له عملية ختان في المدينة على هذه الطريقة، وبعد مرورنا، بلغنا زقاقاً على يساره قبر مالك بن سنان⁽¹⁾، للضريح شُبّاك حديدي تجاه الرقاق، فقرأنا الفاتحة على الشهيد، وتابعنا المسير.

بعد مضي خمس ساعات من النهار، وصلنا إلى بيت السيّد صافي. يضمُّ البيت غرفاً سفلية وعلوية، وقُبالة الليوان بركة ماء وحديقة صغيرة مزروعة بالنخيل، كان المنزل مُتقن البناء، فمكثتُ أنا والأمراء، وخاصة أصحابي، فيه.

في المساء، ذهبْتُ للحمام لتنظيف جسمي، ثمّ قصدتُ الحرَم

(1) مالك بن سنان الخُدريّ، والد أبي سعيد الخُدريّ، وقد استشهد في معركة (أحد)، ونقلوا جثمانه إلى المدينة، وكانت فوق قبره قبّة، ذكرها السهمودي في القرن العاشر. انظر وفاء الوفاء، ج 3، ص 923. (المترجم).

المبارك، برفقة سيّد صلاح الدّين المزورّ، فوقفنا في باب جبرائيل الواقع في شرق المسجد، وقرأنا دعاء الدخول بخضوع وخشوع، ثمّ مشينا بخطّ مستقيم حتّى بلغنا باب الروضة المباركة، فقرأنا الزيارة:

فَلَمَّا وَقَفْنَا قَبْرَ أَحْمَدَ لَاحَ مِنْ سَنَاهُ ضِيَاءُ أُخْجَلَ الشَّمْسَ وَالْبَدْرَا
وَقَفْنَا مَقَاماً أَشْهَدُ اللَّهَ أَنَّهُ يُذَكِّرُنَا مِنْ قَرِطِ هَيْبَتِهِ الْحَشْرَا (1)

ثمّ طفتُ بالروضة المباركة، فقرأتُ زيارة السيّدة الصديقة الطاهرة عليها السلام في الطرف الشرقي من الروضة المباركة، فتذكّرتُ هذه الأبيات:

نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرِ أَنْتَ سَاكِنُهُ فِيهِ الْعَفَافُ وَفِيهِ الْجُودُ وَالكَرْمُ
يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنْتُ فِي الْقَاعِ أَعْظَمُهُ فَطَابَ مِنْ طِيبِهِنَّ الْقَاعُ وَالْأَكْمُ (2)

ثمّ قصدتُ سارية أسطوانة أبي لبّابة⁽³⁾، فصلّيتُ بالقرب منها، وسجدتُ سجّدت شكر لله أن وفّقني لزيارة هذه الروضة المباركة، وبعد فراغي من الصلاة والدعاء والتضرّع، خرجتُ من باب الرحمة الواقع في غرب المسجد.

نحن في ليلة عاشوراء، فقام معالي الحاجّ مُلاً باقر الواعظ بذكر مصائب أهل البيت، فنلنا شرف ذكرهم.

(1) لم نعثر على قائل البيتين. (المترجم).

(2) قالها أعرابي، يستشفع بقبر النبي، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، والأبيات تشرّفت بحائط الحجرة المشرّفة. (المترجم).

(3) أسطوانة أبي لبّابة: وهي الرابعة من المنبر، والثانية من القبر، والثالثة من القبلة، وتُعرف بأسطوانة أبي لبّابة، لأنه ربط نفسه بضع عشر ليلة بعد الذي أفضى به لحلفائه بني قُرَيْظَةَ، وبعد أن ندم على ما فعل، كانت ابنته تحلّ رباطه إذا حضرت الصلاة، وحلّف أن لا يحلّ نفسه حتّى يحلّه النبي، وقد حلّه النبي، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، بعد أن نزلت توبته في القرآن الكريم. (المترجم).

المدينة المنورة

تتوسط المدينة المنورة التي يكسوها بهاء الرونق سهلاً شاسعاً، تحيطها عدّة جبال سيرد ذكرها لاحقاً، تتكون معظم بناياتها من غرف سفلية وعلوية، وفيها حمّامات كثيرة، وأدوات المدنية متوفرة بمختلف أصنافها، ومعظم بيوتها مزودة بمياه الشرب.

يحيط بالمدينة المنورة سوران، السور الحديث، والسور القديم الذي بناه محمّد بن علي الملقب بجمال الدّين والشهير بالجواد الأصفهاني⁽¹⁾ المتوفي عام 559 للهجرة، والمدفون في مقبرة البقيع، يمتد السور بشكل متعرج، ولا تزال آثاره بادية، ومع أنه من مآثر جمال الدّين إلا أنه يعرف بسور السلطان سليمان.

بوابات المدينة المنورة

للمدينة المنورة سبع بوابات: الأولى العنبرية، والثانية قباء، والثالثة الكوفة، والرابعة المجيدي، والخامسة العوالي، والسادسة الشامي وتُسمّى أيضاً ببوابة الجبل لقربها من جبل سلع، والسابعة بوّابة الجمّعة.

مسجد النبي خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم

ورد في الكُتُب أن موضع المسجد كان مرزبداً⁽²⁾ للتمر، أو مقبرة للمشركين، أو ملكاً لبني النجّار، أخذه النبي، صلّى الله عليه وآله وسلّم،

(1) الجواد الأصفهاني، محمّد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني أو الأصبهاني، جمال الدّين، أبو جعفر: وزير، من الولاة، سُجن سنة 558هـ في قلعة الموصل، إلى أن تُوفي سجيناً، ونُقل إلى المدينة، ودُفن في البقيع. (المترجم).

(2) المرزبد: موضع لتجفيف التمور. (المترجم).

وَفَقَّاً لِّلْمَعَايِيرِ الشَّرْعِيَّةِ، فَأَمَرَ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ مَشَاطِرَ الْأَنْصَارِ فِي رَأْيِهِ حِينَ تَشْيِيدِ الْبِنَاءِ، وَقَدْ كَانَ يَرُدُّدُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، رَجْزاً تَرْغِيباً لَهُمْ وَشَحْذاً لَهُمَّ مِهِمَّ، فَيَقُولُ:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَانصُرِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

تَمَّ بِنَاءُ الْمَسْجِدِ مِنَ اللَّيْلِ⁽¹⁾، وَسَقَفَهُ وَأَعَمَدَتْهُ مِنْ جِرَائِدِ النَّخِيلِ، لَهُ سَبْعُ أَسْطُوَانَاتٍ طَوِلاً مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ، وَسِتَّةُ أَعْمَدَةٍ عَرْضاً مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ، وَقَدْ زِيدَتْ مَسَاحَتُهُ طَوِلاً وَعَرْضاً زَمَنَ خِلَافَتِي عَمْرٍ وَعَثْمَانَ، وَقَامَا بِإِعَادَةِ بِنَاءِ الْجِدْرَانِ بِالْأَحْجَارِ الْمَنْقُوشَةِ، وَفِي عَهْدِ بَنِي أُمَيَّةَ، قَامَ وَالِي الْمَدِينَةِ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَبِأَمْرِ مِنَ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، بِهِدْمِ الْمَسْجِدِ وَبِيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ، وَضَمَّهَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَازْدَادَتْ وَسَعَتُهُ، وَفِي الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وَحِينَ كَانَ الْمَهْدِيُّ وَالِيّاً عَلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، قَامَ بِتَوْسِعَتِهِ مِنْ جَدِيدٍ، وَرَفَعَ سَقَفَهُ.

احْتَرَقَ الْمَسْجِدُ فِي زَمَنِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ⁽²⁾ عَامَ 654 هـ، وَتَمَّتْ إِعَادَةُ بِنَائِهِ ثَانِيَةً⁽³⁾. وَفِي عَامِ 886 لِلْهَجْرَةِ، أَصَابَتْ الْمَسْجِدَ صَاعِقَةٌ، أَحْرَقَتْ الصُّحُفَ وَالْكِتَابَ، وَتَمَّتْ إِعَادَةُ بِنَائِهِ مَجْدِّدًا عَامَ 888 هـ عَلَى يَدِ الْمَلِكِ قَايْتَبَايِ⁽⁴⁾، وَمِنْ ثَمَّ، قَامَ السُّلْطَانُ عَبْدِ الْمَجِيدِ خَانَ إِبَانِ حُكْمِهِ بِتَجْدِيدِ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ وَالصُّحْنِ فِي غُضُونِ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا، وَلَمْ تَصِلْ يَدُ الْإِعْمَارِ إِلَى الرَّوْضَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْذُ بِنَاءِ الْمَلِكِ قَايْتَبَايِ.

(1) اللَّيْلِ: الطُّوبَى النَّيُّ الَّذِي لَمْ يُحْرَقْ بِالنَّارِ. (الْمُتْرَجِم).

(2) الْمَلِكُ الظَّاهِرُ رَكْنُ الدِّينِ بَيْرَسُ الْعِلَائِي، لُقِّبَ بِأَبِي الْفَتْوحِ، سُلْطَانُ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَرَابِعُ سُلْطَانِي الدَّوْلَةِ الْمَمْلُوكِيَّةِ وَمُؤَسِّسُهَا الْحَقِيقِيُّ. (الْمُتْرَجِم).

(3) انظُرْ: وِفَاءُ الْوَفَا بِأَخْبَارِ دَارِ الْمُصْطَفَى، ج 2، ص 598، الْفَصْلُ 26.

(4) ذَكَرَ فَضْلُ اللَّهِ بْنِ رُوزْبَهَانَ خَبَرَ هَذَا الْحَرِيقِ فِي رِسَالَةٍ "هُدَايَةُ التَّصَدِيقِ إِلَى حِكَايَةِ الْحَرِيقِ"، وَقَدْ قَمْنَا بِطَبَاعَةِ تَرْجُمَةٍ مَلْخُصَّةٍ هَذِهِ الرِّسَالَةَ فِي مَجَلَّةِ "مِيقَاتُ" الْعَدَدِ 10.

يقوم المسجد في هيئته الحالية على تسعة أعمدة طولاً، وستة عرضاً، والمسافة الواقعة بين كلِّ عمودين سبعة أقدام⁽¹⁾، ليكون طول المسجد مئتين وعشرين قدماً، وعرضه مئة وأربعين قدماً.

وقد فرَّقوا بين الأعمدة القديمة والجديدة بتمييز الأعمدة السبعة القديمة بعلامات، وزينوا الأعمدة الخمسة والثلاثين الجديدة بالرخام في نصفها الأسفل، وبالأحجار في نصفها الأعلى.

عدد الأعمدة في المسجد القديم اثنان وأربعون عموداً، وبلغت الآن أربعة وخمسين عموداً بارتفاع ستة أذرع، وبأقطار مختلفة، إذ يبلغ قطر النصف الرخامي ثلاثة أرباع الذراع، وتتراوح أقطار الأعمدة الأخرى ما بين ذراع ونصف، وذراع وثلاثة أرباع، أمَّا الأعمدة الكبيرة، فأقطارها ثلاثة أذرع.

يضي نور النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، على المسجد روحانية، تتملك إحساس المرء وشعوره، ليجد نفسه في روضة من رياض الجنة، لا يروم الخروج منها.

أساطين المسجد النبوي

أساطين المسجد النبوي الشريف سبع أساطين، ولها في النفوس المؤمنة مكانتها من القداسة، وتُعرف كلُّ أسطوانة باسمها المنقوش عليها، فالأولى أسطوانة السرير، وكانت موضعاً لسرير النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والثانية أسطوانة المَحْرَس، حيث كان أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام، يقوم بحراسة النبي، وقد نقشوا كلمة الحرس بدل

(1) المقصود بالقدم هنا (الخطوة)، وتساوي (0.83) م. (المترجم).

المَحْرَس، وهذا خطأ⁽¹⁾، والثالثة أسطوانة الوفود، وقد كان النبي يستقبل وفود العرب عندها، وهذه الأساطين الثلاث متّصلة بالروضة المباركة، والرابعة أسطوانة أبي لُبَابَةَ التي قُبِلَتْ توبته عندها، وهي الأولى من الصفِّ الثاني، والخامسة أسطوانة عائشة، حيث كانت تجلس هناك، وهي من الصفِّ الثالث، والسادسة الأسطوانة المَخْلَقَة، حيث تصبح الرابعة من الصفِّ الأوّل خلف المحراب المبارك، والسابعة أسطوانة الحنانة، وهي العمود الخامس من الصفِّ الثاني، وتقع على الدرج الأوّل من المنبر المبارك، بُني هذا العمود مكان الشجرة التي كان يتكئ عليها النبي حين الموعظة، وقد حنّت هذه الشجرة وأنّت بعد قطعها، فبشّرها النبي بالجنّة، هناك أسطوانة أخرى ورد ذكرها في الكُتُب، تُسمّى أسطوانة التهجد⁽²⁾، ولم أشاهد أسطوانة بهذا الاسم.

أدوات المسجد

تنير المسجد النبوي الشريف عدّة مصابيح، وأربع تُرَيَاتٍ حمراء وبيضاء، تتدلى من السقف، وترتفع في المسجد منصّتان، يعتليهما المؤدّن والمكبرّ، إحداهما في الوسط، والأخرى في الجانب الشّمالي؛ وفي المسجد غرفتان للأغوات، إحداهما في الزاوية الشّمالية، والأخرى في الزاوية الجنوبية، ترتفع منارة بلال أعلاها، وفي الزاوية الجنوبية الأخرى هنالك غرفة أرضية من فوقها منارة. للمسجد محرابان، الأوّل محراب النبي، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، والثاني بناه السلطان سليمان، والمنبر المبارك بين المحرابين.

(1) لم يتبيّن لنا دليل الخطأ. (المترجم).

(2) أسطوانة التهجد: وهو أساساً يقصد محراب التهجد، أو العمود الملاصق له في القسم الشّمالي من الضريح المبارك، حيث يقع خلف بيت فاطمة الزهراء، عليها السلام. (المترجم).

أبواب المسجد

إضافة لباب الصحن، فللمسجد المبارك أربعة أبواب، الأوّل باب السلام، وموقعه في الجانب الغربي، والثاني باب الرحمة، ويقع في زاوية أخرى من الجانب الغربي، والباب الثالث باب جبرائيل، وموضعه في الجانب الشرقي خلف الروضة المباركة، أمّا الرابع، فباب النساء، وهو أيضاً في الجانب الشرقي، حيث تدخل النساء من خلاله.

كانوا قديماً يُطلقون اسم عاتكة على باب الرحمة، ومروان على باب السلام، وعثمان على باب جبرائيل.

الروضة المباركة

الروضة المنورة هي البقعة الطاهرة التي تضم قبر النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، والصديقة الطاهرة عليها السلام، وتقع في الجانب الشرقي من المسجد، ولا تتصل به من أيّ من جهاته الأربع، فيستطيع الزائرون لقبر الرسول الكريم الإحاطة بها من الجهات جميعها.

تمتدّ الروضة الشريفة من الجنوب إلى الشمال، ويبلغ طولها ستّ حجرات؛ وعرضها من الشرق إلى الغرب بقدر ثلاث حجرات، ويظهر الضريح المبارك من بين قضبان الشبّك المصنوع في الجانب الغربي من النحاس، ومن الجوانب الأخرى من الفولاذ المطلي باللون الأخضر الذي ينم عن وقار المكان.

توجد حجرتان داخل الروضة المباركة، إحداهما تضمّ ضريح النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، وقبري أبي بكر وعمر بن الخطّاب، والثانية فيها ضريح الصديقة الطاهرة، وهناك باب يصل بين الحُجرتين الشريفتين.

لحجرة النبي المباركة باب واحد، يقع في الجانب الجنوبي، وُضع عليه شمعدانان مرصَّعان، تَمَّ إنارتَهُما ليلاً، ولحجرة الصديقة الطاهرة بابان، أحدهما في الجانب الشرقي، حيث يقع المضجع المبارك بالقرب منه، والثاني في الجانب الشِّمالي، وقد نُقش اسم قايتبای أعلاه، وفي الليل، يقومون بإدخال المصابيح، من خلال هذَّين البابين إلى حجرة الصديقة الطاهرة، ومن ثمَّ، إلى حجرة النبي المباركة.

تَمَّ بناء القبَّة المباركة القائمة على أربعة أعمدة من قَبَل الملك قايتبای في شهر ذي الحِجَّة من عام 888 للهجرة، وقد نُقش اسمه جنب أسطوانة الوفود وخلف المحراب في الروضة المباركة.

الصحن المبارك

يقع الصحن المبارك في الجهة الشِّمالية من المسجد النبوي الشريف، له ثلاثة جدران، وتقام فيه الصلاة، ويقوم على تسعة وثلاثين عموداً في الجانب الشرقي، بانضمام أنصاف الأعمدة المتَّصلة بالجدار، وعلى اثنيْن وخمسين عموداً في الجانب الغربي، مع اعتبار أنصاف الأعمدة، وعلى ثمانية عشر عموداً في الجانب الشِّمالي، ويبلغ عدد الأعمدة جميعها مئتين وأربعة وعشرين عموداً، بمسافة تسعة أقدام ما بين كلِّ عمودين، وتَمَّ بناء منارتين أعلى السقف في زاويتين متقابلتين من الجانب الشِّمالي.

للصحن المبارك باب واحد في الزاوية الشِّمالية كان يُسمَّى قديماً باب التوسُّل، وقد عُرِف بعد إعادة الإعمار من قَبَل السلطان عبد المجيد باسم باب المجيدة.

نُقِشت أسماء الله الحُسْنَى، واسم النبي، وأسماء أئمة الهدى، عليهم السلام، والصحابة، والعشرة المبشرين بالجنة على جدران الصحن. في الزاوية اليمنى من الجانب الجنوبي، كُتبت عبارة: "أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم"، وفي الزاوية اليسرى: "اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر"، وبدءاً من الزاوية اليمنى حتى اليسرى كُتبت: "أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، عثمان ذو النورين، رضي الله عنه، حسن السَّبْط، رضي الله عنه، هو الله الذي لا إله إلا هو، ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، محمّد رسول الله، صلى الله عليه وآله، أشهد بالله، عمر الفاروق، رضي الله عنه، علي المرتضى، عليه السلام، حُسين السَّبْط، عليه السلام"، وفي الزاوية اليسرى من الجانب الشمالي، كُتبت: "أكرموا أصحابي، فإنهم خياركم"، وبعده في الزاوية اليمنى، كُتبت: "نعمان بن الثابت، محمّد بن إدريس الشافعي، أحمد بن حنبل، مالك بن أنس، رضي الله عنه؛" وفي الزاوية اليمنى من الجانب الشرقي، كُتبت عبارات: "أبو الفضل العباس، رضي الله عنه، الزبير بن العوّام، رضي الله عنه، عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، أبو هريرة، رضي الله عنه، زين العابدين، رضي الله عنه، جعفر الصادق، رضي الله عنه، عليّ الرضا، رضي الله عنه، علي النقي، رضي الله عنه، محمّد المهدي، رضي الله عنه"، وفي الزاوية اليمنى من الجانب الغربي، كُتبت: "الحسن العسكري، رضي الله عنه، موسى الكاظم، رضي الله عنه، محمّد الباقر، رضي الله عنه، أسامة بن زيد، رضي الله عنه، تميم بن حبيب الداري، رضي الله عنه، أبو عبيدة الجراح، رضي الله عنه، سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، طلحة الخير، رضي الله عنه، حمزة أسد الله، رضي الله عنه".

توجد وسط الصحن حديقة صغيرة، زرعوا فيها أشجار النخيل والكرّفس، تُعرّف بحديقة السيّدة فاطمة، عليها السلام، وعلى يمينها بئر ماء، يبلغ عمقها خمسة أذرع، تُسقى الحديقة من مياهها.

يوم الاثنين، عاشوراء، قصدتُ زيارة مقبرة حضرة عبد الله والد النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، كانت البقعة الجلييلة على يسار زقاق في سوق الطوال، وجدنا الباب مغلقاً، فانتظرنا إلا أن جاء المتولي. كان الضريح من خشب، والمضجع المبارك مغطى بقماش وردي مطرّز، كانت قد حاكت كسوته والدة السلطان عبد المجيد خان إبان سلطنته. صليتُ ركعتين في المحراب الذي يُفتح عن يساره شباك تجاه الحديقة. خرجنا من البوابة القريبة من الحرم المبارك لزيارة أئمة البقيع، عليهم السلام، لم تكن المسافة بعيدة حتى المقبرة.

مقبرة البقيع

تقع مقبرة البقيع شرق جنوب الحرم الشريف، وفيها عشر بقاع: أولاً: بقعة الأئمة الأربعة، وهم: الإمام الحسن المجتبي، وعلي بن الحسين، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق.

وفي وسط البقعة المباركة مشبكان، يحيطان بالأضرحة الشريفة على مسافة نصف ذراع من الجوانب، تتخللها القضبان المعدنية من جهة الأقدام، وفيهما عشر نوافذ نحاسية، ثلاث منها تُفتح إلى جهة اليمين، والأخرى تتقاطع بها القضبان المعدنية، وفي أعلى الضريح، قبتان فضيتان، جلبوهما من بلاد الهند، وُثرتا زجاجية تتدلى من السقف، أحد المشبكين يضم قبور الأئمة الأربعة، والثاني يضم قبر العباس عم النبي، صلى الله عليه وآله وسلم.

أعيد بناء البقعة على يد محمد علي باشا المصري، وبأمر من السلطان محمود خان في عام 1234 للهجرة.

ثانياً: بقعة رُقِيَّة وزينب أم كلثوم، بنتا رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

ثالثاً: بقعة زوجات النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وهنَّ: عَائِشَةُ بنت أبي بكر، وَحَفْصَةُ بنت عُمر، وَأُمُّ حَبِيبَةَ بنت أبي سفيان، وَأُمُّ سَلَمَةَ بنت أميَّة، وصفية بنت حَيِّ بن أخطب، وزينب بنت جَحْش، وَجُوَيْرِيَّة بنت الحارث، وَرَبِحَانَةَ، وَمَارِيَةَ الْقَبِطِيَّة.

رابعاً: بقعة إبراهيم، نجل النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وتضمُّ قبور: عبد الله بن مسعود، وعثمان بن مَطْعُون، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عَوْف، وسعيد بن زيد، وأخت بن خضاعة⁽¹⁾.

خامساً: بقعة عقيل وسفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن جعفر الطيَّار، وأبي هريرة.

سادساً: بقعة مالك.

سابعاً: بقعة نافع مولى عبد الله بن عمر.

ثامناً: بقعة عثمان ذي النورين.

تاسعاً: بقعة حليلة السعدية.

عاشراً: بقعة أبي سعيد الخُدْرِيّ.

وخلف بقعة الأئمة الأربعة يقع بيت الأحران، وهو بقعة صغيرة، فيها محراب، وإلى اليسار، ضريح خشبي متَّصل بالجدار مَطْلِيٌّ باللون الأخضر، وفي ساحة الضريح حفرة، قيل إنها موضع جلوس السيِّدة فاطمة الزهراء، عليها السلام.

(1) أخت بن خضاعة: لم يُعرَف هذا الاسم من بين صحابة رسول الله، والوحيد المذكور هو أخنس سلمى. (المترجم).

وهنالكَ بقعتان خارج مقبرة البقيع، إحداهما بقعة فاطمة بنت أسد
والدة أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام، والأخرى بقعة صفية وعاتكة
عمّتي النبي، صلّى الله عليه وآله، ولهذه البقعة صحن، يقع يساراً.

ذهبنا أولاً لزيارة الأئمة الأربعة بحالة من الخضوع والخشوع والبكاء،
فسلمنا عليهم، ودعونا لهم، شاكرين الله حامدين بأن هياً لنا شرف
زيارة البقعة الطاهرة تزامناً مع يوم عاشوراء.

كان بوّابو البقعة المباركة يمنعون الناس من الدخول طمعاً بالنقود،
فوعدناهم بالرعاية، وتلاطفنا معهم، وأمرناهم أن لا يمنعوا الحجاج من
زيارة أضرحة الأئمة، فأذعنوا لأوامرنا، وقالوا إنهم بوّابون، وليسوا موظفين،
ولو كانت الحكومة تراعي جانبهم، وتقوم بواجبها تجاههم، لَمَا منعوا
حاجاً من الزيارة، فدخّلهم يتحقّق لهم فقط في موسم الحجّ.

خرجتُ من البقعة المباركة، وذهبتُ إلى بيت الأحران. قرأتُ زيارة
عاشوراء كلّها في ذلك المكان مصحوبة بالدعوات والصلوات، ولأربع
ساعات بقيتُ عن الغروب، عدتُ إلى المنزل، وبعد تناول الطعام،
دخلتُ المسجد المبارك، من باب السلام، فقمّتُ بزيارة النبي، صلّى
الله عليه وآله، بحضور القلب، وصلّيتُ عند أسطوانة أبي لُبّابة.

يوم الثلاثاء، الحادي عشر من مُحرم، جاءني رفعت آغا نائب شيخ
الحرم زائراً، وكان سيّداً موقراً، فجلسنا للحديث متلاطفاً معه، ثمّ تلاه
قاضي المدينة المعزول، وفي أثناء حديثنا، دخل علينا رؤساء السادات
الحُسَيْنِيَّة والموسويَّة والنخاولة⁽¹⁾، وبما أنهم من الشّيعة القاطنين في
المدينة المنورة، فقد وجبت علينا رعايتهم، قدّمنا لهم ثلاث مئة تومان،
يتقاسمونها بالتساوي بينهم، ليُنفقوها في أمر معاشهم.

(1) النخاولة: من أتباع الاثني عشرية، يقيمون تقليدياً في المدينة المنورة، وحولها. (المترجم).

قصدتُ زيارة حمزة سيّد الشهداء، وباقي شهداء معركة أُحُد، فأحضرتِ الحكومةُ اثني عشر فرساً، وثلاثين جندياً، وعشرة من المشاة، واثنين من الهجانة، ومينباشي، ويوز باشي⁽¹⁾، فاجتزنا بؤابة الشام، كان المَحْمَلُ الشامي في طريقنا، فترجّلنا للقاء سعيد باشا في خيمته، واتّفقنا على أن يكون الانطلاق يوم الجمعة حتّى لا نُحرَم من فضيلة الزيارة في تلك الليلة؛ فقبل برأينا، وبعد شرب القهوة والشربات، ركبنا متوجّهين إلى جبل أُحُد.

جبل أُحُد

يقع جبل أُحُد إلى الشّمال الشرقي من المدينة المنورة، وهو جبل غير متّصل، طرفاه الشّمالي والشرقي على بُعد ثلاثة أرباع الساعة من المدينة، والأرض بينهما مستوية، وإلى جانبه جبل السَّلْع الواقع على يسار طريق أُحُد فيما بين شّمال المدينة وشرقها، وهو جبل منقطع، يتّصل جانب منه بسور المدينة، وعلى الجانب الغربي من سفح جبل السَّلْع بُني مسجد الفتح، ويُطلَق عليه أيضاً مسجد الأحزاب. وأعلى الجبل، وبالقرب من جبل السَّلْع وما بين غرب وشّمال الحرَم حصن المدفعية، يشرف من موقعه على الميدان الذي يخيم فيه الحُجّاج الشاميون.

يقع قبر النَّفس الرّكيّة محمّد بن عبد الله بن حسن بن حسن، عليه السلام، في طريق أُحُد، وعلى مقربة من جبل السَّلْع، وثبّيات الوداع تَلان صغيران، يقعان إلى الشّمال الشرقي من المدينة، يتّصل أحدهما

(1) مينباشي ويوزباشي: مفردتان تركيّتان، الأولى بمعنى قائد على ألف من العسكر، والثانية قائد على مئة. (المترجم).

بجبل السَّلْع، وتوجد مصطبة مرتفعة على الطريق إلى أُحُد، يذهبون إليها لزيارة حمزة سيّد الشهداء أَيّام شهر رَجَب، وبعدها عمارات أجلاء المدينة وسادتها.

بعد أن قطعنا هذه المسافة، وصلنا إلى سهل في سفوح جبل أُحُد. قبل وصولنا إلى بقعة سيّد الشهداء، صادفنا ليواناً، يُدخِلنا إلى مقبرة، معالمها واضحة إلا أن شواهد القبور والأسماء لم تكن ظاهرة، دُفن فيها بعض شهداء معركة أُحُد، قرأنا الفاتحة، وواصلنا المسير.

بعد هذه المقبرة، وقُبيل بقعة حمزة سيّد الشهداء بقليل، توجد مقبرة كبيرة، دُفن فيها سائر شهداء المعركة، حولها سور مَطْلِيٌّ باللون الأبيض، قبورها لا شواهد لها أو أسماء، وليس من طريق تُوصِل إليها.

وقعت غزوة أُحُد التي استشهد فيها حمزة بن عبد المطلب سيّد الشهداء على يد الوحشي ابن حرب غلام جبير بن مطعم في السابع من شَوّال للسنة الثالثة للهجرة، كما استشهد مصعب بن عمير حامل اللواء، وعبد الله بن جَحْش شقيق زينب زوجة النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وذكوان الأنصاري، وَحَنْظَلَةَ بن أبي عامر غسيل الملائكة، ونفر آخرون من الشهداء، لم يكونوا معروفين في المدينة.

دخلنا بقعة حمزة سيّد الشهداء المباركة. دخلنا في دهليز، ومنه بلغنا الصحن الذي على يساره يقع الضريح الطاهر، وإلى يمينه ضريح صغير مدفون به رجل، اسمه عقيل، الموقع يشبه ليوانين متداخلين، تتوسطهما مصطبة، تفصل بين الضريحين، وتوجد قَبَّةٌ بمحاذاة بقعة حمزة، قيل إنها مكان استشهاده. قرأتُ زيارة حمزة، وصَلَّيْتُ في محراب البقعة الثانية.

كان الملك أشرف أوّل مَنْ بنى بقعة حمزة المباركة، وعمل السلطان محمود على إعادة إعمارها، ثمّ قام السلطان عبد العزيز بتوسعة الصحن.

بسطوا لنا فراشاً أعلى مصطبة غربي البقعة المباركة، فاحتسبنا الشاي. اجتمع الفقراء، فأحسنّت إليهم، من بعد، ركبنا ومررنا بمقبرة الشهداء الكبيرة، فقرأنا لهم الفاتحة، وقصدنا مسجد الثنايا، وهو المكان الذي كَسَرَ فيه عُتْبَةَ بن أبي وقَّاص ثَنِيَّةَ النبي، صَلَّى اللهُ عليه وآله.

في المسجد صحن صغير، وله قبة، يقع إلى الشَّمَال من بقعة حمزة المباركة. دخلنا المسجد، فصلَّيتُ رَكْعَتَيْنِ في محرابه، وفي بطن الوادي مسجد، قيل إن النبي، صَلَّى اللهُ عليه وآله، جُرِحَ في موقعه، وصلَّى فيه، وذكروا أن المسافة إليه من البقعة الطاهرة تبلغ ثمان مئة وستَّة عشر قَدَمًا، فلم نذهب نحوه لضيق وقتنا.

بعد زيارة الحَرَمِ المبارك ليلاً، جاءني محافظ المدينة أحمد باشا قائلاً: مع أن معالي سعيد باشا كان قد اتَّفَقَ معكم الانطلاق يوم الجُمُعَةِ، إلَّا أنه، وبسبب نقص المؤن والشعير والقشِّ في المدينة، فلا بدَّ من انطلاق المَحْمَلِ الشامي يوم الخميس، فطلبتُ منه الحضور صباحاً مع سعيد باشا، كي نقرِّر وقت الانطلاق، وختمتُ المجلس بهذا الجواب، وانصرف.

صباح يوم الأربعاء، الثاني عشر من مُحَرَّم، حضر المحافظ برفقة سعيد باشا، كي نضرب أجلاً للانطلاق، ونظراً لِمَا كُنْتُ قد شاهدتُهُ من نظم في مخيم المَحْمَلِ الشامي في طريق المدينة، ونيّتنا زيارة بيت المقدس، وما وصفه الحاجّ محمَّد آغا الشيرازي أمين الصُّرَّة، ورئيس الحملة من صفاء طريق الشام وجماله وحُسْنِه، طلبنا من الحاجّ محمَّد

آغا زيادة الأموال المخصّصة، كي نسير بركب المَحْمَل الشامي برّاً وبحراً وصولاً إلى الشام، ومنها إلى بيروت، ثمّ يافة وبيت المقدس.

كان أمين الصُرّة في الحملة الشامية قادر آغا ينوي التعجيل في توفير ما يلزم حركة المَحْمَل الشامي، بسبب خلافه مع الحاجّ محمّد آغا، كي يتلکّأ الأخير، وبالتالي لا يتمكّن من الانطلاق مع المَحْمَل الشامي.

احتج الأوّل بقلّة المؤونة في المدينة، وأشار على سعيد باشا بانطلاق المَحْمَل الشامي مبكراً، وإن كان رأيه لا يخلو من الصواب، من حيث عدم توقُّر المؤونة، بسبب الفوضى الموجودة خارج المدينة، وعدم وصول المؤونة الوافية إليها، وكان المحافظ قد شكّا لي عدم قدرتهم على ضبط الأمور، وقد أبلغناه بأننا سنضع هذا الأمر بين يديّ جلاله السلطان العثماني، ليزيد من إمكانياتكم للقضاء على الفوضى، ولاستتباب الأمن.

كان باستطاعتهم تأجيل الحركة إلى يوم الجمعة، إذ لم أجد أن مؤونة يوم واحد ستكون سبباً لتعجيل الانطلاق.

أرسلتُ بنجلي الأمير أبي النصر ميرزا وبرفقتة المحافظ وسعيد باشا، كي يجلسا مع قادر آغا لإقناعه بالانطلاق يوم الجمعة؛ وبغضّ النظر عمّا جرى بينهم من حديث، فقد نجحنا بتأجيل الحركة إلى اليوم المرغوب، وبعد حصول الاطمئنان، قصدنا مسجد قُبَا قبيل الغروب بخمس ساعات.

مسجد قُبَا

إلى الجنوب من المدينة المنوّرة، وعلى بُعد ميلين يقع مسجد قُبَا،

وفي الطريق إليه، يتوجّب على الزائر أن يقطع وادي رَانُونَاءَ الواقع نهاية المدينة من الجهة الجنوبية، ليدخل من بعد وادي بَطْحَانَ، وهذان الواديان متّصلان بوادي العقيق، وبعده تكثُر الحدائق ومزارع النخيل، ولا يتوانى الأعراب في سرقة حمل النخل الناضج من تلك المزارع.

على يسار مزارع النخيل، يقع مزار بنات النجّار، قيل إن هؤلاء البنات هنّ من قمنَ بتهنئة الرسول وتحيته عند قدومه، صلّى الله عليه وآله، إلى قُبَا، وقد أمر عليه الصلاة والسلام ببناء المسجد حين جاء إلى هذه الناحية، والآية الكريمة: (لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى) ⁽¹⁾ نزلت بشأنه.

للمسجد صحن، في وسطه بناء ذو أربعة أقواس، وهي موضع إناخة ناقه النبي، صلّى الله عليه وآله، وهنالكَ محراب جنوبي البناء، نزلت فيه الآية السابقة، وقُبَالته بئر منسوبة إلى أبي أيُّوب الأنصاري.

يقع المسجد يمين الصحن، وفيه ثلاثة أعمدة في العرض، وله محراب في الجانب الجنوبي، ومحراب آخر مع انتهاء الجدار الجنوبي، يُسمّى طاقة الكشف، وقد كُتبت العبارة أعلى المحراب، قيل إن الكعبة انكشفت لهم من هذا الموضع، فاستقبلوها في صلاتهم، وكُتبت على أحد جدران المسجد الحديث النبوي: "مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَا، فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً، كَانَ لَهُ أَجْرُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ".

دخلتُ المسجد حافياً، فصلّيتُ في المحراب، وفي طاقة الكشف، وفي محراب نزول الآية، ثمّ قمتُ بتجديد الوضوء من بئر أبي أيُّوب الأنصاري، فتذكّرتُ هذا البيت من الشّعْر لعبد الرحمن بن الحَكَم:

(1) قرآن كريم، سورة التوبة، الآية (108).

فإنَّ أهلك، فقد أقررتُ عينا من المعتمرات إلى قُبَاء⁽¹⁾

وقد زرنا الأماكن المتبرِّك بها حول مسجد قُبَا، وصلَّينا فيها:

أولاً: بيت أمير المؤمنين علي، عليه السلام، وله بقعة على يسارها رَحَى موضوعة في ساحة صغيرة، قيل إنها رَحَى السيِّدة الصديقة الطاهرة عليها السلام.

ثانياً: بيت الصديقة الطاهرة، عليها السلام، وهو واقع خلف بيت أمير المؤمنين، وله ساحة مختصرة، تدخل من خلالها إلى البقعة، وفي وسط البقعة محراب.

ثالثاً: بئر كان قد سقط فيها خاتم النبي، صلَّى الله عليه وآله، وقد بنوا مسجداً صغيراً في ساحة فاتحين نافذة من المسجد تجاه البئر.

رابعاً: بئر تدخلها المياه المالحة والعذبة من جانبيْن، وتختلط بداخلها، وقيل حين تخرج المياه الممزوجة من أعماق البئر، وتتَّجه نحو المدينة، تنفصل عن بعضها، وتتَّخذ كلُّ منها مجرى على حدة.

تمتَّع قُبَا بأنواع الحمضيات الممتازة، فجاؤونا بقليل منها، كان النارج أكبر من نارنج شيراز في الربيع.

عدتُ مساءً إلى المدينة، وذهبتُ إلى الحَرَم الشريف، وكنتُ قد أطلعتُ معالي شيخ الحَرَم على قدومي للروضة المعطَّرة عند الساعة الحادية عشرة، فجئتُ بشمعدانين كبيرين من الفضة، كنتُ قد جلبتُهما معي من طهران مخصَّصتان للمسجد، فسلمتُهما له.

أحضروا لي عِمَامَةً بيضاءَ ورداءَ، ارتديتُهما، ودخلتُ من باب حجرة

(1) ويليه البيت: من اللاني سوافهن غيد عليهن الملاحه باليه. (المرجم).

الصديقة الطاهرة بكلّ خضوع وخشوع، برفقة شيخ الحرّم، ونجلي أبي النصر ميرزا، واثنيّن من الأعوات، اسمهما سالم آغا، وقادر آغا.

بعد زيارة السيّدة الصديقة، دخلتُ حُجرة النبي المنوّرة، فأشعلتُ شمعداناً، وقام شيخ الحرّم بإشعال الآخر، وكُنّا كلانا واقفين كأدنى الغلمان في حضرة ملك معظم، ثمّ قمنا بوضع الشمعدانين في مكانهما، ووقفنا بمنتهى الأدب منشغليّن بالاستغائة والاستغفار، وصلّينا على روح أشرف الكائنات، وخلاصة الخلق، ثمّ سجدتُ، وقبّلتُ تراب البقعة الطاهرة، فخرجتُ على أمل أن تُقبل زيارتي عند حضرته وروضته الشريفة، وتذكّرتُ بيت الشعّر القائل:

حاشاهُ أن يحرمَ الراجي مكارمهُ أو يرجعَ الجارُ منه غيرَ مُحترم⁽¹⁾

ثمّ قرأتُ هذه المنظومة أمام الضريح المبارك:

يا سيّد الكون، ويا إمام الأنبياء
وإن كنتَ خاتم المرسلين، فأنتَ أوّل الأحبّاء
تأخّرتَ في زمنك، وتقدّمتَ في منازلك
فأنتَ نبيُّ الرحمن قبل خلق الأولياء
دخلَ نورك في صلبِ آدم صار مُكرّماً
واتّصلتْ أرواحُ المرسلين بنورك، فصاروا عظماء
اجتمعتْ أنوارك القدسية في ذاتِ بنتك الزهراء
واقترنتِ الزهراءُ بعليّ، فاقترنَ نورُ عليّ بالصفاء
انبثقَ منهما أحد عشر كوكباً
نور على نور، فكلُّهم أولياء
وعرّجتَ بجسمك من الثرى إلى الثرى

(1) البيت من بُرّدة البوصيري، وهو مكتوب على قفل الحجرة النبوية من الداخل. (المترجم).

تَخَطَّيْتَ جَبْرِيْلَ وَالْبُرَاقَ وَالْأَنْبِيَاءَ
وَسَمَوْتَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى
فَابْتَهَجَ الْعَرْشُ بِقُدُومِ هَذَا الْبِهَاءِ
تَحَقَّقْتُ لَكَ الْمَعْجَزَاتِ
فَلَمْ يَنْدُ نَبِيٌّ مِثْلَمَا وَهَبَكَ رَبُّكَ مِنَ الْآلَاءِ
أَنَا الْعَبْدُ الذَّلِيلُ لَمْ أَطْلُبْ سِوَاكَ مُرَادَا
أَحْرَمْتُ، وَقَصَدْتُ الْبَيْتَ بِجِسْمِ هَزِيلٍ وَقَدَمَ ذُو إِعْيَاءِ
وَأَتَيْتُكَ جَاعِلًا مَسْجِدَكَ لِي بَعْدَهُ قِبْلَةً
بَاكِيًا طَالِبًا شَفَاعَتِكَ بِمُنْتَهَى الرَّجَاءِ
تَمَرَّغْتُ فِي سَاحَةِ حَرَمِكَ، وَلَيْسَ بَعْدَهُ مَنْزِلَةٌ

فَطَلَعَ نَجْمٌ سَعْدِي مَبَارِكًا زِيَارَتِي وَالِاتِّقَاءِ
ضَاعَ عُمْرِي بَيْنَ الصَّالِحَاتِ وَالْخَطَايَا
وَأَنْتَ طَرِيقُ الْحَقِّ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَرُوحِي لَكَ فِدَاءِ
جُنْتُكَ أَنَا الضَّعِيفُ ضَارِعًا
بَعْدَمَا انْقَضَى عُمْرِي، وَلَمْ أَنْلِ الْلِقَاءِ
أَكْرَمَنِي اللَّهُ الْيَوْمَ بِالسَّلَامِ عَلَى حَضْرَتِكَ
وَهَلْ لِي مِنَ الْعُمْرِ ثَانِيَةٌ بَأَنَّ أَسْعَدَ زِيَارَتِكَ؟
فَأَنْتَ الشَّفِيعُ لِكُلِّ مَنْ بَكَ اقْتَدَى
وَأَنْتَ نَبِيُّ الْأُمَّةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهُدَى
فَاشْفَعْ لِي كُلَّ مَا بَطْنُ وَبَدَا
وَحَبَّبَ الْمَلِكُ الْمَجَاهِدَ⁽¹⁾ بِي، عَسَى أَنْ يَحْنُو عَلَيَّ،
وَيَرْضَى⁽²⁾.

(1) ناصر الدِّين شاه. (المترجم).

(2) أصل الشُّغْرُ بِاللُّغَةِ الْفَارْسِيَّةِ. (المترجم).

وعند خروجي من المقام الشريف، طلب مني معالي شوكت بيك شيخ الحرَم أن يستأذن جلالة السلطان العثماني بشأن إشعال الشمعدائِن اللذَيْن أهديتُهُما، فكتبتُ رقعة بالنصِّ الآتي، وسلَّمْتُها له:

"كتابي إليك، يا صاحب الرتبة العلية، وذو السعادة والشوكة السنية، الشفيق المكرم، والصديق المعظم، شيخ الحرَم المحترم - دام مجده -، إني أهديتُ إلى القبة المقدسة المباركة التي كانت الشمس لمعة من لمعات سنائها، والقمر منيراً من نورها وضيائها، شمعدائِن من الفضة، وزنهما أربعة آلاف مثقال، ورجائي منك أن تضعهما في هذا المقام المتعال، لئبيرا في الليالي، ويكونا هديتين مني في هذا المقام الشريف الطاهر العالي، وإن الهدايا على مقدار مُهديها"⁽¹⁾.

يوم الخميس، الثالث عشر من مُحَرَّم، ذهبتُ مساءً إلى البقيع لزيارة بقاع الأئمة الأربعة، وبقاع عمات النبي، صلى الله عليه وآله، وبناته، وزوجاته، وبقعة عقيل، وحليمة السعدية وغيرهم، وبعد أن قرأتُ الفاتحة، رجعتُ من خلف المقبرة سالكاُ الزقاق، فدخلتُ من البوابة، وذهبتُ يساراً لزيارة مقبرة إسماعيل بن جعفر الصادق؛ ثمَّ قصدتُ بيت الإمام زين العابدين، عليه السلام.

لم يتبقَّ من بيت ذلك الجليل سوى ليوان ومحراب، وبئر ماؤها مالح، تقع يسار البيت، يقال إن هذه البئر هي التي كان قد سقط فيها الإمام الباقر، عليه السلام، إبان طفولته، وكان والد الإمام منشغلاً بالصلاة، وقد أخرجهُ من البئر سالماً بعد فراغه من الصلاة، فعدتُ من هناك إلى المنزل.

ليلة الجمعة، اغتسلتُ، وذهبتُ للمسجد المبارك، قرأتُ دعاء

(1) كتب حسام السلطنة هذا الكتاب باللغة العربية. (المترجم).

إذن الدخول والزيارة، والزيارة الجامعة عند أسطوانة أبي لُبَابَةَ، ثُمَّ أُدِيَتْ الصلاة، وقرأتُ ما تيسَّر من القرآن، مكثتُ معتكفاً لسبع ساعات ونصف مضيّن من الليل. وقفتُ على نافذة مناجياً الله بما في قلبي، وخرجتُ من باب السلام، وكان المطر يهطل بغزارة، فامتلأت الأرزقة بالوحد.

كان الحاجُّ مُلاً باقر التركي حاضراً في المسجد، أعطيتُهُ مسوِّدة، فيها أسماء بعض الأحاب والأقرباء، كلَّفْتُهُ بزيارتهم نيابة عني.

وبما أننا سننطلق غداً باتجاه الشام، سأدوّن لكم ما ذكرتُ من متعلّقات المدينة المنوّرة لئلا تُترك.

آبار المدينة

في المدينة المنوّرة سبع آبار تبرّكت من وجود النبي، صلّى الله عليه وآله، إمّا بالوضوء، أو بإلقاء رُضَابِ فمه فيها، وقد جُمعت أسماءؤها في هذَيْن البيتين:

إِذَا رُمْتَ آبَارَ النَّبِيِّ بِطَيْبَةٍ فَعِدَّتْهَا سَبْعُ مَقَالٍ بِلا وَهِنِ
أَرِيْسُ وَغَرْسُ رِومَةٍ وَبِضَاعَةٌ كَذَا بُصَّةٌ قُلِّ بِئْرَ حَاءٍ⁽¹⁾ مَعَ الْعَهْنِ⁽²⁾

وكل هذه الآبار تقع حول مسجد قُبا ما عدا بضاعة الواقعة عند بوابة الشام، وحاء في وسط المدينة.

(1) ذكره السمهودي، وهو يعود لأبي طلحة الأنصاري الذي كان من الأثرياء، وحينما نزلت الآية: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ). قال للنبي، صلّى الله عليه وآله: إِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بِيْرَ حَاءٍ، فَجَعَلَهُ صَدَقَةً. انظر: وفاء الوفاء، ج 3، ص 961. (المترجم).

(2) ذكر السمهودي في الوفاء، ج 1، ص 977-978، معلومات عن بئر العهن، تفيد القارئ في تحديد موقع البئر. (المترجم).

مسجد المدينة المنورة

في المدينة المنورة عشرة مساجد، أخذت شهرتها من أن النبي،
صلى الله عليه وآله، صلى في محاريبها:

أولاً: مسجد قُبا الذي سبق ذكره.

ثانياً: مسجد مشربة مارية القبطية⁽¹⁾ أم إبراهيم، ويقع جنوب شرق
المدينة، وهو مسجد صغير، تمّ بناؤه باستخدام الأحجار السوداء، وقع
سقفه، وتهدمت منه ثلاثة جدران ما عدا حائط جهة القبلة، قيل إن
النبي، صلى الله عليه وآله، حينما غضب من زوجاته اتّخذ مسكناً.

ثالثاً: مسجد الفضيخ، وموقعه جنوب المدينة بين مسجد قُبا
ومسجد مشربة مارية، وهو مسجد طويل، له صحن، وعليه سياج من
حديد، قائم الجدران، وسقفه متهدّم.

رابعاً: مسجد الفتح.

خامساً: مسجد الإجابة.

سادساً: مسجد القبليتين.

سابعاً: مسجد الفسح.

ثامناً: مسجد العمامة الذي يُسمّى بالمُصلّى أيضاً، ويقع جنوب
غرب المدينة.

(1) مشربة أم إبراهيم، هو موضع في أعالي المدينة، وعلى مقربة من الحرة الشرقية، كان النبي
قد أسكن زوجته مارية هنالك، وكانت محبوبة عند النبي، صلى الله عليه وآله، وكما نقل
السمهودي، أصبح هذا الموضع فيما بعد تحت تصرف سلالة الإمام الهادي، عليه السلام.
انظر: وفاء الوفاء، ج 3، ص 826. (المترجم).

تاسعاً: مسجد أبي ذرٍّ، ويقع خارج السور القديم، لا سقف له، وقد فتحوا له باباً في الجدار من جهة الزقاق.

عاشراً: مسجد أبي بن كعب، ويقع في البقيع قريباً من باب المقبرة. ورد ذكر بعض المساجد دون اقتران أسمائها بالوصف الدقيق لمواقعها وحال بنائها، بسبب عدم مشاهدتها، لعدم تسني الوقت لزيارتها، فاقترنت معرفتنا على الاسم.

جبال المدينة

في المدينة المنورة وحولها سبعة جبال مشهورة، فكلُّ من جبلي أحد والسَّلْع قد مرَّ ذكرهما، وهما جبلان متجاوران، يليهما جبل وَعَيْرٌ، وهو جبل منقطع ممتدُّ من الشَّمال إلى الجنوب، يقع في جهة الغرب على بُعد فرسخ ونصف من المدينة، وقُبالة جبل وَعَيْرٍ، وعلى مسافة نصف فرسخ، يقع جبلاً جَمَاءَ الصغرى الذي يتصل بمسجد الشجرة، وجَمَاءَ الكبرى، وهما جبلان منقطعان، يمتدَّان إلى الغرب والجنوب، وأخيراً نذكر جبلي الأصغرَيْن، واسمهما يدلُّ على حقيقتهما، فهما صغيران ومنقطعان، ويقعان بين جنوب المدينة وغربها.

حَرَّةُ المدينة

في منطقة المدينة المنورة حَرَّتَانِ شهيرتان، الأولى حَرَّةُ بني قُرَيْظَةَ الواقعة بين مشرق المدينة وجنوبها، الثانية حَرَّةُ بني النضير فيما بين جنوب المدينة وغربها.

قيل إن قَتلاً جماعياً حدث في الحَرَّة، وقبور الشهداء شاهدة على الواقعة والمكان، ويوم حَرَّة⁽¹⁾ مشهور ومعروف.

الخدق الشهير

لم يعد الخدق الآن ظاهر المعالم، فقد غدا منطمساً بالتراب، ومن حيث وصفه ومكانه، فهو يمتدُّ طولاً من أعلى وادي بَطْحَانَ، أي من الشَّمَال إلى الجنوب، ومن شرقه، يقع جبل السَّلْع، والحَرَّة إلى الغرب منه.

وادي العقيق

موضع وادي العقيق ما بين المدينة والفرع التي تقع إلى الجنوب من المدينة على مسيرة أربعة أيَّام، وممَّا قيل في الوادي شِعْراً:

يا صاحبي هذا العقيقُ فقفْ به مُتوالياً إن كنتَ لستَ بواله⁽²⁾

يوم الجُمعة، الرابع عشر من مُحَرَّم، وقبل أن تتوجَّه من المدينة المنورة إلى الشام، يَمَّمْتُ وجهي صباحاً المسجد النبوي الشريف، فقرأتُ زيارة الوداع بكلِّ حسرة وتأوُّه، ثمَّ توجَّهْتُ لزيارة أئمة البقيع. فتحتُ الباب بمنتهى الخضوع والخشوع، وزرَّتُ قبور الأئمة الأربعة، عليهم السلام،

(1) وقعت وقعة الحَرَّة عام 63 هـ بين أهل المدينة من جهة يزيد بن معاوية والأمويين من جهة أخرى، وسببها أن أهل المدينة نقضوا بيعة يزيد بن معاوية لِمَا كان عليه من سوء، ولِمَا حدث في معركة كَرْبَلَاء من مقتل الحُسَيْن بن عليٍّ، فطردوا عثمان بن محمَّد بن أبي سفيان والي يزيد على المدينة ومَن معه من بني أمية من المدينة، فأرسل يزيد على إثرهم جيشاً من الشام، وأمر عليهم مسلم بن عقبة المري، فوقع الحرب، وانتهت بمقتل عدد كبير من الصحابة وأبناء الصحابة والتابعين. (المترجم).

(2) شِعْر ابن الفارض. (المترجم).

والعبّاس عمّ النبي، صلّى الله عليه وآله، وشكرتُ الله، فحمدتُه على ما أنعم عليّ من السعادة؛ وعدتُ إلى المنزل، لأجهّز أسباب الحركة.

حضر نصير المُلْك، وعبد الحُسين خان، وكان لي حديث معهما، كما حادثهما الشريف عبد المنعم الذي رافقنا من مكّة، ممّا أحررنا انطلاقنا بعضاً من الوقت، كما جاءنا مودّعاً كلُّ من محافظ المدينة، والسيد صلاح الدّين، والسيد حسن، وكمال بيك نائب محمّد خان القنصل، ومينباشي.

خرجتُ أوّل الليل من بيت السيّد صافي، واعتليتُ الهودج، فانطلقنا متّجهين صوب الشّمال، وبعد مضي ساعة من الليل، وعلى بُعد فرسخ، بلغنا بئر عثمان الذي يقع إلى جهة اليسار، وقد أُقيم فيه مسجد بليونين هلالين، ومشروع من الجانبين، وموقع المخيم غير بعيد.

يوم السبت، الخامس عشر من محرم، انطلق المَحْمَل الشامي على النحو الذي أسلفنا ذكره، وتبعناهم بخيلنا وإبلنا والجمع المرافق لنا. تغيّرت جهة الحركة إلى الشّمال الغربي، والطريق في معظمه مُستوٍ ومُحاطٍ بالجبال من اليسار واليمين.

في بعض المواضع، كان يتّسع الطريق بين الجبلين، وأحياناً يزداد ضيقاً، قطعنا مسافة خمسة فراسخ في إحدى عشرة ساعة، فبلغنا بئر الجبّري قبل ساعتين من الغروب، الاسم لا ينطبق على المُسمّى في هذا المنزل، فالبئر لم تغدو أن تكون غديراً تتجمّع فيه الأمطار، وليست بئراً محفورة، فكانت المياه عكّرة، تكثر أشجار الأثل في هذا المنزل، والحجّاج أشعلوا الحطب أمام خيامهم للاستدفاء، وحين الظهر، حان وقت الصلاة، فأقاموا لي خيمة، صلّيتُ داخلها.

أصابني ألم في البطن ونحن في الطريق، واستمرَّ حتَّى هذا المنزل؛ ومن شدَّة الألم لم أستطع الترجُّل عن الهودج حينما وضعوه على الأرض، فمكثتُ جالساً عليه قُبالة الخيمة حتَّى الغروب، بعد التدواي والإمساك عن الطعام تعافيتُ، فترجَّلتُ من الهودج، وطفتُ حول الخيام. لم يكن الجوُّ بارداً كثيراً.

يوم الأحد، السادس عشر من مُحَرَّم، انطلقت الحملة مع مطلع الفجر، فسِرنا خلفهم، وكانت الحركة نحو الشَّمال، والمسافة سبعة فراسخ. الطريق محاطة بالجمال حتَّى المنزل الواقع قبل الميدان، مع بداية مسيرنا، كانت الدرب مستوية ليَّنة، ثمَّ أمست وَعِرة، تتبعثر فيها الحجارة، بلغنا المنزل قبل أن يحين وقت صلاة المغرب بثلاث ساعات.

علينا أن نضرب الخيام اليوم في منطقة بئر نسيف⁽¹⁾، والاسم مأخوذ من نسف الريح شديدة الهبوب التي تثير الغبار، ممَّا جعلنا نجتاز الموقع تجنُّباً لأثر الرياح، فسِرنا لساعتين، ونزلنا في صحراء، اجتمعت فيها مياه أمطار الليلتين الماضيتين، في غدير لم تركد بعد، لتصفو، فلا هي للشرب ولا لإعداد الشاي، وكان بعض الحُجاج يَعْبطون أولئك الذين ملؤوا قَرَبَهُم من بئر عثمان.

الجوُّ في هذا المنزل معتدل، وحُجاج مدينة رشت⁽²⁾ قد أقاموا مجلساً لذكر مُصاب أهل البيت. أصبتُ بالزكام، وشعرتُ بالإعياء، فخلدتُ إلى النوم في أوَّل الليل، ولم أفقُ حتَّى العشاء. جاءني معالي الحاج ميرزا يوسُف آغا متفقداً، فأبقيته عندي، وجلسنا للحديث معاً.

يوم الاثنين، السابع عشر من مُحَرَّم، غادرنا المنزل عند الطلوع، سرنا

(1) لم نعثر على بئر بهذا الاسم، ولعلَّ المقصود هو بئر نصيف. (المترجم).

(2) رشت: مدينة شَّمال إيران على ساحل بحر قزوين. (المترجم).

لإحدى عشرة ساعة حتى بلغنا المنزل قبيل الغروب بساعة، كانت الطريق خلال الساعة الأولى من المسير مليئة بالأشواك والروابي الترابية، بعد أن اجتزناها مررنا بثلاثة جبال، ظهرت على الترتيب إلى يسارنا، فتخطيناها. عندما بلغنا قمة الجبل الأول، أمست الأرض حجرية. وبعد ساعة، وصلنا الجبل الثاني، فصارت الأرض حصوية، وأصبحت الطريق تضيق بين جبال اليمين واليسار، وبعد نصف ساعة، بلغنا الجبل الثالث، فأتسعت الصحراء أمامنا، وأخذتنا الحركة نحو الشمال الغربي.

ترأت لنا من بعيد معالم قلعة عنترة في أعالي جبل مرتفع، تبعد عن الطريق وإلى جهة اليسار خمسة فراسخ، تم بناؤها بشكل مستطيل على قمة الجبل، وتسمى إسطل عنترة، لم يبقَ منها سوى جدار في أحد جوانبها، عنترة من شجعان العرب، وقد قُتل على يد أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام، لذلك قيل له قاتل عمرو وعنترة⁽¹⁾. مررنا من محاذة القلعة قبيل الغروب بساعة، ثم اقتربنا من قمة جبل آخر، فعبرنا من بين الجبلين.

ضربوا الخيام في صحراء شاسعة شحيحة المياه، مياه الأمطار المجتمعة في الغدران عكرة. لقد قضى الحجاج ليلة صعبة لشح المياه إلا من تزود من المنازل السابقة.

لم تكن هذه الصحراء منزلاً من قبل، لكنها أصبحت كذلك لقربها، كان الجو معتدلاً، لا حرّاً ولا قرّاً، إلا أنه ولبعد المسافة حتى المنزل التالي، نادوا في مخيم المحمل الشامي أن الانطلاق بعد سبع ساعات يمضين من الليل.

(1) عنترة الذي غالباً ما يُذكر في الأشعار الفارسية إلى جانب عمرو بن عبد ودّ، هو عنترة بن شدّاد بن عمرو بن معاوية، من فرسان العرب، وأشهر شعرائها، وقد وافته المنية قبل الهجرة باثنين وعشرين عاماً، فلا صلة له بزمن أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام. (المترجم).

يوم الثلاثاء، الثامن عشر من مُحَرَّم، كُنَّا نسير ليلتنا كُلَّهَا حَتَّى الصَّباح، وواصلنا المسير دون توقُّف طول الطريق إلَّا في موضعَيْن لأداء صلاتي الفجر والظهر، غالباً ما كان اتِّجاه الحركة نحو الشَّمال الغربي.

جُلُّ الطريق كانت مستوية إلَّا في عدد من المواضع حين تقترب جبال اليمين من اليسار، تخلَّلناها، وبلغنا صحراء شاسعة، كانت حصوية وصخرية تارة، ومليئة بالأشواك تارة أخرى، غير أن أشواكها أصابها الطَّلُّ، فَلانَتْ، وعلى يسار الطريق، رأينا تلالاً مرتفعاً مخروطي الشكل، ترابه ناعم، كأنه مُنخُل، تكدَّس فوق بعضه. قبل الوصول بساعتَيْن، أصبحت الطريق صخرية وَعِرة، وفي هذا الوقت، كُنَّا في منطقة هدية التي كانت منزلاً قبل المنزل الذي تتوجَّه إليه، وقُبيل الغروب بساعة، بلغنا حَدْرَةَ، والحَدْرَةَ في اللغة بمعنى الهبوط من أعلى إلى أسفل، فبوصولنا لهذا المنزل، هبطنا من الأرض العالية إلى الأرض المستوية، وصارت بيننا وبين حصن خَيْبَر ستَّة فراسخ.

كُنَّا نسير من البارحة حَتَّى الآن لستَّ عشرة ساعة مع أوقات الصلاة، أقاموا المخيِّم على سفح الجبل بالقرب من الأشجار، وتكثر الأشواك في المنطقة. كانت الأرض مخضرة، وتجمَّعت في مجاري السيول مياه أكثر صفاءً من مياه المنازل السابقة، مررنا على يمين الطريق بقلعة مهدِّمة، بالقرب منها بركة، لم نحطْ رِحَالنا عندها لجفافها، جرى سيل هادئ في هذا المنزل قُبيل الصَّباح، وكانت مياهه صافية عذبة، فقام الحُجَّاج بملء القَرَب.

يوم الأربعاء، التاسع عشر من مُحَرَّم، انطلقنا قُبيل الطلوع بنصف ساعة متوجَّهين تلقاء الشَّمال الغربي. كانت في طريقنا ستَّة مضيقَات، من بداية انطلاقنا وحَتَّى نصف ساعة من المسير كانت الطريق محاطة

بالجبال، وغير مستوية، لكنها لم تكن صخرية حصوية، بعدها واجهتنا طريق ذات صخور صغيرة، بعد ثلاث ساعات، صادفنا المضيق الأوّل، ومن بعده بلغنا وادياً شاسعاً أراضيّه مستوية، ثلثا طريقه صخرية، والثلث الآخر رملية، وبعد ساعتين، وصلنا إلى المضيق الثاني، فظهرت أمامنا هضبة فسيحة محاطة بالجبال، وعلى مسافة خمس عشرة دقيقة من هنا، وصلنا إلى المضيق الثالث الذي تكثرت فيه المنحدرات والمرتفعات، ثمّ دخلنا سهلاً ذا صخور سوداء، وبعد ساعة وخمس وأربعين دقيقة، وصلنا إلى المضيق الرابع، ينساب منه سهل شاسع، وبعد ساعة ونصف، بلغنا المضيق الخامس الذي ينبعث عنه سهل واسع، تحيطه الجبال. قبيل الغروب بساعتين، وصلنا المنزل الواقع بداية هذا المضيق، والذي يُسمّى البلاءة، ومعنى الاسم في اللغة البئر ضيق الفؤّهة، يجري إليه ماء المطر، لكن البئر وبركة قريبة منها كانتا جافّتين، المياه التي تزوّد بها الحُجّاج من المنزل السابق كانت كافية.

كثر في طريقنا شجر الأراك الذي تُؤخذ منه المساويك، وانتشرت عشبة سنّا مكّي، فقطف الحُجّاج منهما.

يوم الخميس، العشرون من مُحرم، انطلقنا حين طلوع الفجر باتجاه الشّمال الغربي، الطريق مستوية، ومحاطة بالجبال، قليلة المرتفعات والمنحدرات، في بعض المواقع، كانت أراضي اليمين تقترب من الطريق، قبل الغروب بخمس ساعات، بلغنا المنزل الذي أخذ اسمه من بئر جديدي المحفورة حديثاً، أقاموا الخيام على مقربة من الجبال الشرقية.

استمتع الحُجّاج في هذا المنزل غاية الاستمتاع، لوفرة المياه العذبة، والبضاعة المختلفة التي لاقت رواجاً عندهم، والأطعمة المتنوّعة، والخراف التي كانت الأعراب قد عرضتها للبيع.

كان السلطان سليم قد بنى حصناً صغيراً، تتخلّله بعض الغرف جنوب غرب هذا المنزل، وفوقه مهتابي⁽¹⁾، فيه شرفات مسيَّجة مكشوفة السقف للجلوس ليلاً، وقد قام إبراهيم باشا المصري بإعادة بنائه.

يبلغ طول الحصن عشرة أذرع، ومن ناحيته اليسرى، جُنَيْنة مستطيلة الشكل من حولها سياج، زُرعت فيها نخلتان كبيرتان، وبابه يُفْتَح جهة الشرق، وإلى جهة الشِّمَال بركة كبيرة، تملأ من ماء البئر الواقعة وسط الحصن، مدُّوا سياجاً حول البركة، وقاموا بتوفير ما يلزم لسحب الماء بالدلاء التي تُدلى إلى قَعْر البئر، ثم تُرْفَع بواسطة الحيوانات التي تدور، لتُحَرِّك الدواليب، وتصبَّ في حوض، يندفع منه مجرى، يُوصِل المياه إلى البركة حتَّى تمتلئ، وفي الجانب الغربي قام إبراهيم باشا بحفر بئر كبيرة.

يختلف عدد حُرَّاس الحصون الواقعة على طريق الشام من حصن لآخر، ففي حين يكون خمسة أشخاص في أحدها، تجد عشرة عساكر في غيره، وبعضها الآخر بلا حراسة.

يوم الجُمعة، الحادي والعشرون من مُحَرَّم، انطلقنا بعد مضي ساعة ونصف الساعة من الدسطة، وسرنا لسبع ساعات، في البدء، كانت حركتنا نحو الجنوب، ثمَّ تحوَّلت إلى جهة الجنوب الغربي، وقد اجترينا أربع عقبات.

بلغنا العَقَبَةَ الأولى بعد ساعة وثلاثة أرباع الساعة، وكانت ذات منحدرات ومرتفعات، وقد استغرق عبور ممرِّها ثلاثة أرباع الساعة، بعد أن اجتريناها، أصبحت الحركة تلقاء الغرب، وصارت الطريق ضيّقة، إذ

(1) مهتابي: تعني باللغة الفارسية غرفة مكشوفة، تشبه الليوان، غير مسقوفة، مغلقة من جهات ثلاث، ومفتوحة من الجهة الرابعة. (المترجم).

اقتربت جبال اليمين من اليسار، ثمَّ اتَّسعت بعد مسير نصف ساعة، فلاح لنا العَقَبَة الثانية التي لم تكن تضاريسها حادَّة جدًّا، ثمَّ أصبحت الطريق مستوية وصخرية، سرنا لربع ساعة، فاقتربت الجبال من بعضها أكثر من ذي قبل، وبعد مسير ساعة، ظهرت لنا العَقَبَة الرابعة⁽¹⁾، وكانت طريقها صخرية.

حركتنا تتَّجه صوب الجنوب الشرقي؛ وبعد أن بلغنا المنحدر، دخلنا في مضيق سيستغرق عبوره ثلاثة أرباع الساعة، إلى جهة الغرب، تقع قلعة، يُفْتَح بابها نحو الشرق، وبمحاذاتها بئر، يطلقون عليها اسم زُمُرْد، لأن مياهها خضراء آسنة، وعلى يسار القلعة، بركة تجمَّعت فيها مياه الأمطار، مياهها نقية، لكنها ضئيلة، لا تكفي المخيم بأسره.

شاهدنا في هذا المنزل فاكهة، تُسمَّى لوز النبي، تضاهاي اللوز الرطب ذا الجلد الأخضر، عندما تقوم بتقشيره، يظهر لُبُّه وكأنه وردة مُورقة، تحمل كلُّ ورقة حبة ملتصقة بها، لون اللبِّ أبيض، وهو فَجٌّ، وأصفر إذا نضج، وإذا تُرك بعد فتحه اسودَّ.

يوم السبت، الثاني والعشرون، بعد تسع ساعات مضيئة من الليل، غادرنا بئر زُمُرْد، باتجاه الشَّمَال، أراضى هذه الطريق مستوية وغير شاسعة، وتحيطها الجبال من الجانبين.

وقفنا وقت صلاتي الصبح والظهر. كان الجوُّ بارداً مصحوباً بالرياح، قبيل المنزل بفرسخ، أصبحت الأرض أكثر استواءً واتَّساعاً، لون التراب في هذه المنطقة يضرب إلى الصفرة، وعلى مقربة من المنزل، ضاقت الطريق بين الجبال، مررنا بمحاذاة جبل مخروطي الشكل أفضى بنا بعد ساعة ونصف إلى المنزل الجديد.

(1) لم يأت صاحب الرحلة على ذكر العَقَبَة الثالثة. (المترجم).

وصلنا سهل المطران، وآخرون يُطلقون عليه اسم مرتع، فأقاموا المخيم في الخلاء على سفح الجبل، ومنزلنا الذي كان علينا الوصول إليه يُسمى بئر الغنم، يقع إلى جهة اليمين، وعلى مسافة فرسخ، لكن، وبسبب الجهد الذي لحق بنا، إذ سرنا أربع عشرة ساعة اليوم وليلة البارحة، ولطبيعة المكان الصحراوية ذات الرمال الناعمة التي يصعب على الإبل السير بها، تركناه إلى هذا المكان، ولو كانت قد أمطرت السماء، لتلبّدت الرمال، وصار العبور ممكناً، بعد أن حللنا في المكان نزل المطر، وعمّا قريب توقّف.

يوم الأحد، الثالث والعشرون من مُحرم، انطلقنا بعد تسع ساعات مضت من ليلة الأحد، فضربنا بسيرنا جهة الشّمال الغربي، والطريق أماننا مشتمل على سبعة مضائق، بعضها أكثر اتساعاً من البعض الآخر، المدّخل إلى بعضها من جهة اليسار، وأخرى ندخلها من جهة اليمين، المضيق السابع كان مضيقاً صخرياً مليئاً بالصخور الصلدة.

بعد خروجنا من المضيقات، دخلنا صحراء شاسعة، يحاذيها من بعيد جبل على امتداد الغرب، وتترأى على مرمى البصر في جنباتها عدّة جبال صغيرة ومتقطّعة مختلفة الأشكال، بعد مسير ثلاث ساعات ونصف من بداية الصحراء وقُبيل الغروب بساعتين، بلغنا مدائن صالح.

كان سهل مدائن صالح شاسعاً، يحيط به من الغرب جبل بشكل شبه دائري، اعتلته قلعة صغيرة، أمامها ثلاث شجرات نخيل سامقات، وبمحاذاتها أربع شجرات صغيرات، وتتوسّط القلعة بئر، وخارجها بركة، تزوّد من مياه البئر ذاتها، ويوجد ضريحان أمامها، كُتب على شاهد القبر الأوّل اسم الحاجّ سليمان، وعلى شاهد القبر الآخر اسم أحمد أفندي، ولربّما كانا من حجيج سنوات ماضية، وافتهما المنية في هذه الديار، فدُفنا فيها.

تمّ تزويد المَحْمَل الشامي بمئة من العساكر، ومدفعية، ومئة حِمْل من المؤونة، وكانت الحمضيات متوفرة بكثرة، أتّضح لنا أنهم يتزوّدون من مدينة العُلا⁽¹⁾ على بُعد ثلاثة فراسخ، قيل إنها مدينة ممتازة، تكثر فيها أشجار النخيل والغابات والتَّارُجِج والأُتْرُجِّج والحمضيات الأخرى والرُّمَّان، وقيل إن فيها عين ماء.

شاهدنا في أثناء الطريق قطعاً صغيرة من الرخام، وكماً هائلاً من الجاشير⁽²⁾، وكان الجوُّ بارداً هذا النهار.

(1) العُلا: ورد اسم المدينة في الرحلة (اله) وهو خطأ. (المترجم).

(2) الجاشير: الأَصْحُ هو جاوشير، وقد ورد في معجم دهخدا: هو صمغ طَبِّي، والمفردة معرّبة من كاوشير (لبن البقر) وهو الصمغ. انظر تحت هذه المفردة في معجم دهخدا، كي تتعرّف على خواصّه الطّبيّة.

مدائن صالح

كانت تتشكّل مدائن صالح من عدّة مُدن، تتوزّع في أرجاء الصحراء على امتداد الجبل في الطرف الغربي، ونظراً لبُعد المخيم من تلك المنطقة، لم نذهب لمعاينة آثار المدائن، غير أن أبصارنا جلّت لنا عدّة جبال شرق السهل وغربه، تبدو عليها علائم قوم ثمود الذين كانوا قد نحتوا الجبال، واتّخذوها بيوتاً، كما جاء في الآية الكريمة: (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا) (1).

غرف البيوت من الداخل شبه مربّعة، ولم تكن واسعة، الجدران الداخلية للبيوت طبيعية غير منحوتة، بينما نحتوا بعض الحجرات، إذ ترى حفرة في وسط معظمها، أبواب البيوت مرتفعة قبل السرداب الذي تمّ نحته على ارتفاع خمسة أذرع، وعلى جانبيه عمودان منحوتان، وأعلاهما وضعوا حجارة مثلثة منقوشة، في وسط بعضها صورة عقاب فارداً جناحيه، وبعض العقبان مبتورة الرأس.

الباب الرئيس الذي يتمّ الدخول منه إلى البيوت لم يبلغ ارتفاعه أكثر من ذراعين ونصف، ونُقشت على بعض الأبواب صورة الشمس، وعلى البعض الآخر صورة إنسان، يشبه الضحّاك، وله جديلتان مدلّاتان، تشبهان حيّتي الضحّاك (2)، وعلى بعضها رسموا صورة لرجلين عربيّين، تتوسّطهما

(1) قرآن كريم، سورة الشعراء، الآية 149.

(2) ورد في الشاهنامه ملحمة الفُرس، أن ضحّاك قتل أباه مزداَس، وأصبح ملك العرب، فظهر له

شمس، ونُقشت كلمات سريانية على معظمها، لم ندرك معناها⁽¹⁾، وعَلِمْنَا من القرائن أنهم قصدوا بالكتابة اسم المالك وتاريخ البناء، كانت معظم الجبال أصابها الانهيارات، بسبب الأمطار وأسعة الشمس:

البناء العامرُ يَؤُولُ إلى الدمارِ من الأمطارِ وتقلُّبِ الليلِ والنهارِ⁽²⁾

كما كُنَّا نعلم من قبل أن هذه البيوت كانت منازل قوم ثمود، وحدثنا سعيد باشا رئيس المحمل الشامي، أنه قبل عدة سنوات، قدم رجل من الإفرنج إلى هذه المنطق، واستوطنها لسنة، وقام بالتنقيب في هذه البيوت والحجرات، وأفرغ الكثير من الكافور⁽³⁾ على أجساد الموتى، وكان قد جمع الكافور، وتخلَّص من العظام، وقد شاهدنا بعض العظام في الحجرات، وكما تبين من كلام سعيد باشا أنها كانت مقابر قوم ثمود، أو ربَّما أصبحت مقبرة فيما بعد. والله أعلم.

يوم الاثنين، الرابع والعشرون من مُحرم، انطلقنا بعد صلاة الصبح باتجاه الشمال الشرقي، وبعد مضي أربع ساعات من الدسة، انفصلت دائرة الجبال المحيطة بالمدائن بمقدار عشرة أذرع، فكانت تضاهي

إبليس في زيِّ الطباخ، فقبله، وقلَّده المطبخ الخاص. وكان ضحَّك أوَّل مَنْ أكل اللحم حين كان الناس يقتاتون بالنبات، ودخل إبليس عليه يوماً، فقال له ضحَّك أن يقترح عليه حاجة، يقضيها له، فطلب منه إبليس أن يقبل منكبيه، فأذن ضحَّك فيه. فتقدَّم إبليس، وقبَّل منكبيه، فساخ في الأرض، وخرجت من كلِّ منكب من منكبيه حية سوداء، ولذلك يُلقَّب ضحَّك بماردوش. (تعبانان على منكبيه). (المترجم).

(1) تنوع الكتابات الموجودة في مدائن صالح، فهناك العربية الجنوبية، واللحيانية، والثمودية، والنبطية، واللاتينية، والإسلامية. كما أن مواضع هذه النقوش تنوع بين النقوش الدينية والنقوش التأسيسية والنقوش التذكارية. (المترجم).

(2) الشَّعرُ بالفارسية من شاهنامه الفردوسي. (المترجم).

(3) الكافور: يقوم الناس بتغسيل الأموات مستخدمين الكافور نظراً لكون رائحته من الروائح الطاهرة والقابضة. (المترجم).

بَوَابَةٍ، يعبر الناس من خلالها، فصارت الأرض وَعِرَةً، ممَّا أَدَّى إِلَى تَرْجُلِ
الْحُجَّاجِ، والسَّيْرِ عَلَى الْأَقْدَامِ.

تُسَمَّى تِلْكَ النَّقْطَةُ بِمَبْرَكِ النَّاقَةِ، وَيُقَالُ عَنْ سَبَبِ التَّسْمِيَةِ إِنْ فَصِيلُ
نَاقَةٍ صَالِحٌ انْفَرَدَ إِلَى أَعْلَى الْجَبَلِ بَعْدَ أَنْ عَقَرَوْهَا، وَيَعْتَقِدُ النَّاسُ أَنَّ
الْحَوَارِ يُصْدِرُ صَوْتًا حَنِينًا تَسْمَعُهُ الْإِبِلُ، وَلَا يَسْمَعُهُ الْبَشَرُ، فَإِنْ وَصَلَ
الْحُدَاةَ يَبْلِهِمْ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، أَحْدَثُوا جَلْبَةً، وَأَعْجَلُوهَا فِي الْمَسِيرِ،
كَيْ لَا تَسْمَعَ الْأَيْنِ، فَتَخْرُجَ عَنْ طَوْعِ حُدَاتِهَا.

بَعْدَ أَنْ اجْتَرْنَا مَفْصِلَ الْجَبَلِ، اشْتَدَّتْ وَعُورَةُ الطَّرِيقِ، وَغَدَتْ مَحَاطَةٌ
بِأَنْوَاعِ الْجِبَالِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَشْكَالِ الَّتِي كَانَتْ تَبْدُو لَنَا مِنْ بَعِيدٍ وَكَأَنَّهَا
قِيَابٌ. بَعْدَ مَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ، وَصَلْنَا إِلَى ثَلَاثَةِ مَفَاصِلَ أُخْرَى، تَشْبهُ مَبْرَكِ
النَّاقَةِ، فَمَرَرْنَا مِنْ خَلَالِهَا.

وَقَفْنَا وَقْتُ صَلَاةِ الظُّهْرِ، انْطَلَقْنَا بَعْدَ آدَاءِ الْفَرِيضَةِ، قُبَيْلَ الْمَنْزَلِ
بِسَاعَتَيْنِ، وَعَلَى يَمِينِ الطَّرِيقِ، مَرَرْنَا بِمَحَاذَاةِ جَبَلٍ، تَشْبهُ قَمَّةِ الطَّاقِ،
وَلِهَذَا سُمِّيَ أَبُو طَاقَةَ، أَصْحَبَتْ تَتَخَلَّلُ الطَّرِيقَ صَخُورٌ كَبِيرَةٌ مَلْسَاءٌ،
تَنْزَلِقُ عَنْهَا أَخْفُ الْجِمَالِ، فَسُمِّيَتْ تِلْكَ الْأَرْضُ بِالرِّلَاقَةِ.

بَلَّغْنَا شَقَّةَ الْعَجُوزِ حِينَ الْغُرُوبِ، وَقَرِيبًا مِنْ هَذَا الْمَنْزَلِ وَادٍ، يَجْتَمِعُ
فِيهِ مَاءُ الْمَطَرِ، وَلِشَحِّ الْمِيَاهِ فِي الْمَخِيمِ، قَرَّرْنَا أَنْ نَتَبَاطَأَ غَدًا فِي الْإِنْطِلَاقِ
رِيثَمَا يَمْلَأُ الْحُجَّاجُ قَرَبَهُمْ.

قِيلَ إِنْ هَذَا الطَّرِيقَ وَصُولًا إِلَى تَبُوكَ مَلِيئَةٌ بِالْقَطَطِ الْجَبَلِيَّةِ، وَالنَّعَامِ،
وَالْأَفَاعِي وَالغُرْلَانِ، الْقَطُّ الْجَبَلِيُّ يَشْبهُ شَبْلَ الْأَسَدِ، وَلَوْنُهُ يَضْرِبُ إِلَى
الْصَفْرِ.

يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، الْخَامِسِ وَالْعِشْرُونَ مِنْ مُحَرَّمٍ، انْطَلَقْنَا بَعْدَ الدِّسْتَةِ

بساعتين، وكان مسيرنا نحو الشَّمال، الأراضي بهذا الاتجاه مستوية
حصوية؛ ثمَّ أصبحت صخرية وَعِرة، فاستوت مرَّةً أخرى، ثمَّ عادت
حصوية وصخرية، لكن الحصى والصخر هَشَّ، لا يعيق الحركة، ثمَّ انتقلنا
إلى أرض صخرية بمنتهى الوعورة، يشكُّل المرور منها خطراً.

توقَّفنا لأداء صلاة الظهر، ثمَّ تابعنا مسيرنا، قُبيل الغروب بأربع
ساعات، شاهدنا على يمين الطريق جبلاً مشعَّباً، يبدو للرائي من بعيد
كأنه غابة نخيل. وقُبيل الغروب بساعتين ونصف، بلغنا مكاناً قرب قلعة
على اليسار، يُسمَّى ظهر الحمراء، كان منزلاً قديماً، ولعدم توفُّر المياه
فيه، اجترناه، لنصل قبل الغروب بنصف ساعة إلى صحراء وافرة الماء،
فجعلناها منزلاً.

الطريق بدءاً من ظهر الحمراء إلى هذا المنزل الذي اخترناه مستوية
حصوية، ولون الحصى بين الأبيض والأسود، تتخلَّله حصيات بلون الدُّرِّ.

يوم الأربعاء، السادس والعشرون من مُحرَّم، بدأنا المسير مع طلوع
الفجر باتجاه الشَّمال الغربي، الأرض من أوَّل الطريق إلى آخره مستوية،
كانت الجبال على يمين ويسار الطريق قريبة ومَرِيَّة في بعض المواضع،
وبعيدة وغير مَرِيَّة في مواضع أخرى. دخل وقت صلاة الظهر، فأدينا
الفريضة، وانطلقنا، لنشاهد أمامنا قبل المنزل بمسير ساعة غابة من
أشجار الأثل والحسك، مرَّت القافلة من وسطها.

على مقربة من وجهتنا إلى منزل البئر المعظَّم، أصبحت الجبال من
اليمين واليسار تتداني، فاجترناها، وحططنا رحالنا بعد مسافة قليلة،
إذ بلغنا المنزل وقت الغروب.

كانت في هذا المنزل بئر عظيمة، وبركة كبيرة، وقلعة تقع على

اليسار، لها باب يُفْتَحُ نحو الشرق، وسَدُّ لحجز المياه، يبعد عن البئر المعظم مئتي قَدَمٍ، كان الماء يجري منه إلى البركة التي كان ماؤها حينها أخضر آسناً، لا يصلح إلا لشرب الدوابِّ.

المسافة من هنا وصولاً لبغداد ثمانية منازل، لكنْ، بسبب تطاول أعراب السليبي، وهم أرذل قبائل العرب، على القوافل، لا يسلك أحد هذا المسير، لانعدام الأمن فيه.

صباح يوم الخميس، السابع والعشرين من مُحَرَّم، انطلقنا متوجِّهين غرباً، وأوَّل ما لقينا في الطريق غابة صغيرة، فيها حَسَك السعدان، فوصلنا إلى عدَّة مضيقات، لم تكن بالطويلة؛ ثمَّ صحراء شاسعة، والجبال تارة تقترب من الطريق، وتارة تبتعد، وبعد ستَّ ساعات، أصبحت الحركة نحو الشَّمَال. وقفنا لأداء صلاة الظهر، وتابعنا السير، وقبل المنزل بساعة، أمست الأرض وَعِرَّة ذات صخور سوداء، بعد أن مررنا بسفح جبل، تبدَّلت الحركة نحو الشَّمَال الغربي.

وصلنا جِنَان القاضي قُبيل الغروب بساعتَيْن، ذكروا أن في هذا المنزل عين ماء خلف الجبل، وقام قاض بغرس الأشجار في المكان، فسُمِّي بهذا الاسم. الموقع ذاته كان بعيداً عن مكان ضرب الخيام، كان الجوّ في هذا المكان أقرب إلى الاعتدال، ربَّما بسبب اكتظاظ المخيم، وإحاطة الجبال به.

يوم الجُمُعة، الثامن والعشرون من مُحَرَّم، انطلقنا بعد الدسة بساعة ونصف، وكان اتَّجاه الحركة صوب الشَّمَال الغربي. بدأت الجبال تقترب من بعضها في أثناء الطريق، إلا أن الفجوة بينها بقيت واسعة، وأراضيها مستوية حتَّى النصف الآخر من الطريق، إذ واجهنا مضيق وعر، فتحوَّلت

الحركة نحو الشَّمال الشرقي، وفي نهاية الطريق، كانت الأراضي مستوية مسطَّحة.

بلغنا منزل الأخضر قبيل الغروب بساعتين، رأينا علائم صغيرة، نُصبت أعالي الجبال، لتدلَّ على المنازل، كان الجوُّ اليوم نهاراً وليلاً بارداً، فأشعل الحُجَّاج النار في الخيام.

في هذا المنزل، بُني حصن في جوف الجبل، وبالقرب منه بركة عظيمة مُسيَّجة، قسموها إلى أربعة أقسام، كان الماء الصافي العذب يصل عبر قنوات إلى داخل القلعة.

يوم السبت، التاسع والعشرون من مُحَرَّم، كانت الحركة بعد مرور ساعة من الدسطة نحو الشَّمال الغربي، وبعد أن تجاوزنا مضيقاً، أصبح الاتِّجاه تلقاء الشَّمال الشرقي، الأرض صخرية وَعِرة، تكثر فيها المنحدرات والمرتفعات حتَّى بلغنا مضيقاً آخر، فتحوَّلت الحركة نحو الشَّمال الغربي، واتَّسعت الأرض أمامنا، إلَّا أنها بقيت وَعِرة ذات صخور، إلى أن واجهنا سعة الصحراء، فازدادت رحابة الأفق، وانحدرت الطريق.

قبيل المنزل، لاحت لنا أشجار حَسَك السعدان تمتدُّ من الشَّمال إلى الجنوب الغربي، مكثنا لصلاة الظهر، واجتهدنا في المسير، وقبل بلوغنا المنزل بعدة فراسخ، رأينا جبلاً من بعيد، يضاهاى منبراً، يطلقون عليه اسم منبر النبي، قيل إنه الجبل الذي اعتلاه النبي، صلَّى الله عليه وآله، في غزوة تبوك، فنادى أمير المؤمنين عليّاً، عليه السلام، فردَّ عليه أمير المؤمنين من المدينة، والتحق بالرسول، إذ طُوِّيت له الأرض. وقد قام العلَّامة المجلسي⁽¹⁾، أعلى الله مقامه، بشرح مفصَّل لهذا الحديث في كتابه.

(1) المجلسي، من علماء الشَّيعة الإمامية الاثني عشرية. وُلد في عام 1037 هـ، وله أكثر من سبعين مؤلفاً. (المترجم).

بعد مضي ساعة من الليل، بلغنا ظهر المقرّ، حيث منزلنا، يقع المنزل في صحراء شاسعة مترامية الأطراف، لا تلوح في الأفق من كلّ الجهات أيّة جبال، كان الجوُّ في غاية البرودة.

يوم الأحد، عُرّة شهر صَفَر، انطلقنا بعد ساعة من الدسته متحرّكين نحو الشّمال، ومن أوّل الطريق حتّى آخره والأرض مستوية مسطّحة، والجبال قَصِيّة، قُبيل المنزل بميدان واحد، شاهدنا وعلى جهة اليسار طَللاً لقلعتَيْن مهذومتَيْن، تبدّلتا إلى تَلٍّ من التراب، وبمحاذاتهما جبل صغير ذو صخور صمّاء.

قُبيل الغروب بخمس ساعات، دخلنا منزل تَبُوك، كانت المسافة بين مخيّمنا وبيوت الأهالي مئتي قَدَم. توجد بئر في نهاية المخيّم، استسقوا منها للدوابّ، وفي أعاليه مزارع للشعير، كانت قد نمت بارتفاع إصبع واحدة فوق الأرض، وهنالك مقبرة واقعة بعد المزارع محاطة بحدائق الرّمّان والتين والدَّرّاق من يمين ويسار.

تَبُوك

صاحب القاموس أورد تَبُوك بتقديم الباء⁽¹⁾، وصاحب مجمع البحرين بتقديم التاء. في المدينة مسجد، وحصن عسكري يبلغ طوله عشرة أذرع. تقع خلف الحصن وإلى جهة الشّمال عين للماء، وثلاث برك، تتزوّد من مياه العين، إلّا أنه لم تتوقّف في المنطقة أيّة مؤونة ما عدا التمر والتّبْن والشعير.

يبلغ عدد أهالي المنطقة مئتي عائلة، لكننا اليوم لم نشاهد غير

(1) لم تُذكر مفردة تَبُوك في القاموس قط، وقد ذُكرت البتُّوك في ذيل مفردة بتك، والتي لا علاقة لها بمنطقة تَبُوك. (المترجم).

طائفة معدودة من النساء، ولم نَرِ رجالاً، وكما ذكروا أنه في هذا العام حدث قتل بينهم، وقبل قدوم المَحْمَلِ الشامي ذهب الرجال للتحكيم عند شيوخ العرب، إلا أن معالي سعيد باشا كذَّبَ المقولة وقال: هؤلاء كاذبات، فقد اختفى الرجال عن قصد.

يوم الاثنين، الثاني من صَفَر، انطلقنا بعد ساعة من الدسمة متجهين باتجاه الشَّمال الغربي، الأرض مستوية شاسعة من أوَّل الطريق حتَّى آخره سوى موقعين أو ثلاثة مواقع، تتخلَّلها المنخفضات الطفيفة، الجبال كانت بعيدة كلَّ البُعد عن قارعة الطريق، ومنبر النبي كان مُشاهداً أمس، ولا زلنا نُبصره اليوم، مكثنا للصلاة ظهراً، وقُبيل الغروب بساعة، بلغنا المنزل الذي يُطلقون عليه اسم قاع، ينعدم فيه الماء، إلا أن الحُجَّاج لديهم كفايتهم منه، فلقد تزوَّدوا به من منزل تَبُوك.

في أثناء الطريق، تمَّت مشاهدة أفعى مخطَّطة ذات قرون، يبلغ طولها شبرين، وبعد أن حطَّموا رأسها، أحضروها عندي للمشاهدة.

يوم الثلاثاء، الثالث من صَفَر، انطلقنا حين الطلوع، كانت أراضي الطريق شاسعة، تتخلَّلها سَبَخَات في بعض المواضع. وقُبيل وصول المنزل بساعتين، أصبحت الأرض في بضع نقاط صخرية ووَعِرَة، لكنها ليست صعبة المسلك، وعلى مقربة من المنزل، شاهدنا نخيلاً كثيفاً، بعض أشجاره باسقة، وهي أقلُّ عدداً من البعض الآخر القصير، مكثنا لصلاة الظهر، وبلغنا المنزل حين الغروب.

اسم منزلنا هذا الحجِّ، تقع على شَماله قلعة، خارجها بركة، تزوَّد بالمياه من داخل القلعة، وهناك مياه جارية، لكنها خليطة بالكبريت، وشرقاً تنتشر حدائق نخيل متباين الأطوال، فمنه الباسق والقصير.

يوم الأربعاء، الرابع من صَفَر، ابتدأنا حركتنا إلى الشَّمال مع الطلوع، أراضي الطريق مستوية من أوَّلِهِ حتَّى آخِرِهِ، قليلة المنحدرات والمرتفعات والصخور، قُبيل الغروب بساعة بلغنا المدوِّرة⁽¹⁾، حيث المنزل الجديد، على يساره قلعة⁽²⁾ تحيطها الجبال من الجهات الأربع فبدت الصحراء بينها مستديرة، تمرُّ منها سَكَّةٌ حديدٌ تمتدُّ من الشَّمال نحو الجنوب وبمحاذاتها طريق قوافل الحُجَّاج، كانت هناك عين مُسيَّجةٌ قُبيل المنزل بمئة وخمسين قَدَمًا تصب مياهاها في البركة المجاورة لها، لكنهما كانتا جافَّتَيْن.

يوم الخميس، الخامس من صَفَر، عند الفجر بدأت حركتنا تلقاء الشَّمال، معظم الأراضي أماننا مستوية، قليلة الارتفاعات والانخفاضات، لا تعتربها العوائق سوى من مضيق صغير بعدما تخطيناها أصبحت الطريق شاسعة، ثمَّ مررنا بمضيق صغير آخر على يساره عدَّة جبال، فلمَّا اجتزناه امتدَّت الأرض، ولم نعد نشاهد جبلاً لمسافة طويلة، مكثنا للصلاة ظهراً، وقبل أربع ساعات من الغروب بدت لنا عدَّة جبال وتلال غرباً وشرقاً، ليست ذات ارتفاع، بعد ذلك أصبحت الأرض صخرية، تكثر فيها حجارة الصوان، فقام بعض الحُجَّاج بجمع بعضها.

حين الغروب، بلغنا ظهر العَقَبَة، ومنهم مَنْ يطلق عليه اسم بطن الغول، فجعلوا المخيمَّ متَّصلاً بمضيق، كان منزلاً أجذب قاحلاً، لا ماء فيه، والماء الذي مع الحُجَّاج يكفيهم.

(1) المدوِّرة: معبر حدودي الآن بين الأردن والسعودية، يتبع لمحافظة معان الأردنية في الجنوب. (المترجم).

(2) قلعة جغيمان أو المدوِّرة: بناها الشيخ سلامة بن فوّاز المفارحة اللّامي الطائي زعيم القبائل العربية في المنطقة التي هي الآن الأردن، سنة 1495م. (المترجم).

يوم الجمعة، السادس من صَفَر، انطلقنا عند الطلوع صوب الشَّمَال الغربي، بداية الطريق لاقينا مضيقاتاً صخرياً وعرأ، ينتهي إلى عقبة، بدأنا بالصعود من أسفل إلى أعلى، ومع أن المسلك لم يكن صعباً على الجمال إلا أن معظم أهل القافلة قطعوا المسافة راجلين، بعد اجتياز ظهر العَقَبَة بمسير ربع ساعة، كانت وفرة المياه إلى جهة اليسار، فقام العَكَّام⁽¹⁾ بملء القِرْب. قال الجمَّالون، إن المنطقة حتَّى هذه العَقَبَة تابعة لأرض الحجاز، وما بعدها ندخل أرض الشامات.

بعد أن تجاوزنا العَقَبَة، وصلنا إلى مضيقتي آخر، تكثر فيه الحجارة، وينتهي إلى عقبة قصيرة المسافة، لم تكن مرتفعة، ومن بعدها صحراء، تنتهي إلى عقبة شبيهة بسابقتها، لم تكن عالية، ومن ثمَّ أصبحت الصحراء شاسعة ووَعرَة في معظمها، ومستوية في مواضع، يكثر فيها حَسَك السعدان، وتخلو من الجبال في كلِّ الأطراف.

مكثنا لصلاة الظهر، وانطلقنا قُبيل الغروب بأربع ساعات ونصف حتَّى دخلنا منزل الغدير⁽²⁾ قبل ساعة من الغروب، بالقرب من المكان غدير، كانت تجتمع فيه مياه الأمطار، ولا أثر للماء فيه الآن، فقد غدا جافاً.

يوم السبت، السابع، غادرنا المنزل بعد تسع ساعات مضيئة من الليل. توجَّهنا إلى الشَّمَال الغربي، كانت الطريق مستوية شاسعة دون جبال على الأطراف من أوَّل الطريق إلى ما قبل المنزل بنصف ساعة، لكنه لا يخلو من المنحدرات والمرتفعات في بعض النقاط، مكثنا للصلاة بين الطلوعَيْن، وغادرنا المكان بعد إقامة صلاة الصبح.

(1) العَكَّام: هو الذي يربط الحِمل على البعير، ويقود الجِمال، ويخدم راكبيها. (المترجم).

(2) منزل الغدير: يقع في معان الشامية إلى الشَّمَال من معان، سُمِّي بهذا الاسم، لأن المياه تغدر فيه قبل أن تنساب إلى البساتين. (المترجم).

وعلى يمين الطريق، كومة حجارة كثيرة فوق قبر امرأة، يقال لها عيُوش، ذكروا أنها كانت مصابة بالجنون والصَّرَع، وقد وافتها المنية في هذه الطريق، فدُفنت حيث ماتت.

وبما أن الناس في هذه النواحي يشفقون على المجانين الأحياء منهم والأموات، فقد كان كلُّ مَنْ يمرُّ من هذا المكان يقرأ الفاتحة على نزيلة الضريح، ويضع قطعة من الثياب أو القماش على القبر، شاهدنا امرأة سُنيّة وضعت قطعة قماش بيضاء على قبر عيُوش، وعبرت.

قُبيل المنزل بنصف ساعة، واجهتنا عقبة غير مرتفعة، لم تكن صعبة المسلك، وبعد تجاوزها، تراءت لنا مدينة معان من بعيد، فدخلناها قُبيل الغروب بخمس ساعات.

مَعان

هناك معانان، إحداهما قديمة والأخرى جديدة، والمسافة بينهما طول ميدان واحد، تقع معان القديمة قريباً من جهة يسار الطريق بعد النزول من العَقَبَة، وتتصل المقبرة وعين للماء بأسوارها، وبعد المرور منها، تصبح الأرض وَعِرَة، وذات تضاريس حادّة، وحين الوصول إلى السهل الأعلى، تتضح شرقاً معالم معان الجديدة، وهي مدينة ذات اعتبار، تكثر فيها وإلى جهة اليمين الحدائق والبساتين.

يقوم سكّان المدينة بالزراعة صيفاً وشتاءً، إذ يقومون بزراعة الشعير أكثر من القمح، وتكثر فيها الفواكه الشتوية والصيفية. كان الرّمّان موجوداً عندهم آنذاك في البيوت، فقام الحُجّاج بابتياعه منهم.

هناك عداوة قديمة بين سكّان المدينتيّن، تتجدّد بين حين وآخر حين، تثيرها النزعات، وفي الوقت الراهن، حدثت مشاجرة بينهما أدّت

إلى القتل، فقام معالي سعيد باشا بدعوة شيوخ الطرفين إلى خيمته للمصالحة. وقبل بضع سنوات، أرسل إليهم بشكل رسمي من أجل إقرار المصالحة، وفي الوقت الراهن، عين معالي سعيد باشا مبعوثاً إليهما نيابة عنه.

معان معروفة برياحها العاتية، فمن حُسْن طالعنا أن الجوَّ هذا اليوم معتدل، ولم تعصف الرياح. عادة الجوَّ في غاية البرودة من معان وصولاً إلى الشام.

منذ أربعة أيَّام لم نأكل اللحم لعدم توقُّره في المنازل السابقة. كان الحُجَّاج يستعيضون عن اللحم بالتمر، فوجدنا وفرة الخراف والدجاج في معان. ابتاع الحُجَّاج من الأهالي، وتزوَّدوا للمنازل الأخرى. بعد مسيرة يومين، سنصل إلى أوَّل الأرض الخضراء على طريق الشام، أي من القَطْرانة⁽¹⁾ فصاعداً.

يوم الأحد، الثامن من صَفَر، بدأنا المسير حين الطلوع، فاتَّجَّهنا شَمَال غرب، وعندما أشرقت الشمس، وجدنا أنفسنا بين تلال كثيرة، تحيط بنا من الجانبين. كانت سكَّة الحديد في أرض منخفضة بين المرتفعات.

عند انتهاء المضيق، بلغنا مكاناً تحيطه حجارة شبه كروية، منها كبيرة الحجم، وأخرى صغيرة ملساء صافية، تشبه رؤوس البشر، يعتقد العرب أنها آثار أناس مُسخوا، فَسَمَّوا تلك الصحراء بوادي المسوخات. بعد أن عبرنا هذا المكان، أصبحت الأرض مستوية أحياناً، وإن كانت ذات صعود وهبوط، ووَعِرَة أحياناً أخرى، وفي ثلاثة مواضع من الطريق، كانت الحجارة صغيرة سوداء اللون في موضع، وكبيرة في موضعين.

(1) القَطْرانة: وردت في الكتاب قيطرانية. (المترجم).

بلغنا قلعة عُنْبِرَةَ قبل ثلاث ساعات من الغروب، كان هذا الموقع منزلاً دائماً للحُجَّاج، إلا أنه وللتخفيف من مسافة الطريق يوم غد، لم نُخَيِّم هنا، فقط نزلنا لأداء صلاة الظهر فحسب.

يقع في الجانب الغربي من هذا المنزل حصن، وهنالك بئر مسيَّجة في جواره، واستحدثوا بركة كبيرة شمالي البئر، وبمحاذاتها من جهة الغرب، أقاموا سدّاً يبلغ طوله مئتي قَدَم لإيصال الماء إلى البركة.

غادرنا قلعة عُنْبِرَةَ، ووصلنا مع الغروب إلى صحراء فيها بقايا قلعة تهدّمت، نزلنا في تلك الصحراء، وخيَّمتنا، تغيّر الجوُّ في هذه الليلة، فأصبّتُ بداء في صدري، وعالجتُ نفسي.

يوم الاثنين، التاسع من صَفَر، غادرنا المكان صباحاً، فاتَّجَّهنا شمّال غرب، الأرض مستوية شاسعة، لم تبدُ لنا مظاهر الجبال من أيِّ جانب، لكن الطريق لم تخلُ من الهبوط والارتفاع الذي قد يصل إلى عشرة أذرع في الحالتيْن، أصبحت الطريق إلى المنزل يميناً بطول مئتي قَدَم، وعرض مئة قَدَم عميقة بقدر ذراعين، فتبيّن لنا أن جريان السيول كان قد أحدث هذا العمق.

بلغنا المنزل قبل ساعتين من الغروب، أهل المنطقة يطلقون على هذا المنزل اسم الحَسَا⁽¹⁾، بُنيت في المنطقة قلعة مواجهة للشرق، مزوّدة بثلاث عيون، يبلغ ارتفاع كلِّ عين ما يقارب أربعة أذرع، ومدُّوا جسراً أمامها، بناه محمّد علي باشا خديوي مصر، وقاموا برصفه بالحجارة، كان الجسر ذا أهمّيّة بالغة، فلولاه لما استطاع أيُّ مركوب أن يتخطّى المكان خاصّة في مواسم الأمطار، لا سيّما الإبل.

(1) الحَسَا: ورد في الكتاب أن اسم المنزل الحَصَاة، والصحيح الحَسَا. (المترجم).

بالقرب من القلعة، اتَّجَّهت الحركة تلقاء الشَّمال الشرقي، وحين وصلنا بمحاذاتها، صار الاتِّجاه شرقاً، ولَمَّا اجتازت القافلةُ الجسرَ، أصبحت الحركة نحو الشَّمال، كان المخيِّم يبعد عن القلعة بمسافة ميدان واحد.

شُفيت من الوعكة الصحيَّة التي ألمَّت بي البارحة، وتزوَّد المخيِّم بالمؤونة والخِراف وغيرها التي جاء بها العرب.

غالباً كان معالي سعيد باشا يحضر عندي، لِيُعَلِّمَنِي بساعة الانطلاق. الليلة جاء خصيصاً، لأن حركتنا ستكون في أثناء الليل، ويجب أخذ الحيطة والحذر، فقام بتعيين دليل، وأمر عدَّة فرسان لمرافقتي.

يوم الثلاثاء، العاشر من صَفَر، غادرنا المنزل قُبيل الصبح بثلاث ساعات، يَمِّمْنَا وجوهنا تجاه الشَّمال الغربي. بعد الانطلاق بقليل، بلغنا أرضاً مرتفعة، علينا أن نصعد إليها من المنحدر ولمسافة مسير ساعة، كُنَّا نسير وأصوات الجمالين تتعالى بقول قُدَّام قُدَّام، أي اجلسوا في مقدِّمة الهوادج، ثمَّ أصبحت الأرض مستوية، تتخلَّلها بعض المواقع الوعرة، عندما حلَّ النهار شاهدنا على يسار الطريق بضعة مواضع، فيها حفر مليئة بمياه الأمطار العذبة، فتزوَّد الحُجَّاج من مياهها، ثمَّ واجهتنا أراض خضراء غنَّاء معشبة، مكثنا فيها لأداء صلاة الظهر. كانت هذه أوَّل المواقع الجميلة على طريق الشام، ولأن الحُجَّاج عانوا من صعوبات الطريق وجفاف الصحراء، فإنهم سيستمعون للحظة بصفاء هذه الأرض ونضارتها.

بلغنا المنزل الذي يطلقون عليه اسم القطرانة قُبيل الغروب بنصف ساعة، وإلى الشَّمال الشرقي منه تقع قلعة، وخارجها بركة تزوَّد من

مياه البئر في وسط القلعة، ماء المطر المتجمّع في الأحواض والغدران عذب سائغ.

تعود أصول الشيخ عليّ الكركي⁽¹⁾ الذي كان معاصراً للشيخ البهائي لمدينة الكرك التي تبعد عنّا بمقدار ستّة فراسخ، وهي مدينة عامرة في الوقت الراهن، ومعظم سكّانها من المسلمين الشّيعة.

يوم الأربعاء، الحادي عشر من صَفَر، غادرنا المنزل قبل ثلاث ساعات بقين من الليل، اتّجهنا نحو الشّمال الغربي، الأرض مستوية شاسعة، وأحياناً ذات صعود وهبوط. شاهدنا بعضاً من التلال على يمين الطريق ويساره، والوادي كان مخضراً نضراً، السماء أمطرت قبل يومين، فزادت الخضرة رونقاً وبهاء، وعند بزوغ الشمس، كان الطلُّ قد بلّل الأرض، والضباب أسر الفضاء.

قُبيل الغروب بأربع ساعات ونصف، مكثنا للصلاة في خان زينب، يقع الخان على يسار الطريق، ويشبه قلعة صغيرة، لم ترتفع جدرانها البالية أكثر من ذراعين، والمسافة من هنا حتّى المنزل ثلاثة فراسخ.

على مقربة من خان زينب، شاهدنا آثار جيفٍ لإبل كثيرة، قيل إنها تعود لقادر آغا المكارى، كانت قد نفقت قبل أربع سنوات، ومات رعاتها من شدّة البرد والجوع، ولم يبقَ منها سوى العظام، اليوم أيضاً كان الجوُّ بارداً، وقد نفقت من إعياء المسير لطول الطريق خمسة من إبل قادر آغا والحاج محمّد.

قُبيل المنزل بنصف الساعة، ترجّلتُ عن الهودج، وامتنطيتُ جواداً

(1) الشيخ عليّ الكركي: الشهير بالمحقّق الثاني، وهو شيخ الإسلام في إيران إبّان عهد شاه طهماسب. وافته المنية عام 940 للهجرة، ولم يكن معاصراً للشيخ البهائي الذي توفّي 1030 للهجرة. (المترجم).

من خيل معالي سعيد باشا. وبعد مسافة قليلة، سقط الهودج، وارتطم بالأرض، فتيقنتُ أن الله ألقى حُبَّ ركوب الخيل في قلبي حتى أنجو، وهذا من فضله عليّ.

بلغنا منزل البلقاء⁽¹⁾ قبيل الغروب بساعة ونصف. على يساره قلعة، يُفتح بابها نحو الشرق، وقد تهاوى جدارها من الجانب الأيسر للباب، لم يكن فيها عساكر. بالقرب منها عدَّة خيام سوداء، تعود لعرب خيموا كانوا يبيعون الحمْلان والدجاج.

كانت ملامح المدينة واضحة في هذا المنزل، اليوم جاؤوا ببرتقال من نابلس إلى سعيد باشا، وقد أرسل إليّ منه، كانت حبَّاته صنوبرية الشكل كبيرة ولذيذة، نابلس بلدة عامرة، وكلُّ قاطنيها من المسلمين الشّيعة، ولا يسمحون لغريب الدخول بينهم، وصابون نابلس مشهور، ويُعرَف في الشامات بباي⁽²⁾.

يوم الخميس، الثاني عشر من صَفَر، غادرنا المنزل بعد طلوع الفجر، كانت حركتنا تلقاء الشَّمال الغربي، والأرض مستوية مسطّحة حتى نصف ساعة قبيل المنزل، والوادي أمامنا كان شاسعاً مترامي الأطراف، في أثناء المسير، لا يقع البصر إلاّ على الصحراء الشاسعة، والخضرة اليانعة، في معظم الأوقات، كان الجوُّ غائماً، تتخلَّله زخَّات قليلة من المطر، لهذا الوادي رونق وبهاء ساحر، وكما ذكرنا، فإنَّ عرب عُنيرة سيأتون، لينزلوا هنا بعد عشرين يوماً، لترتع أغنامهم في فصل الربيع، ثمَّ يرحلون.

قبل المنزل بساعة، شاهدنا بئراً في الطريق. على طرفيها صخرتان كبيرتان مُجوِّفتان، تشبهان الأحواض، إحداهما مستديرة، والأخرى

(1) البلقاء: تقع منطقة البلقاء وسط الأردن. (المترجم).

(2) باي: كلمة تركية بمعنى الهدية. (المترجم).

مستطيلة. كانت الأعراب تنشل المياه من البئر، وتُفرِّغها في هَدَيْن الحوضَيْن لسقاية المواشي.

قُبيل المنزل بنصف ساعة، بلغنا ممراً وعرأً، فركبنا الخيل، وقبل الغروب بثلاثة أرباع الساعة، دخلنا المنزل الذي كان يُسَمَّى بِلَاطَةَ⁽¹⁾. قلعة هذا المنزل مجرد أطلال في أعلى التلِّ، والجبال تكسوها أشجار البان، فتبدو خلابة المنظر. الليلة أمطرت السماء، فابتلَّت الخيام، قرَّرنا أن نتأخَّر غداً في الانطلاق ريثما تجفُّ.

يوم الجُمعة، الرابع عشر من صَفَر، أصبح الجوُّ صحواً. وبعد أربع ساعات وربع مضت من النهار، انطلقنا. ونظراً لكثرة تعرُّجات الطريق وانعطافاته، كانت الحركة تتراوح ما بين الشَّمال الشرقي تارة والشَّمال الغربي تارة أخرى.

لم تكن الطريق مستوية فسيحة كما تمنَّى، بل تعترضها تلال وَعِرة محاطة بالجبال من اليمين واليسار. ومنذ انطلاقنا ولأربع ساعات كان النهر جافاً في طريقنا، ثمَّ وصلنا إلى مياه تجري من الشَّمال إلى الجنوب، فاهترَّ أهل القافلة طرباً فَرِحِينَ بوصولهم إلى الماء. على ضفَّتَي النهر تنبت أشجار الدَّفلى بكثرة، ويمين النهر مكتظُّ بالقَصَب، المسافة من النهر وصولاً إلى المنزل تبلغ مسير ساعة.

حضر محمَّد بيك حاكم نابلس إلى ضفَّة النهر⁽²⁾ لاستقبال صهره الشيخ سعيد الذي كان ضمن الحملة الشامية، وبرفقته عرب حَوْرَان الذين قدموا وهم يمتطون أفضل الجياد، لاستقبال الشيخ ناصر الحَوْرَانِيّ، فنزلنا، واحتسينا القهوة، ودخَّنا النرجيلة، ثمَّ انطلقنا.

(1) بلاطَة: اسم المنزل رأس بلاطَة. (المترجم).

(2) نهر الزرقاء. (المترجم).

بعد عبورنا النهر، اقتصر وجود الجبال على الطرف الأيسر دون الأيمن، وقريباً من المنزل تلاشت الجبال، وبدت لنا ملامح تلة ممتدة من الجنوب إلى الشمال، بُنيت فوقها قلعة⁽¹⁾ محاطة بأسوار، وفيها برج مشرف، يقال إن شيبوباً⁽²⁾ أخا عنتر هو من بناها.

بلغنا منزل عين ضربة قبل الغروب بثلاث ساعات، كان منزلاً ذا مناظر خلابة، فالماء الوفير يجعل الخضرة يانعة، والزرع غللاً، فأقاموا المخيم في سفح التلة ذات القلعة، الأرض حولنا كلها مليئة بالمزارع، فكان لا بد من عبور القافلة من بينها.

كان الشيخ ناصر قد ناهز التسعين من عمره، وله من البنين والبنات أربعة أو خمسة، جاء اثنان منهم لاستقباله، ومن العجب العجيب أنه تُوفي على الفور بعد لقاء ولديه: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)⁽³⁾.

يوم السبت، الرابع عشر من صفر، انطلقنا بعد الدسة بساعة نحو الشمال، كانت الطريق ذات هبوط وصعود في بدايتها، لكن، سرعان ما أصبحت مستوية معبّدة، الأرض والجبال على امتداد النظر خضراء غناء، وقد ظهرت تلال مسطحة خالية من الأشجار على اليسار.

بعد نصف ساعة، شاهدنا عشرة أعمدة برؤوسها وقواعدها مطروحة على يسار الطريق، وقد ذكروا أن هذه الأرض كانت بلدة عامرة قديماً، وأن هذه الأعمدة هي الآثار المتبقية من البنيان، بعد أن اجتزنا مسافة ميدان واحد، شاهدنا أيضاً خمسة أعمدة أخرى ملقاة على يمين الطريق، ثم وصلنا إلى نهر جاف ممتد من الشرق نحو الغرب.

(1) اسم القلعة قصر شبيب. (المترجم).

(2) ورد الاسم في الكتاب شُعَيْب. (المترجم).

(3) قرآن كريم، سورة لقمان، الآية 34.

بعد مرورنا، أصبحت الحركة نحو الشَّمال الغربي، فشهدنا على اليمين عموداً منصوباً، يبلغ ارتفاعه ذراعين، وعمودين أو ثلاثة محطمة ومطروحة على الأرض، ثمَّ بعد قليل، شاهدنا على اليسار عمودين، أحدهما مُلقَى على الأرض. وفي المكان الذي صلَّينا فيه الظهر، لاحظنا على يسار المكان خمسة أعمدة، اثنان منها مُلقيان أرضاً. قبل المنزل بساعة، اتَّسعت الطريق أمامنا من كلِّ حَدَبٍ وَصُوبٍ، فانتَهت الوعورة، ولم نعد نشاهد لا جبلاً ولا تلاً.

قُبيل الغروب بساعة، وصلنا منزلاً، يُسَمَّى المَفْرَق⁽¹⁾، فيه قلعة إلى اليمين دون ماء، مع الحُجَّاج كفايتهم، لتزوِّدهم من منزل الأمس.

يوم الأحد، الخامس عشر من صَفَر، انطلقنا قُبيل الصباح بنصف ساعة متَّجهين إلى الشَّمال الغربي، طريق اليوم، أيضاً، خضراء نضرة، واسعة مسطَّحة، لم نشاهد أيَّة مرتفعات من أيِّ جانب قطُّ.

وصلنا إلى بلدة الرَّمْثَا⁽²⁾ من قرى حَوْران بعد الدسِّة بخمس ساعات. تقع البلدة على الخطِّ الشَّمالي، تمتدُّ بيوتها على تلة، وقبالتها نهر جاف، وهنالك مزارع على يمين الطريق ويساره، تعود للأهالي.

كانت نساء بلدة الرَّمْثَا يأتينَ بأطباق الخبز للبيع، وتبدو على معظمهنَّ آثار الوشم في الوجه في مناطق الحَنك والشفتين والجبين. اتَّضح لنا أن هذه من تقاليد نساء حَوْران الخاصَّة.

بعد اجتياز الرَّمْثَا، أصبحت الحركة نحو الشَّمال الشرقي حتَّى بلغنا

(1) المَفْرَق: تقع مدينة المَفْرَق شمال شرق الأردن، والاسم القديم لهذا المنزل الفدين. (المترجم).

(2) الرَّمْثَا، وردت في الكتاب الرَّمْطَاء، وهي مدينة في شمال الأردن على الحدود السورية. (المترجم).

بلدة الطُّرَّة⁽¹⁾، القرية مأهولة بالسكَّان، وفيها مزارع كثيرة، ونساؤها كسابقاتهنَّ جننٌ لبيع الخبز.

بعد مغادرتنا أصبحت الحركة باتِّجاه الشَّمال الغربي، وكان معظم العسكر الشامي مرافقين لنا، وقُبيل المنزل بساعة، رأينا جسراً على يسار الطريق، وثلاث عيون، بعدها بقليل بلغنا عقبة مختصرة، فلمَّا اجتزناها، أصبحت الأرض مستوية، وقُبيل الغروب بثلاث ساعات، وصلنا إلى المزيريب⁽²⁾، فَحَطَطْنَا رحالنا شَمال شرق البلدة، وفي وسطها ثلاث طواحين، وحانوت قُبالة القلعة، وهناك نهر عريض يمرُّ من إزائها، تنحدر مياهه من بلدة الشيخ سعد⁽³⁾، وهي قصبة معتبرة، فيها مقرُّ إقامة متصرِّف حَوْزان؛ وتقع على مسافة مسير ست ساعات من المزيريب، ومدُّوا على النهر جسراً للعبور من فوقه.

ذُكر أن هناك صخرة اتَّكأ عليها النبي أُيُوب، عليه السلام، وقد بقي أثر المتكأ واضحاً، كذلك فيها عين جارية، قيل إنها من معجزات النبي أُيُوب، عليه السلام.

جاءني من قبل مشير باشا في الشام كلُّ من مصطفى باشا، وبرفته قائد كتيبة وملازم من الفرسان، وهارون أفندي مترجم القنصلية مرافقاً عشرة من الفرسان وعشرة من حرس الحدود للاستقبال.

(1) الطُّرَّة وردت في الكتاب طُرْطُر، وهي بلدة أردنيَّة، تقع ضمن منطقة في أقصى شمال البلاد قرب الحدود الدوليَّة مع سورية. (المترجم).

(2) المزيريب: وردت في الأصل مُضِيرِب، وهي بلدة في أقصى جنوب سورية، وتُعدُّ حالياً جزءاً إدارياً من محافظة درعا، وتقع شَمال غرب المدينة، على مقربة من الحدود السورية الأردنية.

(3) ذُكرت في الكتاب الشيخ سعدي، قرية سورية تتبع ناحية نَوَى في منطقة إزرع في محافظة درعا، وتشتهر القرية بمقام النبي أُيُوب. (المترجم).

يوم الاثنين، السادس عشر من صَفَر، انطلقنا قُبيل الصبح بثلاث ساعات باتجاه الشَّمال الغربي، الأرض مستوية، لكنها في معظم النقاط صخرية، وأينما حلَّت العمارات كانت مُحاطة بالمزارع الخضراء النضرة، وكلَّما ابتعدنا عن القرية تلاشت الخضرة.

من القرى والمدُن التي شاهدناها على الطريق بلدة تُسمَّى الكتيبة⁽¹⁾ تقع أعلى التلِّ، وإلى جهة اليسار، فيها بركة تتزوَّد من المياه الجارية، وهي أحد منازل الحجِّ الشامي.

(1) دُكِرَت في الكتاب كبيتة، وهي بلدة في درعا. (المترجم).

الوصول إلى دمشق

يوم الثلاثاء، السابع عشر من صَفَر، وبعد مضي خمس ساعات من الليل، انطلقنا صوب الشام. اتَّجَّهنا شَمَالاً، الشارع الذي سلكناه مُعَبَّد منذ القَدَم برصفة الحجارة، إلَّا أن أكثره اندثر وخرب سوى في ثلاثة مواضع، لذلك كانت الطريق وَعِرَّة حَتَّى منتصف الطريق، شاهدنا تَلَّة مخروطة الشكل على اليمين، وعلى مقربة منها عدَّة دكاكين، تشبه القِبَاب⁽¹⁾، فأخذت اسمها من الشكل، كانوا يبيعون القهوة والشاي والرجيلة للعابرين.

بعدها عبرنا تلك المنطقة، أصبحت الأرض مستوية مُعَبَّدة، وقُبيل بلوغ المدينة بخمس ساعات، وصلنا إلى قرية تُسَمَّى دُنُون⁽²⁾، تكثر فيها الأشجار والمياه، وقد ضربوا خياماً، وشيدوا عدَّة غرف على يسار الطريق للسالكين، كانوا يُطعمون أبناء السبيل بالمجان.

خرج العساكر من القِشَلَة⁽³⁾، فاصطفوا على جانب الطريق، وقاموا بأداء مراسم الاحترام العسكري، مررنا عنهم، وبلغنا الكسوة⁽⁴⁾ صباح

(1) القِبَاب: هي نفسها غَبَاغِب، من منازل درب الحجَّ الشامي. (المترجم).

(2) في القرن الثامن الهجري بنى أحد المحسنين جنوب الكسوة خاناً، اسمه خان ذي النُون، لإيواء الحُجَّاج وإطعامهم، من وَقَف قام به صاحبه، ثمَّ تحرَّف الاسم مع الزمن إلى دُنُون، ولا زالت أطلال الخان موجودة إلى الآن. (المترجم).

(3) القِشَلَة: مفردة تركية الأصل تعني تكتة الجنود. (المترجم).

(4) الكسوة: مدينة تتبع لمحافظة ريف دمشق. (المترجم).

يوم الأربعاء. كانت قرية جميلة وعامرة، تبعد عن المدينة مسافة فرسخ واحد، بقرها نهر جارٍ، وحولها حدائق وأشجار كثيرة، وتنتشر مقاهٍ وحوانيت على طرفي الطريق.

حضر لاستقبالنا مرتدياً بذلته الرسمية كلُّ من حسن باشا رئيس أركان الحربية، وإسماعيل بيك قرل آقاسي، وشكيب باشا، ومحمود بيك قائد العساكر، وعزّت أفندي الملازم، فتلاطفتُ مع الجميع، وترجّلنا لإقامة الصلاة.

وصل كلُّ من سعيد باشا وأمين الصُرّة، فانشغلتُ بالحديث معهما، طال مكوثنا في الكسوة لساعتين، ثمَّ انطلقنا. عند مغادرتنا، كانت الأرض ذات انحدار وارتفاع، لكنها خلّابة المنظر، تسرُّ عيون الناظرين، ويميز الطريق كان أوسع من يساره.

حين وصلنا بداية المنحدر، تكشّفت لنا معالم المدينة، وظهرت الحدائق التي تحيط بها، تمتدُّ الغابات على طول الخط الشّمالي، وتكسو سفوح الجبال.

كان سهلاً رجباً في غاية الجمال، معظم بساتينه من أشجار الزيتون والتفّاح والأجاص والسّفْرَجَل، ورأينا عمارة في وسط السهل من بعيد، قيل إنها قصر لأحد أعيان المدينة.

جاءنا الحاجُّ محمّد صادق قنصل إيران، يرافقه جرجيس أفندي المترجم الأوّل، وقد أحضر ثلاث عربات، فركبتُ أنا وولداي في عربة، وحضر للاستقبال كلُّ من درويش أفندي وسليم أفندي مُتولّي الرئيبيّة⁽¹⁾، وهما من الشّيعة والسادات الموسويين.

(1) الرئيبيّة: نسبة إلى ضريح السيّدة زينب، ويقع على بُعد نحو 10 كم جنوب العاصمة دمشق. (المترجم).

ثمَّ جاءنا مصطفى باشا وقد أحضر معه عربة الوالي باشا، فجلسنا فيها، وعند وصولنا إلى مشارف الحدائق، شاهدنا المستقبلين من أفواج العساكر والمدفعية والفرقة الموسيقية التابعة للشام، ومعهم الكسبة وجمهور من الناس، حضروا واصطفوا على جانبي الطريق.

قامت المدفعية بإطلاق تسع عشرة قذيفة، وأدت الفرقة الموسيقية مراسم الاحترام العسكري، فتلاطفت معهم، كلُّ على حدة.

ضربوا الخيام على مقربة من بؤابة المدينة، وعند موضع قدّم رسول الله، صلى الله عليه وآله، فقد كانت له قبة وليوان.

حضر لاستقبالنا كلُّ من حُسين فرزي باشا مشير المخيم الخامس، وإبراهيم أدهم باشا المتصرّف، وحول باشا المير ميران، وستار بيك المير آلاي، والفريقان في الجيش شوكت باشا وعبد الكريم باشا، وعمر بيك آلاي رئيس الضبطية ببذلاتهم الرسمية، مرافقين كاظم بيك القاضي نائب الشام ومترجمي قنصليات حكومة فرنسا وبريطانيا والنمسا وإيطاليا وإسبانيا واليونان وهولندا. عندما أردتُ الترحُّل من العربة، خرج الكلُّ من خيمته، فتقدّم مشير باشا وأخذ بيدي، ثمَّ ذهبنا إلى السُرادق، وتلاطفتُ مع الجميع. وبعد أن شربنا الشاي والقهوة ودخنا النرجيلة جلستُ ومشير باشا في العربة، واتَّجهنا نحو المدينة، ولحق بنا الأمراء والخواصُّ بعربات خاصّة.

على مقربة من مدخل المدينة، هنالك مقبرة على اليمين، وتُكنة عسكرية على اليسار، ثمَّ بلغنا البوابة التي بُنيت على شكل هلالين، وبدون مصاريع أبواب خشبية أو حديدية، فولجنا شارعاً، يبلغ طوله ما يقارب ربع فرسخ على طرفيه حوانيت وعمارات سُيّدت على نسق الأبنية الإيرانية، والغرف الداخلية كانت بلا نوافذ، تُفتَح نحو الشوارع والأزقة،

كان طرفا الشارع الذي نسلكه مليئين بالناس، وسقوف العمارات التي يتخللها الشارع مكتظة بالرجال والنساء، جاؤوا للاستقبال والتفرُّج، حتَّى إن البعض منهم كان قد استأجر دكَّاناً، ليجلس فيه ساعة الاستقبال، كانت الطريق مزدحمة إلى الحدِّ الذي لن تجد فيها ممراً غير ممراً العربة.

بعد اجتياز الشارع، بلغنا سوقاً⁽¹⁾ مسقفاً على الطراز الإيراني، من ثمَّ دخلنا سوقاً آخر جديداً، كان قد أمر ببنائه مدحت باشا⁽²⁾ إبان ولاية الشام، كان سوقاً واسعاً مرتفعاً، سقفه من الخشب، وقد أجادوا في بناء الحوانيت على جانبيه، وكلَّما وصلنا إلى مخفر، كان الجنود يصطقون أمامه، ويقومون بأداء واجب الاحترام العسكري، وكنا نردُّ عليهم، أيضاً، بالتحية العسكرية، ونمضي.

بعد أن قطعنا مسافة السوق، دخلنا زقاقاً على اليمين، ينتهي به المطاف إلى عمارة معالي حسن قوتلو التي تمَّ تخصيصها لإقامتنا من قبل ولاية الشام، وهي من أبهى عمارات المدينة، فدخلناها قبيل الغروب بأربع ساعات.

وجدناهم قد وضعوا أقواساً من أغصان النارج المورقة على بوابة الزقاق، ومزينة بمصابيح، يشعلونها ليلاً، تنير المساحة لمسافة خمسين قدماً، دخلنا غرفة موشاة بالزينة، برفقة أصحاب المناصب الذين قدِّموا لاستقبالنا، وجلسنا لاحتساء القهوة وتدخين النارجيلة، ثمَّ ذهبنا إلى غرفة أخرى، يُسمونها الصالون، فجلسنا على الطاولة، وتناولنا الطعام، ثمَّ غادر الحاضرون.

(1) هو سوق الحميدية، بُني بشكله الحالي في عهد السلطان عبد الحميد الأوَّل عام 1780 م، وأخذ اسمه من أيَّام ذلك السلطان العثماني. (المترجم).

(2) سوق مدحت باشا، أنشئ عام 1878 م في عهد ولايته على دمشق، يقع في قلب دمشق القديمة، ومواز لسوق الحميدية. (المترجم).

ذهبتُ مساءً إلى حمّام في السوق، كان قد تمَّ إخلاؤه لنا بأمر من حكومة الشام. حمّامات الشام في غاية روعة التصميم والرونق، بحيث يعجز اللسان عن وصفها. خرجتُ من الحمّام بعد مضي ساعة من الليل.

جاءني زائراً كلُّ من أحمد أفندي كاتب السرِّ وأمين الختم، برفقة تحسين بيك محاسب مركز اللواء، وحلمي بيك مدير مركز التحريرات، وحسن فهمي أفندي مفتش الأملاك، ومراد أفندي شقيق حسن قوتلو، فتلاطفتُ معهم، ثمَّ انصرفوا.

كلُّ هذه الأيام التي مكثناها في الشام قضيناها ليل نهار في بيت حسن قوتلو، وكنا ضيوفاً على الحكومة، وقد بذل خواصُّ خدام الوالي جهداً طيباً في أمور الضيافة، فقد قاموا بإعداد البيت وتزيينه وتوفير المستلزمات قبل يومين من وصولنا.

كانت الغرفة الخاصّة بي وبنجلي ومعالي الحاجّ ملأ باقر منفصلة، وكانوا يشعلون الثرّيات والمصابيح والفنارات ليلاً، فيغدو المنزل مضيئاً، وكأننا في وضح النهار.

بيت حسن قوتلو يضمُّ ساحتين خلفيتين، وساحة رئيسة مستطيلة محاطة بالغرف الأرضية والعلوية من الجهات الأربع، وقد نصبوا على الجدران سياجات حديدية، من كلِّ الجهات، وفي وسط الساحة المرصوفة بالأحجار المشجرة الشفّافة حوض مستدير، وهذا النسق متداول في كلِّ أرجاء الشام، إذ كانوا يقومون بتزيين أرضيات العمارات والحمّامات بالأحجار الموشّاة.

على مقربة من النوافذ، غرسوا أشجار السرو والزهور، وعملوا منها أشكالاً هلالية، وأحاطوها بالحجارة، لتسهيل سقايتها باليد، لقد كانت عمارة جميلة ذات صفاء وبهاء، وقلّما تجد بناية تماثلها.

إحدى الساحات الخلفية كان لها معبر إلى الرقاق الخارجي، ومنه إلى الساحة المستطيلة، والثالثة كانت خاصّة، بنوا فيها صالوناً، في وسطه حوض ماء، كانوا يُسمّونه القاع⁽¹⁾، وهو في حقيقته لا يعدو أن يكون غرفة مسقّفة ومذهّبة، في وسطها حوض للمياه المتدفّقة، ولأنّ الجوّ بارد غطّوا الحوض بلوح خشبي، يعلوه قماش من الحرير الأحمر، فأصبح على هيئة طاولة. كانت الغرفة مزينة بأصناف الأواني الصينية المصنوفة على الرفوف، وهي في غاية التميّز.

بعد تناول العشاء، ذهبنا لتلك الغرفة، وجلسنا لاحتساء القهوة وتدخين النارجيلة، علّقت صورة على الجدار، فجاؤوا بها لأشاهدها، الصورة من عمل امرأة خيّاطة، قامت برسمها، وكأنها تمثال يلمس باليد، فبدت في غاية الجمال، وكما ذكر حسن قوتلو إنها صورة أحد السلاطين العثمانيين.

واظب على خدمتنا ليل نهار بتكليف من معالي والي الشام كلّ من أصحاب المعالي إسماعيل بيك قرّ آقاسي، وشكيب بيك اليوزباشي، ومحمّد بيك اليوزباشي، وعزّت أفندي الملازم الثاني، وتوفيق أفندي الملازم الثالث، وأمين أفندي من طاقم دائرة الإشراف، ويحيى أفندي النقيب، وكامل أفندي، وسليم أفندي الدهباشي، وبكر أفندي، يرافقه عشرون من العساكر، ومحمّد آغا الملازم، وعشرة من حرس الحدود.

حين دخولنا كان معالي حمدي باشا مسافراً إلى بيروت، وفور عودته جاء لزيارتنا، فجلسنا للحديث معه، وقد كان إنساناً لبيباً.

الشام

وإن كانت مفردة الشام اسم يُطلق على عموم مملكة الشام، إلّا

(1) القاع: ويُطلق عليها اسم أرض الديار أيضاً. (المترجم).

أنه اختصَّ بمدينة دمشق التي هي من أقدم مُدُن العالم، كونها مقرَّ الحكومة والولايات، فصار الاسم يُطلق على المدينة ذاتها، لأنها وجهة الزائرين لجمالها ورحابتها، وهناك ثلاث لغات في لفظ الشام، هي: الشام، والشَّام، وشِام.

أطلق اسم الشام على هذه المملكة عام 634 ميلادي حين انتصر المسلمون على كِفَّار العرب، بسبب موقعها من الكعبة المشرفة الذي يوافق جهة الشَّمَال من مكَّة، كما سُمِّيت اليمن باسمها، لأنها تقع على يمين الكعبة.

تمَّ تقسيم البلاد التي تنضوي تحت اسم الشام إلى خمسة أقسام، وأطلقوا لفظ الشامات عليها جمعاء:

الشام الأولى: فلسطين التي تضمُّ رامَ الله والقُدسَ الشريفَ وعسقلانَ والنَّبِطِيَّةَ⁽¹⁾ ونابلس وعرَّة.

الشام الثانية: حوَّزان ومن ضمنها مدينة طبرية التي عبرنا من قراها حين ذهبنا إلى الشام.

الشام الثالثة: الغوطة⁽²⁾ التي تُعتبر مدينة دمشق من مُدُن تلك المعمورة. تبعد الغوطة عن دمشق فرسخين، وكما ذكر أصحاب السير والتواريخ أنها من الجنَّات الأربعة على الأرض، والثلاث الأخرى هن سفد⁽³⁾ سمرقند، وشِعْب بَوَّان⁽⁴⁾، ونهر الأُبلة⁽⁵⁾؛ والغوطة أفضلها، لأنها تبلغ من

(1) النَّبِطِيَّة: وردت في الكتاب (سمبطية). (المترجم).

(2) الغوطة: وردت في الكتاب (غرطة). (المترجم).

(3) سفد أو سفد: هي واحدة من ولايات طاجيكستان، وتقع بالشَّمَال الغربي للبلد. (المترجم).

(4) شِعْب بَوَّان: هو من المتنزهات الأجمَل في الدنيا، كثير الشجر والمياه، يقع قرب مدينة بَوَّان في بلاد فارس في الطريق إلى شيراز، والشِعْب هو المنفَرَج بين جبلين، ومغانيه طيِّبة، تروق الناظر، ووصفها المتنبي في شِعْره. (المترجم).

(5) نهر الأُبلة: مدينة قديمة بالعراق قريبة من البصرة، وتُعرف بنهرها، قال ابن بطوطة عنها: وعلى

الطول ثلاثين ميلاً، ومن العرض خمسة عشر ميلاً، وكلُّ هذه المساحة زاخرة بالأنهار والأشجار المتلاحمة، وكأنها بستان واحد، فلم ترتقِ إلى رحابها وبهائها إحدى الجنّات الثلاث الأخرى.

الشام الرابعة: حمص.

والشام الخامسة: هي قنسرين⁽¹⁾، ومدينة حلب تعود لها.

وفي عهد الحُكم العثماني قسم السلاطين الأوائل الشام إلى قسمين، الأوّل السوري ويتألف من ولايتين، هما ولايتا حلب ودمشق، والقسم الثاني الفلسطيني، وقسم إلى ولايتين، هما صيدا والقدس الشريف.

لكن المتأخرين من السلاطين أطلقوا لفظ سورية على عموم المملكة، ثمّ انقسمت إبان عهد السلطان عبد العزيز إلى قسمين، هما ولاية حلب وولاية سورية، بمركزية مدينة دمشق، وكان القدس الشريف ضمن ولاية سورية، إلّا أنه ونظراً لتّساع رقعته، ومكاته الدنيّة، كان منفصلاً، ويخضع لإشراف الباب العالي⁽²⁾.

حدود الشام

تصل حدود الشام شمالاً إلى آسيا الصغرى، وجنوباً إلى جزء من بلاد العرب، يُسمّى تيه بني إسرائيل، وشرقاً إلى العراق، وهي بادية، وغرباً إلى بحر الروم.

جانبي هذا النهر بساتين وقصور متّصلة، كأنها بستان واحد، قد مُدّت على خيط. (المترجم).

(1) قنسرين: وردت في الكتاب (قيسرين)، وهي مدينة أثرية في هضبة حلب الجنوبية، يبعد الموقع نحو 40 كم عن مدينة حلب، وتاريخياً كانت قنسرين ذات أهميّة كبيرة بالنسبة إلى الكنيسة السريانية الأرثوذكسية. (المترجم).

(2) الباب العالي: مقرّ الحكومة العثمانية، أو الديوان السلطاني. افتتحه محمّد الفاتح بعد أن توسّعت رقعة الدولة العثمانية، وكان يرأسه الصدر الأعظم. (المترجم).

ألقاب الشام

للشام أربعة ألقاب، يستخدمها الأدباء والفصحاء في كتاباتهم شِعْراً
وَنَثْراً:

الأوّل: دمشق، وقيل في سبب تسميتها إن مَنْ بناها هو دمشق بن
كنعان، أو دمشق بن نمرود.

الثاني: جيرون، وقيل في تسميتها إنها بُنِيَتْ على يد جيرون بن سعد
بن عاد بن عوص بن دمشق.

الثالث والرابع: هما جِلْقُ⁽¹⁾، والقَيْحَاءُ⁽²⁾، ولم يذكر سبب تسميتهما.

أقسام الشام وأبوابها

تنشطر مدينة الشام إلى شطرين، أحدهما داخل السور، والآخر
خارجه، فما كان داخل السور هو البناء القديم للمدينة، والذي آل إلى
الخراب على مرّ العصور، ولم يبق سوى مخازن للعتاد العسكري التي
قاموا بإعادة إعمارها، والشطّر الذي خارج السور هو القسم الجديد
الذي تمّ بناؤه في العهد الإسلامي، ولكلّ منهما أبواب.

سَقُّ المدينة التي داخل السور له ثمانية أبواب، وقد ذكرها شاعر
بقوله:

دمشق في أوصافها جنةٌ خُلد راضية

(1) يقول ياقوت الحموي في العصر الأيوبي عنها: جِلْقُ: بكسرتين وتشديد اللام وقاف؛ كذا
ضبطه الأزهرى والجوهري، وهي لفظة أعجمية، ومن عَرَبِها قال: هو مَنْ جَلَّقَ رأسه إذا حَلَقَهُ؛
وهو اسم لكورة الغوطة كلها، وقيل بل هي دمشق نفسها. (المترجم).

(2) القَيْحَاءُ: هي المكان الواسع الفسيح. (المترجم).

أَمَا تَرَى أَبْوَابَهَا قَدْ جُعِلَتْ ثَمَانِيَةً؟⁽¹⁾

فللمدينة أربعة أبواب في شَمَالِهَا، الأَوَّلُ يُسَمَّى بابُ تُوْمَا⁽²⁾، والثاني باب السلام، والثالث باب العَمَارَةِ، وَيُسَمَّى بابُ الفَرَادِيسِ⁽³⁾، والرابع باب البَوَابِجِيَّةِ، وَيُطَلَقُ عَلَيْهِ بابُ الفَرَجِ⁽⁴⁾، وقد تمَّ تجديدُ بِنَائِهِ فِي عَهْدِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي بَكْرِ بْنِ أُيُوبَ⁽⁵⁾. يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدِ الْغَنِيِّ النَّابِلْسِيُّ⁽⁶⁾ فِي وَصْفِ بابِ الفَرَجِ:

قُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جِلْقٍ، وَأَنْسِبْ لَهَا، وَلَا حَرَجَ
فَالخَيْرُ وَالْيَمْنُ بِهَا، وَبَابُهَا بابُ الفَرَجِ

وباب في جنوبها يُسَمَّى بابُ الثَّاعُورِ، وَيُطَلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ البَابِ الصَّغِيرِ⁽⁷⁾ أَيْضاً. وَفِي شَرْقِهَا بابٌ، يُطَلَقُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ اسْمَ بابِ

(1) قائل البيت أحد المتأخرين من مدينة دمشق، ولم يُعَرَفْ اسْمُهُ. (المترجم).

(2) باب تُوْمَا: سُمِّيَ بابُ تُوْمَا بِهَذَا الاسْمِ نَسْبَةً إِلَى القَدِيسِ تُوْمَا أَحَدِ رُسُلِ المَسِيحِ الاثْنَيْ عَشَرَ، حَيْثُ كَانَتْ دِمَشْقُ مَقْصِدًا وَمَنْطَلِقًا لِلرُّسُلِ والقَدِيسِينَ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ. (المترجم).

(3) بابُ الفَرَادِيسِ: نُسِبَ قَدِيمًا إِلَى مَحَلَّةِ الفَرَادِيسِ خَارِجِهِ. (المترجم).

(4) بابُ الفَرَجِ: سُمِّيَ بِالفَرَجِ لِمَا وَجِدَ مِنَ الفَرَجِ لِأَهْلِ البَلَدِ عِنْدَ فَتْحِهِ، كَمَا عُرِفَ فِي العَهْدِ العُثْمَانِيِّ بِاسْمِ بابِ البَوَابِجِيَّةِ، لِوُجُودِ سَوَاقِينِ لِصَنْعِ البَوَابِجِ (الأَحْذِيَّةِ) هُنَاكَ، وَحَالِيًا يُدْعَى بابُ المَنَاخَلِيَّةِ، لِوُقُوعِهِ فِي سَوَاقِ المَنَاخَلِيَّةِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ الأُخْرَى: بابُ الخَلَّاصِ. (المترجم).

(5) سَيْفُ الدِّينِ أَبُو بَكْرِ بْنِ أُيُوبَ: المَلِكُ العَادِلُ سَيْفُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الشُّكْرِ أُيُوبَ بْنِ شَاذِي بْنِ مَرَّوَانَ، المَلَقَّبُ بِالمَلِكِ العَادِلِ أَبِي بَكْرٍ، 538 - 615 هـ شَقِيقُ المَلِكِ النَّاصِرِ صَلاَحِ الدِّينِ الأيُّوبِيِّ وَأَحَدُ مَلُوكِ الدَّوْلَةِ الأيُّوبِيَّةِ. (المترجم).

(6) الشَّيْخُ عَبْدِ الْغَنِيِّ النَّابِلْسِيُّ: عَبْدِ الْغَنِيِّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَبْدِ الْغَنِيِّ النَّابِلْسِيِّ الدَّمَشْقِيِّ الحَنْفِيُّ 1050-1143 هـ، شَاعِرٌ شَامِيٌّ وَعَالِمٌ بِالدِّينِ والأَدَبِ، وَرَحَّالَةٌ مُكَثِّرٌ مِنَ التَّصْنِيفِ. (المترجم).

(7) البَابُ الصَّغِيرُ: أُطْلِقَ العَرَبُ عَلَيْهِ اسْمَ البَابِ الصَّغِيرِ، لِأَنَّهُ أَصْغَرُ الأَبْوَابِ، وَهُوَ بِالسَّرْيَانِيَّةِ رُكُورَتَا، أَيْ صَغِيرٌ، وَعُرِفَ بِالعَهْدِ العُثْمَانِيِّ بِاسْمِ بابِ الحَدِيدِ، لِأَنَّهُ كَانَ مُدْعَمًا بِصَفَائِحِ حَدِيدِيَّةٍ، وَأُطْلِقَ عَلَيْهِ أَيْضاً اسْمُ بابِ الجَابِيَّةِ الصَّغِيرِ، وَبَابِ الشَّاعُورِ.

كِيسَان⁽¹⁾، والنصارى يُسمُّونه باب بُؤْلَس، ولأن السلطان سليم دخل من هذا الباب حين قدومه إلى الشام، قاموا بإغلاقه منذ ذلك اليوم إجلالاً له، وللمدينة بابان في الجهة الغربية، الأوَّل يُسمَّى باب الثُّرَيَّا، والثاني باب الجَابِيَّة⁽²⁾، والمعروف أنهم أدخلوا أهل بيت سيِّد الشهداء، صلوات الله عليه وآله، من هذا الباب، وفي خارج السور ثلاثة أبواب، لم يُسمَّوها، اثنان كبيران، والآخر صغير.

الشام بلد كثير المياه، يُسقى من سبعة أنهر، هي بَرْدَى، ويزيد، والديراني، وثورا، ونهر القنوات، وبانياس، وعَقْرِيَا، وتَفَرَّعَ كُلُّهَا من نهر بردى الذي تشعَّب وأصبح سبعة أنهر.

ولوفرة المياه، فإنك تجد المياه الجارية في عموم العمارات، لا سيَّما الأحواض الموجودة في معظم البيوت، والتي تُسمَّى القاع، وكما قيل: وفي بعض الدُّور قاعات فارهة مصبوغة بأجمل الأصباغ، في وسطها بَرَك، يجري فيها الماء باتِّصال، وهذه البرك والأحواض تجدها حتَّى في الأسواق، وبمحاذاة الجدران، والماء فيها متَّصل جار.

مناخ المدينة مُبهجٌ في كلِّ الفصول، ما عدا في فصل الخريف، إذ تكثر الحُمَّى والتهابات الصدر، وتُربة البلدة حمراء خصبة جدًّا، وغالباً ما تكون أراضيها خضراء نضرة.

في المدينة الكثير من الجوامع والمدارس والكنائس، وتفرَّق

(1) كَيْسَان: يقع حالياً في نهاية شارع ابن عساكر من الشرق. وكانت أبواب دمشق أيام الرومان تُسمَّى بأسماء الكواكب، فكان اسم باب كَيْسَان باب زُحَل نسبة إلى الكوكب، وكانت عليه صورة زُحَل، ويتميِّز الباب بجماله ونقوشه الرائعة. (المترجم).

(2) باب الجَابِيَّة: من أبواب دمشق الرومانية في الطرف الغربي للمدينة، وهو مُكرَّس لكوكب المشتري الذي يُمثَّل الإله (جوبيتر). (المترجم).

الخانات الكبيرة في أرجائها، وتشتهر بالحياكة والصباغة والبناء والخياطة والحِدادَة، وذاع صيت أهلها بصناعة السيوف، فالسيوف الدمشقية يُضربُ بها المثل.

مكتبة

t.me/soramnqraa

متنزهات الشام

لصفاء ماء الشام وطيب تربتها، ولطافة أجوائها، تعددت متنزهاتها التي تتوزع في أحيائها، منها متنزه الصُوفانيَّة⁽¹⁾، والطَّرِئَلَة، والمرجَة، والرَّبْوَة، وهو أفضلها: (وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)⁽²⁾، ويعتقد البعض أن الآية تشير إلى الربوة الموجودة خارج مدينة الشام، ولم يُسَعِفْنَا الوقت سوى لزيارة متنزهي المرجة والرَبْوَة.

عندما تعبر من محاذاة بردى، وعمارة والي الشام، وتتخطى الجسر يبدأ نهر المَرَجَة⁽³⁾، رصفوا جانبيه بالحجارة حتى مسافة أربع مئة قَدَم، ووضعوا القناطر قرب بدايته وفي وسطه وقبل نهايته، القنطرة الأولى والأخيرة من الحجارة، ولكلُّ منهما ثلاث عيون، والقنطرة الوسطى صُنعت من الحديد، وقد أحكموا بناءها، وأقاموا عليها جداراً من الجانبين، ولا عيون لها.

يبلغ عرض النهر عشرة أذرع، وعلى جانبيه تكثر العمارات والبساتين، وحديقة مدحت باشا تقع على يساره، والتي تُسَمَّى الحديقة الوطنية، تتوسطها عمارة مفتوحة الأطراف الأربعة، يضمُّ طابقها الأرضي غرفاً، والطابق العلوي عبارة عن شرفة ليلية تطلقة من جميع الجهات.

(1) الصُوفانيَّة: تقع بالقرب من باب توما. (المترجم).

(2) قرآن كريم، سورة المؤمنون، الآية 50.

(3) نهر المَرَجَة: متفرع من نهر بردى. (المترجم).

بعد النهر، وإلى جانب جبل كسيب الحمراء⁽¹⁾ ندخل الرِّبْوَةَ التي يجري من خلالها الماء، وقد كَسَتْهَا الخضرة، وجلَّتْهَا النضارة من الجانبين، وتكثر المقاهي على الضفَّتَيْنِ، وتنتشر العمارات حولها.

يضفي متنزُّه الرِّبْوَةَ على النَّفسِ صفاءً ونقاءً، ويشحن زائره بالحيوية والنشاط، ويبعث في داخله السرور، ونِعَمَ ما قيل في وصفه:

إِنْهَضُ إِلَى الرِّبْوَةِ مُسْتَمْتِعاً تَجِدُ مِنَ اللَّذَاتِ مَا يَكْفِي
فَالطَّيْرُ قَدْ عَنَى عَلَى عُودِهِ فِي الرُّوضِ بَيْنَ الْجَنكِ وَالذَّفِّ⁽²⁾

وقال المولوي⁽³⁾ في المثنوي:

إِذَا مَسَّكَ الْغَمُّ فَاتَّقِيهِ بِالْعِشْقِ
وَإِزْتَقِ الرِّبْوَةَ وَطَالِعْ دَمَشَقَ⁽⁴⁾

وعند اجتياز الرِّبْوَةَ تبدو ساحة دُمَّرَ⁽⁵⁾ ذات الأجواء اللطيفة، والطبيعة الخلَّابة، وفيها بعض العمارات.

الجامع الأموي

الجامع الأموي من أكثر المساجد شهرة في دمشق، قيل إنه بُني في عهد سليمان بن داود⁽⁶⁾.

(1) جبل كسيب الحمراء: لم يتم العثور على اسم المكان. (المترجم).

(2) القائل صلاح الدِّين خليل بن أبيك الصفدي، (صفد، 696 هـ- دمشق، 10 شَوَّال 764 هـ). (المترجم).

(3) جلال الدين محمَّد البلخي (604هـ- 672هـ) وهو صاحب المثنوي المعنوي، والطريقة المولوية. (المترجم).

(4) الشَّعْرُ بالفارسية. (المترجم).

(5) دُمَّرَ: وردت في الكتاب دمار، وتُسَمَّى أيضاً بساحة الأُمويِّين. (المترجم).

(6) عندما أراد الوليد بن عبد الملك إعادة بناء المسجد الأموي، وجد حجراً، عليه نقوش، فأحضر

كان هناك كنيسة بمحاذاة المسجد، تمّ ردمها، وإلحاق أرضها بالجامع، وأُعيد الإعمار بأمر من الوليد بن عبد الملك بن مروان في عام 89 للهجرة، وقد أحكموا بناءه بإتقان تامّ.

للمسجد عشرون عموداً في طوله، وعمودان في عرضه، وأربعون أسطوانة في كلّ الجهات. يعتقد معظم أهل الشام، وهم من أتباع محيي الدّين بن عربي، أن العمود الشرقي من الجامع الأموي الواقع في انتهاء الصّفّ الأوّل هو مكان هبوط النبي عيسى، عليه السلام، في دمشق آخر الزمان، وأنه سوف ينزل على الأسطوانة البيضاء، ويقع ضريح رأس النبي يحيى في قلب الجامع.

يبلغ طول المسجد مئتي قَدَم، وعرضه مئة وخمسين قَدَمًا، وله ثلاثة أبواب، باب في الطرف الجنوبي، وباب في أوّل المسجد، وآخر في آخره، وله اثنتان وعشرون نافذة، تُفْتَح نحو الصحن في الصيف.

يقع المصلّى الحنبلي أيسر الباب الجنوبي، والمصلّى الشافعي على يمينه، والمصلّيّان الحنفي والمالكي جهة شمّال الجامع.

صحن الجامع الأموي

صحن الجامع الأموي واسع جدًّا، أنشؤوا فيه عشرة أبواب، لكلّ باب اسمه، بابان في الطرف الجنوبي، أحدهما باب العبرانية⁽¹⁾، ويُسمّى باب الساعات كذلك، والآخر باب الزيادة، وفي الطرف الشّمالي أربعة

وَهَب بن مُنَبّه من صنعاء، وهو خبير في قراءة النقوش القديمة، فلمّا قرأها حدّد أنها ترجع إلى أيام سليمان بن داود، عليهما السلام. (المترجم).

(1) باب جيرون: هو الذي يُسمّى بباب الساعات، ولم نعثر على باب العبرانية. (المترجم).

أبواب، أحدها باب الفَرَادِيس، والآخَرُ باب السُّلْسِلَةِ⁽¹⁾، والبابان الآخَران، أحدهما صغير، والثاني كبير، وغير مُسمَّين، وباب في الطرف الشرقي، يُسمَّى باب جيرون، وباب في الطرف الغربي، أطلقوا عليه اسم باب البريد⁽²⁾، وأنشؤوا وسطه قَبَّة، كتبوا عليها هَذَيْن البيتين:

عَرَّجَ رِكَابَكَ عَنِ دِمَشْقَ فَإِنَّهَا بِلَدِّ تَذَلُّ لَهَا الْأَسْوَدُ وَتَخْضَعُ
مَا بَيْنَ جَانِبَيْهَا وَبَابِ بَرِيدِهَا قَمَرٌ يَغِيبُ وَأَلْفُ بَدْرِ يَطْلَعُ⁽³⁾

وفي الصحن قَبَّتَان، بناهما السلطان العثماني، إحداهما تقع بمحاذاة الليوان الشرقي، وفيها الميقات، إذ وضعوا الساعة فيها، والقَبَّة الأخرى بمحاذاة الليوان الغربي، تُظَلُّ حوضاً في وسطه نافورة، يتدفَّق منها الماء.

قيل إنه عندما أمر السلطان ببناء هَاتَيْنِ القَبَّتَيْنِ، اعترض عليه علماء أهل السُّنَّة بأنه لا يجوز التصرُّف بأرض المسجد، وكلي لا يخالف العلماء، قام ببناء قَبَّة حوض الماء، بحيث يستطيع المؤدِّن أن يرتقيها، ليؤدِّن من فوقها، وبنى قَبَّة الميقات، وأبقى بابها مفتوحاً أمام مَنْ أراد الصلاة فيها.

هنالك قَبَّة أخرى خلف قَبَّة حوض الماء، وهي من الأبنية القديمة، ولا أحد يعلم سبب بنائها. قيل إن أحد وزراء الشام فتح باب القَبَّة، ليرى ما فيها، فلم يجد شيئاً غير الكُتُب.

وهناك ليوان في نهاية الصحن من الجهة الشرقية، فيه باب يُفْتَح نحو مسجد رأس سيِّد الشهداء، عليه السلام.

(1) السُّلْسِلَةُ: محلَّة في دمشق القديمة، تُجاور الجامع الأموي من الشَّمال الغربي. (المترجم).

(2) ورد اسم الباب في الكُتُب البريدية، والبريد هو أحد أحياء دمشق القديمة، وهو الباب الغربي لمعهد جويتر الدمشقي، بين سوق الحميدية والمسكِيَّة، يقع قرب المسجد الأموي. (المترجم).

(3) قائل الأبيات علي بن رضوان الساعاتي. (المترجم).

مسجد الرأس

يتكوّن مسجد الرأس من ثلاثة مساجد متداخلة مع بعضها، وقد اتّخذها يزيد مجلساً عندما أدخلوا عليه أهل البيت.

المسجد الأوّل أطول من الثاني، والثاني أطول من الثالث، وقلب المسجد الأوّل مرصوف بأحجار مرّبعة ملساء، وله نافذتان تُطلّان على الليوان لإنارته، وبمحاذاة المسجد الثاني بركة متّصلة بالجدار الشرقي، يُعتَقَد أن جريان الماء فيها من معجزات الإمام السجّاد، عليه السلام، وإلى أعلى البركة مقام يشبه الضريح، يبلغ طوله ذراعين، وعرضه ذراع واحدة، قيل إنه مكان جلوس الإمام السجّاد حينما أُحضِر إلى مجلس يزيد، وهناك منفذ في الجدار يبلغ طوله شبرين مُسدّلة عليه ستارة، وإلى جانبه باب يُفْتَح نحو المسجد الثالث، يحتوي ضريحاً، طوله قرابة ذراع ونصف، وعرضه ثلاثة أرباع الذراع الواحدة، مُغطّى بكسوة خضراء، ومن فوقه قبة صغيرة، يضمُّ رأس الحسين.

وفي زاوية المسجد، وضعوا راية مَحْمَل الحجّ الشامي، وساريتها مصنوعة من الذهب الخالص.

يوم الخميس، التاسع عشر من صَفَر، كنتُ أنوي زيارة معالي والي باشا ومشير باشا، فبعد تناول الغداء، أحضروا العربة، ذهبتُ أنا وحَسَن باشا لزيارتهم، كان والي باشا قد أعدَّ العساكر والفرقة الموسيقية عند الباب، فقاموا بأداء واجب الاحترام العسكري، وجاءنا مستقبلاً حتّى السلاّم.

صَعِدْنَا الدرج، ودخلنا إلى الغرفة، وانشغلنا بالحديث، فوجدناه رجلاً لبيباً مجرّباً ومتواضعاً، لم يبالغ في تزيين بيته، وبعد انتهاء المجلس، خرجنا، وقصدنا بيت مشير باشا.

اصطفت الفرقة الموسيقية في الجُنَيْنة أمام المنزل، وعلى الجانب الآخر اصطفت العسكر لأداء التحية العسكرية، وجاء مشير باشا بنفسه مستقبلاً لي أمام العربة، فأخذ بيدي، وأدخلني إلى عمارته. تجاذبنا أطراف الحديث، وبعد انتهاء المجلس، عدتُ أدراجي إلى البيت.

يوم الجمعة، العشرون من صَفَر، أحضروا العربات مساءً، فقصدتُ ونجليَّ وخواصَّ الأصحاب الرُّنْبِيَّةَ من باب الشاغور⁽¹⁾، المسافة إلى هناك تستغرق ساعة ونصف، فسرنا في طريق محفوفة بالخضرة من الجانبين. شاهدنا قَبْتَيْنِ إلى جهة اليسار، وقرية إلى جهة اليمين تُسَمَّى بييلا⁽²⁾، تقع الرُّنْبِيَّةَ في قرية راوية⁽³⁾، وقُبالة المسجد عمارة فخمة، تعود لسعيد آغا الموصلِي، وهناك حمامٌ تمَّ بناؤه حديثاً.

مسجد الرُّنْبِيَّةَ وصحنه

عند دخول مسجد الرُّنْبِيَّةَ من خلال الباب الواقع في الزاوية اليمنى من الليوان، يمرُّ الداخل من بين حجرات على طرفي بهو، يُوصِلُ إلى ساحة غير مسقوفة، لها باب يُفْتَحُ على صحن، يبلغ طوله عشرة أذرع، وفي قلبه بركة مستديرة، زينتوا نصفها الأعلى بالأحجار، وتركوا نصفها الآخر دون تزيين، وفي أعلى الصحن إلى الجانب الشرقي ليوان، يتوسَّطه عمود، وعلى يمينه في الطرف الجنوبي منصَّة ممتدَّة، تنتهي إلى بئر، فمئذنة، لها اثنتا عشرة درجة.

المسجد متساوي الطول والعرض، يقوم على أربعة أعمدة في

(1) باب الشاغور: وردت في الكتاب (ثاغور). (المترجم).

(2) بييلا: وردت في الكتاب (أبايله). (المترجم).

(3) راوية: وردت في الكتاب (راوية). (المترجم).

طوله، ومثلها في عرضه، وفي وسطه أربع أساطين مرتّعة، ترتفع عليها قبة البقعة الرّئيبيّة، بابها في الطرف الجنوبي، وله أربع ممرّات مسيجة بالحديد، ونافذتان تُفتّحان على اللّيوان.

يقع الضريح المبارك المهيأً من الخشب على بُعد ذراعين وفي وسط البقعة، وفي السنوات الأخيرة، قام أحد التجّار بإعادة إعمار المسجد والبقعة، وقبر والدة معالي قائد الجيش الأعظم يقع في هذا المسجد بمحاذاة المنبر.

اليوم يصادف الأربعينية⁽¹⁾، فانشغلتُ بقراءة زيارة الأربعين بعد فراغي من زيارة بقعة المظلومة، وبعد صلاة الفريضة، قام اثنان من المدّاحين الأتراك بذكر مصائب أهل البيت؛ فرقت قلوبنا لمصّابهم؛ ثمّ خرجنا وجلسنا في الصحن، وأحضر لنا درويش أفندي وسليم أفندي متولّيًا البقعة بعض المكسّرات، كان الميرزا يوسُف آغا، والميرزا إسحاق مستوفي أذربيجان من ضمن مَنْ حضروا معنا.

يوم السبت، الحادي والعشرون من صَفَر، ذهبنا مساءً للجامع الأموي، وبعد زيارة رأس النبي يحيى، عليه السلام، دخلنا مسجد رأس الحسين، ومن هناك قصدنا مقبرة السيّد صلاح الدّين، وهو أحد سلاطين الشّام.

مقدّمة مقبرته كانت مسقوفة، وبقعته مرتّعة، وقد زيّنوا الجدران إلى النصف بالقيشاني الأزرق المعرّق، وكأنه قيشان صيني، كان في غاية المهابة، وقد كتبوا على جانب من جوانب القبر: تجددت هذه المقبرة في ألف ومئتين وخمس وتسعين. وُلد في قلعة تكرت في خمس مئة

(1) أربعينية الحسين هو اليوم العشرون من شهر صَفَر، والذي يوافق مرور 40 يوماً على مقتل الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب في معركة كربلاء. (المترجم).

واثنين وثلاثين، مدّة سلطنته عشرون سنة. تُوفي يوم الأربعاء في تسعة وعشرين صَفَر سنة خمس مئة وتسع وثمانين. وكان قبر نجله إبراهيم في البقعة ذاتها.

رجعنا إلى صحن الجامع الأموي، وخرجنا من الباب الشّمالي الأوسط، وبعد مرورنا بزقاق أو زقاقين، وصلنا إلى باب بقعة السيّدة رُقَيّة المباركة الواقعة يسار السوق عند الطرف الغربي.

بقعة السيّدة رُقَيّة عليها السلام

الباب يفضي إلى بهو قصير، يجتازه السائر، ليدخل ساحة واسعة مسقّفة، في وسطها بركة، ومنها إلى المسجد الذي يبلغ طوله قرابة ستّة أذرع، وعرضه خمسة أذرع، وفي الطرف الشرقي منه مصطبة، وباب في إحدى زوايا الطرف الشّمالي، حيث المدخل إلى البقعة المباركة، وهي مربّعة، وغير واسعة، وفي الطرف الجنوبي، ضريح خشبي مستطيل متّصل بالجدار، طوله ذراعان، وعرضه ذراع واحدة، ومن بعده محراب، يليه منفذ مربع، قيل إن هذا المكان هو تلك الخربة التي وضعوا فيها أهل البيت، الضريح مكسوّ بغطاء مُذهب ومُزَيّن برسوم الورود، قيل إنه موضع رأس سيّد الشهداء، عليه السلام، وإلى جانبه قبر، عليه كُسوة حريرية سوداء، يعتقد السكّان أنه موضع دَفن يدي العباس، عليه السلام.

ويقال إن قبر الإفرنجي⁽¹⁾ الذي كان حاضراً في مجلس يزيد وقتل موجود هناك.

(1) قبر الإفرنجي: لم نعثر على الاسم. (المترجم).

بعد التفرُّغ من الزيارة، قصدنا ملاقة الأمير عبد القادر باشا المغربي⁽¹⁾، وهو من ملوك الجزائر تمَّ نفيه من قبل الحكومة الفرنسية إلى الشام. وخصَّصت له ستُّ مئة ليرة مرتباً شهرياً. جلسنا في عمارته قرب بركة الماء، وبعد تجاذب أطراف الحديث واحتساء القهوة والشربات، غادرنا المكان.

ركبنا العربة قاصدين الصالحية برفقة حُسينُ باشا، وهو من أركان الحرية، وبرفقة عدد من العساكر، مررنا من الجسر الذي كان على نهر بردى، وقد ذكرنا تفاصيله في الحديث عن متنزه المَرْجَة، بعد عبورنا، دخلنا شارعاً، كان قد شيَّده قبل عام مدحت باشا إبان حكمه الولاية، على يسار الشارع مشفى، يتشكَّل من طوابق أرضية وعلوية، أبوابه تُفَتِّح على الشارع، يُسمُّونه خسته خانة، وعلى يمينه، تقع عمارة الكمباني⁽²⁾، وهي عمارة جيِّدة، ومن هنا تبدأ الصالحية التي تقع في جبل قاسيون، وتنتشر فيها بيوت ليست ذات شأن على طرفي الشارع.

ورد في وجه تسمية الصالحية أن الشيخ أبا عمر الجماعيلي المقدسي⁽³⁾ المتوفى عام 607 قام ببناء مدرسة، وبما أن أصحابه كانوا من الصالحين سُمِّيت تلك الناحية بالصالحية، وقد قيل في وصف الصالحية:

الصَّالِحِيَّةُ جَنَّةٌ، وَالصَّالِحُونَ بِهَا أَقَامُوا

فَعَلَى الدِّيَارِ وَأَهْلِهَا مِنِّي التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ⁽⁴⁾

(1) الأمير عبد القادر بن محيي الدِّين، المعروف بعبد القادر الجزائري، وهو كاتب وشاعر وفيلسوف وسياسي وفارس، خاض معارك ضدَّ الاحتلال الفرنسي للدفاع عن الوطن. نُفي إلى دمشق، وتُوفِّي فيها يوم 26 مايو 1883م. (المترجم).

(2) عمارة الكمباني: مبنى الشركة الفرنسية التي نُفِذت فُتِح الطريق بين دمشق وبيروت. (المترجم).

(3) محمَّد بن أحمد بن قُدَّامة بن مقدَّام بن نصر أبو عمر، الإمام الحبر الفقيه الزاهد الحجَّة شيخ الإسلام المقدسي الحنبلي. (المترجم).

(4) الشُّعْر لابن قاضي الجبل المتوفى سنة 771 هجرية. (المترجم).

بعد أن قطعنا مسافة، بلغنا زقاقاً نحو الشرق، كانت الطريق في البداية متسعة وسهلة، وعندما نصل إلى ارتفاعات وانخفاضات، كنا نمتطي الخيل، تكثر الدكاكين والعمارات يمين وشمال الزقاق، وفي نهايته وإلى جهة اليمين يقع مسجد محيي الدّين ومقبرته، قيل إن أصحاب الكهف مدفونون هنا.

دخلنا مسجد محيي الدّين والصحن والمقبرة، وقرأنا الفاتحة، ثم عدنا إلى المنزل. وقد جاءنا ليلاً كلُّ من الوالي باشا، والمشير باشا، وسعيد باشا، فجلسنا لعدّة ساعات، ثم انصرفوا.

محيي الدّين العربي

هو محيي الدّين بن أحمد بن عبد الله، وقد اشتهر بالحتمي. إمام الصوفية وشيخ طريقها. وُلد في عام 560 للهجرة، ووافته المنية ليلة الجمعة الموافق الثاني والعشرين من ربيع الثاني سنة 638 للهجرة. كان يسكن دمشق، وينشر العلوم فيها، وقيل في تاريخ وفاته:

**إِنَّمَا الْحَاتِمِيُّ فِي الْكَوْنِ فَرَضٌ وَهُوَ عَوْتُ وَسَيِّدٌ وَإِمَامٌ
إِنْ سَأَلْتُمْ مَتَى تُوْفِّي حَمِيداً، قَلْتُ: أَرَحْتُ مَاتَ قُطْبٌ هُمَامٌ⁽¹⁾**

ولم يكن قبره معلوماً في عهد سلاطين آل عثمان، فقدم السلطان سليم إلى الشام، وعثر على قبره، فبنى له مدرسة عظيمة، وجامعاً، وقام بتعيين أوقاف له، وهنالك عبارة شهيرة على لسان محيي الدّين تقول: إذا دخل السينُ في الشين ظهر قبر محيي الدّين. والمراد من السين السلطان سليم، ومن الشين الشام.

(1) قائل الأبيات الشيخ محمد بن سعد الكاشاني. (المترجم).

بقعة محيي الدّين ومسجده

من بهو واسع يصل السائر إلى صحن تتوسّطه بركة، ومنه إلى ليوان مسقوف من طرفيه، والليوان قائم على أربعة أعمدة في الطول، وهناك ليوان في الطرف الغربي من الصحن قائم على أربعة أعمدة أيضاً، ثمّ يدخل جامعاً ظريفاً، يشرف جداره الجنوبي على حديقة، تُفتَح عليها أربعة أبواب.

للمسجد أربع أساطين، وباب مقبرة الشيخ واقعة في زاوية الجدار الشرقي متّصلة بالزاوية الجنوبية، وسطح المقبرة منخفض عن سطح المسجد بقدر ستّ عشرة درجة صخرية، تُوصِل إليها.

بمحاذاة المقبرة، توجد ثلاثة قبور، قد وضعوا على كلّ منها عمّامة خضراء، القبران القريان من ضريح الشيخ محيي الدّين يعودان لأحفاده، والأبعد قبر محمّد أمين باشا المدفون فيها، المقبرة مستطيلة الشكل، يبلغ طولها ما يقارب العشرة أذرع، وفي الطرف الجنوبي منها بابان، يُفتَحان تجاه حديقة النارج، وفي الطرف الغربي، رُفٌّ كبيرٌ، يصل طوله إلى ذراع ونصف، وضعوا عليه كُتُب الشيخ، وإلى جانبه نافذة زجاجية، وفي الطرف الشرقي بابان، يُفتَحان نحو الحديقة، وفي شمالي المقبرة باب يرتفع عن سطح الأرض.

يقع ضريح الشيخ في وسط المقبرة، وكُتِبَ هذا البيت على طرفه الشرقي:

قَدْ كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ جَوْهَرَةً يَتِيْمَةً صَاعَهَا الْبَارِي مِنَ النُّطْفِ

وفي الطرف الغربي كُتِبَ البيت:

عَزَّتْ، فَلَمْ تَعْرِفِ الْاَيَّامَ قِيَمَتَهَا فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَى الصَّدْفِ

وعن تاريخ ترميم الضريح كُتب حوله:

مقامك محيي الدّين سامي النّرى وإن كُنْتَ محجّوباً بهذا الضريح
وأنت سرُّ الله في الأولياءِ وأنت مَنْ فيه يليقُ المديح
مصطفى باشا وزيرُ العلومِ وافيكَ في قلبِ سليمٍ صحيح
فأقبلت وأقبل منه شهرية يرجو بها التاريخُ خير تسبيح

ويُتّضح من هذه الأشعار أن مصطفى باشا وزير العلوم هو مَنْ قام
بإعادة إعمار الضريح في عام 1290 للهجرة، وقد كُتِب في جنوبي
الضريح هذا الشّعْر:

قبرُ محيي الدّين بن العربي كلُّ مَنْ لاذَ به أو زاره
فُضيت حاجاتُهُ من بعدما غَفَرَ اللهُ له أوزاره

يوم الأحد، الثاني والعشرون من صَفَر، لم يزرنا أحد، ولم نبرح مكاننا،
ففضيناها بالاستراحة.

يوم الاثنين، الثالث والعشرون من صَفَر، بعد تناول الغداء قصدنا
متنّه الرّبوة مُستقلّين العربية، مررنا بمحاذاة المَرَجَة وصولاً إلى القِشْلَة
الصغيرة⁽¹⁾ الواقعة إلى جهة اليسار، وكان فيها عشرة عساكر، بعد
اجتيازها، بلغنا مضيّقاً، يقع أوّل الرّبوة التي يتوسّطها نهر بردى والاحضرار
اليانع ينتشر على ضفّتيه.

الرّبوة في فصل الربيع أزهى ما تكون نضارة وعضارة، تُوشّيها الأزهار
والرياحين، وتعبق بشذى الورد، كان الأمير عبد القادر المغربي قد
بنى عمارة آخرها، وإلى جهة اليمين، من بعدها، وصلنا إلى ساحة دَمَّر.

(1) القِشْلَة الصغيرة: هي حديقة صغيرة، تقع في نهاية شارع الحجر المفضي إلى ساحة باب
توما، وبداية شارع الأمين في قلب مدينة دمشق القديمة. (المترجم).

كان كلُّ من أحمد باشا أفندي وراشد باشا قد بنيا عمارتَيْن جميلتي المنظر على يمين النهر، فدخلنا عمارة في قَمَّة الصفاء والتنميق على اليسار، تعود لشخص يهودي⁽¹⁾. بعد خروجنا منها، قصدنا عمارة الخواجة موسى اليهودي الواقعة إلى جهة اليمين، فرشوا أرضية الساحة كلها بالحجارة المستوية الملساء، تحيطها جُنَيْنَات، غرسوا فيها الأشجار، وفي الجانب الشرقي منصَّة، بنوا عليها ثلاثة أكواخ خشبية، وفي وسط الساحة، بركة ماء، لها ممرَّان من جانبيْن، وحديقة صغيرة خلف العمارة ذات رونق بهي.

يوم الثلاثاء، الرابع والعشرون من صَفَر، بعد الاستعدادات التي أخذت وقتاً طويلاً، سننطلق من الشام إلى بيروت، وحين المساء وقبل السَّفَر، جاء لوداعي كلُّ من الوالي باشا ومشير باشا.

بعد مضي إحدى عشرة ساعة من الليل، أوصلتني العربة إلى الجسر الحديدي، ومن هنا، استقلَّيت العربة التي كانت مجهزة خصيصاً لطريق بيروت، وانطلقنا.

كانت جهة الحركة من مكان الانطلاق حتَّى الرِّبوة نحو الغرب، ثمَّ أصبحت إلى الجنوب، وبعد ذلك انحرفت شَمَالاً، ومن بعد، لم نستطع ضبط اتِّجاهها، بسبب تعرُّجات طريق الكمباني⁽²⁾.

تبلغ مسافة الطريق من الشام إلى بيروت مئة وعشر كيلومترات، عبَّدت هذه الطريق من قِبَل الشركة الفرنسية، ومع وجود المنحدرات

(1) من بين سكَّان بلاد الشام، وبعض الأقطار العربية، مَنْ يعتنق الديانة اليهودية، وهم من أصول عربية. (المترجم).

(2) طريق الكمباني: أنشئ الطريق عام 1857 عبر شركة فرنسية خاصَّة، أنشئت للمهمَّة، سُمِّيت شركة طريق الشام العثمانية. (المترجم).

والمرتفعات إلا أنهم قاموا بتسطيح المنعطفات وفقاً للقوانين الهندسية، كي تسير العربات بمنتهى السهولة، وقد بدا الجهد جلياً بالنظر لتضاريس المنطقة.

وضعت الشركة شرطاً بتملُّك الطريق حتى أربعين سنة، كي تستوفي الميرانية التي أنفقتها بقيمة مليوني فرنك، مرَّت منه حتى الآن ثماني عشرة سنة، وبقيت اثنتان وعشرون سنة، وقد كانت أكوام الحصى الصغيرة وآلات التعبيد جاهزة في كلِّ مكان، لإصلاح العيوب الطارئة على الفور.

تخلَّل الطريق من الشام حتى بيروت اثنتا عشرة محطة، هي: إلهامة⁽¹⁾، رأس الصحراء، ميسلون⁽²⁾، جديدة⁽³⁾، المصنع⁽⁴⁾، جسر زيتون، شتورة⁽⁵⁾، المرُجات، خان مراد، صوفر⁽⁶⁾، خان بودخان، والجمهور وجميع العاملين فيها فرنسيون.

كلُّ محطة مزوَّدة بإسطبل ومقهى وبيت ضيافة، فقد كُنَّا نستبدل الخيل في هذه المحطَّات، كما يتمُّ تبديل الجنود الثمانية الذين يرافقوننا.

الطريق مريحة للسير، وتزيدها ارتياحاً السهول والجبال التي تبدو

(1) إلهامة: تقع في شمال الغوطة الغربية لدمشق، يمرُّ بها نهر بردى. (المترجم).

(2) ميسلون: هي منطقة في الجبال، بالقرب من دمشق، وفيها خان واستراحة ومحطة للمسافرين. كانت على طريق العربات القديم الذي يربط ما بين دمشق وبيروت. (المترجم).

(3) جديدة: مركز جديدة يابوس الحدودي، أو معبر المصنع، هو المنفذ الرئيس على الحدود بين سورية ولبنان. يقع بين بلدة جديدة يابوس السورية في محافظة ريف دمشق، وبلدة المصنع اللبنانية في محافظة البقاع. (المترجم).

(4) المصنع: المعبر الحدودي بين سورية ولبنان. (المترجم).

(5) شتورة: ذُكرت في الكتاب هشطوره. (المترجم).

(6) صوفر: هي مدينة لبنانية، تقع في قضاء عاليه، وتصل إليها عبر طريق بيروت دمشق الدولية، سُميت صوفر لصفير الهواء فيها صيفاً وشتاءً. (المترجم).

من جنباتها، وكأنها حدائق غناء، تكثر أشجار الصنوبر والجوز وغيرها من الأشجار المزهرة، فتضفي جمالاً خلّاباً، يريح النفوس.

يوم الأربعاء، الخامس والعشرون من صفر، وصلنا إلى محطة شتورة، فحضر لاستقبالنا حبيب بيك القائم مقام من قبل حكومة زحلة التابعة للبنان، فتلاطفتُ معه.

وفي محطة الجمهور، أُقيمت خيمة في الحازمية⁽¹⁾، فاستقبلني نيابة عن الحكومة اللبنانية كلُّ من مورل بيك المأمور الدبلوماسي، وقد حضر ببذلته الرسمية، وإسكندر بيك المترجم الأوّل، وهو يحمل شارة الأسد والشمس، وقدم من بيروت إلى المحطة كلُّ من الخواجة إسكندر النصراني القائم بأعمال إيران، والحاجّ علي أفندي ويس قنصل اللاذقية، وحُسين أفندي الوكيل القائم بالأعمال السورية، ومن الإيرانيين كلُّ من الحاجّ إبراهيم الأصفهاني، وآغا عبد الصمد اليزدي، والمشهدي محمّد الطهراني، وآغا سيّد إبراهيم التبريزي، والحاجّ بابا الديلقاني، وآغا محمّد حُسين الأصفهاني، والحاجّ محمود، والحاجّ جعفر الحكّاك، فتلاطفتُ معهم جميعاً.

أيضاً حضر للاستقبال، وكلُّ منهم يحمل شارة الأسد والشمس، رستم باشا متصرّف لبنان ومقرّ حُكمه في بيت الدّين⁽²⁾، وفخري بيك رئيس البلدية، وأمين باشا أمر عساكر بيروت، وطيار باشا أمر الفرسان، وخليل أفندي خوري رئيس صحيفة الجنّة⁽³⁾، وهي الصحيفة الأولى في سورية.

(1) الحازمية: هي إحدى ضواحي مدينة بيروت اللبنانية، تابعة لقضاء بعبداء في محافظة جبل لبنان. (المترجم).

(2) قصر بيت الدّين، أو قصر الأمير بشير الواقع في منطقة الشوف في جبل لبنان، وهو، إلى جانب أهمّيته السياحية، يحتضن المقرّ الصيفي لرئاسة الجمهورية اللبنانية. (المترجم).

(3) صحيفة الجنّة: أصدرها الأديب بطرس البستاني سنة 1870. (المترجم).

وحضر ببذلته الرسمية يُوسُفُ أفندي كاتب الدبلوماسية، ومُحمَّد شريف أفندي محاسب وكيل المتصرِّف، ونعوم أفندي رئيس مجلس القضاء مرافقين المفتي سماحة الشيخ عبد الباسط الفاخوري، والقاضي جمال الدِّين أفندي، فتلاطفتُ مع الجميع.

ركبتُ عربة برفقة متصرِّف لبنان منطلقين إلى الحدود اللبنانية التي تبعد مسافة ربع ساعة من المدينة، فرأينا ما يربو على خمسة آلاف شخص رجالاً ونساء من النصارى وغيرهم راجلين ومُستقلِّين العربات جاؤوا لحضور الاستقبال، كان الرجال والنساء يجلسون معاً في العربات، ووجدنا مجموعة من العساكر اصطفت مع الفرقة الموسيقية لأداء التحية العسكرية، وبعد حفل الاستقبال، غادرنا.

حين الغروب، دخلنا بيت الحاج محيي الدِّين نجل المرحوم سيِّد عبد الفتاح العربي، المخصَّص لإقامتنا من قِبَل الحكومة، وقد وفَّروا فيه كلَّ أسباب الراحة من أرائك وأدوات، كانت عمارة جميلة، فيها جُنيَّنة مُنمَّقة أخَّاذة، وإلى جانبها بناء مُسكِّف، جلسنا في غرفة أرضية، وانشغلنا بالحديث مع الحضور، ثمَّ قصدنا البناء المسكوف لتناول الطعام.

جاءني وفد من بيروت لاستقبالنا وتقديم التهنئة بمناسبة دخولنا المدينة، يضمُّ الشيخ عبد الله المجتهد العاملي، وهو رجل مُعَمَّر، يناهز الثمانين عاماً، وبرفقته درويش بيك، ونعيم بيك، يرافقه أحد الملالي من جبل عامل.

جبل عامل هو موطن الحُرِّ الشهيد⁽¹⁾ والشيخ البهائي، فلم يبقَ من قبيلة الشيخ البهائي أحد، وقبيلة الحُرِّ ما زالت باقية.

(1) الشيخ حُرُّ العاملي تُوفِّي عام 1104هـ، وهو صاحب وسائل السُّنيَّة، وأخطأ المؤلف، فخلط بينه وبين الشهيد الثاني الذي تُوفِّي عام 965هـ.

وصف بيروت

تعتبر بيروت من موانئ فلسطين، وهي من أقدم المُدن السورية، وقد اختلف في مَنْ بناها، فيقول البعض إنه جرجسا بُولُس، أو الجرجسي خامس أبناء كنعان، ويرى البعض الآخر أن الباني ساتور نوس.

كانت المدينة في العهود السالفة تحت حُكم الإفرنج، وملوك تركيا، وفي فترة من الزمن كانت تابعة للديار المصرية، والشركسية، حتَّى فتحت على يد السلطان سليم الأوّل، وبقيت طائفة للسلطين العثمانيّين إلى يومنا هذا.

فيها مدارس كثيرة، فقد أنفقت كلُّ من بريطانيا وفرنسا وأميركا وألمانيا الكثير من الأموال لإنشاء مدارس لتعليم الطالبات من طوائف الروم الأثوذوكس والكاثوليك والأرامنة، وتوجد في المدينة إحدى عشرة مطبعة، تقوم بطباعة الجرائد والصحف، وفيها خمسة عشر جامعاً، وثلاث وعشرون كنيسة، والعديد من الآثار التاريخية التي ما زال معظمها تحت الأرض، فكلّما قاموا بعملية تنقيب، عثروا على أعمدة وأحجار عظيمة، تدلُّ على آثار جديدة.

يمرُّ من شرقها نهر، تبلغ المسافة إليه مسير نصف ساعة، إلا أن مياهه ليست سائغة، وعلى مسافة أربع ساعات إلى جهة شرق المدينة، ينحدر نهر الكلب عذب الماء من جبل قسردان⁽¹⁾. وقد استثمرت الشركة

(1) قسردان: لم نعثر على اسم الجبل، ولعلّ المقصود هي منطقة (كسروان) المشهورة بتساقط الثلوج. (المترجم).

البريطانية في النهر، فأوصلت الماء إلى المدينة، ومن ثمَّ، إلى البيوت عبر أنابيب حديدية، وتستوفي ثمن كلِّ متر من الأنابيب مئة وخمسين فرنكاً سنوياً، وقبل ذلك، كانت تعاني البلدة من سُحِّ المياه.

يقع جبل قسردان ضمن سلسلة جبال لبنان التي تمتدُّ من طرابلس حتَّى صيدا، وتحيط بمدينة بيروت شرقاً وغرباً وجنوباً، يجلبون الثلج من الجبل في فصل الشتاء، ويحفظونه للاستفادة منه حتَّى آخر فصل الصيف.

لا سور يحيط ببيروت، تلك البلدة الجميلة، ولا قلاع فيها، وقد بدأ إعمارها قبل عشرين سنة، وانتهى العمل منها قبل خمس سنوات، تتمتع بحدائق وعمارات ذات رونق، وغالباً ما تكون أسواقها محاذية للمرفأ.

مناخ بيروت لطيف، إلَّا أن مناخ الأماكن الأخرى في لبنان أفضل من مناخها ومن مناخ الشام، فمعظم أعيان الشام وبيروت يقصدون الأطراف للاصطياف.

يوم الخميس، السادس والعشرون من صَفَر، مكثنا في بيروت حتَّى المساء، بعد ساعتين من النهار، جاء قنصل طرابلس، وكان لنا معه حديث، وبعد انصرافه، أعقبه التجَّار الإيرانيون، فتلاطفتُ معهم، وذهبوا.

ثمَّ حضر أعيان بيروت الذين قدموا لاستقبالنا أمس، ليُهيئوا حركتنا مساءً، وبما أن زيارة حاكم لبنان كانت واجبة، قصدنا بيته قبيل الغروب بثلاث ساعات، فوجدناه حاضراً لاستقبالنا، وبعد لقائنا به، خرجنا إلى القِشْلَة⁽¹⁾.

(1) القِشْلَة: بناء شَيَّدته الدولة العثمانية، ليكون مقرّاً لأجهرتها العسكرية والمدنية، وارتقى المبنى، ليصبح مقرّاً للحكَّام العثمانيين، وأطلق عليه البيروتيون اسم القِشْلَة، وهي كلمة تركية، من معانيها الثُكْنَة، أو مقرّ الجند. (المترجم).

كان الطيَّار باشا أمر العسكر حاضراً، وقد أعدَّ الفرقة الموسيقية والعساكر، فقاموا بأداء التحية العسكرية، ولم يُطلقوا قذائف المدفعية، لأن الوقت كان ليلاً، ونهار اليوم التالي، وحين مغادرتنا القِشلة، وقُبيل ركوبنا متن السفينة للمغادرة، عملوا على إطلاق إحدى وعشرين قذيفة.

رافقنا مودِّعاً حتَّى المرفأ كلُّ من فخري بيك رئيس البلدية، ووكيل المتصرِّف، ويوسف أفندي المترجم، والباشاوات جميعاً، قمنا بتوديعهم وركبنا الزورق قاصدين السفينة الفرنسية.

كانت المسافة نصف ساعة من مرفأ بيروت حتَّى مرسى السفينة التي صعدنا منها عند الغروب، كان الجوُّ والبحر بما تشتهي السفن.

تميَّز هذه الباخرة من السفن الأخرى بعدة امتيازات، إحداها أن القمرات كانت مزوَّدة بنوافذ لدخول الهواء، والميزة الأخرى أنهم وضعوا وسط القاعة مدفأة متَّصلة بمدخنة مصنوعة من أنبوب حديدي، يخرج من السقف، فدائماً يكون جوُّ القاعة دافئاً، المناضد كانت مصفوفة على الأطراف، والوسط فارغ لتسهيل حركة النادل وتنقله، اسم قبطان السفينة وليت، واسم محرِّك رافعة الأثقال ميسيو كيران.

سرعة السفينة عشرة أميال في الساعة، وتصل قدرتها إلى ثلاث مئة حصان، ومزوَّدة بأربعة قدور للبخار، يبلغ طولها مئة وستة أمتار، وعرضها ستة أمتار⁽¹⁾. أبحرنا بصورة رائعة ليلاً، ومررنا بمحاذاة ميناء حيفا وصور، فصيда.

يوم الجمعة، السابع والعشرون من صَفَر، وصلنا مرفأ يافا بعد طلوع

(1) هكذا ورد قياس عرض السفينة في متن الكتاب، وهو غير مناسب لطولها، ولا يُمكنها من الإبحار. (المترجم).

الفجر، وحضر إلى السفينة لاستقبالنا ببذلاتهم الرسمية كلُّ من محمَّد بيك، توفيق بيك قائم مقام يافا، وأحمد رئيس مجلس البلدية، ويوسف أفندي المترجم الدبلوماسي، وباقي أصحاب المناصب، والطبيب الإيراني عارف أفندي، وأحمد خراساني، وقنصل إيران المعزول سيّد حُسين، وعطاء أفندي المترجم، فتلاطفتُ معهم.

واستطاعت القوارب الوصول إلى مرسى السفينة لهدوء البحر، فمن غير المعتاد أن يكون المرفأ هادئاً كما قيل لنا، فتَمَّ علينا فضل الله، وحمانا من الأخطار. جلستُ في القارب قاصداً المرفأ، ومنه ركبتُ العربة إلى المنزل.

كان منزلنا عمارة، خصَّصتها الحكومة، فيها غرف أرضية وعلوية، وأمامها حديقة خضراء كبيرة وجميلة، سكنتُ أنا والخواصُّ في الغرف العلوية، وضربوا الخيام حول الحديقة لسكّن الخدم والحشم.

وضعوا لنا الحلويات في الصالة، ثمَّ أتوا بالطعام على الطاولة، اليوم وليلته كُنَّا ضيوفاً عند الحكومة، فأكرمونا، وزادوا في السخاء.

قُبيل الغروب بساعتين، جاء لزيارتنا كلُّ من القنصل الفرنسي والنمساوي والبريطاني والعثماني والروسي والإسباني والأميركي، فجلسنا معهم، وتحدَّثنا إليهم قبل أن ينصرفوا.

وصف يافة

يافة، وتُسمَّى أيضاً يافا، واليونان يُسمونها يوبا⁽¹⁾، وهي أشهر مدُن

(1) يوبا: وردت في الكتاب جُوبة، وذكرت بعض الأساطير اليونانية القديمة أن هذه التسمية يُوبا مشتقة من يوبي بنت إله الريح عند الرومان. (المترجم).

البلاد، مدينة ساحرة الأجواء، تقع شرق البحر. قيل إنها كانت قائمة قبل طوفان نوح، فهناك حجارة كثيرة وسط البحر، وعلى مقربة من المرفأ تدلُّ على آثار المدينة الضاربة جذورها في عمق التاريخ قبل أن تهتدم في غابر الأزمان إثر طغيان البحر، فقد كانت تتكوّن من مئة وستة وتسعين حومة إبان العهد اليوناني حين كانت عامرة، ومنذ أربعة وسبعين عاماً أُعيد عمرانها، وأصبحت على الشكل الذي نراه الآن، بُني سور قبالة البحر، وقد تتلّم في بعض النقاط إثر الأمواج العاتية.

تكثر فيها العمارات والمدارس والحدائق، ومعظم فاكهتها من الحمضيات، وأشهرها البرتقال بحجمه الكبير، ومذاقه اللذيذ، فكلُّ أربع أو خمس برتقالات تساوي المنّ الواحد وزناً، ولا يوجد في داخلها بذور، يستخدمون عصيره بدل الشربات، تُسقى حدائقها من ثلاث مئة بئر عذبة المياه، وأهل الديار يطلقون اسم البيار على الآبار.

حدائق يافة محاطة بشجر الصبّار، وهو بمثابة السياج لحماية البساتين، شجره المكتظُّ الفروع ذو سيقان قوية، وأوراقه شائكة تُشكّل سداً منيعاً، يحول دون تخطُّبها من قبل العابثين، يُطلق على الصبّار في اللغة الفارسية التين الإفرنجي.

يبلغ عدد سكّان المدينة أربعين ألف نسمة، نصفهم من المسلمين، والنصف الآخر من اليهود والنصارى. تتمتع البلدة بمناخ لطيف طوال الفصول الأربعة، متعة أجوائها نهاراً في الصيف، ولا تستقرُّ ليلاً، فيكثر تقلُّبها ممّا يُسبّب الأمراض للسكّان.

شيّد أحد سكّان موسكو خسته خانه، لِنَذْرٍ نَذَرَهُ على نفسه، متكفلاً بمصاريف علاج المرضى، ثمّ وضع في حديقته أنواعاً من الحيوانات

كالوحوش والطيور، جعلها في أقفاص، كان المنظر يضيء جمالاً على المكان. في هذا الفصل كانت براعم اللوز قد تفتّحت أزهارها.

لاحظنا في مرفأ يافة صخرة كبيرة على هيئة إنسان موضوعة على عَرَادَة⁽¹⁾، تتّضح معالم أشلائها من يد وبطن ولحية وشارب، يبلغ طولها ثلاثة أذرع، قيل إنه عثر عليها تحت الأرض في عَرَّة التي يقال إنها مكان مولد سليمان بن داود، ومُحمَّد بن إدريس الشافعي، تبعد عَرَّة عن يافة مسافة اثنتي عشر فرسخاً. حضر خبراء من موسكو لشراء التمثال، إلا أن الحاكم رفض بيعه، وقرّروا إرساله إلى إسلامبول.

يوم السبت، الثامن والعشرون من صَفَر، أحضروا لي الدرّسكَة⁽²⁾، وخمس عَرَادَاتٍ لِلأَتْبَاعِ، لتحملنا إلى بيت المقدس.

حضرت زوجة الحُوذِي⁽³⁾ بدلاً عنه، لأنه لم يكن بحالة جيّدة، جلست المرأة في الأمام، واستلمت زمام العربة، كانت ترتدي قَبَّعة من سَعَف النخيل، وقد أسدلت جدائلها، فقادت العربة بحرفة ومهارة، حركتنا كانت باتّجاه الجنوب الشرقي، والمسافة بين يافة وبيت المقدس تستغرق اثنتي عشرة ساعة، وسنصل مع الغروب.

الطريق من يافة إلى بيت المقدس معبّدة وَفَقّاً للأصول الهندسية، فأينما وجدوا مجاري سيول المياه، عمدوا إلى توسعة الطريق ومدّ الجسور، وحيثما كانت الجبال والتلال، قاموا بتسوية الطريق، ورصف

(1) عَرَادَة: كلمة يونانية بمعنى الرمي، والمنجنيق، وتُستخدَم في الفارسية بمعنى العربة. (المترجم).

(2) الدرّسكَة: كلمة روسية أصلها دروجكي، وتعني العربة. (المترجم).

(3) الحُوذِي: سائق العَرَّة التي تجرّها الخيول، أو مُسْتَحِثُّ الدوابّ على السير. (المترجم).

الأطراف بالحجارة، فتسهل حركة العربات بين المرتفعات والمنحدرات. عند الانطلاق، كان الشارع واسعاً لمسافة ثلاثة أرباع الفرسخ، وكان حتى النصف الأول سهل التضاريس، فتمّ اجتيازه بسرعة.

تكثر على جنبات الطريق البساتين من أشجار الحمضيات كالبرتقال والليمون، يانعة المنظر، غضة الأوراق، تُبهج الناظرين، وفي بعض البساتين، أقاموا عمارات، يسكنونها موسم القطاف.

بعد مسير كل نصف ساعة تجد مخفراً، يتكوّن من بناء مرّع، مزوّد بإسطبل أسفله، وأعلاه شرفة ملحقة بغرفة مربّعة، تُتخذ مقرّاً للحراس، وفي كلّ مخفر فارسان، غالباً ما تقع المخافر على يمين الشارع، وقليلاً ما كانت إلى جهة اليسار، ونُصبت أعمدة البرقيات على طول الطريق.

في أثناء طريقنا، شاهدنا قرى على اليمين مثل يازور⁽¹⁾، وبيت دجن⁽²⁾، وصرّند⁽³⁾، ثمّ دخلنا قرية الرّملة الواقعة يميناً.

كان مدير القرية والقاضي والمفتي قد حضروا إلى المقهى على قارعة الطريق للاستقبال، فتلاطفت معهم، وواصلنا المسير.

الرّملة

على مقربة من البحر تقع الرّملة التي تكثر فيها أشجار النخيل، وهي

(1) يازور: وردت في الكتاب ياز. (المترجم).

(2) بيت دجن: وردت في الكتاب بيت وجن. (المترجم).

(3) صرّند: يُطلق عليها الآن اسم صرّند الخراب، وهي قرية فلسطينية مهجرة، تقع على بُعد 6 كم غرب الرّملة، أحرقتها البريطانيون في العشرينيات انتقاماً لقتل بعض جنودهم السكارى الذين اعتدوا على حرمة القرية، وهذا سبب تسميتها بالخراب. (المترجم).

مدينة كبيرة وذات شأن في عهود سابقة، لها اثنتا عشرة بؤابة، يذكر المؤرخون أن النبي يُونس، عليه السلام، قد سكنها لبرهة من الزمن قبل أن ينتقل إلى بيت المقدس.

بُنيت فيها عدّة مساجد بدءاً من عهد الملك ناصر بن محمّد بن قلاوون⁽¹⁾، وفيها جامع كبير بناه سليمان بن عبد الملك عام 98 هجرية، يُعرّف بالجامع الأبيض، أُعيد بناؤه في عهد الملك ناصر صلاح الدّين، وعلى يد إلياس بن عبد الله عام 586، وهو الآن أثر مسجد، قيل إن النبي صالحاً، عليه السلام، وفضل بن عبّاس ابن عمّ الرسول، صلّى الله عليه وآله، دُفنا في مغارة صحن الجامع.

تبينّ لنا أن في البلدة أربعة جوامع معمورة، وعشرة أخرى باتت غير مأمومة، وشاهدنا مقبرتين أوّل المدينة وآخرها، إحداهما لدفن المسلمين، والأخرى لغيرهم.

وسمعنا أن مقبرة روييل بن يعقوب وضريحه يقعان غربي الرّملة قريباً من البحر، ويجتمع ثلّة من الناس من غرّة والرّملة في موسم محدّد قاصدين زيارته.

شاهدنا مجموعة من الرجال المصابين بالجذام مجتمعين على جانب الطريق، وكما قيل لنا بأنهم قدموا من الضواحي.

بعد خروجنا من الرّملة بمسافة، مررنا عن قرى البرية ودانيال والقباب، وكلّها تقع على اليمين كما اللّطرون⁽²⁾ التي دخلناها قبيل الظهر، فسحرتنا بطبيعتها الساحرة.

(1) الملك ناصر بن محمّد بن قلاوون: جلس على عرش السلطنة لثلاث مرّات، الأولى عام 693، والثانية عام 698، والثالثة في عام 709 للهجرة. (المترجم).

(2) اللّطرون: وردت في الكتاب قطرون. (المترجم).

اللَطْرُون

قرية اللَطْرُون من القرى ذات الاعتبار، أنشأت فيها الشركة البريطانية مطعماً وخاناً على قارعة الطريق للاستراحة، وبنيت عمارة لها في القرية، لتكون منزلاً لموظفيها، وقد أعدت لنا حكومة القدس الشريف الغداء في هذا المطعم، وبعد تناول الطعام وأداء الفريضة غادرنا.

الطريق من هذه القرية واسعة، والخضرة النظرة لا يحدّها البصر، ظهر أمامنا بوعاز، يُسمون أوّله باب الواد، والباقي يُطلقون عليه اسم وادي علي، لأن أمير المؤمنين، عليه السلام، أقام الصلاة في الطرف الأيمن من وسط المضيق، وقد أُقيم مسجد صغير في المكان، لم يبقَ منه غير المحراب.

حضر عاصم بيك قائد كتيبة الفرسان من القدس الشريف لاستقبالنا، كان منتظراً في مقهى على قارعة الطريق، بالقرب من باب الواد، تلاطفتُ معه، وركب في العربة من الأمام، ثمّ بعد قطع مسافة، وصلنا إلى بئر أيّوب، وسيريس⁽¹⁾، وأبي غوش، وكانت جميعها إلى اليمين أيضاً.

أبو غوش

الاسم مأخوذ من كُنْيَة رجل مقتدر، كان يقطن في هذه الناحية، وقد وافته المنية منذ تسعة عشر عاماً، ولا زال بعض من أولاده وأحفاده يسكنون القرية، وهي حاضرة، مَدْنِيَّتُها ظاهرة بعماراتها التي تضاهي بنايات المُدُن، فيها كنيسة واقعة على قارعة الطريق، حيث مقبرة أبي غوش.

(1) سيريس: نسبة إلى الآلهة سيريس ربّة الغلال عند الرومان. (المترجم).

أكثر بسايتها من أشجار الزيتون والكرمة، وفي نهايتها مقهى ومحلّ لشحن الحمولات، بعد مرورنا منها بمسافة، صادفتنا على يمين الطريق قربنا صوبعة، وعين كارم⁽¹⁾، فاجتزنا جسراً خشبياً بمحاذاة مقهى، لم يخلُ من التميّز.

كان قسيّسان موفدان لاستقبالنا من قبل بطريك الأرمن ينتظران على قارعة الطريق على فرسينّ بياوئين، فتلاطفتُ معهما، وامتطيا فرسيهما، وسارا أمام العربة، بعد مسافة، مررنا بمحاذاة قرية حكونيا الواقعة على يسار الطريق، وقُبيل الغروب بنصف ساعة، بلغنا أوائل وادي مدينة القدس الشريف.

قُبالة مشفى على يمين الطريق، نصبوا سُرادق للاستقبال، موفّرين فيه كلّ ما يلزم من أدوات الضيافة كالشربات والقهوة والنجيلة، وكان قد حضر ببذلته الرسمية عند العربة كلّ من رؤوف باشا متصرّف القدس الشريف، وسليمان باشا أمر العسكر، ويوسف أفندي المترجم، وفرزي أفندي القاضي، فأنزلوني من العربة، وأوصلوني للسُرادق.

كان فوج من العساكر، والفرقة الموسيقية، مُتأهبّين لاستقبالنا، ولدى وصولنا، أدّوا التحية العسكرية، ثمّ أحضروا خيلاً خاصّة، وانطلقنا إلى المنزل.

مسافة الطريق التي تفصلنا عن البيت الذي أعدّوه لإقامتنا وسط القلعة القديمة، تستغرق ساعة من الزمن، وطول المسافة كان الطريق مكتظّاً بالرجال والنساء من النصارى واليهود وغيرهم مرتدين الألبسة الفاخرة، ينتظرون على طرفي الطريق، وفي الأزقة، وبمحاذاة الجدران

(1) عين كارم: وردت في الكتاب (عين أكارم). (المترجم).

وصولنا، كان ازدحاماً عجيباً، وكأن ثلثي سَكَّان المدينة خرجوا من منازلهم لهذا الاستقبال الحاشد. رافقنا المتصرّف والمستقبلون في كلِّ مكان، أطلقوا ستَّ عشرة قذيفة عند دخولنا، اجترنا الشارع، وبلغنا بؤابة القلعة.

قصدنا بيت موسى أفندي الذي تمَّ تخصيصه لإقامتي، كان شيخاً ليباً من الشَّيْعة، ومن السادات الحُسَيْنِيِّين، ورافقني حتَّى المنزل كلُّ من المتصرّف باشا، وسليمان باشا أمر العسكر، وفرزي أفندي القاضي، فجلسنا للحديث قليلاً، ثمَّ انصرفوا.

كانت الضيافة الليلة من قَبَل المتصرّف باشا، ومن أجل اتِّحاد الدولتَيْن العليَّتَيْن قبلنا ضيافته لليلة واحدة، وطلبنا منه أن لا يتجشَّم العناء من اليوم فصاعداً.

الليلة، وبسبب الإرهاق الذي لحق بي جرَّاء طول الطريق مكثتُ في البيت للاستراحة، ولم أذهب للزيارة، وسجدتُ لله شكراً، وحمدتُهُ على نعمته أن وفَّقني لبلوغ شرف زيارة البيت المقدَّس بصحَّة وسلامة، وتذكَّرتُ شِعْر الحافظ بن حَجَر، إذ قال:

إلى البيت المُقدَّس جنَّتُ أرجو جنانَ الخلد نُزلاً من كريم
قَطَعْنَا في محبَّتِهِ عقاباً وما بعدَ العقابِ سوى النِّعيم

يوم الأحد، التاسع والعشرون من صَفَر، خرجنا من المنزل قاصدين الصخرة الشريفة، فدخلنا من باب الناظر، كان متولِّي القدس الشريف قدم حتَّى عتبة الباب لاستقبالنا، وسار بنا نحن والأصحاب والأتباع من جهة الصحن الشِّمالي إلى قَبَّة الصخرة الشريفة، فارتقينا السلالم للوصول إلى وسط الصحن المرتفع، ثمَّ وقفتُ قرب باب القَبَّة الشِّمالي، وانشغلتُ بالدعاء.

بعدها دخلنا باحة القبّة المباركة، وهي ذاتها البقعة المباركة التي تقع فيها الصخرة الشريفة، وبمحاذاة الباب الشمالي تقع صخرة محاطة بالقضبان المعدنية على سطح الأرض وتحتها فراغ، قيل إنها مدفون النبي سليمان، عليه السلام. صلّيتُ ركعتين إلى جانبها، ثمّ ذهبتُ إلى الصخرة الشريفة التي تقع في الوسط، وفيها ضريح.

من بعد، اتّجهتُ نحو المغارة الواقعة تحت الصخرة، فصلّيتُ، ثمّ ذهبتُ إلى مسجد عمر لمشاهدته، ومنه إلى قبّة النبي سليمان، عليه وعلى نبينا وآله السلام، وبعد أن صلّيتُ فيها، دخلتُ المسجد الأقصى، ثمّ توجّهتُ إلى الصحن قاصداً مقبرة النبي داود، عليه السلام.

بيت المقدس

كانت تُعرَف المدينة في عهد النبي داود باسم المحراب، لوجود محراب في حصنها يُنسَب إلى داود، عليه السلام، ثمَّ عُرِفَت بالقدس الشريف، وقيل بيت المقدس، وسُمِّيت البيت الأقدس، واسم القدس وما اشتُقَّ منه يعني الطهارة من الذنوب والمعاصي، وبيت المقدس يعني البيت المطهَّر من الأصنام، وفي اللغة العبرية يقال لها دُرُّ شليم بتشديد الراء، الذي صار أورشليم، وتعني بيت السلام.

بيت المقدس مدينة عظيمة مُحَكَّمة البناء، وتعتبر من أهمِّ بلاد فلسطين التي هي إحدى الشامات الخمس، وكانت قديماً تابعة للشام، إلا أنه، ولمكانتها الدِّينية، أصبحت ذات حكومة مستقلة منذ أعوام، وهي من أقدم مُدُن العالم، ولطالما كانت مَطْمَع المهاجمين ومَقْصدهم لفتح أسوارها، والاستيلاء عليها، فقد تمَّ احتلالها لمرَّات ممَّا أدَّى لتعرُّضها لتغييرات كثيرة.

ففي العهود القديمة، كانت تحت احتلال الإفرنج، ثمَّ أصبحت تحت حُكْم سلاطين الإسلام، منهم الملك ناصر صلاح الدِّين يُوْسُف بن أيُّوب الذي حكم مصر بعد سقوط حُكْم الفاطميِّين، وقد سار بجيوشه في السادس من مُحَرَّم عام 578 للهجرة، وبلغ دمشق في صَفَر، ثمَّ في صَفَر عام 579 للهجرة قام بفتح حلب، وفي رَجَب عام 583 للهجرة دخل بيت المقدس فاتحاً.

ومن الاتِّفَاقَاتِ العَجِيبَةِ أَنَّ القَاضِي مَحْيِي الدِّينِ بِنِ زَكِي مَدَحِ
السُّلْطَانَ بِقَصِيدَةٍ قَبْلَ فَتْحِ القُدْسِ، مِنْهَا البَيْتُ:

وَفَتَحْتُمْ حَلْباً بِالسَّيْفِ فِي صَفَرٍ مُبَشِّرٍ بِفُتُوحِ القُدْسِ فِي رَجَبٍ

يُتَقَنُ أَهَالِي بَيْتِ المَقْدِسِ بَعْضَ الصَّنَاعَاتِ اليَدَوِيَّةِ الَّتِي تَحْتَاجُ
إِلَى مَهَارَةٍ، إِذْ يَصْنَعُونَ شَتَّى أَدْوَاتِ الكِتَابَةِ، وَالشَّمْعَدَانَاتِ، وَأَنْوَاعاً
مِنَ الأَوَانِي، يَتَّخِذُونَهَا مِنْ خَشَبِ الزَّيْتُونِ، وَبَعْضَ الأَدْوَاتِ مِنَ الصَّدْفِ
بِاحْتِرَافٍ مُتَقَنٍ.

بَانِي مَدِينَةِ بَيْتِ المَقْدِسِ

يَقُولُ بَعْضُ الكُتَّابِ إِذَا مَدِينَةَ بَيْتِ المَقْدِسِ كَانَتْ، فِي بَادِي الأَمْرِ،
بَادِيَةً بَيْنَ الجِبَالِ وَالوُدْيَانِ، فَسَكَنَهَا سَامُ بِنِ نُوحٍ، وَانْقَطَعَ لِلعِبَادَةِ فِي
أَحَدِ جِبَالِهَا، فَعَلِمَ بِحَالِهِ مَلُوكُ تِلْكَ الحَقْبَةِ، وَهَمَّ اثْنَا عَشَرَ مِنْ مَلُوكِ
الطَّوَائِفِ، فَاتَّفَقُوا أَنْ يقدِّمُوا لَهُ مَالاً، لِيَقُومَ بِعِمَارَةِ تِلْكَ البَقْعَةِ، فَبَنَاهَا،
وَعُرِّفَتْ بِاسْمِ رُوشَلِّمَ، ثُمَّ اتَّفَقَ هَؤُلَاءِ المَلُوكِ عَلَى سُلْطَانِهِ وَإِطَاعَتِهِ،
وَكَتُبُوهُ بِكُنْيَةِ بَابِ المَلُوكِ.

كَانَ مَسْجِدُ الأَقْصَى يَتَوَسَّطُ المَدِينَةَ آنَ ذَاكَ، حَيْثُ تَقَعُ الصَّخْرَةُ
الشَّرِيفَةُ فِي وَسْطِ المَسْجِدِ، لَكِنِ المَعْرُوفُ أَنَّ النَبِيَّ سَلِيمَانَ، عَلَيْهِ
وَعَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ السَّلَامِ، قَامَ بِبِنَائِهَا فِي غُضُونِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ بَعْدَ أَنْ
فَرَّغَ مِنْ بِنَاءِ المَسْجِدِ، وَكَانَ قَدْ مَضَى أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ عَاماً مِنْ حُكْمِهِ
عِنْدَ الِاتِّهَاءِ مِنْ بِنَاءِ المَدِينَةِ.

وَيَقُولُ البَعْضُ إِذَا أَفْرِيدُونَ بِنِ أَلْقِيَانَ مِنْ مَلُوكِ فَارِسَ كَانِ أَوَّلَ مَنْ
بَنَى بَيْتَ المَقْدِسِ، وَقَدْ مَضَى عَلَى بِنَائِهَا حَتَّى عَامِ الهِجْرَةِ أَلْفٌ وَثَلَاثُ
مِئَةٍ وَسِتُّونَ عَاماً، وَيَقُولُ آخَرُونَ أَلْفَيْنِ وَثَلَاثَ مِئَةٍ وَسِتِّينَ عَاماً.

هدم المدينة وعمارتها

تمَّ هدم المدينة وعمارتها خمس مرَّات، فقد هُدِّمَت على يد بُخْتَنْصَرَّ قبل الهجرة بألف وثلاث مئة وخمسين عاماً، ولم يبقَ منها غير برج داود، وهو برج عظيم، ولا يزال باقياً.

قام عمر بن الخطَّاب بالعمارة الرابعة للمدينة، والوليد بن عبد الملك أعاد إعمارها للمرَّة الخامسة، وتمَّت عمارتها على يد داريوش الثاني وهيلانة أمَّ القسطنطين، وعبد الملك بن مروان، والمهدي، وتمَّت عمارة القلعة في عهد السلطان سليمان، وقام السلطان محمود في عام 1233 للهجرة، والسلطان عبد العزيز في عام 1293 هجري ببعض العمران في المدينة.

وكما ذكر الكتاب، أن الملك ناصر داود قام بهدم بيت المقدس بعد فتحها عام 637 هجري، وكان جزاؤه أن ابتلي بالطاعون، ووافته المنية في قرية بُويضا من توابع دمشق ليلة السادس والعشرين من جُمادَى الأولى عام 656 للهجرة، وقد دُفِن في الصالحية، حيث مقبرة والده عيسى بن أبي بكر بن أيُّوب صاحب دمشق، وقام الروس بإعادة إعمار الحصن أيَّام ما كان لهم نفوذ في المدينة.

حصن المدينة

في سابق الأيام، كان الحصن كبيراً، يتوسَّطه المسجد الأقصى، أمَّا الآن، فالصحراء تحيط بالمسجد من الشرق والغرب، ويقال إن المدينة كانت أكثر عمراناً من مصر وبغداد قديماً.

يبلغ ارتفاع الحصن الحالي المبنَى من الحجارة والجِصِّ مئة وعشرين

قَدَمًا، وطوله ألفا ذراع، وبرج الحصن في غاية الاستحكام. وللسور اثنتا عشرة بَوَّابة، بَوَّابة واحدة في الطرف الشرقي، وتُسَمَّى باب الأسباط، لأن منازل يُوسُف وروبييل وشمعون ويهوذا كانت في تلك الجهة، وثلاث بَوَّابات في الطرف الشرقي، وهي باب السرِّ الصغير وباب المحراب وباب الرِّجَّة، وفي الوقت الراهن، يُطلقون اسم باب الخليل وباب بيت لحم على باب المحراب، لأنهم يذهبون من تلك البَوَّابة نحو خليل الرحمن وبيت لحم، وبَوَّابتان في الطرف الجنوبي، وهما باب المغاربة وباب صهيون الذي يُسَمَّى الآن باب داود، وفي قديم الزمن، باب اليهود، وأربع بَوَّابات في الطرف الشِّمالي، وهي دَيْر السرب وباب العمود أو باب العمود وباب الداعية وباب الساهرة، ويُسَمُّون باب العمود الآن باب الشام.

أزقة الحواري داخل الحصن وَعِرة، وللمدينة عشر أسواق ضيقة ومظلمة، إحداها سوق القَطَّانين، ويقع إلى الغرب من باب صحن المسجد الأقصى، وهو مرتفع جدًا.

وفي الوقت الحاضر، شَيِّدوا العمارات والكنائس خارج الحصن، وإلى جهتي الشِّمَال والغرب، فالبنايات الواقعة في الخارج ذات حُسن وجمال، تتمتع معظمها بحدائق.

يبلغ عدد سكَان المدينة ثلاثين ألف نسمة، عشرون ألفاً من اليهود، وخمسة آلاف من النصارى، وخمسة آلاف أخرى من أهل السُّنَّة وغيرهم.

جبال المدينة

طُور زيتون الواقع شرق المسجد الأقصى من الجبال الشهيرة في هذه

المدينة، ويُطلق عليه اسم جبل زيتا، ويُسمَّى جبل الخمر، لكثرة أشجاره، والخمر في لغة العرب تدلُّ على هذا المعنى، وفيه شجرة الخَرْنُوب التي تُسمَّى خَرْنُوبَةَ العَشْرَةِ⁽¹⁾، ولم نهتدِ لوجه تسميتها، وقد تمَّ بناء مسجد عند تلك الشجرة فوق مغارة، كما شُيِّدت كنيسة تُسمَّى كنيسة الصعود، وهي من بناء هيلانة⁽²⁾ والدة الإمبرطور الروماني قسطنطين، قيل إنه مكان صعود النبي عيسى، عليه السلام، حيث توجد آثار أقدامه، والآية المباركة: (والتَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ)⁽³⁾ تشير إلى هذا الجبل.

الجبل الآخر هو جبل سلوان الواقع جنوب غرب جبل الزيتون، حيث قبور اليهود، وعين سلوان، ومياها عذبة، وأخذ الجبل اسمه منها، قيل إن الغزاة كانوا يحاصرون هذه العين حتَّى لا تصل المياه لساكني الحصن الذين كانوا يُخزِّنون مياه الأمطار في الآبار.

الشوارع المعروفة في المدينة

تتخلَّل المدينة ثلاثة شوارع، لكلٍّ منها اسمه، فالأوَّل شارع الأعظمي، ويُسمَّى خطَّ داود، وقد ذكروا في تسميته أن النبي داود، عليه السلام،

(1) خَرْنُوبَةَ العَشْرَةِ: ورد في مبايعة المهدي والصراع مع المرابطين، أن الإمام أبا يحيى بن اليسع قد قال: سمعتُ الخليفة عبد المؤمن بن عليّ يقول: لَمَّا فرغ الإمام المهدي من كلامه هذا، بادر إليه عشرة رجال من أتباعه والملازمين له، كنتُ أنا واحداً منهم، وقلنا له: هذه الصفة لا توجد إلَّا فيك، فأنتَ هو المهدي؛ فبايعناه في أثناء ذلك على ما بايع به الصحابة رسول الله، صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، وعلى أن تكون يدأ واحدة على القتال والدفاع؛ فبايعه أصحابه العشرة تحت شجرة خَرْنُوب. (كتاب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، أبو القاسم محمَّد بن سماك العاملي، ص 176). قد يكون لهذه الحادثة علاقة بتسميتها بخَرْنُوبَةَ العَشْرَةِ. (المترجم).

(2) بناء هيلانة: بُنيت الكنيسة في سنة 392 للميلاد ككنيسة تذكارية، بواسطة هيلانة والدة الإمبرطور الروماني قسطنطين، وأعيد بناؤها في الفترة الصليبية. (المترجم).

(3) قرآن كريم، سورة التين، الآية 1.

كان قد حفر سرداباً تحت الأرض من منزله حتى المسجد الأقصى، وحدّه من باب الخليل إلى باب السُّلْسِلَة، وهو أحد أبواب المسجد الأقصى، والثاني شارع يُسمَّى خطّ مرزبان، لم نعرف سبب تسميته، وهم يكتبونه بهذا الاسم في الوثائق، أمّا الثالث، فالذي يُسمّونه خطّ وادي الطواحين، إذ تتواجد طواحين المدينة على امتداده، وهو شارع عريض وطويل.

بئر أيّوب

هناك بقعة في الجهة الغربية من طُور الزيتون تُسمَّى الساهرة، وآية (فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ)⁽¹⁾ تشير إلى هذه البقعة، وهي اليوم مقبرة للمسلمين، قيل إن الناس يُحشرون هناك يوم القيامة.

وذكروا وجود كهف قبالة السَّاهِرَةِ يُسمَّى مغارة الكتان، تتصل من تحت السور بالصخرة الشريفة، وهي مغارة مستطيلة كبيرة، يتناقل الناس عنها أخباراً مخيفة.

تقع بئر أيّوب على مقربة من عين سلوان، يقال إن عمقها يبلغ خمسة وثمانين ذراعاً، وعرضها أربعة أذرع، وسعة الفوهة عشرة أذرع، وبُنيت البئر من الأحجار الكبيرة بعرض خمسة أذرع، وماؤها بارد عذب قَرَّاح، ويقال إن الآية (أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ)⁽²⁾ تشير إلى هذا الماء، وفي موسم الشتاء، تفيض البئر، وتنفور بماء كثير.

وادي جهنم

يقع وادي جهنم خلف السور الشرقي لصحن المسجد الأقصى وبذيل

(1) قرآن كريم، سورة النازعات، الآية 14.

(2) قرآن كريم، سورة ص، الآية 42.

طُور الزيتون، ذكروا في سبب تسميته أنه لما سار عمر بن الخطّاب بجيوشه العظيمة، لفتح بيت المقدس، وبلغ هذا الوادي، قال: هذا وادي جنّهم، ومن وقتها عُرف بهذا الاسم.

يقوم بيتان من الحجر، تعلوهما قبة صخرية في المكان، يرشقهما الناس بالحجارة، قيل إنه بيت فرعون وزوجته، ويقول البعض إن قبري زكريّا ويحيى في ذلك البيت، وخطأً آخرون هذا القول على اعتبار أن قبري زكريّا ويحيى يقعان إمّا في سبسطية⁽¹⁾ نابلس، أو في جامع دمشق.

وتتعدّد روايات العجائب والغرائب في بيت المقدس، وتكثر المدارس والكنائس، والأرطة⁽²⁾ فيها لا تُعدُّ، واستناداً لما رواه كعب الأحبار، فإن هذا المكان يحتضن ألف قبر للأنبياء.

صحن الصخرة الشريفة وقبّتها

ومع أن بيت المقدس يقع على قمة جبل، إلا أنهم قاموا بتسطيح أرضه، وبناء سور حوله من الأحجار العظيمة، يتخلّلها الطين والجصّ. يرتفع السور عند المنحدرات، وينخفض عند المرتفعات، لذا يُرى سوره من الجهة الجنوبية، بارتفاع مئة ذراع من خارج الوادي.

يمتدُّ طول الصحن الذي تقع في وسطه الصخرة الشريفة من الجنوب إلى الشّمال، وعرضه من الشرق إلى الغرب، وبلغ طوله ستّ مئة وستّين ذراعاً، وعرضه أربع مئة وستّة أذرع، وقاموا برفع وسط الصحن مئتين وخمسة أذرع طولاً، ومئة وتسعة وثمانين ذراعاً عرضاً، ورفضوه بالحجارة

(1) سبسطية: وردت في الكتاب (سبسطية). (المترجم).

(2) الأرطة: مفردها رباط، وهي نوع من المدارس الإسلامية. (المترجم).

البيضاء، ويبلغ ارتفاعه سبعة أذرع، وله خمس وعشرون درجة من الجهات الأربع، كلُّها من الحجارة البيضاء العريضة.

المسجد الأقصى

وسُمِّي المسجد الأقصى بهذا الاسم، لبُعده عن الكعبة، ويقول البعض لتوسطه العالم، إذ تحدُّه من جهة القبلة أرض الحجاز واليمن والهند، ومن جهة الشرق العراق ومملكة العجم، ومن جهة الشَّمال بلاد الشام والروم، ومن جهة الغرب البلاد المصرية ومملكة العرب.

يقع المسجد الأقصى في قلب الصحن الكبير، وبابه يُفْتَح من زاوية في السور الشرقي، وهو مسجد عظيم بُني في غاية الاستحكام والقوَّة والمتانة، ويُعدُّ من عجائب الزمان، فَمَنْ يشاهد عَظْمَةَ أعمدته، وضخامة حجارتها، وطريقة إحكام بنائه، يعلم أن لا طاقة لغير نبي على هذا العمل. إلَّا أنه، ومع الأسف، اعتدت عليه أيادي أعداء الدِّين، وألحقت به الخراب والدمار، وإنه لن يعود إلى سابق عهده قطُّ:

هيهات أن يأتي الزمانُ بمثلِهِ إنَّ الزمانَ بمثلِهِ لبخيل⁽¹⁾

ما كان واضحاً من المسجد هو اثنا عشر قوساً في طوله، وأحد عشر في عرضه، ترتكز على أعمدة بطول عشرة أذرع، ومن حجارة الجدران ما يبلغ منها عشرة أذرع، وخمس عشرة ذراعاً، فينظر إليها الزائر بدهشة وانبهار، وما غير ذلك، فإمَّا مهدوم، أو مسدود، لا سبيل للوصول إليه، وقد نقل لنا الخُدَّام أن هناك خمسة طوابق تحت الأرض، والعهدة على الراوي؛ ولم نشاهد لها أثراً.

(1) بيت من قصيدة لأبي تمام. (المترجم).

يطلق أهل السُّنَّة اسم المسجد الأقصى على الجامع الذي بناه عبد الملك بن مروان، في حين يقول صاحب تاريخ الأنس الجليل⁽¹⁾ إن الأقصى اسم لجميع المسجد ممَّا دار عليه السور.

باني المسجد

تذكر بعض الروايات أن المسجد الأقصى من البنايات المُحكَّمة المتينة التي شُيِّدت بأمر من الباري، عزَّ وجلَّ، ويقول البعض إن إسرافيل هو مَنْ قام ببناء المسجد، وينسبه آخرون إلى آدم، ومنهم مَنْ يشير إلى سام بن نوح، وكتب البعض الآخر أن الله أوعز ليعقوب بن إسحاق لبنائه، لكن المعروف أن الباري أمر داود ببناء البيت، ولم يُكمله، فأوصى سليمان، فأتمَّه، ونحن لا نملك إلا أن نجمع بين كلِّ تلك الروايات، لانعدام الدقَّة في التحقُّق من الخبر.

قبة الصخرة الشريفة

قبة الصخرة مثمَّنة الشكل. يبلغ محيطها من داخل البقعة مئتين وأربعة وعشرين ذراعاً، ومن الخارج مئتين وأربعين ذراعاً، تقوم على اثنتين وخمسين قوساً، وترتفع عن الصحن واحداً وخمسين ذراعاً، وتبعد عن الجدار مئة متر، وسقفها مغطَّى بطبقة من الذهب.

كانت القبة الشريفة في غاية الزخرفة أيَّام النبي سليمان، وفيها شتى أصناف المجوهرات من ذهب وفضَّة وياقوت ومرجان، وقد ذكر المؤرِّخون تفاصيلها، ولا تتسع هذه العجالة لذكرها.

(1) تاريخ الأنس الجليل: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المؤلَّف: عبد الرحمن بن محمَّد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدِّين المتوفَّى: 928هـ. (المترجم).

للقبة أبواب من الجهات الأربع، تُفتح للداخل، يُطلق على الباب الشرقي اسم باب إسرائيل، والباب الشمالي باب الجنة، وتحيط بباطن القبة سلسلتان من الأعمدة الحجرية، تتألف السلسلة الأولى من ستة عشر عموداً، والسلسلة الثانية من اثني عشر عموداً، ثمانية من أعمدة السلسلة الأولى مضلعة، اتَّخذت من الأحجار الطبيعية الشفافة المنقوشة، يبلغ طول ضلعها الأكبر ذراعين وربع، فيما يبلغ طول الضلع الأصغر ذراعاً واحداً وعقدتين، ويتوسط كلَّ عمودين مضلعين عمودان أسطوانيان، يبلغ قطر الواحد منهما ذراعين وربع الذراع، والسلسلة الثانية كسابقتها، والاختلاف بينهما أن هذه تضمُّ أربعة أعمدة مضلعة، وثمانية أسطوانية.

قيل إنهم جاؤوا بأحجار الأعمدة الأسطوانية ذات اللون الأخضر اليشمي من الهند. المسافة بين الأعمدة ستة أمتار، وزينوا أعلاها بالفسيفساء المنبته حتى لتظنَّ أنها خواتم مرصعة في غاية الروعة والجمال.

رصَّعوا جدران البقعة حتى السقف بالفسيفساء الملونة، وعُلقت القناديل من الطرفين بين أعمدة السلسلة الثانية، وفي الطرف الجنوبي قنديل حديدي، يتسع لألف مصباح.

على الطرف الأيسر، وقبالة الباب الجنوبي، بُني ليوان مسقوف، يُسمونه دكة المؤذنين، يبلغ طوله ثلاثة أذرع، تحيطه عشرة أعمدة، وقد علَّقوا في سقفه قرناً محمولاً على رحل.

كما بنوا جداراً صغيراً من الحجارة قبالة صخرة محاطة بالقضبان المعدنية عند الباب الشمالي، تُعرف بمقام سليمان، يبلغ طول الجدار

ذراعَيْن، وارتفاعه لا يتجاوز الذراع، ولم تُزَيَّن الصخرة سوى بطوق طويل من الذهب الأحمر، نصبوه أعلى القبة الشريفة.

الصخرة الشريفة

كانت الصخرة الشريفة قبلة الأنبياء والعالمين قديماً، وقد ضرب النبي موسى، عليه السلام، قبة عليها، ومنها عرج خاتم الأنبياء، صلى الله عليه وآله ليلة الإسراء، وتقع في قلب المسجد، وهي صخرة كبيرة، يبلغ حجمها ثلاثة وثلاثين ذراعاً في سبعة وعشرين ذراعاً.

كسرها بُخْتُنَصَّر في تخريبه لمدينة بيت المقدس، وانفصل جزء منها عليه آثار قَدَم النبي، فوُضعت تحت قبة مستقلة، تُسَمَّى قبة موضع القَدَم.

يوجد مِيلان في إحدى أطراف الصخرة من الناحية الجنوبية، قيل إنها مالت من هيبة النبي حينما اعتلاها، وفي الجانب الآخر منها موضع أصابع الملائكة التي أمسكتها في تلك اللحظة، يقول آخرون إنها موضع قَدَم النبي إسحاق الذي اعتلاها في طفولته.

الصخرة الشريفة معلّقة فوق كهف، صلى فيه الأنبياء، وهو موضع لاستجابة الدعاء، فلا تبدو متصلة بما تحتها، فقام محيي الدين بن عربي برفع أطراف الكهف، ليوصلها بالصخرة الشريفة، ليستر هذا الأمر عن العامة، وليُجَنَّبهم الفرع من رهبة المنظر.

وقيل في سبب قيام ابن عربي برفع أطراف الكهف إلى حواف الصخرة المباركة، إن امرأة حاملاً دخلت الكهف، فأسقطت جنينها من هَوْل ما رأت.

يقع باب الكهف في الطرف الجنوبي، ويتمُّ النزول إليه بهبوط إحدى عشرة درجة، وفي جوفه مقامات الأنبياء الذين كانوا يتعبَّدون داخله.

إلى جهة اليمين أوَّل دخول الكهف يقع محراب النبي سليمان، وإلى يساره محراب النبي داود، وفي الزاوية الشماليَّة محراب مقام الخضر، وهو صغير، وله عمودان لطيفان، وقُبَّالته موضع قيل إنه مقام النبي إبراهيم، عليه السلام، وإلى جانبه محراب، يقال إنه مقام خاتم الأنبياء، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الصخرة الشريفة غير متناسقة الهيكل، تبرز من طرفها الجنوبي بعض النتوءات، وهي محاطة بدرابزين خشبي منقوش، وإلى الجنوب من الدرابزين، أُقيمت قَبَّة صغيرة في الزاوية الوسطى، قيل إنهم وضعوا الشَّعْرَتَيْنِ الطَاهِرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ سَقَطتا ليلة المعراج من لحية النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، في زجاجة موضوعة في القَبَّة، وخلف القَبَّة شمعدان متفرِّع.

الأحاديث المكتوبة حول الصخرة الشريفة

فوق باب القَبَّة الشريفة كُتِبَ الحديث: "قَالَ عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، صَخْرَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ صُخُورِ الْجَنَّةِ"⁽¹⁾، وفوق الباب الجنوبي كُتِبَ الحديث: "أَبْشُرُوا، هَذَا الْقُرْآنُ طَرْفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرْفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَهْلِكُوا، وَلَنْ تَضُلُّوا بَعْدَهُ"، رواه الطبراني. وفي الطرف الغربي من القَبَّة كُتِبَ الحديث: "عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قُدَّسَ سِرُّهُ: أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، قَالَ: مَنْ تَصَدَّقَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ

(1) الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1، ص 235.

بِدْرُهُمْ، كَانَ فِدَاءُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِرَغِيفٍ، كَانَ كَمَنْ تَصَدَّقَ
بِجِبَالِ الْأَرْضِ ذَهَبًا"⁽¹⁾.

وَقُبَالَةَ الْبَابِ الشَّرْقِيِّ كُتِبَ الْحَدِيثُ: "رَوَى الْحَسَنُ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ
عَنْ جَدِّ الْحَسَنِ أَنَّ أَحْسَنَ الْحُسَيْنِ الْخُلُقِ الْحَسَنُ"⁽²⁾، وَ"قَالَ عَلِيٌّ، عَلَيْهِ
السَّلَامُ: عَزَّ مَنْ قَنَعَ، وَذَلَّ مَنْ طَمَعَ"⁽³⁾ وَكُتِبَتِ الْآيَةُ (مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)
⁽⁴⁾، وَبِجَانِبِهَا اسْمُ حَسَامِ الدِّينِ.

التواريخ المكتوبة حول قبة الصخرة الشريفة

عندما قام السلطان عبد العزيز بعمارة الحرم المبارك عام 1292
للهجرة، كتبوا هذا الشعر الفارسي أعلى الباب الشرقي:

بني سلطان البرِّ والبحرِ الحرمَ على التمام، وقال ربِّي سهَّلَ عليَّ
حُسْنَ الختام

وعندما قام السلطان محمود بتجديد العمارة عام 1233 كتبوا خارج
القبة على يمين الباب الجنوبي:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، جَدَّدَ تَعْمِيرَ هَذَا الْمَقَامِ، عَلَى هَذَا
النَّقْشِ بِحُسْنِ انْتِظَامٍ، مَوْلَانَا سُلْطَانُ الْبَرِّينِ، وَخَاقَانُ الْبَحْرَيْنِ، وَخَادِمُ
الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وَهَذَا الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَوَّلَ الْقِبْلَتَيْنِ، الْغَازِي حَضْرَةَ

(1) الأنس الجليل، ج1، ص 235.

(2) بحار الأنوار، ج68، ص386.

(3) الغرر والدرر، ص 665.

(4) قرآن كريم، سورة الحج، الآية 27.

السلطان محمود خان نصره الله، وأدامه، وخلد ملكه، وسلطانه، وقرن أموره بالتوفيق أحكامه، ونشر على الخافقين بالعدل أعلامه، وذلك على يد الوزير الشهير المأمور بالأمر العالي الخطير، الدستور الوقور صاحب الخير والسرور والسعادة الحاج سليمان باشا والي صيدا، وذلك في ثلاثة وثلاثين ومئتين وألف⁽¹⁾.

وقد قام السلطان عبد الحميد بعمارة الباب، فكتبوا على طرفه الغربي: "سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، فَادْخُلُوهَا آمِنِينَ، قَدْ جَدَّدَ الْمَلِكُ التَّقِي سُلْطَانُ عَبْدِ الْحَمِيدِ ذَاكَ الْبَابَ".

بنيان الجامع القبلي

بني الجامع القبلي بأمر من عبد الملك بن مروان، وأعاد بناءه السلطان محمود، ويقع أقصى الصحن المنخفض، ممتداً من الجنوب إلى الشمال، طوله مئة ذراع، وعرضه ستّة وسبعون ذراعاً، وتقام فيه صلاة الجمعة.

بناء الجامع رصين ومتين، يقوم على خمسة أعمدة مُضَلَّعة، وخمسة أعمدة أسطوانية في طرفه الأيمن، سقط منها العمود الرابع، وأعيد بناؤه ثانية، فصار أكبر من الأوّل، ومثلها في الطرف الأيسر.

وعلى مقربة من المحراب، أُقيمت أعمدة في الجهات الأربع، وعلّقوا ثُرَيَّا كبيرة من قبل السلطان عبد العزيز، ونصبوا منبراً، تمّ صنعه في حلب، بأمر من السلطان نور الدين الشهيد، وقد رُصِّع بعاج الفيل والأبنوس، جاء به الملك صلاح الدين عام 579 هجري بعد فتحه لحلب، ووضعه في هذا المسجد.

(1) ورد النصُّ باللغة العربية، وأبقينا عليه كما هو. (المترجم).

وإلى الغرب من الجامع، يقع مسجد طويل، يُعرَف بجامع النساء، تُوصِل إليه طريق جانبية، قيل إنه من بنيان الفاطميّين، وهناك طريق أخرى من الزاوية الشرقية، تُوصِل لمسجد آخر غير واسع، يُسمّى مسجد عمر. وُضعت حديثاً بعض الأعمدة الحجرية المنمّقة والمزخرفة في محرابه، يقول البعض إنه من آثار بني أميّة، وإلى الشّمال منه، ليوان صغير، يقال إنه مقام عُزير، وإلى شّماله، ليوان آخر، يضمُّ محراب زكّريّاً.

يشتمل الجامع على محرابين، المحراب الكبير في الجانب الشرقي، ويُسمّى محراب داود، ومحراب معاوية في الجانب الغربي، وقبالة الجامع بركة ماء مستديرة مطويّة من الحجارة، وأرضيّتها مفروشة بحجارة متنوّعة، قيل إن ماء البركة يأتي من خليل الرحمن.

أبنية الصحن المرتفع وقبابه

في أوّل الصحن ثلاث بوائك، تقع في الضلع الجنوبي، وأربع في أوسطه، وثلاث في آخره؛ وعلى يمين البائكة الوسطى، وُضع منبر، صُنع من الحجر، تعلوه قبة مضروبة على ستّة أعمدة حجرية، ثلاثة من يمين، ومثلها من يسار، وعامودان في الأمام، ومثلهما في الخلف، بناه القاضي برهان الدّين بن جماعة بدل منبر قديم، كان مصنوعاً من الخشب، وبعد المنبر، يوجد محراب ذو عمودين حجريّين، يُنسب إلى صلاح الدّين؛ ثمّ يتلوه محراب آخر، يسكنه المهاجرون؛ تتمتع بعض هذه المحارِب بالقباب.

وفي الجانب الشّمالي من الصحن المرتفع، توجد ثلاث بوائك في أوّله وأوسطه، وحجرة بعد البائكة الأولى، لها قبة وليوان، والحجرة الثالثة

تتمتع بقبة وليوان وقوسين، وقبالة الحجرة الثانية بمسافة عدة أذرع، تقوم قبة، تُسمى مغارة الأرواح.

وللجانب الغربي، أربع بوائك في أوله، وقبة صغيرة في الزاوية، تُسمى قبة الميزان، وتقع بعدها ثلاث حجرات بقباب، وبائكة في الوسط، ثم حجرتان دون قباب.

وفي وسط الجانب الشرقي الذي يُعرف باسم درج البراق، توجد خمس بوائك، وإلى اليسار حجرة، تعلوها قبة، تُنسب إلى الشيخ عبد الله، كونها كانت مجلسه.

وفي وسط الصحن المرتفع محراب صغير، يُعرف بمحراب الإمام الأعظم، يقع وسط الطرف الجنوبي، وعلى يمينه بعدة أذرع، تقع علامة تعيين الزوال التي لم تعد تعمل، لتلفها، وعلى يسارها، بئر أسفلها بركة صخرية، وفي الطرف الغربي محراب، له ثمانية أعمدة حجرية، يُعرف بمقام النبي، قيل إن النبي الخاتم، صلى الله عليه وآله، أقام فيه الصلاة ليلة الإسراء، وأمامه قبة تُسمى قبة المعراج، يقولون إن النبي عرج من مكانها.

وبالقرب من قبة المعراج قبة أخرى، يحيط بها ثلاثون عموداً، يوجد داخلها الحجر الصغير المنفصل من قبة الصخرة، وكانت تُسمى قديماً موضع القدم، وفي هذا العصر تُعرف ببقعة بخ بخ، وقيل إنها الصخرة التي صلى عليها الخضر قديماً، وبعد التغييرات الأخيرة التي طرأت على المسجد الأقصى دُفنت هذه الصخرة تحت تراب البقعة.

وفي الجانب الشرقي، ترتفع قبة كبيرة قوية ومتينة مفتوحة الأطراف،

توسّطها سلسلتان من الأعمدة، فضلاً عن عمودَي المحراب؛ تحتوي السُّلْسِلَة الأولى عشرة أعمدة حجرية، وتشكّل السُّلْسِلَة الثانية من سبعة أعمدة، وتُعرف باسم محكمة داود، عليه السلام، أو قَبَّة حُورِ العَيْنِ، لِذِكْرِهِمْ بِأَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، شَاهَدَ حُورَ العَيْنِ هُنَاكَ، وَيُطْلَقُونَ عَلَيْهَا اسْمَ قَبَّةِ السُّلْسِلَة، لِأَنَّ النَّبِيَّ سَلِيمَانَ قَدْ عَلَّقَ فِي الْمَكَانِ سِلْسِلَة مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، تَكُونُ فِرْقَاناً بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا تَنَالُهَا أَيْدِي الظُّلْمَة وَالغَاصِبِينَ.

تذكر الحكايات أن رجلاً استودع يهودياً مئة دينار، فلما طلب الرجل وديعته، جردها اليهودي، فترافعا إلى المقام عند السُّلْسِلَة، وكان من مكر ودهاء اليهودي أن سبك تلك الدنانير، وجعلها في جوف عصاه بعد أن أفرغ وسطها، فلما أتيا المقام، دفع المؤتمن العصا إلى صاحب الأمانة، وقبض السُّلْسِلَة، فحلف بالله أنه أعطاه دنانيره، ودفع صاحب المال العصا إلى اليهودي، وتقدم ليقبض السُّلْسِلَة، فحلف بأنه لم يأخذها منه. يقال إن السُّلْسِلَة ارتفعت من ذلك الحين، لخبث الطَّوْيَات. قال الشاعر:

لقد مَضَى الوَحْيُ، وَمَاتَ العُلَا وَارتَفَعَ الجُودُ مَعَ السُّلْسِلَة⁽¹⁾.

وفي الصحن قَبَّةٌ أُخْرَى تُسَمَّى قَبَّةَ جِبْرَائِيلَ، لَهَا مَحْرَابٌ وَأَرْبَعَةٌ أَعْمَدَةٌ، قِيلَ إِنَّهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، جَاءَ بِالْبُرَاقِ لَيْلَةَ المَعْرَاجِ إِلَى هُنَاكَ. وبالإجمال، يضمُّ الصحن خمساً وعشرين قَبَّةً، وخمسين بئراً، وأربع منارات، منارتين في الطرف الغربي، ومنارتين في الطرف الشرقي.

(1) السُّلْسِلَة: لم نعثر على نسبة قائل هذا البيت. (المترجم).

أبواب الصحن

يفضي إلى الصحن أربعة عشر باباً من جميع جوانبه، ثلاثة في الجانب الشرقي، وكلُّها مغلقة، أوَّلها باب الرحمة، وثانيها باب التوبة الذي قيل إن آية (فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ سُورَ لَهٗ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)⁽¹⁾ تشير إليه. ويقع وادي جهنم في أحد أطرافه وفقاً لمعتقد أهل تلك المنطقة، وقد تمَّ إغلاق البابَيْن في عهد عمر بن الخطَّاب حفاظاً عليهما، لوجود الصحراء على أحد جانبيهما، ولن يُفْتَحَا إلاَّ بنزول النبي عيسى، عليه السلام، ودُكر في تسمية باب التوبة بأنه الباب الذي قبل الباري توبة داود عنده، والباب الثالث باب الجنائز، ويُسمَّى باب البراق.

وثلاثة أبواب في الطرف الشَّمالي، الأوَّل باب الأسباط، حيث الشَّمال الشرقي، والثاني باب حطة الذي دخل منه اليهود، وآية: (وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ)⁽²⁾ تشير إليه، والثالث باب شرف الأنبياء الذي يُطلق عليه اسم باب الدوِّندارية، ويُسمَّى الآن الباب العظيم.

وفي الطرف الغربي ثمانية أبواب، هي:

أوَّلاً: باب الغوانمة، ويقع في الشَّمال الغربي، ويُسمَّى باب الغانم المقدَّس، كان ينتهي إلى منازل بني غانم، ويُطلقون عليه قديماً اسم باب الخليل.

ثانياً: باب الناظر؛ قيل إن جبرائيل ربط البراق بهذا الباب، وكان يُسمَّى قديماً باب الخليل.

(1) قرآن كريم، سورة الحديد، الآية 13.

(2) قرآن كريم، سورة البقرة، الآية 85.

ثالثاً: باب الحديد الذي أعاد بناءه نائب الشام أرغون الكاملی.

رابعاً: باب القطنین، وينتهي به المطاف إلى سوق القطنین، وقد كُتِبَ هناك: إن السلطان الملك الناصر جدّد عمارته في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة.

خامساً: باب المتوضّأ، وقد جدّد عمارته علاء الدین الناصر، ويقع نهاية الجانب الغربي.

سادساً: باب السِّلْسِلَة، ويُسمَّى باب داود.

سابعاً: باب السكينة، وقد ذُكِرَ في تسميته أن الملائكة وضعت تابوت السكينة⁽¹⁾ هناك.

ثامناً: باب المغاربة، ويجاور جامع المغاربة، وكان يُسمَّى باب النبي، ويُعرف في الوقت الحاضر باسم باب البراق، قيل إنه كان مدخل النبي ليلة المعراج، ويبلغ عرضه عشرة أمتار، وقد بنّوا درجه من الحجارة الكبيرة، وهناك أثر من درع حمزة على الحجارة القريبة من الباب.

كانت لبعض أبواب الصحن قديماً أسماء مشهورة مثل باب الهاشميين، وباب إبراهيم، وباب أمّ خالد، وباب بركة بني إسرائيل، وباب محراب مريم، ولم تعد مُستخدمة الآن، فلكلّ دَوْرٍ طَوْزٌ.

قِباب الصحن المنخفض

قبة سليمان، وتقع بالقرب من باب الدوّيداريّة، وهي من عمارة بني

(1) إشارة للآية 248 من سورة البقرة (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). (المترجم).

أُمِّيَّة، بناؤها مُحَكَّم، وفيها الصخرة الثانية التي وقف عليها النبي سليمان، عليه السلام، ودعا ربّه بعد فراغه من بناء المسجد الأقصى، وقد نُصِبَتْ على سور القَبَّةِ الشرقي، وهي مسطّحة.

قَبَّة موسى؛ كانت تُعرَف قديماً بقَبَّة الشجرة، وقد تمَّ بناؤها على يد الملك الصالح نجم الدّين أيُّوب ابن الملك الكامل في عام 649، وفي تسميتها لا يعنون النبي موسى.

قَبَّة الطُّومَار، وموقعها جنوب شرق الصحن، ذكروا في تسميتها أن أحد الملوك جاء بطُومَار من جبل الزيتون، وألقاه هنالك، فبنوا القَبَّة مكان سقوطه.

أروقة الصحن

في الصحن المبارك ثلاثة أروقة، أحدها في الجهة الشرقية وقد اندثر، ولم يبقَ شيء من معالمه، وهنالك رواقان في الجهة الغربية والشّمالية، وهما مُحَكَّما البناء، ويمتدُّ طولهما من الجنوب إلى الشّمال.

يبدأ الرواق الأوّل في الجهة الغربية من باب المغارة، وينتهي عند باب المناظر. أُعيد إعمارُه في عهد سلطنة الملك ناصر محمّد بن قلاوون، وأمّا الرواق الثاني، فيقع في جهة الشّمال، ويمتدُّ طولاً من الشرق نحو الغرب، يبدأ من باب الأسباط، وينتهي بالمدرسة الجادليّة، واسمها الآن دار النيابة، وقد سُيِّدت في عهد سلطنة الأشرف شعبان بن حُسين عام 769 للهجرة.

مهد عيسى

في الزاوية الشّمالية من سور الصحن بقعة أرض، يسمّيها الخُدّام

سوق المعرفة، يقال إن مهد عيسى، عليه السلام، تحت مستوى سطح تلك الأرض.

يُنزَلُ إلى المكان بدرجات، تصل إلى باحة مرَّعة، وهناك صخرة مجوَّفة مستطيلة الشكل، قيل إنها مهد عيسى الذي تكلم فيه. الجانب الشرقي منها تعلوه قبة صغيرة، وللقبة عمودان، عليهما أثر إصبعين، ذكروا أن مريم كانت تتمسك بالعمودين عندما وضعت حملها، فبقي أثر إصبعيها، وتحت القبة محراب، يُسمونه محراب مريم، يقرؤون سورة مريم فيه، وورد أن الدعاء مستجاب في هذا المقام.

مقبرة السيِّدة مريم

تقع في الطرف الشمالي الغربي، ويُسميها النصارى كنيسة الجُسمانيَّة التي بنتها هيلانة أم قسطنطين. لها صحن مرَّع منخفض، يتشكّل بناؤه من الأحجار، وقُبالة باب الصحن باب يُوصِل إلى المقبرة عبر سبعة وأربعين درجة صخرية، تقود إلى وسط المدرجات على طرفي سرداب مستطيل، يتسع عند بهوَيْن، وضعوا فيهما صور النبي عيسى، عليه السلام، وتماثيله.

تقع بقعة السيِّدة مريم في البهو الأيمن، وهي صغيرة المساحة، لها بابان صغيران، أحدهما في الزاوية اليمنى، يُفْتَح نحو البهو، والآخر من جهة اليسار.

يرتفع قبر السيِّدة مريم بقدر ذراع واحد عن الأرض، متّصلاً بالجدار، وكأنه ليوان صغير. بُني القبر بالحجارة، وعُلِّقت فوقه القناديل، وخلف البقعة باحة، تغصُّ بأنواع الزينة والصور والتماثيل.

كان القساوسة يُمسكون الشموع بأيديهم، فجئتُ بكتاب النائب المستطاب معتمد الدولة، وقرأتُ نيابة عنه قصيدة المرمية إلى آخرها.

مقبرة النبي داود

تقع مقبرة النبي داود خارج القلعة، وأمامها ساحة ممتدة. عند الدخول من الباب تُرى بقعتان متداخلتان، يقع القبر الجليل في البقعة الثانية، ويمتدُّ طولاً بطول البقعة، وعليه كسوة مطرزة، ويمين البقعة ستارة معلّقة على الجدار، قيل إن هناك طريقاً مُوصلاً من تحت الأرض حتّى سرداب خليل الرحمن، عليه السلام، وهو مدفن أنبياء الله، وشاهدتُ بناءً عند البقعتين، إذ هو مكان متوليّ البقعة والخدم؛ فقصدتهُ، وجلسنا لاحتساء القهوة وتدخين النرجيلة.

يوم الاثنين، سلخ شهر صفر، أحضروا عدداً من الخيول، فامتطيناها أنا والأصحاب والأتباع عازمين على زيارة الخليل، عليه السلام.

دُفن إبراهيم الخليل في حَبْرُون⁽¹⁾ جنوبي القدس الشريف. يبعد المكان مسافة اثني عشر ميلاً، ويحتاج من الوقت ستّ ساعات. الطريق كانت صخرية وعرة، ويكثر شجر البلوط في المنطقة.

على يمين الطريق، شاهدنا عمارة الروس، وبعد أن اجتزناها بمسافة، بلغنا خسته خانة كبيراً، أقامتهُ حكومة النمسا، وكان قنصل النمسا ينتظر بمحاذاة الجدار للاستقبال، تحدّثنا معه ونحن على ظهور الخيل.

ووفقاً لما قاله القنصل، فإن الحكومة النمساوية هي من تكفلت

(1) حَبْرُون: وردت في الكتاب (دحبرون). (المترجم).

بمصاريق المرضى، وقد عالجت عشرة آلاف من الذين قصدوها من الأطراف في السنة الماضية. تابعنا المسير، وقرّنا زيارة الخسته خانه عند العودة.

شاهدنا بضع بيوت، تقع خلفها بساتين من أشجار الزيتون. وبعد مسافة، بلغنا بقعة راحيل أمّ النبي يُوسُف، عليه السلام، تقع على يسار الطريق، وبابها مُعَلَّق، قرأنا الفاتحة، وواصلنا مسيرنا.

حين وقت الغداء، وصلنا قلعة واقعة على يسار الطريق، وإلى الجنوب منها ثلاث برك كبيرة متّصلة ببعضها، الأولى أكبر من الثانية، والثانية أكبر من الثالثة، ذكروا أن مياه الأمطار المنحدرة من الجبال تصبُّ فيها، وقد حفروا قناة مسقّفة لنقل الماء إلى مدينة القدس الشريف، رأينا عمارة أعلى المرتفعات، تبين لنا أنها مسكن حُرّاس القلعة في الصيف.

بعد عبورنا، جاءت ثلّة من الفرسان، أرسلهم مصطفى أفندي قائم مقام حَبْرُون لاستقبالنا، ثمّ بلغنا عين ماء على يسار الطريق، مياهها جارية، بنّوا حولها حجارة، تتّصل بها بركة، حضر مصطفى أفندي بنفسه إلى هنا لاستقبالنا، تلاطفنا معه، ورافقنا.

وفي أثناء المسير، رأينا على يسار الطريق برجاً، عاث به الخراب، كان، فيما مضى، موضعاً للحُرّاس، وبعد قطع مسافة، ظهرت أماننا وإلى جهة اليسار قرية حَلْحُول التي تضمُّ قبر النبي يُوسُف، عليه السلام؛ المسافة التي تستغرق مسير ساعة إليها حالت دون تمكُّننا من زيارتها.

ثمّ شاهدنا عمارة روسية، شيّدت منزلاً لإقامة المسافرين على قمّة مرتفعة، لها خمس نوافذ في الطول، وأربع في العرض؛ أمامها شجرة كبيرة، قيل إن عُمرها أربعة آلاف سنة، والعهد على الراوي.

بعد اجتيازنا طريقاً وِعْرَةً، بلغنا حَبْرُونَ المحاطة بالحدائق المسيّجة بالسلاسل الحجرية. توجد أمام القرية بركة كبيرة، تتزوّد من مياه الأمطار، بعدها شاهدنا آثار سور قديم متهدّم على يسار الطريق في موقع، يقال له رَامَةٌ، وهو منطقة السور الذي كان ينوي النبي سليمان أن يقيمه أولاً، فأوْحِيَ إليه أن المكان موضع قبر النبي إبراهيم، فانصرف عن بناء السور، وسنأتي على ذِكْر ذلك.

اجتمع أهالي حَبْرُونَ على مدخل القرية لاستقبالنا، برفقة متولّي إبراهيم الخليل حاملاً علمين أخضرين، فتوقّفنا وسط الطريق، وقمنا بواجب الاحترام، ومضيّنا.

قصدنا بيت الحاجّ شيخ محمّد علي الشّيوعيّ الذي خصّص لإقامتنا. وبعد مضي ثلاث ساعات من الليل، قصدنا السوق المسقّفة باجتيازنا إحدى وثلاثين درجة حجرية عريضة، دخلنا من باب يُوسُف، فواجهنا باب أخضر على اليمين، يُفْتَح نحو مقبرة النبي يُوسُف، عليه السلام؛ الباب مُغلق منذ زمن لترددهم بين موضعين لتحديد القبر، أحدهما هذا المكان المزوّد بباب، والآخر في زاوية من صحن إبراهيم الخليل.

لكنّ ما سطر التاريخ أن النبي يُوسُف مات وعمّره مئة وعشرة أعوام، واشتدّ الخلاف بين أهل مصر على مكان دَفْنه، فكانت كلّ قبيلة تريد الحصول على شرف دفن النبي في ديارها، حتّى أدّى هذا الخلاف إلى النزاع، لكنهم اتّفقوا أخيراً على وضع جثمان النبي في تابوت من رخام، وختمه بالرصاص، ومن ثمّ إلقاؤه في نهر النيل، وعلى مقربة من المدينة، كي يحمله الماء، ويمرّ به من كلّ الأحياء، وبذلك يستوون في نيلهم هذا الشرف، وقد أخرج النبي موسى التابوت من نهر النيل بعد إغراق فرعون، وحمله إلى التيه.

صَعِدْنَا السَّلَامَ، ووصلنا إلى الباب الثاني، ومن هناك إلى دهليز، فرأينا إلى جهة اليمين أربعة أقواس من الرخام الأبيض، وباب بقعة النبي إبراهيم من خلال القوس الرابع، فقمنا بزيارة النبي الخليل وزوجته سارة، والنبي إسحاق وزوجته رَيْقَةَ أو رِفْقَةَ، والنبي يعقوب وزوجته لائِقَةَ أو إِلْيَا أو لَيْلَا أو لَيْقَا، والنبي يُوْسُفَ، عليه السلام. ثمَّ رجعنا إلى الدهليز من اليمين مرَّةً أخرى، فصَعِدْنَا إحدى عشرة درجة، لنخرج من باب الرباط عائدين إلى المنزل بعد توديعنا للقائم مقام والآخرين.

ورد في الحديث النبوي: "مَنْ لَمْ يُمْكِنْهُ زِيَارَتِي، فَلْيُرْزُقْ قَبْرَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ". فشكرتُ اللهَ، وحمدتُهُ على توفيقِي لزيارتِهِمَا كِلَيْهِمَا، ونيلِي هذه السعادة، وفوزي بها، وعدم حرمانِي منها.

حَبْرُون

تعتبر حَبْرُون من توابع كنعان، تُقرأ بالعربية بفتح الحاء، وبالعبيرية بكسرهما، واسمها الأصلي أربع⁽¹⁾، وهي من حيث القبلة مواجهة للقدس الشريف، وفيها أماكن مرتفعة ومنخفضة، بعض شوارعها مستوية، والبعض الآخر مرتفع، تقع بقعة النبي إبراهيم على جبل يُسَمَّى يسلون شرقي السور، والأرض من غربها منخفضة.

تكثر في القرية العمارات والمدارس والمساجد، وفيها أسواق ممتدة، يبلغ عدد سكَّانها أكثر من خمسة آلاف نسمة، معظمهم من المسلمين، وقلَّة قليلة من اليهود الذين قدموا من بابل قديماً.

تضمُّ المدينة أحياء كثيرة، أشهرها حارة الدَّارِيَّة غربي سور النبي

(1) كانت تُسَمَّى أربع نسبة إلى ملك كنعاني بهذا الاسم. (المترجم).

إبراهيم، ويُسمَّى هذا الحَيُّ بهذا الاسم نسبةً إلى تميم الدَّارِيِّ⁽¹⁾ الذي وهبه النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، أرضاً هناك، وَحَيِّ آخِرٍ فِي الْجَهَةِ الْغَرْبِيَّةِ يُسَمَّى حَارَةَ رَأْسِ قَيْطُونٍ؛ وَحَارَةُ الْأَكْرَادِ فِي الْجَهَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَتَقَعُ عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ.

تكثر أشجار الكرمة في القرية، وهي محاطة بالغابات التي يسكنها الأهالي أَيَّامَ الصَّيْفِ، وَغَرْبَ الْبَلَدَةِ جَبَلٌ، بُنِيَ فِي أَعْلَاهُ مَسْجِدٌ، يُسَمَّى مَسْجِدَ الْأَرْبَعِينَ، قِيلَ إِنَّهُ تَمَّ دَفْنُ أَرْبَعِينَ شَهِيداً فِي مَنْطِقَتِهِ، وَالْمَكَانُ مَزَارٌ لِلْأَهَالِيِّ.

بقعة إبراهيم الخليل والأنبياء

ذكروا أن مغارة المكفيلة كانت خالية وسط الصحراء، لم يكن حولها بناء في عهد إبراهيم الخليل، وكُنِيْتَهُ أَبُو مُحَمَّدٍ، وَأَبُو الْأَنْبِيَاءِ، وَأَبُو الضَّيْفَيْنِ. فَلَمَّا مَاتَتْ زَوْجَتُهُ سَارَةَ، قَامَ بِابْتِيَاعِ الْمَغَارَةِ مِنَ الْمَلِكِ عَفْرُونِ بْنِ صُوحَرَ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ.

كَانَ عَفْرُونٌ يَشْتَرِطُ أَنْ يَكُونَ مَقْدَارُ كُلِّ دَرَاهِمٍ عَلَى وَزْنِ خَمْسَةِ دَرَاهِمٍ مَضْرُوبَةٍ بِضَرْبِ الْمَلِكِ، فَلَمَّا يئس الخليل من الأمر، نزل جبرائيل، وسلَّم إبراهيم أربعة آلاف درهم تُوافِقُ شُرُوطَ الْمَلِكِ، فَسَلَّمَهَا الْخَلِيلُ لِعَفْرُونِ، وَتَمَّ دَفْنُ سَارَةَ فِي تِلْكَ الْمَغَارَةِ.

وَدُفِنَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي الْمَغَارَةِ ذَاتَهَا، وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ مِئَةَ وَخَمْسَةِ وَسَبْعِينَ عَاماً، وَيَقُولُ الْبَعْضُ إِنَّهُ تُوفِّيَ فِي سَنِّ الْمِئَةِ وَخَمْسَةِ

(1) تميم الدَّارِيِّ: هُوَ الصَّحَابِيُّ تَمِيمُ بْنُ أَوْسِ بْنِ خَارِجَةَ بْنِ سَوْدِ بْنِ جَذِيمَةَ الدَّارِيِّ اللَّخْمِيِّ. وَوُلِدَ بِفِلَسْطِينَ، وَكَانَ رَاهِباً وَعَابِدهَا. (المتروجم).

وتسعين، ووفقاً للتقدير الأوّل، فإن وفاة الخليل كانت قبل الهجرة بالقيّن وسبعمائة وثمانية عشر عاماً.

وحين تُوفيت زوجة إسحاق دُفنت قبالة سارة، ثم تُوفي إسحاق بن إبراهيم، فدُفن قبالة زوجته بمسافة عشرة أذرع، ثم تبعهم النبي يعقوب بن إسحاق، فدُفن عند باب المغارة، تلتَهُ زوجته، فدُفنت أمامه.

جاء عيص وإخوته إلى يعقوب، وطلبوا منه أن يكون باب المغارة مفتوحاً، ليُدفن فيها مَنْ يتوقاه الله منهم، فاختلفوا وتنازعوا، فقام أحد أولاد يعقوب بضرب عيص، وقطع رأسه، فدفنوا جسده في قرية سَعِير، ودُفن الرأس في المغارة، ثم قام أولاد يعقوب بوضع سور على المغارة، وتعيين شواهد القبور في كلِّ موضع، لتدلَّ على قبر إبراهيم وقبر زوجته سارة، وقبر إسحاق وقبر زوجته رَيْقَة، وقبر يعقوب وقبر زوجته لَيْقَا، وأغلقوا الباب.

وقام الإفرنج بضرب قبة على المغارة بعد احتلالهم لتلك الناحية، وبعد أن فتحها سلاطين الإسلام هدموا القبة.

سور سليمان

ذكروا أنه أُوحى إلى النبي سليمان بعدما فرغ من بناء البيت المقدّس أن يقوم ببناء سور حول قبر النبي إبراهيم، فبحث من القدس الشريف إلى أرض كنعان، فلم يعثر عليه، نزل جبرائيل، وأخبره أن نوراً سيظهر في موضع القبر.

هبط النور من السماء، فتصوّر النبي سليمان أنه في موقع الرّامة القريبة

من حَبْرُون، ولَمَّا هَمَّ بِإِقَامَةِ السور، نزل جبرائيل ثانية حاملاً النبأ أن هذا ليس هو الموضع، سيظهر لك نور آخر يدلُّك على موضع قبر إبراهيم.

نزل النور ثانية على موضع قبر الخليل، فقام سليمان ببناء السور، وبدأ العمران ينتشر من حوله رويداً رويداً، وأوَّل مَنْ اتَّخَذَ عِمَارَةَ هُنَاكَ يُوسُفُ الرامي من أثرياء بني إسرائيل، وقد أدرك النبي عيسى، عليه السلام، ومن ذاك الحين أصبحت المنطقة عامرة.

بُنِيَ السور بشكل مُحكَّم للغاية، يبلغ طوله من الجنوب إلى الشَّمال ثمانين ذراعاً، ومن الشرق إلى الغرب واحداً وأربعين ذراعاً، واستُخدمت الحجارة الطويلة والعريضة في البناء، فقد شاهدنا صخوراً تبلغ الخمسة والثمانية أذرع طولاً، وقُطْرُهَا لَا يَقِلُّ عَن ذِرَاعَيْنِ، وَهَذَا مَدْعَاةٌ لِلتَّسَاوُلِ أَنَّهُمْ كَيْفَ اسْتَطَاعُوا حَمَلَهَا.

وفي زمن حكومة ناصر الدِّين مُحَمَّد بن قلاوون قاموا ببناء مسجد وبقاع في أوسطه، ثمَّ قام السلاطين العثمانيون بإعادة إعمارهِ مع مرور الزمن.

وصف المسجد

يبلغ طول المسجد ثمانية وعشرين قَدَمًا، وعرضه ثلاثين، وله أربع أساطين، اثنتان منهما في اليمين، واثنان في اليسار دون أعمدة في وسطه، وينقسم إلى ثلاثة أقسام، لكلِّ قسم ثلاثة أقواس، يقع المنبر أعلى المسجد، وبمحاذاته منبر خشبي، نُقِشَ، بِخَطِّ كُوفِيٍّ، تَارِيخُ صُنْعِهِ فِي زَمَنِ خَلِيفَةِ مِصْرِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ عَامَ 484 لِلهَجْرَةِ، وَبِاسْتِشَارَةِ مَنْ مُدَبِّرِ حُكُومَتِهِ بَدْر الْجَمَالِي، وَيَسَارِ الْمِحْرَابِ عُلِّقَتْ سَاعَةٌ كَبِيرَةٌ.

في زاوية الجدار الشرقي، كتبوا بضعة أسطر بالخط اليوناني، كاتبها اسمه أليس، فبدأ باسم الله القاهر القادر شديد البطش، ثم ذكر أسماء الأنبياء المدفونين في السرداب، وكتب في الختام: كَتَبَهُ الأليس بخطه.

وقرباً من الزاوية، كتبوا سطوراً بخط النسخ، تشير إلى أن قلاوون قام بإعادة إعمار المسجد في عام 733 للهجرة.

يشتمل المسجد على مغارة، وسرداب دُفن فيه النبي إبراهيم وسائر الأنبياء. تقع بقعة النبي إسحاق في المسجد بين عمودين في الطرف الأيمن، وبقعة زوجته رفقة قبالة بين عمودَي اليسار، وبعد بقعة زوجة إسحاق باحة مفتوحة الأطراف، لها تسعة أعمدة موزعة على ثلاثة جوانب، وهي موضع المؤذنين، وعلى مقربة من باب المسجد يميناُ قبة صغيرة مفتوحة الأطراف، أقاموها على أربعة أعمدة، في وسطها منقذ دائري، علّقوا فيه مصباحاً، المنفذ يفضي إلى سرداب مدفن الأنبياء الذي يبلغ عمقه مسافة سبعين درجة وصولاً إلى جوفه، وكان الباب قديماً قبالة مقبرة زوجة إسحاق، ومنذ مدة قاموا بإغلاقه وفتح هذا بدلاً منه.

بقعة إبراهيم والأنبياء

تقابل بقعتا النبي إبراهيم وزوجته سارة، فبقعة إبراهيم إلى جهة اليمين، وبقعة سارة إلى جهة اليسار، تفصل بينهما باحة مرّعة مسقّفة، والمدخل إليهما من باب فضيٍّ مُشبَّك.

البقعة المباركة دائرية الشكل، تُفتح عليها نافذتان، إحداهما نحو الصحن، والأخرى نحو مسجد النبي يوسف، عليه السلام، وقد وضعوا

مصحفاً كبيراً على الرجل أمام البقعة، فتحتُ المصحف، لأقرأ منه، ف جاءت سورة (الفتح) المباركة، فتفاءلتُ خيراً.

الضريح يقع وسط البقعة وأمام الباب، مُغطى بكسوة من حرير أخضر مُوشى، يتصل بها ذراع واحد من المخمل الأسود، وقد كتبوا على الكسوة بخيوط مُذهبة: "هذا قبر خليل الله، عليه السلام".

وبقعة النبي يعقوب واقعة شمالي الصحن، وإلى جهة اليسار، ومضاهية لبقعة النبي إبراهيم، وبقعة زوجته ليثاً أمامه وإلى اليمين، وباب البقعتين مصنوع من الحديد، وهناك باب مصنوع من الخشب، يُفتح نحو باحة مربعة.

بقعة النبي يُوسف، عليه السلام، في الزاوية الغربية من الصحن، وقبلها مسجد طويل، يقع مدخل البقعة في الزاوية اليمنى من المسجد، وبقعته أوسع من البقاع الأخرى، ولها باب من حديد.

في المسجد مكتبة جهة اليمين، وله محراب جهة اليسار، وعلى يساره ضريح قيل إنه مقام النبي الخاتم، صلى الله عليه وآله. كلُّ القباب الموجودة في هذه البقاع إما شُيّدت في زمن بني أمية، أو أنه تمت إعادة إعمارها.

مسجد الجاولية

يقع مسجد الجاولية قبالة باب بقعة النبي إبراهيم، وتسميته نسبة إلى بانيه ناظم الحرَمين الشريفين الأمير أبو سعد سنجر الجاولي، في عهد الملك ناصر محمد بن قلاوون، إذ قام بنحت الجبل الذي كان

مقبرة لليهود في سالف الأزمان، وتسطيحه، وبناء المسجد فيه، بطول ثلاثة وأربعين ذراعاً، وبعرض خمسة وعشرين ذراعاً، ويقوم على ستّة أعمدة مزلّعة ومربّعة، وانتهى من البناء في أوّل ربيع الآخر من عام 718 هجري.

الصحن

في الطرف الجنوبي، ينتصب ليوان، يقوم على أربعة أقواس، جدرانه مغطّاة بالحجارة البيضاء حتّى منتصفها، ووسطه يقع باب بقعة النبي إبراهيم الخليل. يبلغ طول الصحن واحداً وثلاثين قدماً، وبعرض أربعة عشر قدماً.

يوم الثلاثاء، غرّة ربيع الأوّل، غادرنا خليل الرحمن، وجاء القائم مقام لوداعنا، ومضيّنا، تناولنا الغداء عند البرك الواقعة في عرض الطريق، ثمّ بلغنا بقعة راحيل، وكان الخُدّام مطّلعين على قدومنا، ففتحوا باب البقعة، وأشعلوا المصابيح، قرأنا الفاتحة، ثمّ خرجنا من اليمين قاصدين بيت لحم من الجانب الشرقي، قال الله تعالى: (وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا)⁽¹⁾.

وكان عمر أفندي مدير المكان مودّعاً لنا حتّى مسافة.

بيت لحم

بلدة عامرة، فيها عمارات عالية، شوارعها ذات منحدرات ومرتفعات، ومعظم سكّانها من النصارى، وفيها وُلد المسيح، عليه السلام.

(1) قرآن كريم، سورة مريم، الآية 16.

أمام مكان مولد النبي عيسى، عليه السلام، ساحة كبيرة، في زاويتها اليسرى باب غير مُتَّسَع، يُفْتَحُ نحو مسجد مرَّعٍ صغير، ومن وسطه إلى مسجد كبير مستطيل، له قطاران من الأعمدة يميناً ويساراً، كلُّ قطار يتكوَّن من عشرة أعمدة، سقفه من الخشب، توجد في أوَّله وآخره غرفة مرتفعة، قيل إن هيلانة أم القسطنطين قامت ببنائه.

وسط المسجد مفتوح، ومنه يتمُّ الدخول إلى باحة تقع في عرض المسجد الأوَّل، ذات سقف مرتفع السطح من الوسط، منخفض من الجانبين بقدر نصف ذراع، في كلِّ قسم منها شرفة، وراء إحدى الشرفتين كنيسة، يتوسَّطها قوس، علَّقوا عليه صليباً مزيناً، وفي ساحة المسجد، حيث الشرفة المرتفعة علَّقوا ثُرباً، ومن تحتها سرداب له عدَّة درجات نزولاً إلى باحته.

أشعل القساوسة الشموع ماسكين بها بأيديهم، فأنكشف موضع مولد النبي عيسى إلى اليمين، في ليوان مرتفع مَبْنِيٌّ من حجارة كبيرة، يتوسَّطه ثقب مستدير مُوشَّى الأطراف بالفضَّة، يبلغ طوله ذراعاً وربع، وإلى الجهة اليسرى، غرفة منخفضة مضاءة بالمصابيح، فيها صخرة مجوَّفة، يقال إنها مهد النبي عيسى، عليه السلام.

علَّقوا على حائط السرداب ستارة حديدية مُوشَّاة، تمَّ ترقيق الحديد، ومن ثمَّ، صُنعت منه الستارة، قيل إنهم جلبوها من إسلامبول، وكانت في غاية الإتقان والحُسن، والنخلة في بيت لحم يقولون إنها النخلة التي وُلد تحتها النبي عيسى، عليه السلام.

بعد زيارة بيت لحم، خرجنا، فودَّعنا القساوسة والمدير، واتَّجهنا نحو المشفى النمساوي، فقصدنا أولاً منزل القنصل، حيث كان لنا حديث

معهُ، كان يتكلَّم بالفرنسية ونجلي أبو النصر ميرزا يترجم ما يقول، كان رجلاً لبق الكلام.

خرجنا وقمنا بابتياح بعض من الصناعات المقدسيَّة، وبلغنا المنزل حين الغروب، وللتعب الذي أصابنا مكثنا الليلة في المنزل.

يوم الأربعاء، الثاني من ربيع الأوَّل، وبعد ثلاث ساعات من النهار، أحضروا العربية والعَرَّادَات، فركبنا وانطلقنا تجاه يافة، فحضر لوداعنا المتصرِّف وأمر الجيش والباشاوات ببذلاتهم الرسمية، يرافقهم فوج من الجنود والفرقة الموسيقية، قاموا بالتحية العسكرية، وودَّعناهم.

تناولنا الغداء في أبي غوش، وبلغنا يافة بعد ساعتين من الليل، فنزلنا في بيت عطا أفندي مترجم قنصلية حكومة إيران العليَّة، كان رجلاً مواظباً على الخدمة، حَسَن الحديث، وفي قَمَّة الإنسانيَّة.

يوم الخميس، الثالث من ربيع الأوَّل، كان موعد قدوم السفينة الفرنسية، والانطلاق مساءً؛ أمواج البحر العاتية أعاقت وصولنا إلى السفينة بالزوارق؛ ففضَّلنا المكوث على التهلكة.

ذكر لنا القنصل النمساوي حادثة إمبراطور النمسا الذي كاد أن يغرق وهو ذاهب إلى السفينة بالزورق من هذا المرفأ، لولا أن تدخَّل القبطان، وسحبه بحبل.

يوم الجُمُعة، الرابع من ربيع الأوَّل، ذهبنا لإقامة صلاة الظهر في جامع مدينة يافة، كي نُدرِك ثواب صلاة الجُمُعة، كان الجامع وسط سوق يافة، ويُعرَف باسم جامع أبي نُبُوت، وإمام الجُمُعة المُلَّا حُسين، وكان رجلاً مَتَرَناً، بعد الصلاة ومعاودتنا إلى المنزل، أنشد قصيدة عربية، وأرسلها لنا، معظم كلمات الأبيات مأخوذة من المطَّلَع:

قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ حَوْرٌ؟ قُلْتُ اعْذُرُونِي فَحُبِّي غير مُنْقَصِمٍ
 قالوا أَتَسْلُو حَسَامَ النَّصْرِ؟ قُلْتُ لَهُمْ لا والذي خَلَقَ الْإِنْسَانَ من عَدَمٍ
 قالوا أَتَهْوَى جَمِيلًا صُبْحَ عَرَّتِهِ من تحتِ طَرْفِهِ تَجْلُو دُجَى الظُّلْمِ؟
 قالوا أَتَهْوَى الذي رَقَّتْ مَحَاسِنُهُ وَتَغَرُّهُ الْعَذْبُ خُلُوًّا؟ قُلْتُ مَبْتَسِمٍ
 قالوا أَتَهْوَى الذي في خَدِّهِ لَهَبٌ؟ قُلْتُ اسْأَلُوا عَنْهُ قَلْبِي من نُطَاهُ دَمٍ
 قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ كَحَلٌّ لِيَكُنْ لَهُ عَازِلٌ يَنْهَاهُ قُلْتُ عَمٍ؟
 قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ حَوْرٌ أَهْلُ الْهَوَى في يَدَيْهِ قُلْتُ كَالْخَدَمِ؟
 قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ حَوْرٌ؟ قُلْتُ ارْحَمُوا ذَلَّتِي يا جِيرَةَ الْحَرَمِ
 قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ حَوْرٌ؟ قُلْتُ اعْذُرُونِي، فَإِنِّي فِيهِ لَمْ أَلْمِ
 قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ حَوْرٌ؟ قُلْتُ اعْذُرُونِي فَحُبِّي غير مُنصرَمٍ
 قالوا أَتَهْوَى الذي طَرْفِهِ حَوْرٌ؟ قُلْتُ اعْذُرُونِي فَحُبِّي غير مَتَّهَمٍ
 قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ حَوْرٌ؟ قُلْتُ اعْذُرُونِي فَحُبِّي قد أَبَاحَ دَمِي
 قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ حَوْرٌ؟ قُلْتُ اعْذُرُونِي فَمَنْ ذَا فِيهِ لَمْ يَهْمِ
 قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ حَوْرٌ؟ قُلْتُ اسْأَلُوا مَهْتِي عن القَلَمِ⁽¹⁾
 قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ حَوْرٌ؟ حُلُو الرِّضَابِ فَقَلْبُ الْحُبِّ من

شيمي

قالوا أَتَهْوَى الذي في طَرْفِهِ دَعِجٌ حُلُو المرَاشِفِ والأَعطَافِ وَالشِّيمِ؟

(1) هكذا ورد عجز البيت، وهو ما لا يستقيم لا معنى ولا وزن. (المترجم).

قالوا أتَهْوَى مراداً؟ قلتُ جارية كأنه غصنُ بانٍ، قلتُ من قدم

قالوا نراك قتيلاً العشي، قلتُ لهم ما حيلة الصبِّ والأحشاء في
ضرم؟

في المساء، ذهبنا إلى حديقة جميلة مكتظة بأشجار الحمضيات،
فيها عمارة يمتلكها شخص أرمني، عمّاً قليل تلبّدت السماء بالغيوم
السوداء، وكادت أن تمطر، فعُدنا أدراجنا إلى المنزل، استمرَّ هطول
المطر طوال اليوم وليلته، وكما ذكروا بأن يافة لم تشهد المطر منذ
أربعين يوماً مضت.

يوم السبت، الخامس من ربيع الأوّل، ذهبنا مساءً إلى شاطئ البحر،
كانت الأجواء مواتية وخلّابة؛ فاستمتعنا، وعدنا إلى البيت. واليوم جاءنا
قنصل الروس زائراً، فجلسنا معه، كان رجلاً ذا محاسن بيضاء، وحُسن
المعشر.

يوم الأحد، السادس من ربيع الأوّل، ذهبنا مساءً إلى حديقة للأقباط،
يُطلق لقب المطران على رئيسهم، كان رجلاً ضخماً، يرتدي عمامة
سوداء، الحديقة جميلة غنّاء، وهي أكثر ارتفاعاً من الحدائق الأخرى
في يافة، حضر للقائنا هنا كلُّ من حَسَن أفندي مفتي يافة، وسعيد
أفندي، وهو من أدباء يافة، فتجاذبنا معهما أطراف الحديث، وكان
سعيد أفندي قد أنشد شِعراً، وبعد المديح أرّخ لسفَرنا بهذا البيت:

وطالع السعد بالإقبالِ أرّخه مبرورٌ حجٌّ في السعي مشكورٌ

يوم الاثنين، السابع من ربيع الأوّل، قصدنا قبر رجلٍ شيعي قُتل في
هذه الناحية، اسمه الشيخ إبراهيم. تقع بقعته فوق رنّوة، وبعد عودتنا
مساءً ذهبنا إلى جُنيّة الرجل الروسي من موسكو الذي بنى الخسته

خانته. غرس أنواع الأزهار والرياحين في حديقته، جلسنا قليلاً في الخسته خانته، وتفقدنا الغرف، ثمَّ قصدنا كُتَّاب الأطفال قريباً من الحديقة، كانوا يتدرَّبون العزف على البيانو.

ذهبنا للقاء قنصل الحكومة الروسية الذي أعلمناه بقدمنا مساء. لم يكن بيته بعيداً، كان قد حفر بئراً، وصنع دلاء خشبية صغيرة متَّصلة ببعضها، وكأنها حَبَّات السُّبْحَة، فكانت الدَّلاء تهبط إلى البئر من جانب، وتخرج من الجانب الآخر، لتصبَّ في مجرى مياه، يصبُّ في مسبح كبير، فتملؤه في غضون أربع وعشرين ساعة، مكثنا هنيهة، ثمَّ عدنا.

يوم الثلاثاء، الثامن من ربيع الأوَّل، ركبنا مساء قاصدين حديقة سعيد أفندي الدجاني، كان رجلاً أديباً، يقتني كُتُباً أدبية، نظرنا إليها، ومكثنا عنده إلى الغروب.

كانت الأجواء مواتية اليوم، وقد هدأ البحر، جاءنا ليلاً قارئان مصريان، كانا يحفظان معظم السور القرآنية، فقرأ كلُّ منهما عدَّة سور باللحن المصري، كانت قراءتهما جميلة، ويُتقنان قواعد التجويد بمنتهى الدقَّة، وبما أنهما كانا يُحسنان تلاوة القرآن، قرَّرنا أن يحضرا غداً للقراءة أيضاً.

يوم الأربعاء، التاسع من ربيع الأوَّل، جلسنا في حديقة منزلنا بعد طلوع الفجر، حضر المقرَّنان المصريان، وقاما بالتلاوة، كنَّا محظوظين، لأننا حظينا بالإصغاء إلى تلاوتهما، يقال إن القُرَّاء المصريين يُتقنون الترتيل أفضل من غيرهم.

ركبنا مساء، وخرجنا من يافة قاصدين الكُتَّاب اليهودي، تقع المدرسة على يمين الطريق، وقد بُنيت منذ عشر سنوات من قِبَل يهود باريس، وتُعرَف الآن بالكُتَّاب الإسرائيلية.

أُسكنوا فيها أطفالاً من القدس الشريف ويافة لتعلّم الفيزياء والكيمياء والجغرافيا والعلوم الأخرى، كان معظمهم من أطفال الفقراء، فقاموا بتوفير كلّ مصاريفهم الدراسية وغيرها.

أنشؤوا شارعاً أمام المدرسة على طرفيه حدائق منسّقة، غرسوا فيها شتّى أنواع الأشجار من الفواكه والرياحين، جاء رئيس المدرسة ومشرفها لاستقبالنا، ورفعوا العَلَمَ أعلى المدرسة إجلالاً لقدومنا.

ذهبنا أولاً إلى غرفة مدير المدرسة، وكانوا قد أعدّوا الطعام والفواكه، وكما اتّضح لنا أن مدير المدرسة هو مَنْ أسّسها، ثمّ ذهبنا إلى مبيت الطلّبة، فكان مُنظّماً مُنقّحاً، بعد ذلك قصدنا الطلّاب، وأوعزنا إلى الميرزا سيّد مهدي الطبيب الذي كان من خرّيجي دار الفنون في طهران أن يسألهم عدّة أسئلة، فأجابوا عليها عن معرفة، فتلاطنا معهم.

الطلّاب أيضاً رفعوا أيديهم للدعاء لجلالة ملك دولة إيران العليّة، روحنا فداه، وجلالة السلطان عبد الحميد خان، خلّد الله مُلكه وسلطانه بالحن جميلة باللغة العبرية ماسكي التورات بأيديهم.

بعد خروجنا من المدرسة، تجولنا في الحدائق، فشهدنا شجرة، أوراقها فوّاحة بعطر السوسن، قدّموا قنّينتين من عطرها لنا، لناخذها إلى طهران.

جاءنا مدير المدرسة بدفتر الذكريات، وطلب منّا أن نُسجّل تاريخ قدومنا إلى هذه المدرسة وامتحان الأطفال؛ فكتبنا عدّة سطور نزولاً عند رغبته، وختمناها.

قُبيل الغروب، ونحن متّجهين نحو المدينة، صادفتنا امرأة بريطانية نجبية، قدمت يافة منذ سنتين مع زوجها، طلبت أن نزور عمارتها،

فقصدا بيتهما، كانت امرأة ثرية، اختارت زوجاً، تعامله كالخَدَم، كان بيتها منقحاً، تكثر فيه الأدوات والكتب على الرفوف. بعد مضي ساعة ونصف الساعة من الليل، غادرنا منزلها.

يوم الخميس، العاشر من ربيع الأول، كانت السفينة النمساوية قد وصلت، وهدأ البحر إلى حدٍّ ما، فقرّرنا الانطلاق.

بعد خمس ساعات من النهار، غادرنا المنزل، وذهبنا إلى الشاطئ. جاء لوداعنا نفس الأشخاص الذين كانوا قدموا لاستقبالنا؛ ركبنا الزورق، واتّجهنا إلى السفينة، ومع وجود بعض الهيجان في البحر إلا أننا، ولله الحمد، بلغنا السفينة بسلام.

كانت سفينة صغيرة حسنة متينة، انطلقت قبيل الغروب بساعة باتجاه الشمال الغربي، كان البحر الأبيض متلاطماً في الليل، ممّا سبّب تقلّب أحوال المرافقين.

يوم الجمعة، الحادي عشر من ربيع الأول، بلغنا مرفأ بورت سعيد قبيل الظهر. أطلقوا إحدى وعشرين طلقة، واصطفّ العساكر عند المرفأ كالقانون السابق، صعد إسماعيل باشا محافظ بورت سعيد على متن السفينة لزيارتنا؛ ثمّ ودّعنا وذهب، ليُعلم خديوي مصر بقدومنا ببرقية، وكنا قد جئنا بنائب قنصل عكّة من بيروت برفقتنا لزيارة سفارة إسلامبول، أرسلناه للقاء إسماعيل باشا حاملاً برقية تفقّد منّا إلى خديوي مصر، في هذه الأثناء وصلتنا برقية من مقرّ قنصل إيران في مصر الخاقان ميرزا مستوضحاً عن قدومنا إلى مصر، فأخبرناه.

ثمّ اعتلى متن السفينة محمّد بيك قنصل بورت سعيد، وحسن أفندي نائب قنصل دميّاط المأموران من قبل الحكومة الإيرانية للسلام علينا.

يوم السبت، الثاني عشر من ربيع الأول، انطلقنا قبيل الظهر من مرفأ بورت سعيد باتجاه الشمال الشرقي، وقد أطلقوا إحدى وعشرين قذيفة عند الانطلاق، وقام العساكر والفرقة الموسيقية المصطفون عند المرفأ بأداء التحية العسكرية، ثم جاء إسماعيل باشا، وسيرنا، ورافقنا على متن السفينة قنصل بورت سعيد ودمياط مع أحمد بيك. قبيل الغروب بساعتين، عبرنا من قبالة دمياط، وهي من توابع مصر، وتقع إلى الجانب الشرقي، ومن خلالها، تمر شُعبَة من نهر النيل، فتصبُّ في البحر.

بعد مرور ساعتين من الليل، عبرنا من قبالة البُرس، وبعد ثماني ساعات، وصلنا إلى محاذة رشيد⁽¹⁾؛ والبلدة أيضاً من توابع مصر، تخترقها شُعبَة كبيرة من نهر النيل قبل أن تصبَّ في البحر.

قبل الإسكندرية باثني عشر ميلاً، شاهدنا فناراً في وسط البحر، وتقع جزيرة صغيرة، كان قد اشتبك ناظر الحرب البريطاني مع نابليون على مقربة منها، فأخذ السفن الفرنسية كغنائم، تُعرف الجزيرة باسمه⁽²⁾، ومن هنا فصاعداً، ولا تّصال النيل بالبحر، أصبحت مياه الشاطئ عكراً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) رشيد: هو أحد فرعي نهر النيل في مصر السفلى، والحدُّ الغربي للدلتا قبل أن يصبَّ في البحر المتوسط. (المترجم).

(2) جزيرة نيلسون، أو جزيرة جريشة كما يُسمِّيها أهل الإسكندرية، وهي قريبة من ساحل الإسكندرية، على بُعد 4 كيلو مترات شمال خليج أبو قير. (المترجم).

دخول مصر

يوم الأحد، الثالث عشر من ربيع الأوّل، وقبل الإسكندرية بميل واحد، أصبحت الحركة نحو الشرق، دخلنا ليمان الإسكندرية بعد طلوع الفجر بساعة، وقد أنشأته الشركة البريطانية بشكل دائري لأمن السفن في البحر، وكلّفت كلّ صخرة مرّعة ليرة واحدة.

عندما رست السفينة كان أوّل من صعد إلينا كلّ من مقرّب الخاقان الميرزا أحمد خان القنصل، مرافقاً محمّد خان قنصل أزمير، والميرزا حبيب الله قنصل الإسكندرية، ومحمّد حسين بيك الخراساني نائب القنصل، والخواجة عبد الله نائب قنصل مرسين⁽¹⁾، والميرزا عبّاس الزنجاني الكحال، والميرزا سيّد مهدي الحكيم، فتفقّدنا أحوال الجميع.

ثمّ حضر كلّ من معالي حسن باشا حلمي مستشار الزراعة الذي نيّطت إليه مهامّ الضيافة، وأحمد باشا رأفت محافظ الإسكندرية، وقاسم باشا ناظر الحرية، ووكيل الضبطية، ووكيل المحافظ؛ فتكلّمنا مع كلّ منهم.

أطلقوا إحدى وعشرين قذيفة مدفعية تحية لوصولنا، وأحضروا الزورق الخديوي مرفوعاً عليه علم الأسد والشمس، فبلغنا اليابسة على متنه.

(1) مدينة مرسين عاصمة محافظة مرسين، تقع في جنوب تركيا، ولها ميناء على ساحل البحر الأبيض المتوسط. (المترجم).

خصّصوا عمارة رأس التين منزلاً لنا، فذهبنا جماعة، وتناولنا الغداء على الطاولة.

ثمَّ جاءنا زائراً مصطفى فهمي باشا وزير الخارجية المصري، وبعد الحديث معه، ذهبْتُ لحمام العمارة، فاغتسلتُ، ثمَّ غادرتُ مستقلّاً العربة لجولة في الإسكندرية، وبرفقتي حُسينُ باشا.

عمارة رأس التين

تقع العمارة شمال البحر، وتتصل بالشاطئ، باحتها مرصوفة بالأحجار الممتازة، الطريق الواصلة إليها مرتفعة عند الجهة اليسرى، لكنها سهلة لولوج العربات.

غرف البناية تحيط بساحة واسعة، قُسمت إلى جُنيّات، تتوسّطها بركة ذات مرتبتين منخفضة فارغة، ومرتفعة مليئة بالماء، نصبوا على حافتها تماثيل ذات أشكال غريبة، تضاهي الإنسان، تجري المياه من خلالها.

سُمّيت العمارة برأس التين، لأن أرضها كانت قديماً بستان تين، وهي الآن من العمارات الحكومية.

تقع غرف دار الحكومة عند الجهة اليمنى قبالة الجنوب مستقبلة البحر، تتوفّر فيها كلّ أدوات الراحة من الأثاث الوثير والمريح، ومن جهتها الشرقية، تُفتح باتجاه المدينة بؤابة، تقوم على أعمدة، نُقِشت بدقّة ومهارة.

وصف الإسكندرية

أسّس الإسكندر ذو القرنين مدينة الإسكندرية، وأخذت اسمها من

اسمه، واختلف في نبوءته وسلطنته، غير أن الاعتبار إلى كونه سلطاناً، وليس نبياً، وذكروا أن اسمه مَرْزُبَان بن مَرْزَبَة، وهو يوناني الأصل.

بُنيت المدينة قبل الميلاد بثلاث مئة وأثنین وثلاثين عاماً، وورد في بعض الكُتُب أن جميع جدران المدينة كانت بيضاء، وأن السكَّان كانوا يرتدون الملابس السوداء، كي يُقلِّلوا من ضرر بياض الأبنية والعمارات على البصر.

الآن أصبحت البنايات ذات طبقتين، وثلاث طبقات، وعلى الطراز الإفرنجي، والأزقة واسعة، وأكثر شوارعها مضاءة بالمصابيح الغازية، ومعظم الناس يتنقلون بين حواربها وأزقتها مستقلين العربات. ذكروا أن خمسة عشر ألف عربة توجد في المدينة، ويبلغ عدد قاطنيها مئتي ألف نسمة، نسبة المسلمين فيها أقل من النصارى، ويسكنها ما يقارب مئة وعشرين من الإيرانيين، وفيها ميدان المنشية، وحديقة النزهة، وباقي بساينها الأخرى جميلة ونزهة.

قام محمد علي باشا بحفر خندقين، أحدهما للدخول، والآخر للخروج، وفصل بينهما بسور مُحكم، بناه حولها، وشيّدوا قلعة وباستياناً⁽¹⁾ وسط المدينة، ووضعوا مدفعيات كبيرة، بحيث تكون المدينة وصولاً لمرساة السفن تحت مَرَمَها، مدُّوا سكة حديد من الإسكندرية وصولاً إلى مصر، وتعدُّ الإسكندرية من أفضل موانئ العالم.

تبلغ المسافة مباشرة من الإسكندرية حتى القاهرة مصر مئة ميل بريطاني، وعبر سكة الحديد مئة وواحداً وثلاثين ميلاً. قام محمد علي باشا بشقِّ فرع من نهر النيل حتى الإسكندرية، لتزويدها بالماء، وأطلق

(1) باستيانا: مفردة فرنسية بمعنى منشأة مُستحكمة، تضاهاي البروج، وتبنى داخل القلعة. (المترجم).

عليه اسم السلطان محمود خان، ويُعرَف بالنهر المحمودي، فقد كان الناس قديماً يعانون من سُحِّ المياه.

يقع قبر دانيال النبي في هذه المدينة، وفيها مقبرة أبي العبَّاس المُرسِي، وهو عند أهل السُّنَّة من أولياء الله الصالحين، وكذلك قبر الشيخ البوصيري صاحب قصيدة البُرْدَة، واسمه محمَّد بن سعيد، ويكُنَى بأبي عبد الله، وبُوصِرِ قرية من قرى مصر.

ميدان المنشية

لا يعدو ميدان المنشية أن يكون شارعاً رحباً طويلاً، ومتَّسعاً عرضاً، في نهايته سراي الحقانية، وهي عمارة ديوان العدلية.

قاموا برفع أطراف الشارع، وركزوا أعمدة صغيرة على جوانبه، وأوصلوها ببعضها باستخدام السلاسل، وقام إسماعيل باشا بوضع تمثال نحاسي ضخيم لجَدِّه⁽¹⁾ على مصطبة مرتفعة وسط الميدان مرتدياً عِمَامَةً وراكباً فَرَساً، وأنشؤوا مسقَّفات للفرقة الموسيقية، لتجتمع كلَّ مساء للعزف.

وعبَّدوا شارعين على طرفي الميدان، رُصفت أرضيتهما بالحجارة، وعلى جانبيهما حوانيت كثيرة، تعرض أنواع النفايس من كلِّ ما تشتهيه الأنفس، كانت العربات والمارة يسرون عبر الشارعين الجانبيين للتنزُّه والتسوق.

عندما تشعل المصابيح الغازية ليلاً تضيء على المكان حُسناً ساحراً، يأسر الألباب، فصار الميدان متنزَّهاً للناس صباحاً ومساءً، يأوون إليه لاحتساء القهوة والشربات وتدخين النرجيلة، فتراهم فرادى وجماعات، تبدو عليهم علائم الحبور والسرور.

(1) محمَّد علي باشا. (المترجم).

حديقة النزهة

قام إسماعيل باشا بإنشاء حديقة النزهة، تقع على يمين الشارع الذي عبده محمد علي باشا بمحاذاة نهر المحمودية، حديقة كبيرة، تتخللها الشوارع، وتكتظ بالأشجار والأزهار التي تحجب أشعة الشمس، فقلماً يجد شعاعاً منفذاً لسطح الأرض بين الأغصان الوارفة، ومن ضمن أشجارها شجرة باسقة، جلبوها من الهند، تُسمى لَنج، وهي سامة، كما ذكروا لنا.

في وسط الحديقة موضع مرتفع، بنوا فيه سقيفة على ثمانية أعمدة خشبية مكاناً للفرقة الموسيقية، وتركت جوانبها مفتوحة، ووضعوا حولها مقاعد كثيرة، يجلس عليها الحضور رجالاً ونساء يومي الأحد والجمعة موعد فتح الحديقة التي يدخلها الناس بلا مقابل.

حديقة أخرى بعد حديقة النزهة أنشأها رجل من النصارى؛ وضع فيها العديد من التماثيل الحجرية وغيرها، مساحة الحديقة الكبيرة مقسمة إلى جُنيّات، غرست فيها شتى أنواع الأزهار والرياحين.

شجرة ذات أزهار أرجوانية وأغصان متسلّقة، اسمها أبو جميل، جُعلت عند جدار العمارة، جدران البناية اكتست بلون الزهرة والسيقان، قدّموا لنا غرسة منها في إناء فخّاري، لناخذها معنا إلى طهران، قالوا إنها دائمة الخضرة حتّى في فصل الشتاء.

ورأينا شجرة الفلفل الإفرنجي ذات العناقيد التي تشبه المرجان، وشجرة اسمها أبو حاري ذات أوراق معطّرة، تشبه الأنايب، وشجرة أخرى تضاهاي أوراقها أوراق شجرة النارج، تُسمى يَسِيَتِك.

شجرة الموز موجودة بكثرة في الحديقة، فاكهتها تشبه ثمرة الباذنجان، لكنها صفراء، تُوشّيهها خطوط سوداء، وطعمها قريب من مذاق الشمام.

توجد مظلة وسط الحديقة، سقفها وجدرانها من أغصان الأشجار، وأصلوها ببعضها بشكل دقيق ومتين، كما اتخذوا المقاعد والطاولات من الأغصان والسعف، وغطوا الجدار الداخلي بحصير مُزِين برسوم جميلة.

منارة فاروس الإسكندرية

قديمًا بُنيت منارة في الإسكندرية مُزوَّدة بمرآة، تعكس صور سفن الروم، فيتخذون حذرهم، ويستعدُّون لمواجهة جيوش الغزاة.

ذكر ناصر خسرو العلوي في رحلته ما شاهده بأم عينه، وقال إن المنارة كانت عند الشاطئ، وقد نصبوا عليها مرآة حرَّاقة، فكلَّما كانت سفينة رومية تقترب إلى مدى انعكاس المرآة تحترق، فاحتال الروم ودبروا للتخلُّص منها، ويقال إنهم أرسلوا شخصاً قام بتكسيروها.

يوم الاثنين، الرابع عشر من ربيع الأوَّل، جاء للقائنا الجنرال قنصل الحكومة الروسية؛ فتحدَّثنا معه، وبعد انصرافه حضر تجَّار إيران برفقة حبيب الله القنصل، فوقفْتُ، وتلاطفتُ معهم، ثمَّ انصرفوا.

قُبيل الغروب بثلاث ساعات، ركبنا العربة برفقة حَسَنَ باشا، وذهبنا للتجوال، عبرنا أولاً ميدان المنشية، وذهبنا إلى مصنع تصفية المياه، ومنه إلى حديقة النهضة، ثمَّ إلى حديقة الرجل النصراني.

معمل تصفية المياه

بسبب أن نهر المحمودية لا يمرُّ من مدينة الإسكندرية، قاموا بحرف شُعْبَة منه خارج الباب الشرقي تُسمَّى التُّرْعَة، وأوصلوها بمياه النيل،

وفي أيام سُحِّ المياه لا تصل مياه النهر إلى التُّرْعَة، فقاموا بوضع وابورين على طرفي الشُّعْبَة، مهمَّتْهُمَا نقل الماء من التُّرْعَة، ووضعوا وابوراً آخر، ينقل المياه منهما إلى باحة واسعة مستطيلة، استخدموها مجمَعاً للمياه.

ينقسم المجمع إلى ستَّة عشر قسماً، للحدِّ من سرعة جريان الماء، فلا يُوَدِّي إلى تخريب المجرى، يفصل بين كلِّ قسم وآخر جدار صغير، فرشوا أعماق كلِّ قسم بالحصى كبير الحجم، ومن فوقه حصى صغير لتصفية المياه وركود الشوائب.

تصبُّ المياه في بركة أوَّلاً، ثمَّ تُنقل إلى معمل التصفية، بواسطة الأدوات والآلات الحديثة، حيث مدُّوا أنابيب فخاريَّة تحت الأرض، تقوم بإيصال الماء إلى مصنع آخر، بمحاذاة الباب الشرقي مشرف على عموم العمارات، تتشعَّب الأنابيب، لتصل إلى كلِّ الأحياء، فيشتري كلُّ بيت حاجته، وهناك أنابيب دقيقة تصل إلى البيوت.

يوم الثلاثاء، الخامس عشر من ربيع الأوَّل، قرَّرنا مغادرة الإسكندرية إلى مصر، ركبنا العربات وصولاً إلى سكَّة الحديد، فكانوا قد أعدُّوا خمس مقصورات قطار فاخرة؛ جلسنا نحن والأتباع، وانطلقنا، وبرفقتنا كلُّ من حَسَن باشا، والميرزا أحمد خان القنصل، ومُحمَّد خان القنصل، وقناصل آخرين. سرنا بعد ساعتين ونصف من الدسطة، وبلغنا مصر بعد مسير خمس ساعات مع عدم احتساب الوقفات.

تنقسم الطريق إلى ثلاث عشرة محطة، الأوَّلى الحضرة، والثانية سيدي جبَّار⁽¹⁾، والثالثة ملاحد، والرابعة كُفر الدوَّار، والكفر تعني القرية، والخامسة أبو حمص، والسادسة دَمْنُهور، والسابعة إتياي البارود⁽²⁾،

(1) سيدي جبَّار: وردت في الكتاب (سيِّد جبَّار). (المترجم).

(2) إتياي البارود: وردت في الكتاب (تبه بارود). (المترجم).

والثامنة كفر الزيات، والتاسعة طنطا⁽¹⁾، والعاشر بركة السبع، والحادية عشرة بنها⁽²⁾، والثانية عشرة الطوخ، والثالثة عشرة القليوب، وكلها محطات رحال منها باتجاه الشرق، وأخرى إلى الغرب، وجميعها دون المستوى اللائق، أما الطريق، فكانت خضراء نضرة محاطة بالمزارع.

شاهدنا قريباً من بعض المحطات عدّة قرى، منها دَمَهُور، وإتياي البارود، وكفر الزيات التي توقّفنا فيها لتناول الغداء، ومنها تتفرّع الطريق، ثم طنطا، وفيها خسته خانة، ودار للحكومة، وقبة سيّد أحمد البدوي المبجل عند أهل مصر.

بُنيت بعض القناطر الصغيرة والكبيرة في الطريق، أفضلها قنطرة كفر الزيات، وهي أطول من قنطرة بنها، وشوهدت عدّة مستنقعات، غمرت الأرض بالمياه، وفي الطرف الغربي من محطة سيدي جبّار، يوجد قبر لشخص، أُطلق اسمه على المكان، وفي بركة السبع، أنشأ رجل إفرنجي جُنيّة صغيرة أمام بيته.

ترجّلنا عند وصولنا إلى محطة مركز سكة الحديد المصرية، فحضر لاستقبالنا كلُّ من خيرى باشا أمين ختم خديوي مصر، برفقة أحمد باشا المحافظ، وضابط محروسة مصر، وعلي باشا وكيل عموم مصلحة سكة الحديد، وراشد باشا ونفر من العساكر.

بعد أن دَخْنَا النرجيلة، أحضروا لنا عربية، وذهبنا جماعة إلى بيت السيّدة فائقة الذي خصّصوه منزلاً لإقامتنا.

(1) طنطا: وردت في الكتاب (طنكا). (المترجم).

(2) بنها: وردت في الكتاب (نبها). (المترجم).

عمارة السيِّدة فائقة

تعود العمارة لشقيقة توفيق باشا خديوي مصر، يتوفَّر فيها الأثاث ذو الجودة العالية، وكلُّ أدوات الراحة، وتقع في حيِّ الإسماعيلية الذي بناه إسماعيل باشا خديوي مصر، حولها ساحة كبيرة، وشرق العمارة حديقة، تتوسَّطها بركة، تملؤها المياه، تجري من سفح جبل اصطناعي أعلى منها، فيبدو المنظر ساحراً.

كنّا ضيوفاً عند جلاله الخديوي في هذه العمارة، وكان حسن باشا هو مَنْ يتولَّى ضيافتنا، ويواظب على خدمتنا كلَّ يوم عبد الحليم الملازم الأوَّل، ومحمود أفندي، الملازم الثاني وأونياشي وتشاوش من خاصَّة خدَم الخديوي، مع حسن أفندي المساعد الأوَّل لضبطية مصر، ومحمَّد بيك سراج من ضبطية مصر، وأحمد أفندي مشرف السراي، وأربعة من خاصَّة خدَم الخديوي وعدَّة حُرَّاس.

كان قنصل إيران الميرزا أحمد خان يحضر يومياً إلى العمارة، ولم يغفل عنَّا، كان رجلاً لبيباً وقوراً، وقد حضر التجَّار الإيرانيون لملاقاتنا، فقام الميرزا أحمد خان القنصل بتعريفنا بهم، وهم كلُّ من الحاجَّ حسن التاجر الكازروني، والحاجَّ ميرزا حسن النمازي، والحاجَّ ملَّا تقي التبريزي، والحاجَّ عبد الله الخوئي، وسيِّد جواد الكربلائي، والتاجر الأصفهاني الحاجَّ ميرزا علي أكبر، والميرزا عبد الرزاق النمازي، والحاجَّ سيِّد علي الشيرازي، والحاجَّ عبد الرسول الشيرازي، فجرى لي حديث معهم، ثمَّ انصرفوا.

يوم الأربعاء، السادس عشر من ربيع الأوَّل، مكثنا في المنزل للاستراحة، وقد حضر لدينا حسن باشا والميرزا أحمد خان القنصل، فتجاذبنا أطراف الحديث، آلمتني سنِّي في الليل، وخفَّ الألم عند الصباح.

يوم الخميس، السابع عشر من ربيع الأوَّل، بعد مضي ساعتين من

النهار، حضر إلينا من جانب الخديوي ذو الفقار باشا تشريفاتجي⁽¹⁾، ومعه عريتان من خاصّة عربات الخديوي، وعريتان أخريان، وأخبرنا بموعد زيارتنا لجلالته.

ركبنا العربات أنا والأمراء، ومعالي الحاجّ مُلاً باقر قاصدين سراي عابدين، وهي عمارة الخديوي، وعند المدخل، قام فوج من الجنود بأداء التحية العسكرية، وفرقتان موسيقيتان، قامتتا بالعرف، ثمّ دخلنا.

جاء الخديوي حتّى السلالم لاستقبالنا، لم أطاوعه وهو يحاول تقديمي للدخول، فدخلنا سوياً، ولم أقبل أن أجلس مجلساً أعلى من مجلسه، فجلستُ وإيَّاه على سرير ملكيّ واحد، وانشغلنا بالحديث.

كان الخديوي إنساناً عاقلاً وقوراً، وبشوشاً ذا أخلاق حسنّة، أبوه إسماعيل باشا الخديوي السابق لمصر، عدنا أدراجنا بعد احتساء القهوة وتدخين النرجيلة.

بعد نصف ساعة، جاء لزيارتنا جلاله الخديوي، وبرفقته راشد باشا الوزير الأعظم، فعجلتُ بإرسال نجليّ إلى الطابق السفلي لاستقباله عند السلالم، وأنا وقفتُ عند باب قاعة الضيافة.

بعد حضورهما، جلسنا في غرفة ثانية، وانشغلنا بالحديث، وبعد تناول القهوة وتدخين النرجيلة، انصرفا، ومن بعدهما، جاء لزيارتنا كلُّ من رياض باشا ناظر الداخلية والمالية ورئيس النظار، وعلي باشا المبارك ناظر الأشغال العامّة، ومحمود باشا ناظر الجهادية⁽²⁾ والبحرية والأوقاف، وحُسَيْن فخري باشا ناظر العدلية، وعلي باشا إبراهيم ناظر المعارف والعلوم؛ فتحدّثتُ وتلاطفتُ مع الجميع.

(1) ذو الفقار باشا تشريفاتجي: مسؤول التشريفات والمراسم. (المترجم).

(2) ناظر الجهادية: وزير الدفاع. (المترجم).

بعد تناول الغداء، ذهبتُ لزيارة بقعة السيِّدة زينب، برفقة حَسَنَ باشا والأمراء والأصحاب والأتباع، ومن هناك، إلى بقعة رأس الحُسَيْن؛ ثمَّ إلى الحديقة الوطنية.

بقعة السيِّدة زينب، عليها السلام

دخلنا البقعة من خلال باحة صغيرة مسقوفة، وقد كتبوا هذَيْن البيَّتَيْنِ أعلى بابها:

وزينبُ وردةٌ زهراءُ بنتِ عليٍّ أختِ الحُسَيْنِ لهم بين الوريِّ شأنُ

وقالت لنا بلسانِ الشكرِ واصفةٌ نسلَ الرسولِ الذي حيَّاه قرآنُ⁽¹⁾

البقعة مستطيلة الشكل، ويقع الضريح المبارك أعلاها وإلى جهة اليمين، وقد كتبوا عليه بخطِّ الثُّلثِ الجليِّ المحلِّيِّ بالذهب الآيَةَ الكريمة: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ⁽²⁾، وجدَّد بناءها السلطان عبد العزيز عام ألف ومئتين وعشرة⁽³⁾، خلفها مسجد يقوم على خمسة أعمدة من الحجر في الطول، وأربعة في العرض.

بقعة رأس الحُسَيْنِ

تشير إحدى الروايات إلى وجود رأس الحُسَيْنِ في مصر، فبقعته

(1) لم نفع على قائل البيَّتَيْنِ، وورد البيت الثاني في الكتاب: طالت لنا بلسانِ الشكرِ واصفة نسل الرسولِ الذي أنباه قرآن.

(2) قرآن كريم، سورة الشورى، الآية 23.

(3) لا تصحُّ المعلومة هنا، فعهد السلطان عبد العزيز متأخَّر جدًّا عن تاريخ التجديد، ولربَّما وقع الناقلون بالخطأ، أو أنه أشكل عليهم اسم مجدِّد البناء. (المترجم).

المباركة مزوّدة بثلاثة أبواب، أحدها يُفْتَحُ نحو الجامع الذي جُدَّ ببناءه إسماعيل باشا، فيتَمُّ الدخول منه للمسجد القائم على تسعة أعمدة في طوله، وخمسة أعمدة في عرضه، لتُشكَّل بمجموعها خمسة وأربعين عموداً رخامياً، لا تختلف عن بعضها، والباب الثاني يقع باتّجاه البقعة، ويُفْتَحُ إلى مسجد صغير، ومن الزاوية الغربية باب ثالث، يُوصِلُ إلى البقعة الطاهرة.

يقع ضريح رأس الحُسَيْنِ وسط البقعة، وجدرانه مَكسوّة بالحجارة، وكُتِبَ هذان البيتان أعلى البقعة الشريفة:

يا أَهْلَ بَيْتِ رَسولِ اللّهِ حُبُّكُمْ فَرَضٌ مِنَ اللّهِ بِالقرآنِ أَنْزَلَهُ
يَكْفِيكُمْ مِنَ عَظِيمِ الفَخْرِ أَنْكُمْ مَنْ لا يُصَلِّي عَلَيْكُمْ لِاصْلاةَ لَهُ⁽¹⁾

وكتبوا على يسار محراب البقعة المباركة الحديث: "أَحَبُّ أَهْلِ بَيْتِي إِلَيَّ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ"، وعلى يمينه الآية: (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)⁽²⁾.

الحديقة الوطنية

حديقة كبيرة تتعدّد أبوابها وهي مشرّعة من جميع الجهات، تتوسّطها بحيرة عظيمة، يسير فيها وابور صغير، وقد أحاطوا الحديقة بسياج حديدي من جوانبها الأربعة، وقسموها إلى جُنَيْنات خضراء نضرة، يحيط بها عدد كبير من المقاعد الحديدية الأنيقة لجلوس المتنزّهين من رجال ونساء.

(1) من أشعار محمّد بن إدريس الشافعي. (المترجم).

(2) قرآن كريم، سورة الشورى، الآية 23.

واستحدثوا جبلاً صناعياً، تتبع من أوسطه عين ماء، تبدو وكأنها طبيعية، أسفل الجبل فراغ، لتعبر المياه من خلاله، فيرى الزائر منظراً نضراً مُبهجاً.

وصف مصر

مدينة مصر من أقدم مدائن الأرض، وسُمِّيت مصر، لأن المفردة تعني المدينة، وسُمِّيت مصر لتمصُّرها؛ ويقول بعض الكتَّاب: إن مصر بن مصرايم بن سام بن نوح هو مَنْ بنى المدينة، فسُمِّيت باسمه.

مصر التي كانت موضع سلطان الفراعنة تُعرَف بمصر فرعون، وتقع في المنف⁽¹⁾، ويمرُّ النيل من شرقها، وتبعد عن مصر الجديدة مسافة ثلاث ساعات من الطريق.

وهناك مصر أخرى غير مصر فرعون تُسمَّى مصر القديمة، وهي قاهرة المعرِّ، وقد أُسِّست شرقي مصر الجديدة على يد جواهر غلام المعرِّ لدين الله أبي مسلم معد بن إسماعيل الملقَّب بالمنصور بن أبي القاسم النزار الملقَّب بالقائم بن عبيد الله.

قدم المعرِّ لدين الله مصر على رأس ثلاثين ألف فارس في عام 363 هجرية، وأدخل حاكمها رهن إطاغته، فبنى مدينة في موضع عساكره، سمَّاها القاهرة، تقع جانب الفُسْطَاط⁽²⁾، وفُسْطَاط مصر بناها عمرو بن العاص.

(1) المنف: مَنْف، أو مَنفَر، أو مَمْفَيْس مدينة مصرية قديمة من ضمن مواقع التراث العالمي، أُسِّسها عام 3200 قبل الميلاد الملك نارمر، وكانت عاصمة لمصر في عصر الدولة القديمة. (المترجم).

(2) الفُسْطَاط: ذُكِرَتْ في أصل الكتاب وفي ثلاثة مواضع الفسطاس، وقد تمَّ التصويب وَفَقاً لِمَا ورد في القاموس.

يقول صاحب القاموس: الفُسْطَاط عَلَمٌ مصر القديمة التي بناها عمرو بن العاص، تبعد عن مصر الجديدة ميلاً واحداً، وهي مصر الجنوبية، وتقع القاهرة في الشَّمَال، حيث يعبر النيل من مصر، ثمَّ يصل إلى القاهرة.

قاهرة المعرَّ منهدمة، ولم يتبقَّ منها سوى طَلَل من قلعتها، لكن مصر الجديدة عامرة، وكان محمَّد علي باشا سبب عمرانها، إذ قام بتشييد العمارات، وإنشاء الحدائق، وتعبيد الطُّرُق، ثمَّ تبعه إسماعيل باشا فاقترض، وأنفق عليها، وهو مَنْ بنى حَيَّ الإسماعيلية، وعبَّد طُرُق كبيرة فيها.

كما قام بغرس الأشجار، ونصب المصابيح الغازية على جوانب الطُّرُق، ثمَّ بنى قناطر حديدية على النيل في غاية الاستحكام، تُفَتِّح حين عبور السفن، وقام بشقِّ تُرْعَة الإسماعيلية من النيل إلى السويس، فأصبحت مصر عامرة، وشعبها وحكومتها في أعلى مراتب الرقيِّ والازدهار، وبلغوا مكانة الدول المتمدِّنة المتطوِّرة.

يبلغ دَخْلها اثني عشر مليون ليرة بريطانية، ثلاثة منها من الأملاك الخالصة، والباقي من ممتلكات الأرباب والرعية.

قطنو مصر خليط من السكَّان المحليين والمهاجرين، يبلغ تعدادهم خمس مئة ألف نسمة، وفيها خمسة وثلاثون فوجاً، كلُّ فوج يضمُّ ثمان مئة جندي، يستلم كلُّ منهم مُرتباً بمقدار ثلاثين قرشاً فضلاً عن المأكل والمشرب والملبس الذي تكفَّل به خديوي مصر.

تمتلك مصر الآن خمسة عشر وابوراً تسير في البحر، ووابورا صغيراً في النيل، كذلك عندهم مصنع الأوراق في حَيِّ بولاق⁽¹⁾، يُغنيهم عن الخارج.

(1) بولاق: وردت في الكتاب (بولاق). (المترجم).

وعن نشأة المصنع، يقال إن رئيس المصنع ويدعى حُسَيْنُ بِيك، ذهب إلى بلاد الإفرنج، فتعلَّم هناك، واكتسب مهارة، أهْلَتْهُ لِبِنَاءِ المصنع، وبدء العمل به، وإنتاج بضاعة بنوعية جيِّدة، تكفي حاجة البلاد.

يبلغ طول الأرض المصرية ستّ مئة ميل، وعرضها مئتيْن وخمسين ميلاً. تتّصل شَمَالاً بالبحر الأبيض، وشرقاً بالبحر الأحمر، وجنوباً ببلاد النُّوبَة، وغرباً بصحارى المغرب.

يتغيَّر المناخ هناك مع اختلاف الفصول، وتكثر الأمراض الوبائية، وهي غنية بمعادن الرخام واليشم⁽¹⁾، وفيها يَعَافِرُ رَشِيقَةً⁽²⁾ وبغال قوية، وستصبح مصر أفضل مُدُن العالم في المستقبل القريب.

لَعَمْرُكَ مَا مِصْرُ بِمِصْرٍ وَإِنَّمَا هِيَ الْجَنَّةُ الدُّنْيَا لَمَنْ يَتَبَصَّرَ (3)

قسموا مصر إلى شَطْرَيْن، فَيُسَمُّونَ الوجه البحري بمصر الواطية، وتشتمل على ستّ مديريات: القَلْيُوبِيَّة، الشَّرْقِيَّة، المِنُوفِيَّة، العَرَبِيَّة والبُحَيْرَة⁽⁴⁾، والوجه القبلي، ويُسمَّى صعيد مصر، ويشتمل على ثماني مديريات: الجِيْزَة⁽⁵⁾، بني سويف، الفيوم، المِنِيَا، أَسْيُوط، سُوهَاج⁽⁶⁾، قَنَا، وَأَسْوَانَ⁽⁷⁾.

(1) اليشم: من الأحجار الكريمة، ويؤخذ للزينة، غالباً ما يكون لونه أخضر، وتوجد على قلّة جميع الأكوان ما عدا الأزرق. (المترجم).

(2) يَعَافِرُ: مفردها يَعْفُورُ بمعنى الطبي. (المترجم).

(3) جاء في رحلة ابن بطوطة أن ابن جزي هو قائل هذا البيت عن مصر. (المترجم).

(4) لم يرد في الكتاب اسم المديرية السادسة، وهي دِمِيَاط. (المترجم).

(5) الجِيْزَة: وردت في الكتاب (الجيزمية). (المترجم).

(6) سُوهَاج: وردت في الكتاب (جرجا). (المترجم).

(7) أَسْوَانَ: وردت في الكتاب (أسن). (المترجم).

وإتقاءً لحرارة الشمس جعلوا الأزقة بين الحواري ضيقة، ليبقى الظل ممتدًا، ولقرب المسافة بين الجانبين يستطيع الإنسان القفز من غرف أحد الجوانب إلى غرف الجانب الآخر، إلا أنهم في العصر الحاضر زادوا من سعة الممرات والطرق، وعملوا على توسعة الأزقة القديمة.

تكثر المدارس العلمية في المدينة، والعلوم فيها كاملة، ويعلمون أطفالهم اللغات الإفرنجية.

ومن نعم الله على أهل مصر نهر النيل الذي يروي عطشهم، ويسقي أرضهم التي تغلُّ ثلاث أو أربع مرّات في السنة، فيحصلون على عوائد كبيرة من زراعة الخضار والفواكه، ومن الفاكهة التي تتوفّر بكثرة عندهم اليوسفي، وهو نوع من البرتقال.

نهر نيل مصر

يقول ابن الوردي:

ديارُ مصرَ هي الدنيا وساكنها هم الأنامُ فقابلها بتفضيل
يا مَنْ تباهي ببغدادَ ودجلتها مصرُ مقدّمةً والشرحُ للنيلِ

يعبر نهر النيل من غربي مصر الجديدة. يقول البعض إنه يجري من جبال بلخ، ومن جبل قاف بالتحديد؛ إلا أن المعروف أنه ينبع من جبل القمر الذي يقع وراء خطّ الاستواء بستّ عشرة درجة، تجاه الجزء الرابع من الإقليم الأوّل، ولا يوجد جبل أعظم منه في العالم، تجري منه عيون كثيرة، يقع مصبُّ بعضها في بعض البحيرات القريبة، ويصبُّ البعض الآخر في بحيرات أخرى بعيدة، وتتشعب أنهار كثيرة من البحيرات،

لتصبَّ في بحيرة واحدة، تقع على مقربة من خطِّ الاستواء قبيل جبل القمر بعشرة منازل.

يخرج نهران من هذه البحيرة، يتَّجه أحدهما إلى الناحية الشَّمالية بمحاذاة البحيرة، وهو نهر نيل مصر، ويجتاز مسافة طولها ألف ومئتا ذراع عبوراً من صخور الجبال، بعد الناحية الشَّمالية، يمرُّ النيل ببلاد النُّوبَة، ومنها إلى بلاد مصر، ثمَّ تتلاقى الشُّعب المتقاربة التي يُسمَّى كلُّ واحد منها خليجاً، لتصبَّ كلُّها في بحر الروم قرب الإسكندرية.

حدِّدوا مسافة مجرى نهر النيل بثمان مئة فرسخ، وينعطف الآخر نحو الغرب، وبعد مروره يُطلقون عليه اسم نهر السودان، ويصبُّ في البحر المحيط، وهو الإقليم الخامس، ثمَّ يتَّجه جنوباً باتجاه أرض الروم، فيجتاز مالطية، ومنها يصل إلى صفيْن والرَّقَة والكوفة، فينتهي إلى بطحاء بين البصرة وواسط، ثمَّ بحر الحبشة، حيث تلتقي به أنهار كثيرة، وتخرج منه أنهار أخرى، فتصبُّ في نهر دِجْلَة.

يقال إن نهر النيل شديد الحلاوة بطبيعته، ويمرُّ بالبحر الأخضر⁽¹⁾ المالح، ومعادن الذهب والفضة والياقوت والزمرد، إلى أن يأتي بحيرة الزنج، فيصبح صالحاً للشرب، في حين لا يكون سائغاً عند المنبع، لعدم استساغة طعمه⁽²⁾.

يزداد منسوب الماء في الصيف، ويقلُّ في الشتاء، فللنهر خاصيَّة فريدة في الزيادة والنقصان، إذ تستغرق العملية ثلاثة أشهر وعشرين

(1) البحر الأخضر المالح: هو ما يُطلق اليوم عليه المحيط الأطلنطي، أو المحيط الأطلسي. (المترجم).

(2) كَرَّر صاحب الرحلة ما ذكره بعض الرخَّالة ممَّا قيل عن نهر النيل، وإن تعلَّق بعض القول بالخرافة. (المترجم).

يوماً، يُسمُّون الزيادة بوفاء ماء النيل، والنقصان باندفاع ماء النيل.

حين تصل الشمس إلى برج العقرب، ينتظرون الزيادة، وحتى اليوم العشرين من تشرين الأوَّل يكون الوفاء، فيستبشرون بهذه الحالة، ويحتفلون عند النهر، إلى أن يرتفع الماء حتى ثمانية عشر ذراعاً، يُسمُّون تلك الحالة ركوب فتح الخليج⁽¹⁾.

وعندما يقلُّ المنسوب عن ذلك الحدِّ، يقومون بتقديم النذورات والصدقات، إلى أن يرتفع حتى عشرين ذراعاً، فيجري في الوادي، ويسقي الأرض والزرع، فيصبحون في غنى عن الأمطار، بل تصبح الأمطار آفة للزراعة.

وواقع الحال أن نيل مصر ما هو إلا نهران، أحدهما شرقي والآخر غربي، ويوجد في النيل لا سيَّما عند الصعيد التماسح، وقَرَس النهر الذي يُسمُّونه بجاموس البحر، يقول بعض الظرفاء: إنما التماسح في النيل.

يبلغ عرض نهر النيل أربع مئة وأربعة عشر ذراعاً، ويصل عمقه إلى مستوى، يكون صالحاً لسير السفن، عذوبة ماء النيل وطعمه لا توصفان، وتعود عذوبته لسببَيْن: أوَّلهما أن النهر يجري من الجنوب نحو الشَّمال، فأثر الشمس في إصلاحه دائمة، والآخر أنه يعبر من خلال صخور الجبال، فيصل صافياً:

(1) فتح الخليج: حين يبلغ النيل الوفاء، أي من العاشر من شهر يور أغسطس وسبتمبر إلى العشرين من أكتوبر ونوفمبر، ويبلغ ارتفاع الماء ثمانية عشر ذراعاً عن مستواه في الشتاء، وتكون أفواه الترعِّ والجداول مسدودة في البلاد كلَّها، يحضر السلطان ركباً، ليفتح النهر الذي يُسمَّى الخليج، والذي يبدأ قبل مدينة مصر، ثمَّ يمرُّ بالقاهرة، وهو ملك خاصُّ للسلطان، وفي يوم ركوب السلطان لفتح الخليج، تُفَتَّح الخلجان والترعِّ الأخرى في الولايات كلَّها، وهذا اليوم أعظم الأعياد في مصر، ويُسمَّى عيد ركوب فتح الخليج. (سفرنامه ناصر خسرو، ترجمة يحيى الخشاب، ص93). (المترجم).

وانظُرْ لِمَاءِ النِّيلِ فِي مَدِّهِ كَأَنَّهُ الصَّنَدَلُ قَدْ مُسِكَ⁽¹⁾

فروع نيل مصر

ينقسم نهر نيل مصر إلى ثمانية فروع، أحدها يصل من كفر الزيات إلى ميناء رشيد، ليصبَّ في البحر الأبيض؛ ويُسمَّى بالفرع الغربي، والبحر الغربي، وقد بُني سدٌّ في الأودية للحيلولة دون وقوع أضرار للقري المجاورة حين طغيان النهر، وفرع آخر يجري باتجاه ميناء دميّاط، ويصبُّ في البحر الأبيض أيضاً، ويُسمَّى بالفرع الشرقي، والبحر الشرقي، وقد بنوا عليه جسوراً حديدية.

وهناك أربعة أفرع تتخلَّل البحر الشرقي والبحر الغربي، باعتبار أن كلاَّ منهما نهر عظيم بذاته، وقد بنوا عليها الجسور، وفرعان بين البحر الشرقي ومصر، أحدهما نهر الإسماعيلية الذي يصبُّ في السويس، وقاموا بشقِّ شُعبَةٍ صغيرة من النيل، يستقون منها للمزارع، بواسطة العجلات والماكينات والدواليب.

كنا ليلة الجمعة مدعوّين لضيافة جلاله الخديوي، فقُيِّل الغروب بنصف ساعة، عدنا من الحديقة الوطنية، وذهبتُ أنا والأمراء ومعالي الحاجِّ مُلاً باقر، فقاموا بواجب الاحترام.

وقت الفريضة، اقتدينا بإمام الجماعة، لكنني صليتُ على مذهب الشّيعة. وبعد انقضاء الصلاة، حضرنا على طاولة العشاء، فجلسنا أنا والخديوي قبالَةَ بعضنا، والباقون على الترتيب عن يسار ويمين مجلسي، أنا والخديوي.

(1) شِعْر الأمير تميم بن المعرّ. (المترجم).

استأنسنا بالمجلس، وأخذ منّا وعداً للحضور إلى المسرح أنا والأمراء بعد ثلاث ساعات من الليل، فذهبنا إكراماً لجلالته.

جلستُ أنا والخديوي في غرفة واحدة، وجلس الأمراء في الغرفة الأخرى، لم يرق لنا العرض الذي قُدِّم هذه الليلة، فغادرنا المسرح قبل مقطعه الأخير، لكنه طلب منّا الحضور في الليلة الآتية، كي نشاهد عرضاً أفضل.

مسرح مصر⁽¹⁾

تمتدُّ أمام دار المسرح ساحة شاسعة، تضاهاي الميدان، بدت عليها لمسات الإبداع وحُسن الترتيب، لها بابان؛ أحدهما قُبالة الميدان، جعلوا لها سقفاً، وأحاطوه بأعمدة حجرية، والباب الآخر على يسار المسرح.

قاعة المسرح واسعة طويلاً وعرضاً، ومرتفعة، في وسطها علقتُ ثُرَيَّا كبيرة مصنوعة من المرمَر الذي يشبه الشمع الكافوري، وفيه مصابيح تعمل بالغاز. رتَّبوا الكراسي والطاولات والمرايات الكبيرة في الباحات لجلوس النساء والرجال حين الاستراحة بين المشاهد المسرحية والتجوال بينها. يتكوَّن البناء من أربعة طوابق، فيها العديد من الغرف المزينة البديعة.

يوم الجمعة، الثامن عشر من ربيع الأوَّل، جاءني الموسيو كركُور قنصل الروس، فجلسنا للحديث برهة، ثمَّ ذهب. وعند المساء، ركبنا العربات

(1) مسرح مصر: دار الأوبرا الخديوية، أو دار الأوبرا المَلَكِيَّة في العاصمة المصرية القاهرة. (المترجم).

للتجول برفقة حَسَنَ باشا والأتباع، كي نشاهد قلعة جوهر القائد، ومقبرة السيِّدة نفيسة، والسيِّدة سُكَيْنَةَ، والإمام الشافعي، وإبراهيم باشا، والقائد أبي الحَسَنَ جوهر المعروف بالكاتب الرومي.

قلعة جوهر القائد

شيَّد القائدُ جوهر القلعةَ منذ أكثر من ستِّ مئة عام على أرض مرتفعة جنوبي المدينة، وأضاف السلطان صلاح الدِّينُ يُوْسُفُ بنُ أيُّوب على استحكام القلعة عام 1243⁽¹⁾.

سُيِّجَت القلعة التي تحتوي على أبراج عريضة ومستحكمة من جميع جوانبها، وعند الباب الأوَّل بئر، يبلغ عمقها مئة ذراع، قيل إنهم حفروا حتَّى وصلوا إلى ماء النيل، ويعتقد العوامُّ أن هذه البئر ذات البئر التي ألقى فيها النبي يُوْسُفُ، عليه السلام، وهذا قول غير صائب.

على مقربة من القلعة هناك جامع بناه محمَّد علي باشا، زُيِّنَت جدرانُه حتَّى السقف بالرخام المصري، له أربع أساطين مضلَّعة، رفعوا قبة المسجد عليها، وقسَّموها إلى سبعة قباب، ثلاث منها في الوسط، وأربع في الطرفين، لون قواعد الأساطين المضلَّعة طبيعي، ولوَّنوا رؤوسها بلون القواعد.

قُبالة الصحن توجد ثماني أسطوانات حجرية في العرض، ومقبرة محمَّد علي باشا في زاوية الجامع قريباً من الصحن، وأقاموا أعلى مقبرته تمثاله، وعلى رأسه قبة نحاسية كبيرة ملوَّنة باللون الأحمر، تحاكي الفس⁽²⁾، وزينوا

(1) هكذا ورد في الأصل، وهو غير صحيح وفق التاريخ الميلادي. (المترجم).

(2) الفس: هو الطُرْبُوش الذي نشأ في البلقان عهد الإمبراطورية البيزنطية، ثم انتقل إلى الدولة

كسوة القبر بخيوط موشاة بخطِّ الثُّلُثِ الجلي، وشوهدت عدَّة مجلِّدات من المصحف الشريف كُتبت بخطِّ متَّعَن.

صحن المسجد شاسع، يضمُّ أحد عشر عموداً في طوله، وتسعة في العرض، وأربعة وأربعين عموداً في كلِّ الجهات، وزينوا سطح الصحن حتَّى أعلى الجدران بالحجارة المختلفة، فالبيضاء مصرية، وذات الألوان الأخرى جلبوها من أوروبا.

توسَّط الصحن بركة مسقَّفة، تُسمَّى الشادروان⁽¹⁾ مفتوحة الأطراف، نافورتها لا تعمل، ومن حولها ثمانية أعمدة، وعدَّة صنادير ماء، كُتبت حولها المرحوم سنغلاخ بضعة سطور بخطِّ النَّسْتَعْلِيقِ.

للصحن بابان متقابلان، أحدهما خارج الصحن مشرف على المدينة، فتبدو الأهرام واضحة المعالم للناظرين، وعلى مقربة من الجامع عمارة، بناها محمَّد علي باشا مزوَّدة بجُنيَّنة وبركة وغرف كبيرة مؤثَّثة بالكراسي والطاولات، تتدلى من سقوفها تُرَبَّات، علَّقت منذ عهد بانيها، وفيها حمَّام من الرخام المصري، يحاكي الحمَّام الذي شاهدناه في عمارة بيكلريكي في مدينة إسلامبول.

أتَّضح لنا أن رخام حمَّام إسلامبول كان قد تمَّ إعداده لهذا الحمَّام، فأرسلوه حين طلبه السلطان العثماني، وقاموا بإعداد غيره يماثله.

شُيِّدت العمارة، وبُني الجامع في عهد محمَّد علي باشا، واستغرق بناؤهما سبعة وعشرين عاماً.

العثمانية، ويُسمَّى في اللغات الأوروبية بكلمة (FEZ)، وتعني مدينة فاس إحدى مُدن المغرب الأقصى، حيث تمَّ ارتداؤه بكثرة لدى شعوب شمال أفريقيا ومصر وتركيا والشام. (المترجم).

(1) الشادروان: نافورة ماء، فيها قطع من الزجاج، تشبه الأجراس، فإذا حركها الماء، صدر عنها صليل ورنين. (المترجم).

مقبرة الإمام الشافعي

الإمام الشافعي، هو أحمد بن إدريس من نَسَب قرشي، أحد الأئمة الأربعة لأهل السُّنَّة والجماعة.

تقع مقبرته في مصر الفُسطاط على سفح جبل المقطم، وقد تمَّ بناؤها في عهد الملكة شمسة عام 608 للهجرة، وأرخوا زمن الولادة والوفاة على عمود قرب الضريح: "وُلد في عام 150، ووافته المنية في شهر رَجَب من عام 204 في عُمُر يناهز الأربعة والخمسين".

وتمَّ دفن الملكة شمسة وابنها محمَّد كامل مع أولاد عبد الحكيم في البقعة ذاتها.

مقبرة إبراهيم باشا

مقبرة إبراهيم باشا قريبة من مقبرة الإمام الشافعي، فيها بقعة وقبور أولاد المرحوم محمَّد علي باشا، كلُّ من عبَّاس باشا، وإلهامي باشا، وأحمد باشا، وإبراهيم باشا الصغير، ومصطفى باشا ابن إبراهيم باشا، ومُحمَّد بك كاتب الديوان، وحريم الباشاوات، وقد كتب المرحوم سنغلاخ آيات من القرآن الكريم، حول القبور، وبعض الأشعار بالخطِّ الجلي.

مقبرة السيِّدة نفيسة

السيِّدة نفيسة بنت أبي محمَّد حَسَن بن زيد بن حَسَن بن عليّ بن أبي طالب، عليه السلام، زوجة إسحاق بن جعفر الصادق، عليه السلام، وهي من النساء الصالحات التقيات.

تقع بقعتها الجليلة نهاية زقاق طويل، يتَّجه يساراً من البوابة الشرقية التي كانت تُعرَف قديماً بدرب السباع، وقد كتبوا أعلى الباب الأوَّل للبقعة الأبيات:

اللَّهُ طَهَّرَ أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّهِ وَبَجَاهِهِمْ مَنْحَ الْمَكَارِمِ وَالْمِنَّةِ
يَا زَائِرًا هَذَا الْمَكَانَ لَكَ الْهِنَاءُ بِنَفِيْسَةِ بِنْتِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْحَسَنِ
مَنْ أُمَّهَا حُسْنُ الْفِعَالِ، وَجَاءَهَا مِنْ أَرْضِ أَرْزَنْجَانٍ يَدْعُوهُ الشُّجْنُ
نَادَتْهُ أَنْ جَدُّ رَحَابِي مُنْشِئًا وَلَكَ الْمَزِيدُ مِنَ الْقَبُولِ مَدَى الزَّمَنِ
فَبَنِي وَجَدُّ وَالْمَعَالِي أَرْخَتْ ذَا بَابٍ جَاهٍ زَائِنَةٌ أَنْشَأَ حَسَنٌ⁽¹⁾

قام شخص اسمه حَسَنُ الأَرزَنْجَانِي بإعادة إعمار هذه العتبة عام 1248 للهجرة، وبني الضريح المبارك على يد عَبَّاسِ بَاشَا، فأصبح مزاراً للناس، لاعتقادهم باستجابة الدعاء.

بعد رجوعنا إلى المنزل، ذهبنا لثلاث ساعات من الليل إلى المسرح تلبية لدعوة جلاله الخديوي. كان التمثيل الليلة في غاية الامتياز، فجلسنا مع الخديوي حتَّى المشهد الأخير.

يوم السبت، التاسع عشر من ربيع الأوَّل، وبعد ثلاث ساعات من النهار، جلستُ في العربة، وبرفتي حَسَنُ بَاشَا، والميرزا أحمد خان القنصل قاصدين مشاهدة الأهرام.

تجاوزنا جسراً حديدياً على نهر الإسماعيلية⁽²⁾، فشاهدنا معسكراً

(1) من أشعار شهاب الدِّين العزازي، من شعراء العصر المملوكي، وكان يطري آل البيت، ويشيد بأخلاقهم ومكارمهم. (المترجم).

(2) نهر الإسماعيلية: تُزَعَّةُ الإسماعيلية. وكانت تُسمَّى قديماً تُزَعَّةُ السويس الحلوة؛ تبدأ من النيل بجوار سُبْرَا شَمَالِ القاهرة، وتصل إلى قناة السويس عند الإسماعيلية. (المترجم).

على اليمين، وفوجاً من الجنود المصريين يتدربون، مكثنا هنيهة لرؤية تدريباتهم، فظهر لنا احترافهم.

بلغنا سرايا عند نهر النيل، يُسمونه قصر النيل، ثمَّ تخطَّينا جسراً، كان قد بناه محمَّد علي باشا من الحديد، ودخلنا شارعاً طويلاً ممهداً، مدُّوه وسط الوحل حتَّى الأهرام، تجتازه العربة في غضون ساعة، غرسوا على طرفيه أشجار اللنج، فبدت جنباته مخضرةً يانعة، ونهر النيل يقع عند جانب منه.

قام إسماعيل باشا بإنشاء حديقة عظيمة على يمين الشارع في بطن وادي الجيزة. أقاموا كلَّ جدرانها من الحجارة، وذات باحة أمامية، لها أبواب، وضعوا قريباً منها شباكاً من الحديد، يستغرق الطواف حولها ساعة، باستخدام العربة.

أنشئت الحديقة في هذا الطرف لإعمار المنطقة، فتغدو مضاهية لبوغاز⁽¹⁾ إسلامبول، وحتَّى يصبح طرفا النيل عامرين، ولأجل زراعة الأرض، أوصلوا مياه النهر إلى المكان بالآلات ومعدّات، غير أن المشروع لم يتمَّ، بسبب عزل إسماعيل باشا، ونفيه إلى إيطاليا من قبل فرنسا وبريطانيا.

مع احتساب المكوث، بلغنا نهاية الشارع بعد أربع ساعات ونصف مضيّن من النهار، شاهدنا عمارتين على طرفي الطريق، من هنا أصبحت الأرض ذات ارتفاع وانخفاض، أدّت لتعب خيول العربات، فصارت تسير بمشقة.

كان إسماعيل باشا قد بنى عمارة عند الأهرام موضعاً للاستراحة، وفيها غرفتان علويتان كبيرتان، وبمحاذاتها غرف صغيرة، للغرفة الكبيرة خمسة عشر باباً في الطول، وثلاثة أبواب في العرض.

(1) بوغاز: البوسفور. (المترجم).

مكثنا قليلاً في الغرف الكبيرة، ثمَّ توجَّهنا إلى الأهرام، شاهدنا في وادي الأهرام تمثالاً صخرياً، يقال له أبو الهول. ومن بعد، عدنا أدراجنا إلى المنزل قبل ثلاث ساعات ونصف من الغروب.

الأهرام

الأهرام عدَّة قباب عظيمة، تقع في منطقة الجيزة في مصر الفرعونية القديمة، وغربي مصر الجديدة، الطريق إليها تبلغ ساعتين من الوقت.

الهَرَم في اللغة يعني أقصى الكِبَر في الحجم، وجمعه أهرام، وأمَّا مفردة (الهَرَمَان) المعروفة كما قيل: بني الهَرَمَان في السرطان، ذلك لعظْمَة قَبَتَيْن من بين الأهرام، فَعُرِفَت باللفظ المثنى.

وقيل إن الأهرامات كانت ثمانية عشر هَرَمًا، تهدَّم معظمها في عهد السلطان صلاح الدِّين يُوْسُف بن أَيُّوب القَرْقُوش، وبأمر من زوجته، وتمَّ نقل حجارتها لبناء القناطر، فما شاهدنا منها غير أربعة أهرامات، منها اثنان كبيران، والأوَّل أكبر من الثاني، واثنان صغيران.

أشكال الأهرامات مرَّعة مخروطية الشكل، تتألَّف من مثلثات؛ يبلغ ضلعها الأكبر على حساب الذراع مئتين وثلاثين ذراعاً، وبالأقدام خمس مئة قَدَم، ويكون مركز ثقل مثل هذه الأشكال وسطها، تماسك أجزاءها ببعضها، بحيث لا تهدَّم مع هبوب الرياح وسقوط الأمطار وتعاقب الأزمان.

يتشكَّل الهَرَمَان من الحجارة البيضاء التي رُصفت فوق بعضها، فتظنُّها حجراً واحداً، ويبلغ طول الحجارة أكثر من ذراع، وقد شاهدنا

حجارة تبلغ ثلاثة أذرع، وفي غير الهَرَمَيْنِ تجد بعض الأحجار من حجارة الصَّوَّانَةِ التي جمعها صَوَّانُ ذات اللون الأحمر، وهي نوع من الأحجار المصرية المنقَّطة شديدة الصلابة التي لا يُوَثَّرُ فيها الحديد، وبعضها مصنوع من الطوب والطين، تنتهي الأحجار إلى نقطة واحدة، تبدو مخروطية، إلا أن رأس الهَرَمِ ليس مخروطيَّ الشكل، فَمَنْ يَصِلُ إلى القمَّة، سيجد سطحاً مربعاً، يبلغ طول كلِّ ضلع منه تسعة أذرع.

يقع باب الهَرَمِ على ارتفاع عشرين ذراعاً عند الطرف الشِّمَالِي، وقد عثروا عليه منذ عدَّة سنوات بعد التنقيب عنه طويلاً. يَتَّسِعُ البابُ لدخول شخص واحد، المدخل يفضي إلى سرداب بطول خمسين ذراعاً، ويبلغ عرضه بمقدار فَتْحِ الذراعَيْنِ حَتَّى تلتصق بالجدران الجانبية، أرضيته مفروشة بالحجارة، وعلى مَنْ يسلكه أن يأخذ جانب الحَدْر، كي لا تزلَّ قَدْمُهُ.

الممرُّ مضيء، ما دامت أشعة الشمس تصل إليه، ومن بعد، يصير شديد الظلمة، فتصبح الحاجة مُلحَّةً للمصابيح للإضاءة. السرداب ينتهي إلى باحة غير كبيرة، لا علامة فيها؛ ومنها يتمُّ الصعود خمسين ذراعاً لدخول باحة أخرى، تواجه غرفاً صغيرة، أمامها ساحة مسطَّحة، يبلغ طولها اثني عشر ذراعاً، وعرضها ستَّة أذرع، فيها نقوش وخطوط سريانية، وصُنْدُوقٌ حجري كبير، قيل إنه كان يحمل نعشاً في طيَّاته، فأفرغوه.

يُعتبر البناء من عجائب الدهر، مع أنه لا يحتوي شيئاً من الزينة في أحجاره سوى عَظْمَةِ البناء؛ وإن قام أحد بمقايسة أحجار تخت جمشيد⁽¹⁾ وأعمدته وتمائيله المنقَّشة يعلم أن هذا البناء لا يضاويه من حيث صنعة النحت.

(1) تخت جمشيد: أو برسبوليس في مدينة شيراز، وهي عاصمة الإمبراطورية الأخمينية. (المترجم).

مع ذلك يُعدُّ من العجائب، وتحتار العقول عند مشاهدته، وهناك كنيسة بالقرب من أحد الأهرام، لم يبقَ منها سوى ستَّة عشر عموداً. قيل منذ عشرة أشهر عثروا على طريق تحت الأرض يتَّصل بالهَرَمَيْنِ، يبلغ طوله ألفين وأربعمائة وعشرين متراً، وعمقه أربعة عشر متراً، مرصوف كلُّه بالحجارة، وكانت هناك حفرتان في موضعين، قيل إنهما كانتا مغارَتَيْنِ، لم يبقَ منهما غير أحجار.

باني الأهرام وسبب البناء

يقول صاحب القاموس: الهَرَمَانُ بناءان أزلَيَان، من بناء إدريس، لحفظ العلوم فيهما من الطوفان، أو بناء سِنَان بن المُشَلِّشَل، أو بناء الأوائل لِمَا علموا بالطوفان من جهة النجوم، وفيهما كلُّ سِحْرٍ وطِبِّ وطلسم.

يقول البعض إن الهَرَمَ الأكبر بُني على يد أخِيُوبَس⁽¹⁾، أو صُوفِي مَلِك مَنف⁽²⁾، والهَرَمَ الأصغر على يد أخيه خَفَرَم⁽³⁾، أو سَنُصُوفِي، والهَرَمَ الثالث على يد مَقْرِيْنُوس⁽⁴⁾، أو مَنقَاوِي.

والخطوط السريانية التي تمَّت قراءتها من قِبَل البعض في الهَرَم الأكبر تقول: خَوْفَرٌ وَخَفْرَةٌ وَمَنقَارَةٌ، ويقال إن هذه العبارة تشير إلى اسم أخِيُوبَس وَخَفَرَم وَمَقْرِيْنُوس، ويقول آخرون: إن سُورِيْد المَلِك رأى في

(1) أخِيُوبَس: هو المَلِك خُوْفُو. (المترجم).

(2) مَنف، أو مَنفَر، أو مِفْفِيْس مدينة مصرية قديمة من ضمن مواقع التراث العالمي، أسسها عام 3200 قبل الميلاد المَلِك نَأْرَمَر، وكانت عاصمة لمصر في عصر الدولة القديمة. (المترجم).

(3) خَفَرَم: هو المَلِك خَفْرَع. (المترجم).

(4) مَقْرِيْنُوس: هو المَلِك مَنقَرَع. (المترجم).

المنام حُلماً عجيباً عن انقلابات الأرض، وفسرها المفسرون بدمار الأرض؛ فأمر الملك ببناء الأهرام حتى تُحفظ فيها الأخبار والكتب والكنوز، وقد تمّ بنائها في غضون ستين عاماً.

دُفن سُورِيد في الهرم الشرقي، وهرجيب في الهرم الغربي، وأفريبون وهرجيب في الهرم الملوّن، تقول الصابئة: قبر شيث في الهرم الأكبر، وقبر هرِمَس في الهرم الأصغر، وقبر صَابي بن هرِمَس في الهرم الملوّن.

يقول البعض إن شَدَّاد بن عاد هو مَنْ بنى الأهرام، وأنذاك كان الناس يعتقدون أن الإنسان يعود بعد مماته بعدة سنوات، لذا كانوا يدفنون معه ثرواته ونفائس أمواله من مجوهرات وآلات ذهبية حتى تكون معونة له عند رجعتِه، فَمَنْ كان منهم ذا صنعة دَفَنُوا معه آلات صنعتِه، ليستخدمها بعد العودة.

وقد رأينا بأُمِّ العين نعوش الموتى، أُخْرِجَت من الأهرامات، ووُضِعَت في مُتَحَف مصر، ومعها آلات وأدوات ذهبية.

وتتعدَّد الأقوال، وتختلف الآراء حول باني الأهرام، والواضح أنها لم تكن صحيحة، والله أعلم بحقائق الأمور.

أبو الهول

جنوب الهرمَيْن يقوم تمثال، يطلقون عليه اسم أبو الهول، منحوت من الحجارة على هيئة رأس وعنق امرأة، يبلغ محيط الرأس عشرين ذراعاً، وطوله من الأرض حتى الأعلى خمسة وعشرون قدماً، ومن الذقن حتى الرأس خمسة أقدام.

نُحِتَتْ تفاصيل الوجه بشكل متناسق، قيل إن جُثَّة التمثال وقامته تروى على سبعين ذراعاً، جزء منها في الأرض، شكل التمثال مهُول، ف جاء الاسم مناسباً للحال.

بعد رجوعنا إلى المنزل، قصدنا حديقة الشُّبْرَا قبل الغروب بساعة ونصف، ورجعنا عند الغروب، ثمَّ ذهبنا ليلاً إلى حمَّام والدة إسماعيل باشا الذي بُني في السراي، وتفقدنا أحوالها بواسطة الخواجة سليمان آغا، فاحترمونا، وبَجَلُّونا، وقاموا بإشعال المصابيح وفرش السجاجيد.

حديقة شُبرَا⁽¹⁾

تقع الحديقة في قرية شُبرَا في الشَّمَال، تبعد عن حَيِّ الإسماعيلية مسافة ساعة، بعدما اجتزنا جسر الإسماعيلية الحديدي وصلنا شارعاً واسعاً ممتدّاً، على طرفيه أشجار اللُّنج القديمة، في الطريق إلى شُبرَا شاهدنا حديقة الشوكاني على يمين الشارع، وحديقة النزهة على اليسار.

بُنيت حديقة شُبرَا من قِبَل محمَّد علي باشا، وهي حديقة كبيرة، تتوسَّطها سقيفة مرتفعة، لها مدرَّجات، ووسطها بركة، وفيها ليوانات من الجهات الأربعة مُزَيَّنة بالأحجار المنبته، غرسوا فيها أشجار الكرمة، ورفعوها على أعمدة خشبية، وفي نهاية الحديقة، عمارة مستطيلة مُسَيَّجة، مدخلها يرتكز على عامودَيْن مُتَّصِلين بسقف ليوان البوَّابة.

تتميَّز العمارة بالأعمدة في ليواناتها من الجهات الأربع، يبلغ عددها مئة وعشرين عموداً رخامياً، كلُّ عامود من قطعة واحدة، تحيط بكلُّ البناية، وأقاموا غرفاً في جميع الجهات. تتوفَّر فيها كلُّ أدوات الراحة من كراسي وطاولات ومرايا وتُرَيَّات منذ عهد محمَّد علي باشا.

(1) حديقة شُبرَا: قصر محمَّد علي بشُبرَا الخيمة. (المترجم).

الغرفة الواقعة على يمين باب العمارة، والغرفة الواقعة في أعلى الزاوية اليسرى كبيرتان وبمقياس واحد، والغرفتان الأخريان صغيرتان، وبمقياس واحد.

في وسط الساحة بحيرة، في قلبها جزيرة صخرية، لها درجات من الجهات الأربع، ووضعا أربعة تماثيل في كلّ جهة من الجهات، وعلى حافتها نصبوا تماثيل أسود صخرية، تنسكب المياه من أفواهها، ومن حولها أسماك صغيرة.

حديقة النزهة وحديقة الشوكاني

حديقة النزهة من حدائق خديوي مصر، قاموا ببناء عمارات أمام باب الحديقة، وبمسافة مناسبة على طرفي الطريق، منها علوي ومنها سفلي، وكلُّها كانت في غاية الجودة، وعملوا على بناء ليوان مسقوف على امتداد الجهات الأربع، يحمي المتنزّهين في أثناء التجوال في موسم الأمطار، فتبدو وكأنها مكتملة الإعداد.

أسكنوا ولي عهد الحكومة النمساوية الذي وصل بعدنا بثلاثة أيّام في هذه الحديقة.

أمّا حديقة الشوكاني الشاسعة والمُنمّقة، فتعود ملكيّتها لرجل فرنسي عقيم. يتمُّ الدخول من الحديقة الأولى إلى الحديقة الثانية، وفيها شوارع وأشجار ورياحين من كلِّ الأنواع، واستحدثوا وسطها جبلاً اصطناعياً، يبلغ ارتفاعه اثني عشر ذراعاً، وفيه سقيفة ذات طبقات.

يوم الأحد، العشرون من ربيع الأوّل، قصدنا المدرسة برفقة حسن

باشا وأحمد خان القنصل. في بادئ الأمر، دخلنا غرفة تتحدّث عن خلقة حشرات الأرض، مكثنا قليلاً نصغي إلى تعليم المدرّس، ونراقب تعلّم الأطفال، كان التدريس باللغة العربية.

ثمّ ذهبنا إلى غرفة أخرى، وضعوا فيها شتى أنواع الحيوانات والطيور والمعادن، والمجال لا يتّسع لذكرها جميعها، لكننا نكتفي بذكر بعض الغرائب منها: شاهدنا تمساحاً بطول يزيد على المتر، كانت أسنانه متّصلة من الفكّ الأعلى بالفكّ الأسفل، وله جلد خشن ذو نتوءات، لا يؤثّر فيه حتى الحديد.

ورأينا حيّة كبيرة، يبلغ طولها أربعة أذرع، يقال إنها غير سامّة، وتبتلع فريستها بواسطة الالتفاف عليها أولاً، ثمّ تأكلها.

وحيّة أخرى كانت بطول ثلاثة أرباع الذراع، لها شبكة في ذنبها، تُصدر رنيناً، وتلك من فضائل الباري على الإنسان، ليتجنّبها عند سماع الرنين، يقال إن قوّة سمّ هذه الأفعى يمكن أن يكون فعّالاً حتى بعد موتها بخمسة عشر عاماً، بحيث إذا وصل نابها إلى عضو، فخدشه، يسري مفعول السم فيه خلال نصف ساعة، فيهلكه، ذكروا أنهم جلبوها من أميركا.

لاحظنا سمكة هناك، يبلغ طول عمودها الفقريّ عشرة أمتار فرنسية، وطول رأسها ثلاثة أمتار، ومحيط فمها يتجاوز المتر والنصف، يقال إنه يوجد من هذه الفصيلة في البحر الشّمالي بطول ثلاثين أو أربعين ذراعاً، وقيل إن ضربة ذيلها تؤدّي لكسر السفينة.

وتمّت مشاهدة حيوان ذي رأسين، وإنسان مائي يضاها الإنسان، يبلغ طوله ذراعاً واحداً، كانت تفوح منه رائحة كريهة.

نزلنا من تلك الغرفة، وذهبنا إلى غرفة الكحّال التي تهتمّ بأمراض

العيون، ثمَّ إلى غرفة وضعوا فيها مُجسَّمات مصنَّعة على الرفوف؛ فكانت مدعاةً للحيرة والاشمئزاز في آنٍ معاً، معظمها كانت مصنوعة من الورق المقوّى، ليتدرّبوا على جراحاتها، وهناك بعض الأعضاء الحقيقية لجسم الإنسان، يحتفظون بها.

خرجنا من المدرسة، وجلسنا في العربة قاصدين حيّ بولاق، لزيارة المتحف الذي يضمُّ مقتنيات قديمة وغريبة.

المتحف

لم تكن عمارة المتحف كبيرة من حيث المساحة، لكنها تضمُّ عدّة غرف متداخلة، تحتوي التماثيل الإنسانية والحيوانية، والأدوات المصنوعة من الذهب والنحاس والحجارة، وشتّى المعادن، لا يتسع المجال لذكرها.

هناك عدّة صناديق خارج الغرف مصنوعة من حجر النحاس، وقد رأينا في الغرفة الأولى بقرة منحوتة من الحجارة، وإلى جانبها تماثلان لرجل وامرأة، التماثيل الثلاثة في غاية الإتقان.

أمّا الأجساد التي قيل إنه تمَّ إخراجها من الأهرام، فقد أسندوها على الجدران في الغرفة الرابعة، كانوا يُفرغون الكافور وموادّ التحنيط وموادّ أخرى بين الكفن والجسد، لئلاّ تتلف أعضاؤه، ويقومون بتغطية الكفن بالكرناس وشريط عريض ملفوف من الساق حتّى العنق، ويرسمون شكل الميت من رأسه حتّى أخمص قدمه على التابوت، ثمَّ يضعون التابوت في تابوت حجري آخر أكبر من الأوّل.

كان السلطان عبد العزيز قد حلَّ الشريط من أصابع إحدى المومياءات حين قَدِم مصر عام 1279، فبقيت مفتوحة على حالها،

وما زال الإصبع الذي تحوّل إلى اللون الأسود يحتفظ بالإظفر.

قام محمّد علي باشا ببناء هذا المتحف عام 1252. كانت الأشياء والأشكال الموجودة هناك قديمة جداً، يعود تاريخ بعضها إلى ما قبل ستة آلاف عام، والبعض الآخر إلى خمسة آلاف عام، وقد وضعوا عليها علائم هندسية فرنسية، والله أعلم.

عدنا أدراجنا إلى المنزل، وقُبيل الغروب بساعتين، ذهبنا إلى سفارة دولة إيران العليّة، وبقينا هناك حتّى الغروب، فانشغلنا بالحديث مع الميرزا أحمد خان، وبعض الأتباع الإيرانيين كانوا مع الحضور.

كان عند أحمد ميرزا ولد يُتقن قراءة القرآن بألحان المصريين، فحضر في المجلس، وقرأ آيات من القرآن الكريم، فأجاد، تلاطفتُ معه، ورحبتُ به، وبعد شرب الشاي وتناول وجبة العصرونة، عدنا إلى المنزل.

العودة إلى إسلامبول

يوم الاثنين، الحادي والعشرون من ربيع الأول، عزمنا مغادرة مصر، فبعد الدسطة بثماني ساعات، ودّعنا جلاله الخديوي، وغادرننا في القطار، لنبلغ الإسكندرية عند الغروب، كان المحافظ والأعيان بانتظارنا للاستقبال في مركز سكة الحديد.

ركبنا العربة، وقصدنا عمارة رأس التين. رافقنا حسن باشا حتى الإسكندرية، وفي الليل، ذهبنا للتجوال والتفتيش على قنصلية الميرزا حبيب خان القنصل الإيراني في الإسكندرية.

يوم الثلاثاء، الثاني والعشرون من ربيع الأول، قرّرنا مغادرة الإسكندرية قبيل الغروب بأربع ساعات.

استقلّينا القارب برفقة حسن باشا، والمحافظ، ورئيس الإسكندرية، والقناصل، وسرنا حتى السفينة النمساوية، لننطلق باتجاه إسلامبول، وقبل الحركة، أطلقوا ثماني عشرة طلقة مدفعية.

ودّعت أصحاب المعالي، وكتبْتُ كتاباً إلى جلاله الخديوي، فحواه رضانا عن خدمات حسن باشا، وسلّمناه له، وانطلقنا.

يبلغ طول السفينة النمساوية مئة وخمسين قدماً، وعرضها خمسين قدماً، تقطع مسافة عشرة أميال في الساعة. بعد عشرين ميلاً، شاهدنا فناراً في البحر الأبيض، يُشعلونه ليلاً، يمتدُّ ضوؤه لمسافة كبيرة من البحر.

جزائر طريق الإسكندرية حتى إزمير

أولها جزيرة رُودُس⁽¹⁾ العظيمة التي تقع على بُعد عشرين ميلاً إلى جهة اليمين، ذات مناخ لطيف، وفيها أشجار وفاكهة، وقد بنى فيها خديوي مصر عمارة كمصيف. الثانية جزيرة أسكارنتو الصغيرة الواقعة على بُعد عشرة أميال جهة الطرف الأيسر، والثالثة جزيرة مدنو التي تبعد عن الإسكندرية ثلاث مئة ميل إلى جهة الشمال الشرقي، والرابعة ني رزي، والخامسة جزيرة كركي في الطرف الأيمن، والسادسة جزيرة تلوس التي يسميها الأتراك بيش قابي، والسابعة جزيرة ني سرد الصغيرة، والثامنة جزيرة كوس، والتاسعة جزيرة كليم نوء، والعاشر جزيرة لئرد، والحادية عشرة جزيرة إسبار، والثانية عشرة جزيرة باتمس، الثالثة عشرة جزيرة إركي، والرابعة عشرة جزيرة فورني الصغيرة، والخامسة عشرة جزيرة سموس الكبيرة، والسادسة عشرة جزيرة لُرس، ومن هنا فصاعداً، تصبح الحركة نحو الشمال، والسابعة عشرة جزيرة سقرز، وتسمى كيوس، فمن هنا، تصبح الحركة نحو الشمال الشرقي، والثامنة عشرة جزيرة إسبال مقوري، حيث تصبح الحركة نحو الشمال الغربي، التاسعة عشرة قرابورن، والحركة حتى رأس الجزيرة نحو الشمال، ومن هنا باتجاه خليج إزمير تصبح الحركة تجاه الغرب، ومن الخليج فصاعداً، تتحوّل الحركة تجاه الجنوب، وقاطبة الجُرر تقع في الأناضول، ومعظمها كان جلياً للعيان.

يوم الأربعاء، الثالث والعشرون من ربيع الأول، رست السفينة قرب جزيرة ليروس الواقعة بين جبلين مرتفعين، فيها عمارة بيضاء، وتقوم قلعة أعلى أحد الجبلين، ورأينا ثمان طواحين هوائية في خط واحد، اثنتان ساكنتان، وست متحركة.

(1) رُودُس: هي جزيرة يونانية في البحر الأبيض المتوسط. (المترجم).

المياه على مقربة ليروس محاطة بالجبال المكسوّة بالخضار، ما عدا الجانب الشرقي كان مفتوحاً لمرور السفن، شاهدنا سفينة شراعية وعدّة زوارق قُبالة المرفأ.

القرية على الطرف الشرقي أعلى الجبل، وأراضيها الخضراء منبسطة، وتفرّق عدّة بنايات على الطرف الغربي.

منذ انطلاقنا من الإسكندرية، كان البحر هائجاً، وأحوال الركب في تقلّب دائم. كنتُ أنا والمحبوب الوحيدين اللذين لم تتأثر بحالة الاضطراب التي مسّت بقية المسافرين. اليوم، وعندما هدأ البحر، وخرج الركاب من حجراتهم، ويتخيّل المشاهد حالهم وكأنهم في يوم: (يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)⁽¹⁾.

مرساة جزيرة ساقز في البحر الأبيض

يوم الخميس، الرابع والعشرون من ربيع الأوّل، وقبيل الفجر بأربع ساعات، أُرست السفينة في مرساة جزيرة ساقز، لها ليمان⁽²⁾ معطل.

تمتدُّ الجزيرة طويلاً من الشّمال إلى الجنوب، فيها عدّة قرى وميناء واحد، تُصنَع فيها أنواع المرَبّي والمُصطُكي⁽³⁾ يجلبونها للبيع لركاب السفينة، لذلك سُمّيت باسم ساقز⁽⁴⁾.

(1) قرآن كريم، سورة الحجّ، الآية 7.

(2) ليمان، من الأصل التركي (Liman) بمعنى ميناء. (المترجم).

(3) المُصطُكي: انظر معجم دهخدا في شرح المفردة.

(4) ساقز: من اليونانية مستيخان: المضع وهو سُجيرة من عائلة الفُستقيّات، تنمو في المناطق المتوسّطية، ذات ثمار حمراء، ثمّ سوداء، وساقز في الفارسية هي مادّة صمغية لاصقة. (المترجم).

خليج إزمير

يوم الجمعة، الخامس والعشرون من ربيع الأوّل، دخلنا خليج إزمير، حركتنا كانت نحو الجنوب. كان البوغاز محاطاً بالجبال من ثلاث جهات بشكل دائري، كان واسعاً، بسبب تباعد الجبال، في الجهة الشرقية وعلى سفوح الجبال المليئة بالغابات، شاهدنا عدّة قرى، يُسمونها دُرلة، ورأينا قلعة فيها أدوات حربية ومدفيعات إلى جهة الغرب على مسافة بعيدة.

أرض المنطقة زاحفة بشكل طبيعي نحو البحر، هذا البوغاز وقراه تشبه كثيراً بوغاز الإسكندرية وقراه، لاحظنا ثلاث سفن كبيرة وصغيرة على مقربة من المرفأ، كانت أكبرها رودي، وقد استحدثوا ليமானاً وسط الماء، كي تبقى السفن في أمان من طغيان البحر.

حين بلغنا مرساة إزمير، ومكثنا فيها، لحق بنا محمّد خان القنصل، والمترجمون والأعاجم الذين كانوا قدموا من مسافة بعيدة لاستقبالنا، تلاطفت معهم؛ ثمّ جاء أحد الباشاوات من قبَل مدحت باشا حاكم إزمير؛ ومن بعد، جاء مدحت باشا نفسه ببذلته الرسمية، وعليه نيشان تمثال الهمايون⁽¹⁾ الذي مُنح له في سفره إلى العتبات العاليات، والنيشان العثماني ووشاحه، فجلسنا معه للحديث، فأخذ وعداً منّي أن أحضر إلى بيته أنا ونجلاي ومعالي مُلاً باقر الواعظ.

أعدّوا العساكر والفرقة الموسيقية قرب العمارة لأداء التحية العسكرية، وأطلقوا إحدى وعشرين قذيفة مدفعية.

دخلنا السراي الحكومي، ثمّ ذهبنا مساء للتجوال في مصيف بورون

(1) نيشان تمثال الهمايون: من الأوسمة المعتبرة التي كانت تُمنح في العصر القاجاري. (المترجم).

آباد، فيه حدائق أنيقة، ومكثنا الليل في بيت مدحت باشا، فقام برسم الخدمة في غاية الاحترام، لقد كانت ليلة ممتعة.

إزمير

تقع مدينة إزمير في الجنوب الغربي، يُسمِّيها اليونانيون سَمِيرْنَا، فيها ثلاثة أحياء، ويبلغ عدد سكَّانها مئتي ألف نسمة، معظمهم من الروم الذين يشتركون مع الروس في المذهب، يقطعون الأميال الأربعة مسافة المدينة حتَّى مصيف بورون آباد بالقطار، فيصلونها في غضون عشر دقائق، تكثر فاكهة اليوسُفي والحمضيات، لا سيَّما الليمون الحامض.

شاهدنا أشجار سرو متناسقة عُرسَتْ في المقابر على الطريقة الإفرنجية، وبنَّوا حوانيت ومقاهٍ على طرف الشارع، يقد إليها الرجال والنساء للجلوس والاستمتاع.

قامت الشركة الفرنسية بمَدِّ وتعبيد الشارع بطول نصف فرسخ بعد أن جفَّفت قرابة ثلاثين ألف ذراع من البحر، وأبرموا عقداً مع الحكومة العثمانية ينصُّ على ملكيَّة الشارع للشركة حتَّى خمسين عاماً، ومن ثمَّ تنتقل ملكيَّته للحكومة.

أنشأت الشركة الفرنسية سكة الحديد بخطَّين، أحدهما يستغرق سبع ساعات، تنتقل ملكيَّته إلى الحكومة بعد سبع سنوات بعد دفعها للشركة مائة وخمسين ألف ليرة كلَّ سنة، والمتبقي ثلاث سنوات. والآخر يستغرق ستَّ ساعات، وكانت الطريق وَفَّق الاتِّفاق تستغرق ثلاث ساعات، على أن تُسدِّد الحكومة أربعين ألف ليرة إلى الشركة سنوياً، وقامت الحكومة ببناء الساعات الثلاث الأخرى من خزينتها، وتسديد

أربعين ألف ليرة للشركة مقابل التقليل من مدّة العقد، لتصبح خمسة عشر عاماً، انقضت منها ستّة أعوام، ولم يبق سوى تسعة.

سوق المدينة هو سوق الأوروبيين الذين أتقنوا صنعه، وفي المدينة يتواجد القناصل من شتّى أصقاع العالم.

يوم السبت، السادس والعشرون من ربيع الأوّل، ذهبنا مساءً لجولة في السوق ثمّ عدنا إلى السفينة، أحضروا العساكر والفرقة الموسيقية، وقاموا بإطلاق القذائف، شأنهم شأن يوم القدوم، ودّعنا مدحت باشا، وانطلق الوابور قبيل الغروب بثلاث ساعات متّجهين إلى إسلامبول على بُعد ثلاث مئة وسبعة وستين ميلاً بريطانيا.

في الطريق شاهدنا جرّراً عديدة، وموانئ كثيرة، مكثت سفينتنا أوّلاً في جزيرة مي تي لين، وقد بلغناها بعد خمس ساعات مضيّة من الليل، يُسمّيها العثمانيون مِدِلِّو ومِدِلِّي⁽¹⁾، أضواء فنار أخضر وآخر أحمر واضحة عند الطرف الشرقي لهداية السفن، رست السفينة لساعتين، فقاموا بإفراغ حمولة كثيرة من السفينة، وحملوا ذبائح الغنم لإسلامبول. يكثر الزيتون في الجزيرة التي تتألف من أربع وعشرين قرية وميناء، ويبلغ عدد سكّانها نحو ثلاثين ألف نسمة. تقع على يسارها جزيرة صغيرة وجميلة وسط خليج إزمير، اسمها أوزان آذا.

وثانياً مكثنا في جزيرة باغشة آواسي التي تُسمّى أيضاً بوغشة آواسي، وثالثاً توقّفنا في جزيرة كليد البحر، ورابعاً في تشاناق قلعة⁽²⁾، وخامساً في قوم قلعة، وتُسمّى في اليونانية تِنِدوس التي يكثر فيها العنب، وسادساً في كليّ بولي.

(1) مِدِلِّي: من الجزر اليونانية. (المترجم).

(2) تشاناق قلعة: أو مدينة تشاناق كالي. (المترجم).

ما أسميناه إلى الآن من مجموعة الجزائر كان في بحر آرشي بيكلر،
وهناك جزر مررنا بمحاذاتها دون التوقُّف فيها، وما لم تتمَّ مشاهدته،
لم نتطرَّق إليه، ثمَّ ندخل البحر الأبيض.

باغشه آواسي

يوم الأحد، السابع والعشرون من ربيع الأوَّل، وبعد مضي ساعتين
ونصف من النهار، وصلنا إلى محاذاة باغشة آواسي، فمكثنا فيها لساعة.
كانوا قد امتدُّوا بالمرفأ إلى الأمام باستخدام الحجارة، ولم تكن مرتَّبة أو
مسطحة، وقُبَّألتها وضعوا فناراً أعلى صخرة مرتفعة.

تقع الجزيرة في الجنوب الغربي، على يسارها ثماني طواحين هواء،
وثلاث إلى جهة اليمين، وفيها ثلاثة جوامع، بيوت الأهالي متناثرة على
السفوح، وعلى رأس جبل، تريض قلعة حراسة، قلعة المدفعية بُنيت
على أرض مرتفعة وسط الماء مقابل باب الشَّمال الشرقي، شاهدنا
ستَّ مدفيعات، وعشر مدفيعات في موقع آخر.

يُسْمُون المسافة الواقعة بين باغشه آواسي والقمة المشرفة كيب
باب، والكيب تعني القمة، بعد ميل من هناك شاهدنا صخرة عظيمة،
تتجنَّبها السفن درءاً للخطر.

قُبيل الغروب بخمس ساعات، توقَّفت سفينتنا في شاناق قلعة،
وقُبيل الغروب بساعتين ونصف، وصلنا محاذاة كلي بولي جهة الشَّمال،
وتقع بداية بوغاز الدردنيل، والمدينة من المُدن المعبرة التي بُنيت في
مكان مرتفع.

مدينة ممتدة المساحة، فيها عمارات عالية، وجوامع عديدة، شاهدنا
عدّة سفن قد رست على مقربة من المرفأ، تبلغ المسافة من كليّ بولي
حتّى البوغاز فبحر مَرْمَرَة مئة وعشرة أميال، وحتّى إسلامبول مئة وأربعة
عشر ميلاً.

من جزيرة مي تي لين حتّى كليّ بولي لم تخرج حركة السفينة عن
جهتي الشّمَال أو الشّمَال الشرقي، كان المسير من كليّ بولي حتّى
بوغاز إسلامبول في بحر مَرْمَرَة.

إسلامبول

يوم الاثنين، الثامن والعشرون من ربيع الأوّل، رست السفينة عند
الصباح الباكر في بوغاز إسلامبول.

في البدء، جاءني مُستقبلاً على متن السفينة معالي معين المُلك
السفير الكبير، ثمّ تلاه منير بيك وخليل بيك من قِبَل حضرة جلالة
السلطان، جلسنا هنيهة حتّى تمّ تجهيز الزوارق، ثمّ قصدنا المدينة.

في أثناء الطريق، كنتُ قد أبرقتُ لمعالي معين المُلك، وأخبرتهُ
أني أريد أن أتقلّ بحُرّيتي عند وصولي إسلامبول، فذهبتُ أنا والأمراء
ومعالي الحاجّ مُلاً باقر الواعظ برفقة معين المُلك إلى السفارة، فنزلتُ
فيها، ونزل الأتباع والطاقم في منزل قريب، وطوال أيّام مكوثنا في
إسلامبول كنّا ضيوفاً عند معين المُلك الذي أحسنَ ضيافتنا.

يوم الثلاثاء، التاسع والعشرون من ربيع الأوّل، قضيناه في السفارة،
أوّل الليل حضر لزيارتنا معالي منيف باشا، فكان لنا معه حديث، ثمّ
انصرف.

يوم الأربعاء، عُرِّدَ شهر ربيع الآخر، جاءني زائراً كلُّ من حسام الدين أفندي، والد معالي فخري بيك السفير الكبير في الحكومة العثمانية، وناشد باشا، فجلستُ معهما للحديث، وقبل الغروب بأربع ساعات، استقلَّيتُ العربة قاصداً بيك أوغلي، فابتعتُ بعض البضائع.

يوم الخميس، الثاني من ربيع الآخر، قضيناه في السفارة، وحضر لزيارتنا بعض من منتسبي جلالة السلطان؛ تحدَّثنا معهم، ثمَّ انصرفوا.

يوم الجمعة، الثالث من ربيع الآخر، استدعيتُ إلى السفارة شخصاً فرنسياً ماهراً في معالجة الأسنان، اقتلع ثمانية من أسناني المنخورة في غضون دقائق، بحيث لم أتألم كثيراً، وخلال أيام سيعمل على تركيب الأسنان الصناعية.

يوم السبت، الرابع من ربيع الآخر، كنتُ في السفارة، فجاءني معالي رضا بيك السفير الكبير السابق؛ فتجاذبنا أطراف الحديث، كان رجلاً شيعياً من أهل العلم والكفاءة.

يوم الأحد، الخامس من ربيع الآخر، أخبروني بدعوة جلالة السلطان. عند الغروب، أحضروا عربتين من خاصَّة عربات السلطان مع مرافق خاصٍّ، كي يأخذني إلى جلالته، فنقضني الليل، وتناول العشاء في حضرته.

قصدنا العمارة السلطانية والأمراء، برفقتي إضافة إلى معين المُلْك، وثلاثة من طاقم السفارة، هم الحاجُّ ميرزا نجف خان القنصل، والميرزا جواد خان المستشار، والميرزا رضا خان المترجم.

بلغنا سراي جلالته يلديز، وبعد أن قاموا بمراسيم الاستقبال على الطريقة السابقة، حضر جلالة السلطان، وهو يحمل نيشان حكومة إيران

العَلِيَّةُ لاستقبالنا، فقامتُ بتبجيله وتفخيمه، وشكرتُ الله على منحي فرصة ثانية للقاء جلاله سلطانه.

دخلنا جميعاً إلى القاعة مع حضرته، ثمَّ أذن لنا بالجلوس، فأجلسني على مقربة منه، وتفقدَّ أحوالي؛ وبعد دقائق، ذهبنا إلى طاولة الطعام وكلُّ وزراء الحكومة ووكلائها كانوا حاضرين. كان ترتيب الجلوس بشكل حفظوا فيه مكاتي أنا والأمراء مع كثرة الحاضرين.

أصبح جانب من الطاولة صدرأ، بسبب جلوس جلاله السلطان، والجانب الآخر بسبب جلوس نجل جلاله السلطان، وباقي الحضور على طرفيَّهما.

كنتُ أنا في طرف جلاله السلطان. بعد تناول العشاء، بقيتُ أنا ومعالي معين الملك لساعتين عند جلالتة، فتطرَّقنا لأمرٍ حول توطيد علاقة الحكومتين العليتين، واختتم المجلس بانسباط وهناء.

يوم الاثنين، السادس من ربيع الآخر، بقيتُ في السفارة حتى المساء، إذ ذهبتُ للتفرُّج على عمارة السلطان محمد الفاتح، ثمَّ عدتُ أدراجي إلى المنزل.

يوم الثلاثاء، السابع من ربيع الآخر، حضر للقائنا الصيرفي اليوناني الذي كان رجلاً في غاية الثراء والاعتبار، وقنصل إيران في باريس الذي أوفد حينها لبحث أمور المناجم في إسلامبول.

كان الصراف اليوناني رجلاً سمح الخلق، وكذلك القنصل الموقد من باريس، كان يقول إنه سيعود ثانية إلى باريس لتداول أمور سكة الحديد التي يقومون بمدّها من إيران إلى القفقاز، لم أكن على علم بصدق الخبر من كذبه، ولم أكن على اطلاع بالأمر.

ثمَّ جاء لزيارتي رجل فرنسي من منتسبي السلطنة العثمانية، ومراسل جريدة شمس لندن، وثلاثة من اليابانيّين، واستناداً لقولهم كانوا قادمين من إيران، ويقصدون الآن بلدانهم، وكلُّهم كانوا حاضرين وقت الغداء في السفارة.

بعد تناول الغداء، حضروا عندي في الطابق العلوي؛ فتحدّثتُ معهم، وعندما أحضروا الشاي لم يشربه اليابانيون، بسبب حلاوته، وذكروا أنهم في اليابان يعدُّون الشاي بطريقة لا تحتاج إلى السُّكَّر، فأمرتُ بإعداد الشاي على طريقتهم، لكي نرى كيف يكون.

جاؤوا بسَمَاوَر⁽¹⁾ فضيٍّ من السفارة، ووضعوه على الطاولة، ثمَّ طلبوا أربعة أو خمسة أباريق شاي؛ وبعد أن غلى ماء السَمَاوَر، قاموا بإفراغه في الإبريق الأوَّل، ومن الأوَّل في الثاني، وهكذا دواليك حتَّى الرابع، بعد ذلك أفرغوه في الإبريق الخامس، وفيه الشاي، فتخمَّر، ثمَّ سكبوه في الفناجين، وشرينا.

لم يكن مُرّاً. يُشرب دون تحلية، وسبب عدم مرارة الطعم أنهم لو وضعوا الشاي في الإبريق الأوَّل، وصبُّوا الماء الساخن عليه مباشرة، لأخذ الماء الساخن لون الشاي ومرارته في آنٍ واحد؛ لكن، بعدما أفرغوا الماء من الإبريق الأوَّل إلى الثاني وحتَّى الرابع انخفضت حرارة الماء، ولم يعد بإمكانه في الإبريق الخامس إلا أن يجذب لون الشاي دون مرارته؛ فيمكن احتساؤه دون سُكَّر، وتلك بعض من عادات وتقاليد الشعوب.

بعد انصراف هؤلاء، حضرتُ لزيارتي أميرتان روسيتان، ذهب معالي معين المُلْك والميرزا جواد خان المستشار إلى الغرفة الأخرى

(1) سَمَاوَر: وعاء معدني يُستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي، يُستخدم في روسيا وأوروبا الشرقية وبلدان الشرق الأوسط. (المترجم).

لاستقبالهما، فأخذا بأيديهما، وأجلساهما على المقاعد جانبا، كاتنا
تحدثان بالفرنسية ومعالي معين المُلْك يقوم بمهمّة الترجمة، إحداهما
عجوز، والأخرى شابة، لكنّ كليهما كاتنا بشوشتين صبيحتي الوجه،
جلستا لساعة، ثمّ انصرفتا.

يوم الأربعاء، الثامن من ربيع الآخر، بقينا في السفارة. جاء الفرنسي
خبير الأسنان، فقام بتركيب أسناني الصناعية، بتنا الليلة بتلك الأسنان
حتى تستقرّ في موضعها بشكل جيّد، كان قد صنعها دون نوابض، كي
لا تُحدث أذى، الطبقة السفلى كانت مُحكّمة الثبات، أمّا العليا، فلم
تستقرّ في موضعها كما ينبغي، فسقطت حين الصلاة، وكنتُ مشغولاً
بالتسيّحات الأربعة، فضحكتُ كثيراً.

يوم الخميس، التاسع من ربيع الآخر، جاءنا الحاجّ محمّد باقر
التاجر الأصفهاني المقيم في إسلامبول، وأحضر معه أصنافاً متنوّعة
من المجوهرات، فتفرّجنا عليها، وعائناها.

واليوم كان معالي معين المُلْك قد استأذني، لنذهب سوياً
للمصيف في عمارة يالي التي ابتاعها من أحد الباشاوات، جلسنا في
وابور معالي معين المُلْك، وسرنا في البوغاز حتى وصلنا إلى عمارة
معين المُلْك.

كانت عمارة جميلة ذات بهاء وصفاء، تتوفّر فيها كلُّ أسباب الراحة
من أثاث وأدوات، ابتاعها كلّها بعشرة آلاف تومان، فيها غرف مرتبة
وجنينة وحمام.

وبينما كنّا بالعمارة تلقينا نبأ وفاة الميرزا يعقوب خان، والد الميرزا
ملكّم خان، ثمّ دار الحديث بيننا حول مذهبه، فقال معين المُلْك إن

الميرزا يعقوب خان اختار المذهب الشيعي، وقد أوصى أن يدفونه في مقبرة المسلمين.

يوم الجمعة، العاشر من ربيع الآخر، كنتُ في السفارة، وصلتني بعض المكاتيب من طهران، فمنذ مدة لم أكن على اطلاع بأحوال الأهل والمعارف، كنتُ مشتاقاً لأخبارهم، فسُرتُ، وابتهجتُ بوصولها.

يوم السبت، الحادي عشر من ربيع الآخر، وصلتني برقية الأمير أبي الفتح ميرزا⁽¹⁾ من كردستان، أخبرني في ثنايا برقيته عن نظم أمور الولاية، وفي مقدمتها التزام الشيخ عبید الله⁽²⁾ أمر كردستان باستقرار الولاية ودفع الأموال المُستحقة للدولة، فكتبتُ جواباً، ضمَّنتُهُ شكري له، وأبلغتُهُ ودي واحترامي إلى حضرة النائب العالي أفسر الدولة دامت شوكتها.

في المساء، ذهبتُ للقاء معالي منيف باشا، فجلستُ عنده حتى الغروب، وبعد ذلك عدتُ أدراجي إلى المنزل.

يوم الأحد، الثاني عشر من ربيع الآخر، بقيتُ في السفارة، وجاءني خبير الأسنان لفحص أسناني، لكنه هذه المرة أخذ قياس الأسنان، بواسطة قالب من الشمع، وأخذ معه طقم الأسنان حتى يُعيد تصنيعه، بحيث لا يسقط مرةً أخرى.

يوم الاثنين، الثالث عشر من ربيع الآخر، كنتُ منشغلاً بتحريرات

(1) الأمير أبو الفتح ميرزا: من أبناء المؤلف. (المترجم).

(2) الشيخ عبید الله النهري، هو الزعيم الروحي للقبائل الكوردية، وقد تمَّ تعيينه كقائد للقوات القبلية الكوردية من قبل السلطات العثمانية إبان الحرب الروسية التركية عام 1877-1878، وقام بأكبر ثورة تحررية كوردية ضدَّ إيران، ولكنها أخفقت، وتمَّ القبض على الشيخ، وتحت الضغط الدبلوماسي الأوروبي تمَّ نفيه إلى إستانبول أولاً، وبعد محاولة فراره والقبض عليه، تمَّ نفيه إلى الحجاز، حيث مات هناك. (المترجم).

طهران، فكتبْتُ عريضةً إلى جلالَةِ الملك، روحنا فداه، ثمَّ بلَغْنَا مساءً خبر مقتل إمبراطور الروس، واليوم يوافق عيد ميلاد ملك إيطاليا، فاجتمعت دواعي السرور والحزن في يوم واحد. جاءني اليوم زائراً كُلُّ من الشريف عون، والمتصرِّف باشا، وياور أكرم، فتجاذبنا أطراف الحديث، ثمَّ انصرفوا.

يوم الثلاثاء، الرابع عشر من ربيع الآخر، قضينا اليوم بالاستراحة، فحضر عندي عبد الله باشا، وغادر بعد أن أجرينا حديثاً معه، ثمَّ انشغلتُ بقراءة الكُتُب.

وصلتني برقية من معالي نائب السلطنة أمير كبير ووزير الحرب، روحي فداه، أبلغنا بحديث جلالَةِ الملك على أننا وإن كنا وصلنا إسلامبول متأخرين، لكننا وصلنا في الوقت المناسب، وقال إن علينا برفقة معالي معين المُلْك السفير الكبير التباحث مع الباب العالي في قضية نفي الشيخ عبيد الله، والعمل على إتمام الأمر، لهذا عليكم المكوث لأيام أخرى في إسلامبول.

يوم الأربعاء، الخامس عشر من ربيع الآخر، حضر معالي وهاب أفندي مستشار العدالة، ثمَّ تبعه معالي عاصم أفندي وزير الخارجية، فتشاورنا وتبادلنا الرأي مع وزير الخارجية في قضية نفي الشيخ عبيد الله واعتداءاته وارتكابه للقتل، ليعرضها على جلالَةِ السلطان، ثمَّ غادر.

يوم الخميس، السادس عشر من ربيع الآخر، كان الجوُّ بارداً، وتساقطت الثلوج، ومساءً جاءني معالي سعيد باشا الوكيل، وهو رئيس الوكلاء؛ فتحدَّثْتُ معه في موضوع نفي الشيخ عبيد الله وتجاوزاته، وما قام به من سفك للدماء، ليلبغ جلالَةَ السلطان بالأمر.

يوم الجمعة، السابع عشر من ربيع الآخر، مكثنا في السفارة، كان معالي معين المُلْك قد قام بدعوة وكلاء الحكومة العثمانية لمأدبة العشاء، فاعتذر معالي سعيد باشا الوكيل عن الحضور بسبب أمر طارئ، لكنَّ كلَّ الأعيان والوكلاء قد لبَّوا الدعوة، كانت مأدبة عظيمة راقت للجميع.

يوم السبت، الثامن عشر من ربيع الآخر، قضينا اليوم في السفارة، بلغتنا بعض البرقيات من الأهل والأحباب في إيران، فقمنا بالردِّ عليها.

يوم الأحد، التاسع عشر ربيع الآخر، كان يوم رأس السنة الإيرانية الجديدة⁽¹⁾، قبل تحويل السنة، ذهبتُ برفقة معالي معين المُلْك للقاء معالي سعيد باشا، فتكلَّمْتُ معه حول مغادرتنا وإتمام الاستعدادات، وحمَّلتُهُ رسالة لجلالة السلطان، كي يستأذن لي من جلالتِه، وعند ساعة تحويل السنة، كنتُ في السفارة برفقة معالي معين المُلْك والأمراء، انعقد المجلس بسرور وحبور، إلَّا أنني تأسَّفتُ كثيراً، لأنني لم أحظ هذه اللحظة بشرف الحضور في بلاط عالي المقام لجلالة السلطان⁽²⁾.

يوم الاثنين، العشرون من ربيع الآخر، حضر التجَّار من أتباع الحكومة الإيرانية العليَّة في السفارة، فوقفوا في الغرفة الكبيرة، معالي معين المُلْك وطاقم السفارة كانوا حاضرين ببذلاتهم الرسمية، فهنَّأناهم بالعيد فرداً فرداً، وتلاطفنا معهم، ثمَّ انصرفوا.

يوم الثلاثاء، الحادي والعشرون من ربيع الآخر، حضر مساء معالي منير باشا، وقد أحضر معه هدايا لجلالة السلطان العثماني، وكانت

(1) التَّوْرُوزُ، أو النَّيْرُوزُ، هو عيد رأس السنة الفارسية، ويوافق يوم الاعتدال الربيعي، أي الحادي والعشرين من مارس في التقويم الميلادي. (المترجم).

(2) ناصر الدِّين شاه. (المترجم).

علبة سجائر مرصعة، وبنديقية، ومسدسين ذوي خمس طلاقات من النوع الفاخر، هذا ما تكرر به علينا جلالته، وثلاث علب أنفية⁽¹⁾ مرصعة مهداة إلى سليمان ميرزا، وأبي النصر ميرزا، ومحمد ميرزا⁽²⁾، وقد حملته رسالة حول الشيخ عبید الله، فحواها إحضاره إلى إسلامبول، كما أخبرنا جلالة السلطان بأنه سيرسل رسولاً معنا للتشرف بلقاء جلالة ملك إيران، وتسليمه رسالة منّا.

قدّمتُ مراتب شكري وتقديري لجلالته على ما أجزل علينا من الهدايا والعطايا التي رفعت من شأننا.

يوم الخميس، الثالث والعشرون من ربيع الآخر، مكثنا في السفارة، كان الجو غائماً، ثم هطلت الأمطار بشدة، حالت دون خروجنا.

يوم الجمعة، الرابع والعشرون من ربيع الآخر، جلستُ مساءً في العربة برفقة معالي معين الملك، وذهبنا بجولة إلى كاغذ خانه الواقعة خارج المدينة، بلغناها بعد مرورنا من بيك أوغلي واجتياز مسافة، فكانت خلابة المنظر، بديعة الأجواء لما يتخللها من أودية مشجرة، ومياه جارية، فهي متنزة، يقصدها سكان إسلامبول أيام الأحاد.

يوم السبت، الخامس والعشرون من ربيع الآخر، حضر للقائنا مساءً معالي الوزير المختار⁽³⁾ الروسي، فجلسنا للحديث معه، وجاء طبيب الأسنان في المساء ومعه الأسنان الصناعية، فأحکم تثبيتها، كذلك حضر الميرزا يوسف آغا المجتهد، فودّعنا وغادر إلى أذربيجان.

(1) أنفية: زجاجة يُوضع فيها نوع من المواد العطرة، يتم استخدامها بالشم. (المترجم).

(2) سليمان ميرزا، وأبو النصر ميرزا، ومحمد ميرزا، كلهم أبناء المؤلف. (المترجم).

(3) الوزير المختار الروسي: رتبة سياسية وإدارية أقل من السفير وأعلى من القنصل، بمستوى قائم بالأعمال. (المترجم).

يوم الأحد، السادس والعشرون من ربيع الآخر، ذهبْتُ برفقة معالي معين المُلك للقاء السفراء، أولاً ذهبنا لسفارة حكومة روسيا البهية. كان الوزير المختار حاضراً، وكان على موعد في البرلمان، اعتذر منَّا بأدب، وقال إن المنزل هو منزلكم، وستتولَّى الأميرات الروسيات من أقاربي ضيافتكم، وغادر.

قمتُ ومعالي معين المُلك بجولة في غرف السفارة، كانت في غاية التميز والتزيُّن، ثمَّ خرجنا وقصدنا سفارة الحكومة البريطانية البهية، لم يكن الوزير المختار حاضراً، فقد ذهب لاجتماع المجلس، فتركنا له بطاقة.

ولمَّا علمنا أن باقي السفراء ذهبوا لاجتماع المجلس، سلَّمنا بطاقتين إلى مرافق معالي معين المُلك، ليُرسلهما إلى سفارتي الحكومة الفرنسية والإيطالية، وذهبنا مع معين المُلك إلى كاغذ خانه.

كان المناخ معتدلاً، والأجواء مواتية، فاستمتعنا بجولتنا وسط الجموع الغفيرة من الناس رجالاً ونساء الذين كانوا يتجولون بحُرِّية يوم نزهتهم، فالיום هو الأحد، ومع ذلك، كان الازدحام في غاية النظم والرتابة.

يوم الاثنين، السابع والعشرون من ربيع الآخر، حضر للقائنا سفراء الدول الصديقة، بريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

يوم الثلاثاء، الثامن والعشرون من ربيع الآخر، أعدنا الكَرَّة مرَّةً أخرى، فذهبنا مساءً للتجوال في كاغذ خانه، برفقة معالي معين المُلك والأمراء.

يوم الأربعاء، التاسع والعشرون من ربيع الآخر، قضينا اليوم في

السفارة، وعند المساء وفي أثناء تجوالنا في الجُنَيْنَة، بلغنا أن جلالة السلطان طلبنا أنا والأمراء للحضور عنده غدًا الخميس بعد أربع ساعات من النهار، كي يُودَّعنا ويُسيِّرنا، وقد قاموا بإحضار سفينة خاصَّة بأمر جلالته، لتُوصِلنا إلى بوتي⁽¹⁾، فوعدناهم بالحضور.

يوم الخميس السَّلخ، وبعد مضي أربع ساعات ونصف من النهار، ذهبتُ برفقة معالي معين المُلك والأمراء نحو عمارة السلطان، فتشرَّفنا بالحضور عند جلالته، فالتفت إلينا، وبجَّلنا كسابق عهده، وقام بتعريف سليمان باشا المساعد الأكرم الذي تمَّ تعيينه كموفد إلى دار الخلافة⁽²⁾، ونظرًا لعدم استعدادي التامَّ للانطلاق، استأذنتُ من جلالته بالانطلاق يوم الاثنين المقبل، فقبَّل جلالته، وأخبرنا أنه ربَّما يطلبنا للقاء آخر.

مضى يوم الجمعة، عُرَّة جُمادى الأولى في السفارة، حضر عندنا السفير الألماني مساءً؛ فتحدَّثنا معه، ثمَّ ذهبتُ بجولة مشياً راجلاً حول السفارة وصولاً إلى الباب العالي، دخلتُ من الباب المتَّجه شرقاً، وخرجتُ من الباب المتَّجه شَمالاً، وكان رئيس الكُتَّاب واثان من الخدم برفقتي.

يوم السبت، الثاني من جُمادى الأولى، قرَّر معالي معين المُلك أن نكون ضيوف الحاج نجف قلي القنصل في عمارة يالي، جلس الأمراء وطاقم السفارة في الوابور الكبير، وانطلقوا، وجلستُ أنا ومعالي معين المُلك ومُحمَّد ميرزا ورئيس الكُتَّاب في الوابور الصغير الخاصَّ بمعالي معين المُلك، والذي يُعرَف بالفأر.

(1) بوتي: هي مدينة جورجية، تقع في غرب البلاد على ضفاف البحر الأسود، وتعتبر ثالث أهم ميناء في البلاد. (المترجم).

(2) دار الخلافة: كانت طهران تُسمَّى دار الخلافة في العصر القاجاري. (المترجم).

بعد قطع مسافة سمعنا صوتاً غريباً صدر من الوابور، فسأل معين المُلْك القبطانَ، فلم يذكر شيئاً خوفاً من التأييب، وقام بزيادة السرعة حتَّى نصل الوجهة مبكراً قبل أن يتَّضح العيب.

قُبيل عمارة يالي بنصف ساعة، وفي باحة البوغاز، انكسر قدر البخار من شدَّة الحرارة، فخرج منه البخار، وأصاب وجوه الخَدَم والطاقم، وسقط في وسط المياه، ولم يعد البخار يُسير الوابور، لينطلق كالعادة، ولا مجاديف للتجديف، وصارت الريح تلعب بمسيرنا ومصيرنا، فارتعبنا جميعاً، وكاد الوابور أن يغرق من تموج المياه، وفي إحدى المرَّات، حملتنا الرياح إلى شاطئ البوغاز، ثمَّ أعادتنا إلى مكاننا، وعندما وصل الوابور قُبالة الشاطئ، أراد إمام قلي الخادم أن يصل إلى اليابسة، فألقى بنفسه في الماء، وسارع الذين كانوا على الشاطئ بالأخذ بيده، وإنقاذه من الغرق.

بعدما دفعت المياه الوابور ثانية قريباً من الساحل، قام الذين شاهدوا حالة الوابور، وعلموا بعطله بإحاطته بقواربهم من كلِّ جانب، لتثبيته.

تركنا الوابور أنا ومعين المُلْك والطاقم، وجلسنا في الزوارق، وأكملنا وجهتنا إلى عمارة يالي، فبحمد الله ومَنه نجونا من هذه الحادثة.

يوم الأحد، الثالث من جُمادى الأولى، غادرنا السفارة قاصدين مقبرة أبي أيُّوب الأنصاري، للمقبرة طريقان، إحداهما عبر اليابسة، والأخرى عبر البوغاز.

سرنا عن طريق اليابسة، استغرق الوقت ذهاباً وإياباً مع مكوثنا لعشرين دقيقة ساعتين.

مقبرة أبي أيُّوب الأنصاري

تقع غرب شَمال إسلامبول، للمقبرة صحن، وبقعة ممتَّعة قليلاً، غرسوا فيها ثلاثاً من أشجار الدُّلب، وحولها رواق طويل، ثمَّ بقعة مرَّبعة إلى اليمين مُزَيَّنة بالقيشاني، فيها ضريح خشبي، واثنَا عشر شمعداناً فضياً، وعدد من القناديل المعلَّقة.

بُني الضريح من قَبَل السلطان سليمان خان الثالث عام 1208، وقد حُفرت بئر عند يسار البقعة، يبلغ عمقها ما يقارب الثلاثة أو الأربعة أذرع؛ يستخدمون ماءها للاستشفاء تبرُّكاً بأبي أيُّوب الأنصاري أحد صحابة رسول الله الذي كان حاضراً في بيعة العَقَبَة، وشارك في عدد من غزوات النبي، عليه الصلاة والسلام، مثل بدر وأُحُد والخندق، ومن جُنْد أمير المؤمنين علي، عليه السلام، في وقَعَتِي الجَمَل ونهروان، إذ كان في مقدِّمة الجيش في نهروان.

اسمه خالد، وهو من بني النجَّار، وافته المنية في القسطنطينية أيَّام خلافة معاوية. أقاموا مسجداً رحباً، يقوم على ستَّة أعمدة ضخمة بالقرب من المقبرة التي تقع في جانب من الصحن قريباً من الجدار، والجهات الأخرى بَنَوْا فيها ليوانات، فيها اثنا عشر عموداً.

تمَّ البناء الأصلي على يد السلطان محمَّد الفاتح، وفي عام 1250 قام السلطان سليم خان الثالث بتزيينه وإعادة إعمارهِ، فكان المهاجرون من رجال ونساء مجتمعين عند الضريح، وقد قرَّرت لهم جيرة⁽¹⁾ من قَبَل الحكومة.

يوم الاثنين، الرابع من جُمادى الأولى، قضيناه في السفارة، جاءنا مساء صيرفي معتبر، ثمَّ ذهبنا لزيارة والد معالي فخري بيك.

(1) جيرة: وتعني الراتب، أو مقداراً محدوداً ومعيناً من الموادِّ الغذائية. (المترجم).

العودة إلى إيران

يوم الثلاثاء، الخامس من جُمادى الأولى، كان الجوُّ متقلِّباً، وكُنَّا قد قرَّرنا الانطلاق.

جاءنا ليلاً منير بيك مرافقاً سلمان باشا الموفد السلطاني لدار الخلافة، فقال منير بيك: أوامر جلالة السلطان تقول نظراً لعدم إكمال أمور سلمان باشا، عليكم أن توجِّلوا الرحيل من يوم الثلاثاء، إلى أن تنتهي أعماله. فنزلتُ عند رغبته، ومكثتُ يوم الثلاثاء.

تلقينا اليوم خبراً من جزيرة ساقز، يشير إلى زلزال هزَّ غربي الجزيرة، تسبَّب بتخريب ثلاثة أرباع قراها، فبقي سكَّان الجزيرة البالغ عددهم ثلاثين ألف نسمة في حيِّرة من أمرهم، تائهين في العراء دون مَأْكَل ومَشْرَب.

قامت الحكومة العثمانية فور اطلاعها بإرسال سفينة باسم باطول حاملة الأطعمة والأدوية وخمسة عشر طبيباً وجراحاً لعلاج المصابين، وكما علمنا أن أزمير قامت بإرسال سفينة حاملة أطعمة من قِبَل الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية والحكومة العثمانية.

يوم الأربعاء، السادس من جُمادى الأولى، عقدنا العزم على الانطلاق، تغيَّرت الأجواء، وهاج البحر، فأرسل القبطان رسالة، يخبرنا فيها بأنه يفضِّل تأجيل الحركة إلى يوم غد، وقد أبرق منير بيك حول تأخير الانطلاق، بسبب طغيان البحر، وقال بأنه سيحضر لدينا لإبلاغنا

أوامر السلطان. حضر مساء، وأبلغنا بالأوامر السلطانية، وعدم الانطلاق اليوم.

ذهبنا مساء للتجوال في جُنَيْنة أحد أعيان إسلامبول الواقعة قُبالة السفارة، كانت حديقة مُنَسَّقة معتبرة، طلب صاحبها منَّا الدخول إلى العمارة، فاحتسينا القهوة، ودخَّنا النرجيلة. كان رجلاً ثرياً طلق الوجه.

يوم الخميس، السابع من جُمَادَى الأولى، انطلقنا من السفارة قُبيل الغروب بساعتين نحو البوغاز والمرفأ. حضر معالي معين المُلك وكلُّ طاقم السفارة للوداع، كانوا قد أعدُّوا وابوراً صغيراً خاصاً من قِبَل جلالة السلطان، ليُوصلنا حتَّى السفينة.

جلسنا برفقة معالي معين المُلك، ووصلنا إلى الباخرة المَلَكِيَّة، كان خَدَم البلاط السلطاني حاضرين في الباخرة، وقد جهَّزوا كلَّ متطلَّبات الضيافة وصولاً إلى بوتِي.

اسم الباخرة التي ستقلُّنا عز الدِّين، باخرة متوسِّطة الحجم، بعد هنيهة جاء كلُّ من منير بيك و خليل باشا وسرِّباور برفقة سليمان باشا الموفد السلطاني، بقي سليمان باشا ونجله وكاتب سفارة الحكومة العثمانية العليَّة الذين سيذهبون إلى طهران معنا، وانصرف الآخرون.

انطلقت الباخرة السلطانية قُبيل الغروب بساعة، متَّجهة نحو الشَّمَال الشرقي. كانت باخرة سريعة، تقطع خمسة عشر ميلاً في الساعة، إلَّا أنه وبسبب تقلُّب الأجواء، سارت بسرعة عشرة أميال، في منتصف الليل تضرَّرت إحدى جوانح عجلاتها، صارت تُصدر أصواتاً غريبة وعجيبة، قضت مضاجع الركَّاب، فأوقفوها لنصف ساعة، من أجل إصلاحها.

البراغيث تتواجد بكثافة في الباخرة، فسبَّبت لنا وللركَّاب الأذى، حتَّى بلغ بنا الضجر منها بأن نستغيث.

مَرْمَرَة

يوم الجمعة، الثامن من جُمَادَى الأولى، أصبحت الحركة نحو الغرب. عند الظهيرة بدت الشواطئ أمامنا من تلقاء الجنوب، كان الجوّ غائماً اليوم وليلته، مصحوباً بأمطار خفيفة ورياح مواتية، تهبُّ من خلف الباخرة، تزيد من سرعتها، مررنا مساءً بمحاذاة أينه بولي⁽¹⁾ التي كانت على اليمين، لتتحوّل الحركة نحو الشرق.

يوم السبت، التاسع من جُمَادَى الأولى، مررنا صباحاً من قُبَالَة سامسُون الواقعة إلى جهة اليمين. كانت الحركة تلقاء الجنوب الشرقي، واليوم أيضاً كان الجوّ غائماً، مصحوباً برياح، تكون موافقة حيناً، ومخالفة أحياناً أخرى.

مررنا مساءً من قُبَالَة طرابزون، ولم نقرب منها، فقد ارتأى القبطان عدم التوجُّه بالسفينة إليها، لُبُعد الطريق أولاً، ولاتِّقاء الأخطار التي قد تواجهه مع تقلُّبات البحر، نحن أيضاً صرفنا النظر عن زيارتها، وأصدرنا الأوامر بالإبحار مباشرة نحو بوتى.

هاج البحر ليلاً، ولحقت أضرار بعجلة الباخرة اليمنى. بعد مرور أربع ساعات من الليل، أوقفوا الباخرة، وقاموا بربط العجلة بالحبال، ثمَّ انطلقت جزافاً مع ما يحدق بها من مخاطر.

يوم الأحد، العاشر من جُمَادَى الأولى، وبعد مضي ساعتين من النهار، جاء ثلاثة قباطنة، فوقفوا أعلى العجلة اليمنى، يعاينون البحر بالمنظار. كانت حديدة كبيرة دخلت بين أجنحة العجلة، تسببت بخراب سقفها الأعلى، فجأة سقط القباطنة إلى الأسفل، ولولا رحمة

(1) أينه بولي: محافظة بولو إيلي هي مقاطعة تقع في شمال غرب تركيا، وهي عبارة عن نقطة حيوية مهمة بين العاصمة أنقرة وإسطنبول. (المترجم).

الله وتوقَّف العجلة عن الحركة وكبح جماح الباخرة، لهلكوا. قام طاقم السفينة بسحبهم إلى الأعلى بحرفة ومهارة، وبحمد الله وفضله، لم يمسسهم سوء.

لبعد طريق بوتى، ولطغيان المياه، ولتعطلُّ عجلة الباخرة، كان من المحال الإبحار نحو بوتى، ارتأوا أن يسلكوا أقرب الطُّرق، فاتَّجهوا إلى باطوم⁽¹⁾. قام القباطنة، وبمهارة وإتقان تامَّين بإيصال الباخرة إلى شواطئ باطوم، ومن ثمَّ انشغلوا بتصليح العجلة والسقف.

تمَّت عملية الإصلاح قُبيل الغروب بساعتين بمساعدة النجارين والحدَّادين المرافقين، لكنَّ، وبسبب الظروف الجويَّة المتقلِّبة لم يروا من الحكمة الانطلاق في هذا الوقت.

في هذه الأثناء حضر إلى متن السفينة كلُّ من المهندس فتحعلي خان الإيروانى من خَدَم الحكومة الروسية والمقيم في باطوم، ورجل آخر من أصحاب الرتب والمناصب، فاستفسرا إن كُنَّا ننوي الذهاب إلى باطوم، كي يحضرا لنا زورقاً، فأخبرناهما بأننا متى شئنا ذلك، فسنستقلُّ الزورق الخاصَّ بباخرتنا.

ثمَّ جاء شيخ التجَّار العثمانيِّين، وأخبرنا بقدم الحاكم وكبار رجاله لزيارتنا. وبعد خمس ساعات من النهار، حضروا لدينا، والتقىنا بهم، ثمَّ انصرفوا. بعد مغادرتهم، حضر القنصل الفرنسى ببذلته الرسمية، وغادر على عجل.

لقد مَنَّ الله بلطفه على ركبَّاب السفينة، وأنجاهم من تلك الحادثة، فلم يلحق بهم أذى، ولقد كان للقباطنة دورهم في تجنبنا كارثة، كادت أن تحلَّ بنا، لولا مهارتهم واحترافهم.

(1) باطوم: هي عاصمة مقاطعة أجاريا في جورجيا. (المترجم).

وصف باطوم

باطوم ميناء صغير ذو مرسى جيّد، وإلى يساره يقع نهر شوروق، ويبعد عنه مسافة خمسة أميال، وهو بين أرض روم وباطوم، وإلى جهة اليمين، وعلى مسافة عشرة أميال نهر تشولوك الذي يُعدُّ من ثغور الدولة العثمانية مع الروس، ويقع بين بوتى وباطوم، والمسافة بين باطوم وبوتى تبلغ اثنيْن وثلاثين ميلاً. سفينتان كبيرتان تعملان على الديرز، وعدّة سفن صغيرة كانت قد رست على مقربة من المرفأ، وهنالك سفينة كبيرة متّصلة بالمرفأ، كانوا منشغلين بتحميلها.

تكثر العمارات ذات الرونق الجميل في باطوم التي تبدو ذات حضارة ومدنية، وديانها خضراء غنّاء كثيفة الأشجار. المدينة كانت ملكاً للدولة العثمانية سابقاً، انتقلت ملكيّتها إلى الروس في الحرب الأخيرة.

المسلمون القاطنون قد هاجروا المدينة تدريجياً، وقد أمهلتهم الحكومة خمس سنوات للمغادرة، مضت ثلاث منها، وكلُّ مَنْ يبقى بعد سنّتين سيخضع لأحكام القانون الروسي، وسيُعامل معاملة الرعايا الروس. هذه الباخرة السلطانية التي جاءت بنا إلى هنا ستقلُّ مَنْ أراد المغادرة من المهاجرين عند عودتها.

كان من المقرّر اليوم الذهاب لجولة في مدينة باطوم وزيارة حاكمها، وأحضروا فرساناً وعساكر؛ إلا أن حالة الطقس وشعورنا بالتعب حالاً دون ذهابنا.

يوم الاثنين، الحادي عشر من جمادى الأولى، مكثنا على مقربة من باطوم، فأصبتُ بألم في البطن، سكن بعد تناول الدواء. ذهبْتُ مساءً للقاء حاكم باطوم بعربة خاصّة، كانت في انتظاري عند المرفأ، واصطفت مجموعة من العسكر عند وصولي، وكان الحاكم في استقبالي.

دخلنا إلى منزله، وجلسنا للحديث، وكانت امرأته حاضرة، احتسينا الشاي، وتناولنا البرتقال ومُرَبِّي البرباريس. له طفل أحضره المجلس، داعبناه، ثمَّ عدنا أدراجنا.

مرساة بوتِي

يوم الثلاثاء، الثاني عشر من جُمَادَى الأولى، بعد ساعتَيْن من الدسّة، بلغنا مرساة بوتِي، سلّمنا القبطان رسالة كتبناها إلى جلالة السلطان، فحواها رضانا عن الرَبَّان والطاقم. ترجّلنا من الباخرة السلطانية، وجلسنا في زورق. في غضون نصف ساعة وصلنا إلى مرسى بوتِي، وصعدنا إلى السفينة الروسية.

لم يكن مرسى بوتِي بذلك الامتياز، فلا تستطيع السفن الراسية الاقتراب أكثر من المرفأ؛ لهذا أعدّوا سفينة صغيرة، تعبر النهر، وتقف في عرض البحر، على مسافة نصف ساعة من السفينة الراسية، فيقومون بإنزال ركبّاب السفينة، وتفريغ الحمولات من السفن الكبيرة إلى زوارق تنقلهم إلى السفينة الصغيرة، وهذه تنقلهم إلى المرفأ، وغالباً ما تكون هذه العملية عرضة للأخطار، وفي الليل، لا يُسيرون السفن في مرساة بوتِي، ولا في النهر احتياطاً.

الحمد لله، عند وصولنا اليوم، وقبل أربع ساعات من الغروب، لم يكن البحر هائجاً؛ فانتقلنا نحن والبضاعة إلى السفينة الروسية الصغيرة بلا قلق أو ضرر.

كانوا قد أرسلوا لضيافتنا قبل خمسة أيّام من تَبْلِيْسِي⁽¹⁾ الميرزا مصطفى من منتسبي الميرزا فتحعلي آخونداف، وهو يتقن الفارسية، كان حاضراً في السفينة مع رئيس السفن ومشرف الفنار وقنصل بوتِي

(1) تَبْلِيْسِي: عاصمة جورجيا، وأكبر مُدُنْها، تقع على ضفاف نهر كورا. (المترجم).

الذي كان من أرامنة إيروان ببذلاتهم الرسمية، وبرفقة السيّد علي عامل الحاجّ محمّد حسن أمين الضرب⁽¹⁾ الذي كان متّجهاً إلى بطرسبورغ، باركوا قُدومي، فتلاطفت معهم.

انطلقت السفينة. وبعد أن قطعنا مسافة نصف ساعة في البحر، دخلنا نهر ريون⁽²⁾. كان الماء عكراً حتّى مصبّ النهر في البحر، وماء البحر أزرق متمائزاً عن ماء النهر.

عندما بلغنا المرفأ، كان قد اصطفّ فوجٌ من العساكر هناك، وكان حاضراً ببذلته الرسمية كلٌّ من حاكم بوتوي، ورئيس الشرطة، ورئيس الفوج ونائبه، ومشرف الجمارك، ورئيس جوازات السفر، فأدّوا جميعاً واجب الاحترام، ومن جهتنا، قمنا بالمثل، واستعرضنا فوج العسكر، تقدّم اثنان منهما، وقدّما تقريراً باللغة الروسية، فحواه نحن رهن إشارتكم، وبرسم الخدمة؛ فقمنا بالردّ المناسب.

كان حاكم بوتوي وأصحاب المناصب قد وضعوا قطعة قماش سوداء على زنودهم وربّتهم العسكرية حداداً على الإمبراطور، كان الحزن واضحاً على سيماهم.

كانت عربات كثيرة جاهزة في المكان؛ ذهبْتُ أنا والأتباع برفقة سليمان باشا وطاقمه تجاه قنصلية حكومة إيران العليّة، فحضر حاكم بوتوي وكلُّ أصحاب المقامات والمستقبلون، جلسوا قليلاً عندنا، ثمّ ذهبوا، وبقي سيّد علي ماکثاً، سألتناه عن بعض الأمور، فبدا من إجابته أنه متكلّم لبق الكلام.

(1) أمين الضرب: من التجّار المعتبرين في العصر القاجاري. (المترجم).

(2) نهر ريون: نهر رايبوني يقع في غرب جورجيا، وينبع من جبال القوقاز في إقليم راتشا، ويصبُّ في البحر الأسود في مدينة بوتوي. (المترجم).

وصف نهر رايوني

نهر عظيم، ممتدٌ من كوتاييس، وهي إحدى المُدُن على طريق تَبْلَيْسِيّ المُوصَل لبوتي، تلتقي مياه نهر قودي ريلة من أنهر طريق تَبْلَيْسِيّ مع أنهار أخرى، ثمّ تنشعب إلى قسَمَيْن قرب بوتِي، لتصبَّ في البحر، مياهه دوماً عَكْرَةً مائِجَةً.

تحيط به الغابات من الجانبَيْن، وتنتشر البيوت المَبْنِيَّة على طراز بيوت رشت ومازندران على طرفَيْه، الجانب الأيمن زاخر بالعمارات أكثر من الجانب الأيسر.

شاهدنا منارة إلى جهة اليسار، يبلغ ارتفاعها ستَّة وثلاثين ذراعاً، في أعلاها فانار، يشعلونه ليلاً لاهتداء السفن، وتبدو واضحة من مسافة عشرين ميلاً بريطانياً، وفي ليالي الصحو المُقْمَرَة يستطيع الرائي مشاهدتها من باطوم.

تحيط بالفنار عدَّة بنايات، ثبَّتوا إلى جانبها عموداً خشبياً، عليه أعلام أربع دول حتَّى يقوموا بالمهامِّ المكلفين بها بعد مشاهدة السفينة القادمة، ومقارنة بيرقها مع بيرق الدولة المنتيمة إليها.

ميناء بوتِي

تُعدُّ بوتِي من الموانئ العامرة، فيها مصانع وكنائس؛ منها كنيسة الروس المُوسَّاة برسومات بديعة للنبي عيسى والحواريِّين، تسكن المدينة شرائح مختلفة من الشركس واللزغي والجورجي والداغستاني والمسلم وباش آجق الإفرنجي، مناخها مشبع بالرطوبة، حتَّى إنها أكثر رطوبة من جيلان، فتجد معظم الأزقة لرجة.

شارع يتوسّط المدينة محاط بالخضرة على جانبيّه، وحديقة بالقرب من المرفأ، نصبوا ساعة كبيرة في مدخلها، يبلغ الطريق بخطّ مستقيم من إسلامبول حتّى بوتى خمس مئة وثمانين ميلاً بريطانياً، وتزيد المسافة مع طرق السواحل.

الحركة من باطوم إلى بوتى تتّجه شَمالاً، بعد أربع ساعات من الليل، وبعد تناول العشاء، خرجتُ من القنصلية بالعربة، برفقة سليمان باشا والطاقم والأتباع قاصدين محطة القطار، يقع نهر رايونى بين سكة القطار وميناء بوتى الذي مدُّوا عليه جسراً حديدياً، يبلغ طوله ثلاث مئة وخمسة وأربعين قَدَمًا، ونصبوا على طرفي أوسطه تمثالاً لعقاب ذي رأسين، ذكر لنا أنهم أنفقوا أربع مئة وخمسين مناتاً لإنجازه، كلُّ منات يعادل ثلاثة آلاف وخمس مئة دينار إيراني.

عندما يعبر المارّة من راكبين ومشاة الجسر عليهم أن يدفعوا كاباكاً واحداً إزاء كلِّ شخص، والكاباك هي مسكوكات، كلُّ مئة تعادل منها مناتاً واحداً، وأخيراً عبرنا الجسر، وبلغنا القطار، وكانت حركة القطار نحو الشرق.

طريق تَبْلَيْسِي

تبلغ المسافة من بوتى حتّى تَبْلَيْسِي ثلاث مئة فرستا، كلُّ فرستا بمقياس الذراع البرازي العراقي يعادل ألفاً واثنين وثلاثين ذراعاً وثلاثة أرباع الذراع، لأن كلَّ فرستا يعادل خمس مئة ساجن، وكلُّ ساجن يساوي ثلاثة أذرع روسية، والذراع الروسي يساوي نصف الذراع العراقي وثلاث عقد.

تقع أربعة أنهار على طريق بوتي تَبْلَيْسِي، أحدها نهر رايوني، والثاني نهر قودي ريله الذي تصبُّ مياهه في نهر رايوني، كما أسلفنا، والثالث نهر سردلة الذي يجري من الجبال الشَّمَالِيَّة، وتصبُّ مياهه في نهر قودي ريله، والرابع نهر بي جي توئن، ويلتحق هذا النهر بالأنهر الأخرى، حيث يصبح نهر سنغا أكبرها.

أقيمت على الطريق ستَّة جسور حديدية، بعضها طويل، والبعض الآخر أقلُّ طولاً، ثلاثة منها على نهر رايوني وقودي ريله وسردله.

تقع على الطريق مدينتان معتبرتان، أولاهما مدينة كوتاييس، والأخرى مدينة كوري، وهي مدينة جميلة؛ فيها قلعة على رابية؛ يقول البعض إن ولاية جورجيا هم مَنْ شَيَّدوها، ويقول آخرون إنه تمَّ تشييدها على يد نادر شاه⁽¹⁾ بعد فتح تَبْلَيْسِي، وقد جعل هذه النقطة بَوَّابة لجورجيا، وفي المدينة كنيسة، صُلِّي بها لاستمالة قلوب الأهالي، وأنفق عليها مجوهرات بمقدار ألف تومان، والعهددة على الراوي، وشاهدنا جسراً خشبياً، له ستَّة قناطر.

على مقربة من غوري، توجد قلعة على سفح الجبل الواقع إلى اليسار، تُسمَّى أُوْب لي سيخه، وقد نحتوا الكهوف في الجبل، واتَّخذوها بيوتاً لهم، يمرُّ نهر كُر بمحاذاتهم، وشقُّوا مجرى من أعلى الجبل، للتزوُّد بالمياه، وهو ليس صالحاً الآن.

توجد ثلاثة أنفاق في الطريق الموصِل لتَبْلَيْسِي، فقد قاموا بشقِّ الجبال أينما اعترضتهم، النفق الثاني أطول من النفق الأوَّل، والنفق الثالث أطول من الثاني.

تقع في الطريق ستُّ عشرة محطة غير تَبْلَيْسِي، تمكث فيها

(1) نادر شاه أفشار التركماني، شاه إيران من 1736 - 1747م. (المترجم).

القطارات ثلاث دقائق كحدّ أدنى، ومعظمها يتمّ التوقّف فيها لوقت أطول، قد يصل إلى ربع الساعة. تُسمّى المحطّات في لغتهم جورجي، وهي كالتالي: الأولى تشيلاويد التي تبعد أربعة عشر فرستا عن بوتى، الثانية السواقي التي يُسمّيها العوامُ نوْشناك، وتبعد خمسة فرستات، والثالثة سامتريدي، حيث تبعد واحداً وستين فرستا، والرابعة مدينة كوتايس التي تبعد تسعين فرستا، والخامسة قودي ريلة، وهي بلدة شهيرة، تتمتع بسوق، ويبلغ طريقها مئة وثمانية عشر فرستا، والسادسة بله كوري، ومسافتها مئة وتسعة فرستات، والثامنة سورام، وهي قرية، تقع على يسار الطريق، وقد بنوا فيها قلعة أعلى سفوح الجبال، أضحت آيلة للخراب، وفي هذه المحطة منزل مهندسي سكة الحديد.

من قمة جي بي توبن وإلى تبليسي تقع تحت حكم ولاية تبليسي التي تُعدّ سوارم ضمنها، وكلّها جبال مكتنّزة بالأشجار، وتبعد عن سوارم ثلاثة وسبعين فرستا.

والمحطة التاسعة منحائلو، وفيها مصنع لسكك الحديد، وتبعد سبعة وسبعين فرستا، والعاشرة قارلي البعيدة مئتين و فرستا واحداً، والحادية عشرة كوري، وتبعد مئتين وثمانية عشر فرستا، والثانية عشرة كراخالي، وتبعد مئتين واثنين وثلاثين فرستا، والثالثة عشرة قصبي، وتبعد مسافة مئتين وأربعة وأربعين فرستا، والرابعة عشرة قسانقه، وتبعد مئتين وثمانية وخمسين فرستا، والخامسة عشرة مِخَط، وحتّى هناك مئتين وتسعة وستين فرستا، والسادسة عشرة، والأخيرة أوتشلي، ومسافتها بقدر مئتين وتسعة وسبعين فرستا؛ وإلى تبليسي تبلغ المسافة مئتين واثنين وثمانين فرستا.

الطريق من بوتى حتّى تبليسي تحيطها العمارات والبلدات على

امتدادها، وحافلة بالخضرة والنضارة، إذ تكثر قربها وحولها المزارع والغابات، وقد شاهدنا شتى أنواع البراعم الملونة، لم نرَ على طول الطريق إلا ما يسرُّ خاطر، ويشرح الصدر.

وفضلاً عمّا سبق ذكره، فقد شاهدنا في سكة الحديد أعلاماً باللون الأخضر والأحمر، والأحمر والأسود، بأيدي عمّال صيانة الطريق؛ فإذا رُفِعَ العَلَمُ الأخضر، فذلك دليل على سلامة الطريق، وإن رُفِعَ العَلَمُ الأحمر، فيدلُّ على أخذ الحيطّة والسير بحذر، وإن رُفِعَ العَلَمُ الأحمر والأسود، فأشارة على عطل في الطريق، وعدم السير في السكة، ويستخدمون فوانيس بذات الألوان ليلاً لإرشاد القطارات.

أسلاك التلغراف ممتدّة على طول الطريق وصولاً إلى تَبْلَيْسِيَّ يميناً ويساراً، وباجتياز جبل سورام، يصبح جوُّ تلك النواحي حارّاً، تُغَطِّي جبل مكرل الواقع بين سَمال بوتي وشرقها الثلوج في معظم الأوقات حتّى أيّام الصيف، وفي ظهره، تقع قفقازيا.

يوم الأربعاء، الثالث عشر من جُمادى الأولى، كان الجوُّ غائماً ومُنْعِشاً. بلغنا محطة مين نيلو وقت الغداء. قيل إنها بُنيت على يد ميني نيل شقيق الإمبراطور، وهي محطة مجهزة بطريقة حسنة، فتناول الأتباع وجبة الغداء في المحطة.

كلّما اقتربنا من تَبْلَيْسِيَّ أكثر كانت تبدو لنا معالم نهر كُر على يمين الطريق أحياناً، وعلى اليسار أحياناً أخرى.

نهر كُر

حمل النهر أكثر من اسم، قيل إن كيخسرو غرق فيه أيّام طفولته،

فأطلقوا اسمه عليه، واليونان يُسمُّون كيسخرو بسروس، فأسموه بهذا الاسم أيضاً، ويعتبر النهر الحدَّ الفاصل بين أذربيجان وأرَّان.

يقول البعض إن جريانه يبدأ من أرض أرمينيا من سفح جبل شاهق يقع شمال جبل طاور؛ وقال آخرون إنه يجري من وادي جبل باب الأبواب، أو جبال القوقاز متَّجهاً من الجنوب نحو الشمال، ليصبَّ في بحر قزوين، ويذكر صاحب تقويم البلدان⁽¹⁾: نهر الكر الذي بأرَّان أوله جبل الأبواب.

فهو نهر يجري في المنخفضات، لا يصلح للزراعة عديم الفائدة، يبلغ عمقه بمقدار لا تستطيع الفرس العبور من خلاله، وفي محاذاة نهر كر وبين الغابات، يستوطن طائر الحجل بكثرة.

قُبيل الغروب بساعتين، بلغنا المحطَّة الأخيرة، وقد حضر لاستقبالنا كلُّ من الجنرال مقرب الخاقان القنصل، برفقة العُورناتُور⁽²⁾ وأصحاب المناصب، ومأمور وزارة الخارجية، ورئيس الشرطة، وجنود القوزاق، وجمع من التجَّار والكسبة الإيرانيين.

ركبنا نحن وأعضاء الحكومة والأتباع، وقصدنا القنصلية، جلستُ أنا وعُورناتُور في عربة خاصَّة، والآخرون في عربات أخرى، أوصلتنا إلى القنصلية بغاية الاحترام والإكرام، وبعد احتساء الشاي، ودَّعونا، وانصرفوا.

أسكنا العمَّال في سراي العجم وسط المدينة، ومكثتُ أنا والأمراء وسليمان باشا في القنصلية التي كانت مبنية في الأعالي مشرفة على المدينة، ومع أنها صغيرة إلا أن الجنرال القنصل كان حريصاً على تزيينها

(1) صاحب تقويم البلدان: المؤلَّف: إسماعيل بن محمَّد المعروف بأبي الفداء. (المترجم).

(2) العُورناتُور: كلمة روسية، وتعني الحاكم. (المترجم).

وتنقيحها، حين دخولنا، لم يكن النائب المساعد حاضراً، فقد ذهب إلى محضر الإمبراطور الجديد من تَبْلَيْسِيٍّ؛ وابنه كان موجوداً.

يوم الخميس، الرابع عشر من جُمَادَى الأولى، جاءنا ببذلته الرسمية كلُّ من نجل النائب المساعد، والذي يعتبر نائباً ومساعداً لوالده، بِمَعِيَّةِ إستانسيل إسكى رئيس رابطة أهل القلم، وهو رجل محترم، ومعهم جنرالان، فقمْتُ بتبجيلهم والتوَادُّ معهم. جلسنا قليلاً للحديث، ثمَّ انصرفوا.

بعد أربع ساعات من الظهر، ذهبتُ أنا والقنصل الجنرال للقائهم، فكان الحُرَّاس والقوزاق وسائر الطاقم حاضرين عند باب عمارتهم، فأدَّوا واجب الاحترام، ثمَّ دخلنا العمارة، جاء نجل النائب لاستقبالنا حتَّى باب الغرفة، فجلسنا وتجادبنا أطراف الحديث، ثمَّ رجعنا.

اليوم تطرَّقوا في أثناء الحديث إلى عدم إكمال سكَّة الحديد الموصلة لباد كوبه، وتقلب الأجواء في بحر قزوين، فتراجعتُ عن قرار العودة إلى إيران عن طريق ميناء أنزلي، واخترتُ طريق أذربيجان، ثمَّ أبرقتُ إلى معالي نائب السلطنة، رُوحِي فداه، أن يُوعِزَ إلى الميرزا محسن بإرسال أمتعتنا من طريق أذربيجان، وأبرقتُ إلى معالي علاء الدولة أمير نظام أن يقوم بتجهيز المراكب والبغال في جلفا⁽¹⁾، فجاءني ردُّ معالي الأمير نجل الملك بتلبية ما طلبناه.

منذ شهرين، لم تشهد سماء تَبْلَيْسِيٍّ الأمطار، وقد أمطرت هذه الأيام بغزارة. جاء لزيارتنا في تَبْلَيْسِيٍّ حيد قلي ميرزا نجل النائب بهمن ميرزا الذي يعتبر سلطان الفوج في تَبْلَيْسِيٍّ، كان يضع على رأسه قَبَّعة روسية، ويُتَقَنُ اللغة الروسية، فتلاطفتُ معه، ثمَّ ذهب.

(1) جلفا: مدينة إيرانية حدودية مع جمهورية أذربيجان. (المترجم).

يوم الجمعة، الخامس عشر من جمادى الأولى، قدّم القنصل ميرزا محمود خان اعتذاره لنا، لالتحاقه بقائد الجيش الأعظم في بطرسبورغ، وأبقى طاقمه لضيافتنا في القنصلية.

بعد ساعة، قصدتُ الحمّام أنا والأمراء، فاغتسلنا، وبعد ساعتين من الظهر، ذهبتُ برفقة الميرزا رضا المترجم للقاء النائب المساعد، ومن هناك لزيارة إستارسيل إسكي، فجلسنا للحديث معه، وأحضر نجليه البالغين من العُمُر تسع وستّ سنوات، فتلاطفتُ معهما.

يوم السبت، السادس عشر من جمادى الأولى، بعد تناول الغداء، قصدتُ زيارة جبّخانة⁽¹⁾، شاهدتُ مدفعاً دقيقاً، كانت فُوّهته تنفصل عن العجلة وهو محمول على مركبة واحدة، ثمّ لاحظتُ آلات تعمل بحركة ماكنة البخار، وبقوّة تصل إلى خمسة وعشرين حصاناً. كانت بعضها تقوم بثقب فُوّهات البنادق، والأخرى تعمل على تقطيع الخشب.

ثمّ ذهبتُ إلى الغرف العلوية، وتفقّدتُ جهاز صنّع البنادق، وكان يعمل بإتقان تامّ، ثمّ نزلتُ وقصدتُ جبّخانة أخرى قريبة من الجبّخانة الأولى، فشاهدتُ في غرفة واحدة خمساً وستين ألف بندقية مُرتّبة ومُخرّنة، وبيارق كانت قد استُخدمت في الأسفار، كان الجنرال إستارسيل إسكي مرافقاً لنا طوال جولتنا.

ثمّ ذهبتُ إلى غرفة، خرّتوا فيها بنادق كارروس التي يستخدمها سلاح الفرسان المناسبة لطبيعة عملهم، فأهدوني أنا والأمراء أربع بنادق منها، ثمّ خرجتُ، فشاهدتُ سيّارة تقذف المياه للأعلى لإطفاء الحريق، فأوصلوا الماء إلى أعلى منارة كانت هناك.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) جبّخانة: مخرّن للعتاد والموادّ الحريّة. (المترجم).

يوم الأحد، السابع عشر من جُمَادَى الأولى، كان في نَيْتِنَا الانطلاق، غير أن عدم توفُّر الخيول الكافية والعربات التي تنقلنا مع الأحمال والأثقال من تُبْلَيْسِي إلى جلفا دفعة واحدة؛ جعلنا نعمل على تقسيم الأتباع والمرافقين إلى ثلاث مجموعات، تنطلق على ثلاثة أيَّام، في كلِّ يوم مجموعة.

فسيرنا رئيس الكُتَّاب، والطبيب، ومترجم السفير الكبير، ومعالي سليمان باشا موفد السلطان العثماني مع خادم من الخَدَم الخاصِّ وطبَّاح يوم الأحد، ونحن ننطلق في يوم الاثنين، وينطلق نجلي سليمان ميرزا، برفقة بعض الأتباع في اليوم الأخير.

قضينا اليوم أيضاً في القنصلية، كان الجوُّ غائماً، ثمَّ ماطراً في بضع ساعات حتَّى المساء، ثمَّ أمسى صحواً لطيفاً ونقياً.

وصف تُبْلَيْسِي

تمَّ فتح مدينة تُبْلَيْسِي على يد المسلمين إبان خلافة عثمان بن عفَّان، ثمَّ خاض الملك الشهيد آغا محمَّد خان ميرور، طاب ثراه، حرباً مع والي جورجيا في عام 1210، فهزمه، وهجم على المدينة، من خلال الجبل الواقع إلى الجنوب منها، وقام بقتل أهلها، ونهبهم.

قيل إنه عندما عزم الشهيد ميرور فتح تُبْلَيْسِي قام والي جورجيا بإرسال جيش، وكان ميرور وجيشه محتشدين في وادي ياغلوجه العميق والطويل، فهاجمهم من تلك النقطة، وتمَّ فتح المدينة، وسنتطرق إلى وصف ياغلوجه لاحقاً.

قيل إن عبارة فتح تَبْلِيْسِيَّ حسب أعداد الحروف، تشير إلى تاريخ الفتح، مع أنها تزيد سنة عن التاريخ الحقيقي، وفي حساب الزمن، لا يُعدُّ نقصان أو زيادة سنة واحدة عيباً.

تقع المدينة على سفوح الجبال طويلاً، تمتدُّ من الجبل الجنوبي حتَّى الجبل الشَّمالي الشاهق والوعر، في قَمَّتِه آثار لبرج، وقلعة كانت تعود لولاية جورجيا، وهنالك برج وسور قديم جنوب وسط المدينة مَبْنِيَّ من الحجارة والجِصِّ، وكنيسة تقع على سفح الجبل الجنوبي تحمل اسم الشيخ صنعان، قيل إن قبره فيها.

الجبل الشَّمالي مرتفع، يشرف على المدينة، توجد فيه الجبخانه، والمدفعية تتمركز على سفوحه.

يمرُّ نهر كُر من قلب المدينة، فيشطرها إلى نصفين، قديم، وجديد تمَّ بناؤه في الطرف الجنوبي الذي يبدو أكثر إعماراً من الطرف الشَّمالي، فالعمارات المعتبرة، والقنصلية الإيرانية، وعمارات النائب، وأحياء الإفريج كلُّها في هذا الطرف.

ينقسم نهر كُر إلى قسمين مُحدِّثاً جزيرة في الوسط، استُغِلَّت في بناء الحوانيت، وقد مدُّوا على النهر جسرَين، يُوصِلان إلى الجزيرة، الأوَّل يقوم على قنطرة واحدة، والثاني على ستِّ قناطر، بناه النائب الأسبق البرنس ورانسوف الذي حكم القوقاز لاثنتي عشرة سنة، فصنعوا تمثالاً نحاسياً تخليداً له لإعمارهِ المدينة، وتعبيراً عن رضا الناس عنه، نصب تمثاله قُبالة الجسر، ويده منظر، ويحيطه ثمانية مدافع عثمانية مقيَّدة منكَّسة فُوهاتها للأسفل.

تتخلَّل المدينة الجديدة الأزقة الممتدَّة والعريضة، بحيث يبلغ عرضها

سِتِّينَ قَدَمًا، وفيها سبعة خانات، ومسجدان، وأبنية شاهقة وخسته خانة، وأسواق عامرة، يؤمُّها مختلف أنواع البشر، ويكثر التِّجَّار الإيرانيون فيها، وتبيَّن لنا أنهم مُصانون من التعرُّض للاعتداء والتجاوز.

في المدينة القديمة الواقعة في الطرف الشمالي أربع عشرة كنيسة، ستُّ منها تعود للجيورجيين، وما تبقى للأرامنة، وهناك حديقة كبيرة كانت للمرحوم مير فتاح. أزقة هذا الجانب ضيقة وغير نظيفة.

قيل إن عدد قاطنيها يتجاوز الخمسين ألفاً، وقيل الخمسة والستين ألفاً، وقول آخر المئة ألف نسمة، سكَّانها خليط من الجورجيين والروس والكاثوليك والداغستانيين والألمان والأرامنة والمسلمين، وفي ضواحيها عشرة آلاف من العساكر، جوُّها غير ملائم، ترتفع درجة الحرارة في الصيف والخريف، فتعدو بيئتها مُسبِّبة للأمراض والأوبئة.

من أهمِّ ميزات المدينة أنها تحتوي سبع عيون ماء ساخنة، تزيد في نعومة الجسم، خالية من رائحة الكبريت، تنبع من سفح الجبل الجنوبي، فجَّروا مياهها، وأوصلوها إلى حمَّامات المدينة، فمفردة تَبْلِيْسِيّ باللُّغة الجورجية، تعني موضع المياه الساخنة.

يستطيع الرائي من المدينة مشاهدة قَمَّة جبل قاف الذي تغطِّي الثلوج قَمَّتَهُ طوال العام. أنشأ الروس طريقاً من وراء الجبل، تسلكه العربات وصولاً إلى أعلاه، وتقع مدينة دُلاد القوقازية ظهر الجبل.

تبلغ المسافة ما بين تَبْلِيْسِيّ وبطرسبورغ الواقعة على بُعد ألف ذراع جنوب شرق البحر الأسود أَلْفَيْنِ وثلاث مئة وثمانين ذراعاً.

يوم الاثنين، الثامن عشر من جُمادى الأولى، انطلقنا نحن والأمراء ومعالى الحاجِّ مُلاً باقر الواعظ والمشرف والساقي والطَّبَّاح إلى جلفا،

حيث شاطئ نهر آراس، يبلغ طول الطريق أربع مئة وواحد وأربعين فرستا وثلاثة أرباع الفرستا، يتوزع ثمانية وعشرون مركزاً للبريد على طول الطريق، تختلف المسافة ما بين المركز والآخر، فأحياناً تكون أقل من عشرة فرستات، وأحياناً أخرى أكثر من أربعة وعشرين فرستا، يعبرون الخيول مقابل ثلاثة كاباكات للفرستا الواحد، ويتراوح عدد الخيول في كل مركز ما بين عشرة وعشرين، وتتمركز ست أو سبع مدفوعات ومدركات في كل مركز.

قاموا بتمهيد الطريق وتسويتها وصولاً إلى إيروان، ومدوا عليها جسوراً كبيرة وصغيرة حيثما تطلب الأمر، لتعبرها المدركات والمدفوعات، كما تم بناء غرفتين مؤثنتين بالكراسي والطاولات والمرايا في كل مركز.

الطريق محاطة بالخضرة والأنهار الجارية، لا سيما في الجزء الموصل إلى دليجان، يحاذيه واد في غاية الجمال، الجبال على جانبيه مغطاة بالأشجار الياضة، فأينما اتجه البصر يكون النقاء والصفاء. وتسوء الطريق، وتصبح عسرة المسير عند نزول المطر وتشكل الوحل.

مراكز البريد في طريق تبليسي

خمسة مراكز بريد في أراضي تبليسي، أولها في المدينة، وبعد مسير عشرة فرستات، تقع قرية سوقانلو، وفيها المركز الثاني الذي يمر من محاذاته نهر كُر⁽¹⁾، وعلى يمينه جبل ممتد من الجنوب إلى الشمال حتى تبليسي قد نحتوا معظمه، وفي أعلاه قمة مخروطية الشكل، بنوا عليها

(1) نهر كُر: واسمه بالتركية كورا ينبع من شمال شرق تركيا، ويعبر الأراضي الجورجية وصولاً إلى جمهورية أذربيجان، حيث يصب في بحر قزوين إلى الجنوب من مدينة باكو بنحو 140 كم، وإلى الشمال من خليج كيروف. (المترجم).

كنيسة، تُسَمَّى تِلْت، يذهب الأهالي إليها مرّة في كلِّ عام. تسكن حولها ثلاث عوائل من القائمين على خدمة الكنيسة، ومع أنها قُبالَة مركز البريد إلا أنها غير واضحة المعالم، وبين الجبل والوادي قرية وحدائق كثيرة.

بعد سوقانلو باثني عشر فرستا، يقع ثالث مراكز البريد في ياغلوجه، تكثر العمارات في أرض جرداء خالية من الأشجار، والمنطقة شحيحة المياه، ومياهها الجوفية مالحة، فيتزوّد الأهالي بالماء من نهر كُر على بُعد فرستا واحد.

تكثر في الموقع الوديان الرملية، فبنّوا في وسطها معسكرات للحرس، للحيلولة دون اتّخاذ المكان كميناً للغزاة، وعلى العساكر التزوّد بالماء من نهر كُر على بُعد سبعة فرستات، ووسط الروابي الرملية وادٍ عميق، يُسمونه شاه كرلنن، وهو الوادي نفسه الذي اختبأ فيه الملك الشهيد آغا محمّد شاه طاب ثراه حين فتح تَبليسي، بعد الرابية الرملية، وقُبيل المنزل بعشرة فرستات، وبعيداً عن نهر كُر، تمتدُّ طريق تلقاء الجنوب في فلك ياغلوجه، يبلغ عرضها عشرة أذرع.

بعد ياغلوجه باثني عشر فرستا، يظهر المركز الرابع والمسَمَّى آل كِت، والمياه شحيحة فيه، وعلى قاطنيها المسلمين قَطع مسافة طويلة للحصول على الماء، ممّا يُسبّب لهم الشقاء والعناء.

بنّوا قنطرة من الحجارة بعين واحدة على النهر الذي يمرُّ من جنوب المركز، بعد المرور من آل كت بعشرين فرستا، يظهر المركز الخامس الذي يُطلقون عليه اسم صلاحلو، ويقع على مقربة من قرية، تحمل ذات الاسم، تقطنها ثمان مئة عائلة.

يمرُّ نهر كُر من محاذاة مركز البريد، ووادي صلاحلو كله غابات،

وَيُسَمُّونَهُ قَرَايَازِي، وتوجد فيه أنواع من الحيوانات كالغزال والدبّ والوحوش، وقد اعتُبرت المنطقة مَحَمِيَّة من قِبَل الحكومة بدءاً من ياغلوجه، وختاماً بمعسكر مينكه تشور.

يبدو نهر كُر واضح المعالم، لقربه من الطريق؛ فهو يبعد، أحياناً، بمقدار ألفي قَدَم، وأحياناً أخرى بمسافة مئتي قَدَم، وقُبيل صلاحلو بعشرة فِرستات، تقع قرية سخلو.

تبعد مقبرة قبيلة سخلو سبعة فِرستات عن البلدة، وعلى مقربة من القرية، يمرُّ نهر خرام الذي يعبر من سِنق كربي، والاسم باللغة التركية يعني الجسر المنهدم، فلم تبقَ سوى دعامة واحدة من دعائم الجسر القديم. وفي هذا النهر يستخدمون ألواحاً يحملون عليها المواشي إلى الضفَّة الأخرى مقابل تسعة كاباكات للرأس الواحد.

قاموا ببناء جسر آخر من الحجارة والآجر من ثلاث قناطر، لم يُعرَف زمن بنائه، يقع قريباً من نهر بيشه الذي ينبع من مناطق برتشلو، كما ذُكر.

مراكز البريد في محلّات قزاق كنجه⁽¹⁾

تتوالى ستّة مراكز للبريد في محلّات قزاق كنجة، وجميعها تتبع حُكم ولاية كنجة.

أولاً: روزارخ، مركز بسيط، يبعد ثلاثة عشر فِرستا عن صلاحلو، وعلى بُعد ثلاثة فِرستات، تقع رابية رملية صغيرة.

ثانياً: آق استفا، وهي بلدة ذات سوق وبنائات متواضعة بعيدة عن المركز، يمرُّ قريباً منها نهر كبير، يستقي منه كلُّ توابع القزاق، عليه جسر

(1) قزاق كنجه: جزء من القوقاز السفلية وأرمينيا جنوب البحر الأسود، وتقع بين نُفليس وإيروان وكنجة. (المترجم).

حديدي مُحَكَّم، قيل إنهم أنفقوا ستين ألف منات في إنشائه، وفيه سبعة أزواج من الأعمدة الحديدية من كلِّ طرف، أقاموا مخفراً ذا إعداد جيّد أوّل الجسر، ويستقرُّ به محافظ الجسر والمحاسب، يتقاضون عن كلِّ فرس مبلغ تسعة كاباكات، وبدؤوا بعمارة آق استفا، فبنّوا فيها مركز تلغراف يتفرّع إلى شُعْبَتَيْن، الأعمدة الحديدية تعود للحكومة البريطانية، والأعمدة الخشبية للحكومة الروسية.

ثالثاً: أوزان تلي الذي يُسمّى تشقماقلي أيضاً، ويبعد ثلاثة عشر فرستا عن آق استفا، ويشبه مراكز المنازل الأخرى.

رابعاً: كاروانسرا، ومسافته عن أوزان تلي سبعة عشر فرستا.

خامساً: ترساشاي، ويبعد ثمانية عشر فرستا عن كاروانسرا.

سادساً: دليجان الذي يقع في واد يمرُّ من وسطه نهر، فيه عمارات كثيرة على طرفَيْه، منها بنايات فاخرة للأثرياء، وأخرى متواضعة للعامة، شاهدنا فوجاً من العسكر الروس خيّموا على مقربة من العمارات التي تقع أعلى الجبل، وبمحاذاة النهر.

مراكز البريد في وادي شيشك من ولاية بايزيد⁽¹⁾

يتمتّع هذا الوادي بأربعة مراكز للبريد، وتقع جميعها تحت اختيار حاكم إيروان.

أولاً: سَمَس أفقا، وتبعد ثمانية عشر فرستا ورع عن دليجان، المنطقة جبلية، وعلى السائر أن يتجاوز قِمَم الجبال الشاهقة. قامت الحكومة الروسية البهية، ومنذ خمس عشرة سنة بتميهد الطريق وتعبيدها، لتستطيع العربات والعَرَادَات اجتيازها بسهولة.

(1) ولاية بايزيد: ولفظها في اللغة التركية الأذربيجانية (بايزز)، وتعني الخريف. (المترجم).

ثانياً: يَلَنَ أفقا، ويقع في بلدة معتبرة، يتوسَّطها شارع طويل، تحيطه العمارات والبنائات، ويبعد تسعة عشر فرستا وربع عن المركز الأوَّل.

ثالثاً: آخته، قرب البلدة التي تحمل نفس الاسم، فيها طريق معبَّدة، وتشبه القرى الإيرانية، تمتدُّ عين رنغي من آخته حتَّى إيروان، ويبعد المركز ستَّة عشر فرستا عن يلن أفقا.

رابعاً: سوخاي فانتان، ويُسمَّى داجلق، ويبعد عن آخته اثني عشر فرستا، تحاكي هذه القرية القرى الإيرانية، وقد بنوا عمارة واحدة على الطراز الإفرنجي.

مراكز البريد في أرض إيروان

توجد في إيروان بأكملها ستَّة مراكز للبريد.

أولاً: أيلر ألد، يبعد عن سوخاي فانتان تسعة عشر فرستا وربع، وفيه بنايات متواضعة ما هي إلاَّ المركز والخان ودگان واحد.

ثانياً: مدينة إيروان التي تبعد عن أيلر خمسة عشر فرستا ونصف، الطريق ممهَّد في أوَّله، ثمَّ يتَّجه إلى الانحدار والتشعُّب، الاتِّجاه نحو الجنوب يودِّي إلى مدينة إيروان، تمتدُّ على جوانبه سهول خضراء ومستوية، ومياه جارية، تُسمَّى قِرْح بولاغ⁽¹⁾، تتموضع مدفعية إيروان قرب المركز، لإشراف الموقع على المناطق كلِّها.

إيروان باللغة الأرمنية تعني المنظر، والمنطقة توافق الاسم من حيث واقع حالها، فهي سهل فسيح، يقع جنوباً في منخفض بين أراض مرتفعة

(1) قِرْح بولاغ: ولفظها في التركية الأذربيجانية (قرلار بولاغه)، ومعناه نبع البنات. (المترجم).

أول المدينة الواقعة على أرض مستوية، وإلى جهة اليسار، أُقيم مخفر أعلى الجبل، يسكنه الحُرَّاس وعمَّال الصيانة.

تصل إلى شارع في غاية الطول، تحيط به الحدائق والعمارات من كلِّ مكان، العمارات بسيطة، معظمها بُني على الطراز القديم سوى عمارات جديدة، تمَّ بناؤها محاكاة للطراز الإفرنجي. ينتهي الشارع إلى وسط المدينة، حيث أُقيمت المباني الحكومية، والسوق والحوانيت والحمامات.

الحديقة الوطنية واقعة في الوسط، وبلا سور، تمَّ تقسيمها إلى جُنَيْنَات، تتوسَّطها بركة ماء. بعد المباني الحكومية، وخلف الحديقة الوطنية يوجد ميدان، يبيعون فيه البضائع. يمتلك عزيز خان السردار حديقة في المدينة.

نهر بمحاذاة مدينة إيروان يُسمَّى إيروان شاي، يعيش فيه سمك قزل آلا بكثرة. ترتوي هذه المدينة من عيني ماء، إحداهما عين زنجي، وهي نهر كبير، يمرُّ بمحاذاة المدينة، والأخرى عين قزح بولاغ التي سبق ذكرها، ويمرُّ نهرها الصغير من قلب المدينة وصولاً إلى الحدائق والعمارات.

في المدينة سبعة مساجد، وستُّ كنائس، وسبعة حمامات، وخسته خانة، وثلاث مدارس للبنين، واحدة تخصُّ الروس، واثنان للأرامنة، ومدرسة واحدة للبنات، تمَّ بناؤها لتعليم البنات المسلمات، وعمماً قريب ستغدو هذه المدينة من أفضل المُدن الروسية.

يتواجد في المدينة ألف جندي، وفي حدود سَمَّه لي أربعة آلاف جندي، وأربع مدفعات، وفرسان من القزاق، يبلغ عدد سكَّانها خمساً وستين ألف نسمة معظمهم من الأرامنة.

مناخ إيروان مناخ صاف نقي، صناعة الخزف الإيرواني ومهنة الصباغة الإيروانية مضروب بهما المثل، يعتقد الأرامنة أن أوّل كَرْمَة غرسها النبي نوح كانت في إيروان، ويبعد مكانها مسافة نصف فرسخ عن المدينة.

تقع إيروان في جنوبي غرب تَبْلِيْسِيّ بمسافة قدرها مئة وتسعة وستون ألف ذراع، وقُبيل المدينة باثني عشر فرسخاً، وإلى جهة الشرق، يوجد جبل آغري داغ⁽¹⁾ المرتفع جداً، والذي تغطّي قمّته الثلوج على مدار العام، يقال إنه من حيث القطر أعظم الجبال، لكنه ليس مخروطي القمّة.

يصل الجبل من الشّمَال والغرب إلى الأراضي الروسية، ومن الجنوب إلى بايزيد العثمانية، الإفرنج يُسمّونه بأرارات، والأرامنة يُسمّونه ميس، وهو اسم نجل جدّهم آرام الذي نُسبوا إليه، يعتقد البعض أنه جبل جودي الذي استقرّت عليه سفينة نوح. تقع مدينة إيروان شّمَال شرق الجبل، وتبعد عنه أربعة وخمسين ألف ذراع، وعلى بُعد فرسخين من إيروان تقع أوتش الكنائس، أي الثلاث كنائس.

ثالثاً: آقَامَزلي، ويبعد عن إيروان ثلاثة عشر فرستا، وقد تمّ بناء جسر أوّل المنزل، وخارج المدينة على نهر زنجي.

رابعاً: قمرلو، وتبعد خمسة عشر فرستا. يتوسّط القرية ذات الاعتبار شارع، وعلى طرفيه حوانيت الكسّبة، تحتوي شتّى أنواع البضائع.

خامساً: دولو، وتبعد ثمانية عشر فرستا وثلاثة أرباع الفرستا، وهي قرية كقرى إيران التقليدية.

سادساً: سدرك، وتبعد ثمانية عشر فرستا وثلاثة أرباع الفرستا، سهل

(1) جبل أرارات هو أعلى قمّة جبلية (5165 م) بتركيّا، يقع في شّمَال منطقة شرق الأناضول، ويُسمّى بالتركية آغري داغ. (المترجم).

سدرك سهلٌ شاسع، تحدُّه الجبال من ثلاثة أطراف، حيث توجد غابات في طرفه الشرقي، وهو مكان جميل وخلَّاب.

مراكز البريد في شرور وادي لي كُر

يقع في شرور وادي لي كُر مركزا بريد في موضعين.

الأول: في باش نوراشن، وفيها يجري نهر أربه شاي في باش نوراشن، وتبعد عن سدرك اثنيْن وعشرين فرستا وربع، في الموضع عمارات وحدائق كثيرة، تعود ملكيَّتها لإسماعيل بيك، وله عمارة، وحديقة خاصَّة.

الثاني: مركز داش أرخ، ويبعد عشرة فرستات، ويقع وسط الطريق بين القرى والعمارات والحدائق، وهذان المنزلان هما تحت اختيار غورناطور إيروان.

مراكز البريد في نخجوان

في نخجوان خمسة مراكز، تقع هذه المنازل تحت اختيار غورناطور إيروان، وعينٌ نائباً له عليها يُسمَّى قَمَصَر.

أولاً: كوراخ، ويبعد تسعة عشر فرستا، وهي قرية تقع في الجنوب الشرقي.

ثانياً: مركز بويكُ ذري الذي يبعد أربعة عشر فرستا.

ثالثاً: مركز نخجوان، ويبعد ثمانية عشر فرستا، وفيه مزارع، وطريقه معبَّدة ومستوية وصولاً إلى منتصف الطريق، ثمَّ تصبح وَعِرَة، يتخلَّلها

واد رملي في النصف الآخر، حيث تقع مدينة نخجوان في الجنوب، زرعها كثير، فُبيل الوصول إليها، شاهدنا جبلاً إلى جهة اليسار على سفوحه قرية معتبرة.

وصف نخجوان

تقع مدينة نخجوان على مكان مرتفع، فيها غابات على السفوح، وعلى مدخل المدينة مقبرة، وإلى يسارها عمارة لشخص روسي، وكنيسة ومسجد، إلى جهة اليمين عمارات حكومية، وعلى مقربة منها عين ماء.

وخارج المدينة، شاهدنا آثار مسجد عظيم، لم يبقَ منه غير منارَين، تتوسطهما قبة، طول المسافة ما بين باب المسجد والقبة تشير إلى عظمة المسجد، بعد مرورنا من المسجد، شاهدنا نهر نخجوان الجاري الذي يصل عمق المياه فيه إلى الحزام.

رابعاً: النجه شاي، ويبعد مسافة أربعة وعشرين فرستا وربع، وعلى يمين الطريق جبال خوي ومرند، وبالقرب من المركز جبل مدور، يقال تكثر فيه الأفاعي، النجه شاي نهر يجري نحو نهر آراس مياهه عكرة.

خامساً: جلفا، وتبعد خمسة عشر فرستا، وعلى مقربة من المركز مضيق جبلي وعر، بعد المرور منه تلوح معالم قرية على الطرف الأيمن، حيث جلفا، فهي بعيدة جداً عن الطريق؛ يليها سهل آراس الشاسع، وقد شيدت الحكومة الإيرانية والحكومة الروسية عمارات على طرفي آراس.

نهر آراس

يجري نهر آراس من الغرب تلقاء الشرق، وعندما يصل قبالة العمارات

ينشطر إلى قسمين، تتوسطهما اليابسة. الشطر الذي يلي العمارات الإيرانية أقل عمقاً، يعبره الناس باستخدام الزوارق، وتستطيع المواشي عبوره من جهة إلى أخرى.

أما الشطر الذي يلي العمارات الروسية، فهو أكثر عمقاً، وتُستخدم الناقلات لنقل الأهالي والمواشي، وبعد العمارات الروسية، يوجد معبر، تستطيع المواشي اجتيازه إلا الهزيلة منها، فلا تصمد أمام قوّة التيار.

تعمل في النهر ناقلتان، إحداهما لرحيم خان لواء كركري الذي يتقاضى أجره، مقدارها ألفين مقابل الشخص، وألفين مقابل الماشية، والأخرى تعود للروس.

الباروم

الباروم عبارة عن سفينتين صغيرتين، وضعوهما على طول النهر، أطرافهما مفتوحة، وتم وصلهما ببعضهما، وغطوهما بسقف من الخشب، وأحاطوهما بسياج خشبي من الطرفين تاركين مكاناً في البداية والنهاية للدخول والخروج، ثم مدّوا حبلًا في عرض النهر من طرف إلى الطرف الآخر، يعمل على بكرة، وأحكموا ربطه بعمودين قويين مثبتين على جانبي النهر، يساعد على حركة الناقلة وعدم انحرافها عن مسيرها في النهر.

ومن المشاهد التي راقت لي مشهد صعود الإبل إلى السفينتين، فكانت تأبى الدخول، فيلجؤون للعنف لإدخالها، فتبرك وتنهض، وأحياناً تسقط في المياه، فيقومون بإخراجها، ويعلو ثغاؤها من شدة خوفها.

عمارات شواطئ آراس

شيدوا ثلاث عمارات على الشاطئ الشمالي من الأراضي الروسية في خط واحد، العمارة الوسطى أكبر من العمارتين الجانبيتين، تتمتع كل عمارة منها بليون، يستقبل البحر، ويرتكز الليوان على ثمانية أعمدة خشبية، أقيمت على قواعد حجرية.

خلف العمارات ميدان واسع، في آخره عمارة التلغراف خانه، والكالسكه خانه⁽¹⁾، والحمام وبيوتات أخرى، وقد بنوا عند الشاطئ الجنوبي تلغراف خانه آخر، ومركزاً للبريد والتذاكر.

غادرنا الأراضي الأجنبية، ودخلنا إلى الأراضي الإيرانية، استغرقت الطريق من تبليسي وصولاً إلى شاطئ نهر آراس ستة أيام، وكانت على التوالي:

يوم الاثنين، الثامن عشر من جمادى الأولى، وصلنا آق استفا من تبليسي.

يوم الثلاثاء، التاسع عشر من جمادى الأولى، غادرنا آق استفا، ووصلنا إلى دليجان، وكانوا قد عينوا منزلاً لنا في عمارة، وقاموا بضيافتنا.

يوم الأربعاء، العشرون من جمادى الأولى، جئنا إلى إيروان، فقاموا بواجب الاحترام حين دخولنا، وأسكنونا في عمارة، وأكرموا ضيافتنا، كان الحاكم رجلاً كاملاً، لم يتزوج بعد.

يوم الخميس، الحادي والعشرون من جمادى الأولى، مكثنا في إيروان، وذهبنا لمشاهدة أوتش الكنيسة.

(1) الكالسكه خانه: مركز العربات. (المترجم).

يوم الجمعة، الثاني والعشرون من جمادى الأولى، ذهبنا إلى باش لرياش، وقضينا اليوم في عمارة إسماعيل بيك.

يوم السبت، الثالث والعشرون من جمادى الأولى، قصدنا شاطئ نهر آراس، وقضينا الليلة في عمارة الروس، وكان قد أرسل إلينا جلاله أمير نظام دام إقباله العربية، والخيول، وقدراً من البضاعة.

وكذلك فعل مقرّب الخاقان مساعد الملك، فقد أرسل خيلاً ومؤونة مختصرة، برفقة الميرزا حسن خان العقيد نجل المرحوم ميرزا علي الداوي خاصةً بسليمان باشا موفد السلطان العثماني، وذلك استجابة للبرقية التي كنت قد أبرقتها له من تبليسي، وأخبرته بها بقدم سليمان باشا معنا، وكان حاضراً على شاطئ نهر آراس لاستقبالنا.

يوم الأحد، الرابع والعشرون من جمادى الأولى، وبعد مرور خمس ساعات من النهار، جلسنا في الباروم، وعبرنا نهر آراس، فقام قمصر وباقي الرؤساء من الحضور بوداعنا، مكثنا لبضع دقائق في بيت الميرزا علي أمين التذاكر الذي كان محاذياً للنهر، ثم صعدنا ثانية على الباطوم. عند اجتياز آراس وصولاً إلى تبريز، يتوجب المرور من أرض كركر أولاً، ثم أرض مرتند، ومن ثم، الدخول إلى تبريز.

الحاجية خانم شقيقة المرحوم الحاج حسن علي خان، وحليمة المرحوم محمد رضا خان لواء كركر، كانت قد أرسلت أشخاصاً طالبين منّا زيارتها في كركر، وكانت قد أعدت المنزل لاستقبالنا وضيافتنا، لكن، ولضيق الوقت، اعتذرت منها، واكتفيت بشرب الشاي في منزلها. وبعد ساعة، غادرنا المكان. كانت امرأة معمرة جليلة.

كركر

تنتهي حدود كركر عند عقبة صغيرة على يمين الطريق حين الذهاب، فهي ذات مواقع جيّد. ويبلغ عدد قاطني قصباتها ما يقارب الأربع مئة عائلة، بنّوا فيها مخفراً، ومن هناك تبتدئ حدود مرند. يعبر النهر من وسط الوادي، ويبلغ طوله ثمانية فراسخ، بعد المرور بأرض كركر، يوجد مضيق صخري، يُشكّل صعوبة لمسير العربات، وبعد بلوغ الأراضي المستوية، جاء لاستقبالنا لطف الله خان مستحفظ طريق كركر ومرند، وبرفقته ثلاثين فارساً.

أرسل شفيح خان حاكم مرند لنا حصاناً، فبلغنا كلين قبا عند الغروب، وقضينا الليلة في بيت من بيوت الرعية. كان المنزل في غاية الرداءة، فقلّما توجد عمارة حسنة في هذه القرية التي تتبع مرند.

يوم الاثنين، الخامس والعشرون من جمادى الأولى، انطلقنا بعد ثلاث ساعات من الدسته، وبعد قطع مسافة خمسة فراسخ ونصف وصلنا إلى قرابة⁽¹⁾.

كانت الطريق مستوية حتّى هناك، ومن ثمّ، أصبحت وعرة ذات مرتفعات ومنحدرات، شاهدنا نهراً يجري من جانب زور، وقبيل قسبة مرند بفرسخ واحد، وعند قمة الجبل، كان حاكم مرند حاضراً لاستقبالنا برفقة نفر من الفرسان، تلاطفت معهم، وتابعتنا المسير.

قبيل الغروب بأربع ساعات، دخلنا مرند، اجتمع كلُّ سكّانها لاستقبالنا، واصطف الجنود والمدفعية على طرفي الطريق، تلاطفنا معهم، ومضينا. ونظراً لامتياز عمارة لطف الله خان، تمّ تعيين بيته من

(1) قرابة: قرابه؛ اسم تركي، ومعناه التل الأسود. (المترجم).

قَبْلَ الحُكُومَةِ مَنْزَلاً لَنَا، نَحْنُ أَقْمَنَّا فِي القِسْمِ الدَّاخِلِيِّ، وَسَلِيمَانَ بِأَشَا فِي القِسْمِ الخَارِجِيِّ، وَقَامَ صَاحِبُ البَيْتِ بِإِكْرَامِنَا وَضِيَّافَتِنَا.

اليوم، وفي أثناء الطريق، مررنا بخائِنين، يُنسَبُ أحدهما إلى الشاه عَبَّاس، والآخر إلى هولوكو خان، ويقع في قرية إيران بولي على بُعْدِ خَمْسَةِ فَرَسَخٍ مِنْ مَرَنْد، وشاهدنا عيناً للمياه الساخنة على قارعة الطريق.

مَرَنْد

موقع مَرَنْد مميّز وحسن، قصبتهما على السفوح المنسابة بعيداً عن قَمَّةِ الجبل الممتدِّ إلى الطرف الجنوبي، وتسكنها قرابة الألفي عائلة، تحيط بها الغابات الكثيفة، وسهلها رحب صاف، وتكثر حولها الأراضي الزراعية لمناخها اللطيف، وتتعدَّد في ضواحيها القرى، وتشقُّ المدينة الأرقَّة الطويلة.

يوم الثلاثاء، السادس والعشرون من جُمَادَى الأولى. انطلقنا بعد مضي ثلاث ساعات من النهار، فحضر الخان الحاكم وعدد من الفرسان لوداعنا، وبعد قطع مسافة، أذنتُ لهم بالانصراف.

سِرنا لخمسة فراسخ، فشاهدنا نهراً خلال الطريق، على يمين الطريق جبل مِسُو الذي يكثر فيه عشبة الراوند المفيدة. قُبيل الغروب بأربع ساعات، وصلنا إلى صوفيان، فنزلنا بيتاً داخل القرية.

قرية صوفيان

صوفيان من القرى المعتبرة، وهي من موقوفات المرحوم الحاج ميرزا

موسى خان، وآلت إلى مقرَّب الخاقان آغا ميرزا علي المستوفي نجل
المرحوم القائم مقام. كانت قديماً ضمن مرند، أو كُنَى، لكنها خرجت
حديثاً من سلطنة الاثنيْن، وانضمت إلى قرى مدينة تبريز.

يوم الأربعاء، السابع والعشرون من جمادى الأولى. انطلقنا بعد
ساعتين من الدسته، كانت الحركة تلقاء الجنوب، قبيل تبريز بفرسخين،
وصلنا إلى الشيخ كُري، وهو نهر جار، بعد أن تجاوزنا الجسر، لقينا قرية
خطا على الطرف اليمين، وقد قيل في تسميتها:

ورد في ديوان الحشري أن شخصاً من الزهاد والمرتاضين يُسمَّى
بابا حسن، وكان للملك خطا أعداء شداد، فنذر الملك أن يُزوّج ابنته
أناخاتون من الزاهد، إذا تغلّب على أعدائه، فظفر بهم، وأرسل ابنته
محمّلة بالذهب وأنواع الزينة، ومعها خمس مئة من الغلمان والجواري
في منتهى الجلال والحشمة إلى بابا حسن الزاهد، فلما وصلت أرض
تبريز، أرسلت إلى بابا حسن، تخبره أن يقوم بإعداد بيت لها ولمرافقها.

وصل الرسول، وشرح الأمر له، أخذ بابا حسن طبقاً من الخشب،
وألقى فيه كسرة من الخبز، وقطعة من الكرباس، وأرسلها إلى الفتاة
مُخبراً إياها أن هذا مآكل بابا حسن وملبسه، فإن كنتِ قانعة بهذا،
فاقدمي، وإن كنتِ غير قانعة، فارجعي؛ فقدمت الفتاة على مَضَض،
وعندما شاهد بابا حسن البنت والجمع المرافق لها، قال: لا حاجة لنا
بكلّ هذه الغلمان والجواري، فأعتقهم جميعاً في سبيل الله، واتخذ
هذه القرية المُسمّاة خطا مسكناً له ولزوجه.

بعد المرور من القرية، وصلنا جسر آجي، وبعد مرورنا، التقينا
بمستقبلي تبريز من أمراء وأعيان وتجار وغيرهم، فتحدّثت مع الجميع
ملاطفاً لهم، وقصدنا المدينة.

تمَّ تخصيص حديقة الشَّمَال مسكن أمير نظام والي تبريز منزلاً لنا. اتَّجَّهنا نحوها، وتقدَّم أمير نظام حتَّى الزقاق لاستقبالنا، فدخلنا الحديقة معاً، وجلسنا في الغرفة المحاذية لغرفة الأمير نظام.

وخصَّصوا منازل للخاصَّة والأتباع، كلٌّ على حِدَّة في الحديقة ذاتها، وحرص الوالي أمير نظام على إكرامنا وضيافتنا.

حديقة الشَّمَال

حديقة الشَّمَال من أبنية المرحوم نائب السلطنة طاب ثراه؛ تستوعب خمسين خرواراً⁽¹⁾ من البذور، وهي مقسَّمة إلى أربعة أقسام، قسم منها هو حديقة الأزهار، وقد بنى جلاله الأشرف الأرفع وليَّ العهد، رُوحِي فداه، عمارة ممتازة قُبالة العمارة القديمة، لتتوسَّط حديقة الأزهار العمارتين، وفي أوسطها حديقة الوحوش التي تمَّ بناؤها بطول عشرة أذرع.

تبريز

تبريز مدينة كبيرة، وهي من أبنية السيِّدة زبيدة خاتون، المدينة محاطة بالجبال من ثلاثة جوانب، وفيها حدائق ومساجد ومدارس كثيرة.

من مساجدها القديمة الشهيرة مسجد جهانشاه الذي بُني على يد جهانشاه بن قرا يُوسُف التركمان في عام 878 هجرية، يُسمِّي الأتراك كوك مسجداً، لم يبقَ منه الآن سوى بعض آثاره.

ينقسم علماء المدينة إلى طبقتين؛ طبقة مجتهدة، وطبقة الشيوخ،

(1) خروار: من الوحدات القياسية الإيرانية يعادل كلَّ خروار ثلاث مئة كيلوغرام. (المترجم).

ومن مدارسها المعروفة هي مدرسة الصادقية، ومدرسة الطالبية، ومدرسة حَسَنَ باشا.

تكثر الخانات في المدينة، وهي مكتظة بالتجّار، وقد بنى المرحوم ميرزا تقي خان أمير نظام سوقاً مُنظمة مُتقنة البناء، يجلس فيها البرّازون⁽¹⁾ والكسبة.

جوُّ المدينة شديد البرودة شتاءً، وتهطل الثلوج بكثافة، وتبعد مدينة تبريز عشرين فرسخاً عن بحر قزوين.

يوم الخميس، الثامن والعشرون من جُمادى الأولى، مكثنا في المنزل، فجاء لزيارتنا صباحاً كلُّ من الحاجّ ميرزا جواد آغا المجتهد، والحاجّ ميرزا موسى المجتهد، والحاجّ ميرزا يُوسُف آغا المجتهد، وتوالى عدد من الوجهاء والعلماء لزيارتنا حتّى المساء. تعاملتُ مع الجميع بودٍّ، وانصرفوا.

قصدتُ الحمّام عند المساء؛ وكان قد أرسل لي معالي أمير نظام ملابس فاخرة خاصّة بالحمّام.

يوم الجُمعة، التاسع والعشرون من جُمادى الأولى. قضينا اليوم في المنزل أيضاً، فتوالى لزيارتنا جماعة من الأعيان والأشراف والتجّار وأصحاب المناصب، وبلغتني برقية من جانب جلاله سني الجوانب السامية، روعي فداه، يقول فيها: أنْ لا مُبرّر لمكوثك أنتَ والموفد العثماني في تبريز، فتزوّد بما تحتاجه من المال وغيره من أمير نظام، واحضُر فوراً إلى طهران دون تأخير. وأبرقوا إلى معالي أمير نظام بهذا الشأن، فكتبتُ ردّاً، وأبلغتُهُم بأن حركتنا ستكون يوم الاثنين.

(1) البرّازون: تجّار الأقمشة. (المترجم).

يوم السبت السَّلخ، حضر قناصلة الدول الأجنبية لزيارتنا، فكان لنا حديث مع كلِّ منهم، وانصرفوا.

وفي المساء، قصدتُ المدينة، ومررتُ بعمارة جلاله الأقدس الأشرف وليّ العهد أبد المهدي، روعي فداه، وتفقدتُ أحوال السيِّدة العليَّة سرور السلطنة.

يوم الأحد، غرَّة جُمادى الآخرة، ركبنا وقصدنا قمة جبل تبريز، يرافقنا النائب أنوشروان ميرزا الذي كان مأموراً لحفظ النظم في المدينة من قبل معالي أمير نظام، ولقد كان حقاً مواظباً على نظم الأمور في المدينة.

يوم الاثنين، الثاني من جُمادى الآخرة، ذهبتُ لزيارة قبر السيِّد حمزة، وقد ضاق الوقت علينا، فلم نُودع أحداً في تبريز، قبيل الغروب بساعتين، غادرنا بالعربات الخاصَّة بمعالي أمير نظام، وقد تزوَّدنا بكلِّ ما نحتاج، وكان معالي سليمان باشا برفقتي، وهو ضيف عندي، وبعد ساعتين من الليل، بلغنا باسمج التي تبعد عن تبريز فرسخين، طريقها صعبة المسلك، وهذه القرى العشرة هي قرى أعيان معتبرة.

يوم الثلاثاء، الثالث من جُمادى الآخرة، غادرنا باسمج، وبلغنا المنزل قبيل الغروب بثلاث ساعات. يُسمَّى هذا المنزل حاجي آغا، في القرية مركز للبريد، حاكمها إبراهيم ميرزا الأفغاني، وكان قد تقدَّم ابنه لاستقبالنا قبيل المنزل بنصف فرسخ، فترجَّلنا للسلام عليه.

قبيل وصولنا إلى حاجي آغا بفرسخ، بلغنا متنرّه حاجي آغا، كان مكاناً جميلاً، على يمينه بحيرة ماء، يُسمِّيها الأتراك غوري جُل.

أردنا أن نشرب الشاي، لكن الجوَّ أصبح شديد البرودة، فاكتفينا باحتساء القهوة. التقينا هنا مقرَّب الخاقان، وحسن خان، والجمع الذي سيرته الحكومة في طهران لإيصال المؤن والحوائج لنا.

يوم الأربعاء، الرابع من جُمَادَى الآخِرَةِ، كتبنا رسالةً إلى معالي أمير نظام، نشكره بها، وأدنا لعرباته وحشمه وأفراده بالعودة.

بعد ساعتين من النهار، انطلقنا من حاجي آغا، ودخلنا قراشمن عند الغروب. كانت الطريق خضراء ذات صفاء وجمال آسر، بعد قطع مسافة، وصلنا شمن أوجان، كانت السماء تمطر، فتوقفنا على قارعة الطريق، ودخنا النرجيلة، ثم مضينا. وبعد مسافة، وصلنا إلى خان دواتجر الذي تم بناؤه إبان حكم الشاه عباس الثاني، وقد كتبوا أشعاراً، تُورخ للخان أعلى بوابته، وهي:

أعطى الله مفتاح الملك من خزانته للشاه عباس الثاني
فأقيم العدل والإنصاف في المشرق والمغرب وفق المراد
أعمر الدنيا والآخرة معالي الخواجة محمد حسين الجيلاني
فشيّد بايّن للخان بصفاء سريرة وواصل عمل الخير مرصاة لله
وفتحت أبواب المسرات أمام الخليفة بمهارة الأستاذ الغنصي البناء
وقد سمعت هاتف الغيب يقول إن الجنة هي مأمّن الأختيار
والأطياب⁽¹⁾

يوم الخميس، الخامس من جُمَادَى الآخِرَةِ، انطلقنا من قراشمن⁽²⁾. وبعد خمس ساعات من الدسة، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ، عبر طريق حافلة بالمزارع والخضرة والنضارة على الجانبين، بلغنا تركمانشاي الواقعة في سهل منخفض؛ وهي قرية كبيرة، تكثر فيها بيوت الرعية، وفيها أبرمت اتفاقية المصالحة بين إيران وروسيا.

(1) أصل الشُّعر باللغة الفارسية. (المترجم).

(2) قراشمن: قرا چمن: كلمة تركية بمعنى المرح الأسود. (المترجم).

قُبيل تركمانشاي بفرسخ واحد، شاهدنا قرية مهمان دوست، وحدائق
غناء على يسار الطريق، وحقول القطن.

يوم الجمعة، السادس من جُمادى الآخرة، غادرنا تركمانشاي بعد
الدستة بساعتين. كانت الحركة طوال الطريق تلقاء الشرق حتى دخلنا
ميانج قُبيل الغروب بثلاث ساعات ونصف.

بداية الطريق سهلة ونضرة، تحقُّها الخضرة، وتكثر على جنباتها
المزارع، ثمَّ غدت الطريق وَعِرة في نهاية المنزل، وعندما بلغنا نهر قوري
جل، كان قد اصطفَّ لاستقبالنا في عرض الطريق فرسان لطفعلي
خان شاطرلو البالغ عددهم مئة وخمسين فارساً، برفقة أكبر ميرزا نجل
المرحوم قهرمان ميرزا، وهو حاكم سراب وشقاي، وأرسل ابن ناصر
الدولة عشريناً من القزاق من المخيمَّ للاستقبال، ومعهم خريطة مرسوم
عليها المخيمَّ والطريق إليه، وقد طلب منَّا المكوث قليلاً في مكاننا
ريثما يقوم بإعداد الأفواج.

فنزلنا عند ضفاف النهر، وأقمنا الصلاة، ودخَّنا النرجيلة، ثمَّ ركبنا.
وقُبيل المخيمَّ بميدان، جاؤوا لاستقبالنا بمنتهى الضبط واللياقة، فأدَّوا
التحية العسكرية. تلاطفتُ مع جميع أصحاب المناصب، وأحاد أفراد
الأفواج من مشاة وفرسان، وأمسكتُ بنادقهم، وقلَّبتُها، فكانت نظيفة
مُصانة.

ثمَّ قصدنا المخيمَّ، فنزلنا في سُرَّادق ناصر الدولة؛ وأطلقوا قذائف
المدفعية. جلستُ لهنيهة، وبعد احتساء الشاي وتدخين النرجيلة،
ركبتُ وذهبتُ نحو خيمتي بمحاذاة عين ماء، وقد أعدُّوها إعداداً
ممتازاً؛ فجلسنا للحديث مع ناصر الدولة وأكبر ميرزا.

يوم السبت، السابع من جُمَادَى الآخِرَةِ، مكثنا في ميانج، لنعاود زيارة المخيمِّ برفقة سليمان، ليطلع عليه، وكان جلاله وَلِيَّ العهد، رُوحِي فداه، قد أبرق مُتَفَقِّداً أحوالنا، فقامتُ بالردِّ على برقيته.

قُبيل الغروب بثلاث ساعات، قصدنا المخيمِّ برفقة سليمان باشا. اصطفَّ الجنود والفرسان والمدفِعيات بشكل مُنظَّم على مقربة من المخيمِّ، توجَّهنا أوَّلًا نحو المدفِعيات، فتفقدناها، وقمنا بتجربتها، بعدها دخلنا سُرَادِقِ ناصر الدولة.

قامت الأفواج والعساكر والفرسان بعرض عسكري مهيب، ومروا من أمام السُرَادِقِ، ثمَّ جهَّزوا أدوات لألعاب الجمباز، وقاموا بحركات بهلوانية، راقت لسليمان باشا، وبعد شرب الشاي وتدخين النرجيلة، رجعنا إلى خيمتنا.

يوم الأحد، الثامن من جُمَادَى الآخِرَةِ، غادرنا ميانج في خمس ساعات قبل الدسطة، وبعد فرسخ، وصلنا إلى سفوح جبل قافلان. مررنا لنبلع جسر نهر قزل أوزون، بعد العبور، تلبَّدت السماء بالسُّحُبِ الممطرة، فأوصلنا أنفسنا مضطَّرين إلى جمال آباد، ونزلنا في بيت محمَّد قلي خان أمين القوافل.

أشعل المدفأة. وشربنا الشاي منتظرين توقُّف الأمطار، لكنها اشتدَّت، فاضطَّرنَّا السير تحتها قُبيل الغروب بساعتين. ومن حُسْنِ حظِّنا، توقَّف المطر بعد بلوغ نصف الطريق، وبعد ساعة ونصف من الليل، وصلنا إلى سرتشم، كانت السيول جارِية، فلم يستطيعوا ضرب خيامنا في البرِّ، فنزلنا في أحد البيوت لقضاء الليلة.

يوم الاثنين، التاسع من جُمَادَى الآخِرَةِ، غادرنا سرتشم، وبلغنا نيك

بي عند الغروب. كانت الطريق في معظمها ذات متعرّجات ومنعطفات؛ وكان نهر زنجان جارياً في كلِّ مكان.

قُبيل نيك بي بنصف فرسخ، حضر لاستقبالنا تقي خان نجل المرحوم أمير الأمراء مع خيل ومعدّات، أرسلها معالي الأيلخان، وكتب إلينا كتاباً، فقمنا بالردِّ عليه، وأعلمناه أن يقوم بتخصيص منزلنا في حديقة الحاج داداش خارج المدينة، ويعمل على إرسال عدد من الفرسان والعربات لاستقبال سليمان باشا، وطريق نيك بي كانت موحلة بشدّة، ممّا يجعل الحركة فيها صعبة.

يوم الثلاثاء، العاشر من جمادى الآخرة، غادرنا نيك بي، وبلغنا حديقة الحاج داداش في زنجان قبيل الغروب بساعتين، ونظراً لألم في اليد، عجلتُ بإرسال سليمان باشا والعربات والفرسان الذين قدموا لاستقبالنا من قبل الأيلخان، وتأخّرتُ بعدهم قليلاً، وبلغنا المنزل بعد ساعة أو ساعتين.

تقدّم لاستقبالنا بفرسخ واحد معالي الأيلخاني مُرافقاً أصحاب المناصب والفرسان وعدداً من التجّار والأعيان، فجننا جميعاً نحو المدينة، وقمنا بجولة حولها، ثمّ بلغنا الحديقة.

يوم الأربعاء، الحادي عشر من جمادى الآخرة، كنّا ضيوفاً عند معالي الأيلخاني، فقصدنا العمارة الحكومية، وقام باستقبالنا عند الباب، تجاذبنا أطراف الحديث، ودخّنا النرجيلة.

ولأنني لم أكن معتاداً على الغداء، ذهبتُ للاغتسال، والآخرون تناولوا غداءهم برفقة سليمان باشا وسائر الضيوف، فمكثنا حتّى المساء، ثمّ عدنا أدراجنا.

يوم الخميس، الثاني عشر من جُمادَى الآخِرَة، بقينا في الحديقة، وجاء الإيلخاني مساءً، فجلسنا للحديث معه، وكانت مجالسته مفيدة.

يوم الجُمعة، الثالث عشر من جُمادَى الآخِرَة، غادرنا زنجان، فحضر لوداعنا معالي الإيلخاني، وكلُّ أصحاب المناصب الذين كانوا قد استقبلونا، ورافقونا حتَّى قرية سايان، ثمَّ ودَّعونا هنالك، ورجعوا.

الطريق اليوم ممهَّدة، كلُّها أراض خضراء جميلة. مسافة اليوم وصولاً حتَّى سلطانية خمسة فراسخ، والجوُّ كان غائماً ومُمطِراً. عندما بلغنا تشمن سلطانية، شاهدنا مزرعة جهة يمين الطريق، لم يمرَّ سوى سنتين على إنشائها. قُبيل الغروب بثلاث ساعات ونصف، بلغنا العمارة، فنزلنا ومعنا سليمان باشا.

تتمتَّع العمارة باثنتي عشرة ساحة وحمَّام، وهناك حمَّام مردوم آخر خارجها. كانت سلطانية تضمُّ عوائل كثيرة في سالف الزمان، فيها قناتان، تُستخدم إحداهما لريِّ المزارع وماؤها عذب وبارد، والأخرى تصل إلى العمارة، لكن ماءها لم يبلغ عذوبة مياه القناة الأولى.

عمارة السلطانية

تقع العمارة أعلى مرتفع، وقد تمَّ بناؤها على يد الخاقان المغفور طاب ثراه، ثمَّ أُعيد البناء أيَّام هذه الحكومة العليَّة الخالدة الأبدية، على طراز الأبنية الحديثة.

فيها بنايات فخمة. قصدها جلالة الملك، روعي فداه، وأقام فيها في عدَّة أسفار، برفقة حملة رفيعة المستوى، فهي بحقُّ من أفضل آثار هذه الحكومة.

يوم السبت، الرابع عشر من جُمادَى الآخِرَة، غادرنا السلطانية بعد ساعتين من الدستة. وبعد مسافة، لاحظنا قبة صغيرة جهة اليمين، قيل إنها بقعة السليل قاسم من أولاد الإمام موسى بن جعفر، عليه السلام، ثم قبة السليل إبراهيم من أولاد نفس الإمام، ثم ظهرت أمامنا وعلى يمين الطريق قبة وأطلال حجرات ومدرسة، قيل إنها بقعة السلطان شلبي؛ وكان من الأسرة المالكة، وقد خلع نفسه عن المقامات، وانشغل بتحصيل العلوم حتى وافته المنية في هذا المكان، ثم رأينا بقعة حسن الكاشفي من تلامذة العلامة الذين أرسلهم لتبليغ الشريعة في هذه الديار.

بلغنا السلطانية، وهي قرية معتبرة، تكثر فيها الأماكن الخضراء، لا سيما في فصل الربيع، كانت تسكنها قديماً ثمان مئة عائلة، إلا أنها لا تتجاوز الآن المئتي عائلة، شاهدنا مصحفاً بالخط الكوفي في بيت أحد الأهالي، اسمه سيّد محمّد باقر، ويقال إن الإمام السجّاد، عليه السلام، كتبه بخطّ يده.

ذكروا أن السلطان سليم العثماني جاء بجيوشه الجرّارة إلى هذه الديار، فعلق بين الثلوج حتى كاد يهلك جيشه، وقطعت كثافة الثلوج نزاع القوم.

توجد قبة عظيمة في السلطانية تُعرف بقبة الشاه خدابنده، كانت هذه القرية مدينة كبيرة في عهد سلاطين المغول.

مدينة السلطانية القديمة

السلطان محمّد خدابنده بن أرغوان خان. كان والياً لخراسان إبان حُكم أخيه غازان خان، ثم بعد أخيه، قدم إلى أذربيجان، وتوجّج ملكاً،

وَوَهَبَ مَنْصِبَ الْوِزَارَةِ لِكُلِّ مَنْ الْخَوَاجَةِ رَشِيدَ الدِّينِ فَضَلَ اللهُ، وَالْخَوَاجَةُ سَعْدُ الدِّينِ، وَاخْتَارَ مَدِينَةَ السُّلْطَانِيَّةِ دَاراً لِلْمَلِكِ، وَقِيلَ إِنْ طَوَّلَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ كَانَ يَبْلُغُ فَرَسَخَيْنِ، وَعَرَضَهَا فَرَسَخٌ وَاحِدٌ، فِيهَا مَسَاجِدٌ وَمَدَارِسٌ وَخَسْتَةٌ خَانَةٌ، وَقَامَ خَدَابَنْدَةُ بِنَاءَ قَبَّةٍ عَظِيمَةٍ، وَاتَّبَعَ الْمَذْهَبَ الشَّيْخِيَّ، وَنَقَشَ أَسْمَاءَ الْأُمَّةِ، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، عَلَى الْمَسْكُوكَاتِ، وَوَأَفْتَهُ الْمَنِيَّةَ بَعْدَ حُكْمٍ، دَامَ ثَلَاثَةَ عَشْرَ عَاماً. صَاحِبُ الْوَصَافِ الَّذِي كَانَ مَعَاصِراً لَهُ، ذَكَرَ فِي تَارِيخِ وَفَاتِهِ هَذَا الْبَيْتَ:

بَعْدَمَا مَضَى تِسْعَةُ أَشْهُرٍ بَعْدَ سَبْعِمِائَةٍ وَسِتَّةِ عَشْرٍ تُوجُّ الْمَلِكُ وَتَرَعَّعَ عَلَى الْعَرْشِ⁽¹⁾

مَا زَالَتْ هَذِهِ الْقَرْيَةُ مَوْجُودَةً إِلَى الْآنِ، وَبَقِيَتْ قَلْعَةُ السُّلْطَانِيَّةِ بَعْدَمَا انْدَثَرَتْ الْمَدِينَةُ تَحْتَ التَّرَابِ، تَهَدَّمَتْ الْمَدِينَةُ فِي الْمَاضِي جَرَاءَ هَجْمَاتِ الْأَفْغَانَ، ثُمَّ أُعِيدَ بِنَاؤُهَا أَيَّامَ نَادِرِ شَاهٍ، غَيْرَ أَنَّهَا خَرِبَتْ مَرَّةً أُخْرَى.

قَبَّةُ الشَّاهِ خَدَابَنْدَةُ

هِيَ قَبَّةٌ مَثْمَنَةٌ عَالِيَةٌ، يَبْلُغُ ارْتِفَاعُهَا ثَمَانِينَ ذِرَاعاً، وَمَحِيطُهَا كَذَلِكَ، وَقَدْ كَتَبُوا الْآيَاتَ الْقُرْآنِيَّةَ بِخَطِّ الثُّلُثِ عَلَى جِدْرَانِهَا الدَّاخِلِيَّةِ. قَامُوا بِتَزْيِينِ أَقْوَاسِهَا الدَّاخِلِيَّةِ، بِاسْتِخْدَامِ الذَّهَبِ وَاللَّازُورِ، لَكِنَّهُ انْمَحَى، وَأَقْوَاسُهَا تَصَدَّعَتْ.

كَانَ لَهَا ثَلَاثَةُ أَبْوَابٍ وَأَرْبَعَةُ أَعْمَدَةٍ رَخَامِيَّةٍ، أَحْضَرُوهَا إِلَى طَهْرَانَ فِي عَهْدِ الْخَاقَانَ الْمَغْفُورِ، يَوْجَدُ شَرْقَ الْقَبَّةِ مَكَانٌ، اسْمُهُ التَّرِيَّةُ. قِيلَ إِنَّهُمْ

(1) أَصْلُ الشُّعْرِ بِاللُّغَةِ الْفَارْسِيَّةِ. (الْمُتْرَجِمُ).

جاؤوا بتراب من النجف الأشرف، وفرشوه بهذا الموضع، وزعموا أن المَلِك خدابنده كان قد نوى الإتيان برفاة الإمام عليّ المبارك من النجف، لدفنه في هذا المكان، فرأى الإمام في منامه، وقال له هذا الكلام: "شاه خدابنده سَنَنكَ سَنَدَهُ مَنَّمَكَ مَنَدَهُ"⁽¹⁾، فرجع عن نِيَّتِهِ.

يوجد سرداب تحت سطح القبة، قيل إنه مَدَفَن الشاه خدابنده، لكن الطريق إليه مغلقة الآن، فقد ذكروا أن السرداب مليء بأجساد الموتى الذين ماتوا سنة القحط، ولهذا تمَّ إغلاقه، وقد نصبوا صخرة صغيرة أعلى الباب الشَّمَالِي، ونحتوا عليها هذه الأبيات:

غلامٌ حيدرٌ والحُسَيْنُ الشَّجَاعُ راجياً من الله الرحمة
سعى في بناء هذا المسجد بتوفيق من ربِّه وحُسْنِ الهمة
وأكملَ بناءَهُ بِالطَّافِ وَرَحْمَةِ الْهَيْبَةِ حَتَّى يَفُوزَ بِالْجَنَّةِ
فلا زاناً للآخرة خيراً وأفضلُ من هذه النعمة
وبإتمامِهِ سمعتُ هاتفاً ينادي ستدخلُ منه إلى الجَنَّةِ⁽²⁾

وعند الباب مسجدٌ، قيل إنه مسجد علوية، ومن المحتمل أن الأشعار على الصخرة تشير إلى بناء هذا المسجد.

بعد التفرُّج على القبة، ركبنا، وانطلقنا. وقُبيل الغروب بأربع ساعات، دخلنا صاين قلعه، كانوا قد خصَّصوا لنا منزلاً وسط القرية، ففضلنا الإقامة في خيمتنا بين الخضرة قرب الماء. كان المكان جاذباً للأنظار، شارحاً للصدور، وقد بلغت مسافة اليوم أربعة فراسخ.

يوم الأحد، الخامس عشر من جُمادَى الآخرة، غادرنا صاين قلعه بعد ساعة ونصف من الدسة. كان منزلنا اليوم قِرْوَة من توابع أبهرود،

(1) شاه خدابنده سَنَنكَ سَنَدَهُ مَنَّمَكَ مَنَدَهُ: عبارات باللغة التركية، فحواها: مالك يا شاه، خدا بنده فعندك، ومالي فعندي. (المترجم).

(2) أصل الشُّعْر باللغة الفارسية. (المترجم).

وقد بلغناه قبل أربع ساعات من الغروب، وبيعد أربعة فراسخ، وقد وصلتنا العربة التي أرسلوها من طهران لسليمان باشا في هذا المنزل.

في البلدة عين ماء، قيل إن أمير المؤمنين، عليه السلام، ضرب برمحه فيها، فتدققت مياهها، وهناك جبل عند الطرف الشمالي يُسمى شتركوه⁽¹⁾ يشبه جثة الجمل، وشاهدنا مسجداً مردوماً، بقيت منه قبة وكتيبات، ورأينا أجراً كبير الحجم في المسجد بطول نصف الذراع، وبعرض أربع أصابع، قيل إن هذا المسجد من أبنية الأمير تيمور.

يوم الاثنين، السادس عشر من جمادى الآخرة. وبعد ساعة من الدسّة، غادرنا قروة، شاهدنا عدّة قرى في أثناء الطريق؛ منها سيادهن، وهي ذات حدائق وبنائات ممتازة، لكنها محرومة من المياه الجارية، يستسقون من الآبار، ومنها مررنا إلى كهك، فحضر عمدة قزوين برفقة النائب ملك آرا ودعاني وسليمان باشا إلى العمارة الحكومية، فكتبتُ له بأننا سنذهب إلى بيت الضيافة في قزوين، ومعنا سليمان باشا.

يوم الثلاثاء، السابع عشر من جمادى الآخرة، غادرنا كهك لساعة قبيل الدسّة، والتقينا بالمستقبلين من فرسان صيانة الطُّرُق، والوزير، وبعض الأعيان قبيل مدينة قزوين بفرسخ، ومعهم ثلاثة من الخيول.

بعد أربع ساعات من الدسّة، دخلنا بيت ضيافة قزوين، وفي المساء، حضر النائب السامي ملك آرا لزيارتنا؛ كنّا قد قطعنا وعداً للحاجّ الشيخ في تبريز أننا سننزل أيضاً في عمارته الفاخرة في قزوين، فأوفينا بعهدنا، قام بضيافتنا بكرم؛ مكثنا الليلة، وقد جاء لزيارتنا الحاجّ ميرزا محمود ليلاً، وسنمكث في العمارة للغد.

(1) شتركوه: تعني جبل الإبل. (المترجم).

يوم الأربعاء، الثامن عشر من جُمادَى الآخِرَة، ذهبنا مساءً لزيارة معالي الحاجِّ ميرزا محمود، معاليه من العلماء الأفاضل الذين آثروا العلم على التجارة.

كان من المقرَّر أن نذهب للقاء النائب ملك آرا، لكن شدَّة الأمطار منعتنا، فأرسلنا له رقعة اعتذار.

يوم الخميس، التاسع عشر من جُمادَى الآخِرَة، ذهبنا صباحاً للقاء النائب ملك آرا، ومن هناك رجعنا إلى بيت الضيافة، لنتهيَّاً للانطلاق. المنزل القادم بيت ضيافة كَوْنْدِه الذي يبعد أربعة فراسخ.

يوم الجُمعة، العشرون من جُمادَى الآخِرَة، غادرنا كوندِه، وقطعنا مسافة سبعة فراسخ وصولاً إلى منزل نيكي إمام، فتناول الأمراء والأتباع الغداء في بيت ضيافة زياران.

يوم السبت، الحادي والعشرون من جُمادَى الآخِرَة، غادرنا نيكي إمام، وقطعنا مسافة سبعة فراسخ وصولاً لمنزل شاه آباد، فقدم من المدينة لاستقبالنا كلُّ من مسعود ميرزا، وأبو تراب ميرزا، والميرزا محسن، وبعض العمَّال.

بلغتْنا رسالة من معالي نائب السلطنة، رُوحِي فداه، ومعالي وزير الخارجية تنصُّ على وصول الموفد الروسي غداً إلى طهران، ولتعذر إنهاء مراسم الاستقبال في يوم واحد، طلب منِّي أن نُوجِّل دخولنا أنا وسليمان باشا إلى المدينة ليوم الاثنين أو الثلاثاء، ليكون هنالك فاصل بين دخول الموفد الروسي وسليمان باشا الموفد العثماني، فأعلمتْهم بأنِّي سأدخل المدينة بعد يوم غد.

يوم الأحد، الثاني والعشرون من جُمادَى الآخِرَة، قصدنا كَن، فأرسل نائب السلطنة خمسة من الحشم لاستقبالنا، دخلنا عمارة الديوان؛ فجاء

للقائنا كلُّ من محمَّد حَسَن ميرزا، وكامران ميرزا، والحاجَّ نصر الله ميرزا،
ومعالي صدر الديوان، وأمرء آخرون وخوانين وأحباب، تكلمنا معهم
وانصرفوا، ومكثنا الليلة في كَن.

يوم الاثنين، الثالث والعشرون من جُمادى الآخرة، حضر صباحاً،
وتزامناً مع انطلاقنا وزير دار الخلافة، وبما أننا قد أقمنا مخيمنا
في طرشت، حضر إليه بعض المستقبلين، وكان سليمان باشا حاضراً
برفقتي.

كان فرسان القزاق والحشم والعربات بالاستقبال، وقد حضر
في الخيمة كلُّ من صاحب الاختيار، والكونت وزير الشرطة، ورئيس
إسطنبولات جلالة وليّ العهد، روهي فداه، والحاجَّ صدر الدولة نائب
السفير الكبير.

بعد تناول الحلويات والشاي والنجيلة، دخلنا المدينة جماعة، برفقة
معالي الباشا، وبمنتهى الاحترام والتبجيل، ودعتُ سليمان باشا على
مقربة من ميدان المدفعية، فذهب نحو حديقة لاله زار، وقصدتُ أنا
بيتي، فحمدتُ الله، وشكرتُه لرجوعي إلى البيت سالماً غانماً.

ولمّا قابلناه من كرم الضيافة في أرض الحكومة العثمانية العليّة،
وحكومة الروس البهية، قمنا بتبليغ درجات حُبهم وتقديرهم لنا إلى جلالة
الملك قدر القدرة الهمايونية، روحنا فداه، وطلبنا من جلالتِه نياشين
تقديراً لبعض هؤلاء، فقبل قبلة العالم طلب خادمه برحمته المُلوكيّة
الفائقة، وأمر بإرسال ستّ وعشرين قطعة من نياشين وأوسمة الأسد
والشمس وفقاً لمراتبهم، ومُرفق معها فرامين منحها، وهذا ما تمَّ إرساله
إلى باد كوبه من النياشين:

معالي الويس غورناطور، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة الأولى.
كاستاتين زديسكوف، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة الثالثة.
ألكساندر حاكم بالاخانه وسوارخانه نيشان الأسد والشمس، من
الدرجة الثالثة.

وإلى أوديسا: رفا يوبح قنصل بلجيكا، نيشان الأسد والشمس، من
الدرجة الثانية، وابنه، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة الرابعة.
المشهدي حَسَن المترجم، قطعة وسام.

المدينة المنورة: أحمد فاضل باشا المحافظ، نيشان الأسد والشمس
ووشاحاً، من الدرجة الأولى.

إبراهيم أفندي، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة الرابعة.
الممباشي، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة الخامسة.
الشام: حُسَيْن فرزي أفندي الملقَّب بمشير باشا، نيشان الأسد
والشمس ووشاحاً، من الدرجة الأولى.

المتصرف باشا إبراهيم أدهم، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة
الثالثة.

حُسَيْن باشا ميرلوا، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة الثالثة.
إسماعيل أفندي قرل آغا الحربية، نيشان الأسد والشمس، من
الدرجة الثالثة.

قوتلر، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة الرابعة.
حَسَن آغا الممباشي، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة الخامسة.
جرجيس أفندي، نيشان الأسد والشمس، من الدرجة الرابعة.

هارون أفندي المترجم، نیشان الأسد والشمس، من الدرجة الخامسة.
الحاجّ جواد نائب القنصل، نیشان الأسد والشمس، من الدرجة
الرابعة.

يوسف أفندي، نیشان الأسد والشمس، من الدرجة الثالثة.
القدس الشريف: يوسف أفندي المترجم، نیشان الأسد والشمس،
من الدرجة الخامسة.

مصطفى عاصم المباشي، نیشان الأسد والشمس، من الدرجة
الخامسة.

معالي كيلاي شِف شنان، نیشان الأسد والشمس، من الدرجة
الثالثة.

تشينك أفندي، نیشان الأسد والشمس، من الدرجة الرابعة.
الموسيو جابه، نیشان الأسد والشمس، من الدرجة الرابعة.
الميرزا فرج خادم الجمارك، نیشان الأسد والشمس، من الدرجة
الرابعة.

أَمَّا الَّذِينَ قُدِّمَتْ لَهُمْ خَلْعَةٌ:

الشيخ محسن الترديني، شال.

أحمد بن مشواط، عباءة.

سالم بن راشد، عباءة.

طاهر النرديني، عباءة.

تمّ استنساخه في يوم الأربعاء، الثاني والعشرين من جمادى الآخرة
سنة 1323 هجرية.

الخاتمة بقلم الناسخ

معروف عند أرباب المقام والعرّة، وأصحاب الشرف والمكانة، أن المرحوم المغفور الحاجّ سلطان مراد الميرزا حسام السلطنة، نجل المرحوم المبرور مخلّد المقام عبّاس ميرزا نائب السلطنة، ووليّ عهد الخاقان المغفور فتحعلي شاه قاجار طاب ثراه، كان من الأمراء الأجلّاء، ومن أكابر حُكّام وقادة المُعظّم المُخلّد في الفردوس ناصر الدّين شاه نور الله مضجعه، وكان عمّه، إذ نوى في عام ألف ومئتين وسبعة وتسعين للهجرة، زيارة بيت الله الحرام، وقبر خير الأنام، وأضرحة الأئمّة الأطهار، عليهم السلام، في البقيع، وقد ناهز من العُمُر الخمسة والستّين عاماً.

غادر دار الخلافة في طهران، في اليوم التاسع والعشرين، من شهر شعبان، من ذات السنة، فبدأ رحلته إلى قزوین، ثمّ إلى رشت، وأنزلي، وباد كوبه، وإسلامبول، وجُدّة حتّى تشرفّ بزيارة الكعبة المعظّمة؛ وبعد الطواف وأداء مناسك الحجّ، قصد المدينة المنوّرة زائراً مرقد خير البريّة، وأضرحة أئمّة الأئمّة.

ثمّ توجهّ إلى البيت المقدّس، وتنقّل للسياحة في الشامات، ومصر وبيروت، لتأتيّ به الطريق ثانية عائداً إلى إسلامبول. وبعد مكوثه عدّة أيّام، ارتحل إلى ميناء بوتّي، وبلاد القوقاز، فأذربيجان وزنجان وقزوین، إلى أن حطّ رحاله في طهران يوم السادس والعشرين، من شهر جمادى الآخرة عام 1298 هجرية.

وأينما سارت رِكَابُهُ، وفي كلِّ الممالك والأمصار، والولايات والدول، الداخلية والخارجية حظي بالتبجيل والتوقير، وتوفير سُبُل الراحة ولوازم الضيافة، فكان يدخل ويخرج بمنتهى التقدير والاحترام.

ألقى يوميات رحلته هذه على المرحوم ميرزا رضا الكاتب المُلازم لِرِكَابِهِ، لتدوين أسفارة، وتسطير أخباره، وتحرير أذكاره في قِرطاس، فدَوَّن بخطه ما تمَّ ذِكرُه من ممالك ومسالك وولايات وقصبات ومنازل ومراحل برّاً كانت أم بحراً، من مشاهدات السَّفَر، والوقائع التي طرأت في الحِلِّ والترحال، والحركة والسكون، ومنها إطفاء نائرة فساد الشيخ عبيد الله على يد الأمير المبرور في الباب العالي.

كُتِبَتُ الأخبار في البدء على عجل، ليقوم الكاتب بإعادة تحريرها على مهل عند عودته إلى طهران، ليُصارَ من بعد استنساخها وطبْعها، إلّا أنها ظلَّت مسوَّدة مهملة، كادت أن تُنسى، فلم يهتمَّ الأمير المرحوم بنفسه، ولا أعقابه الكرام من بعده، بإخراجها كتاباً، يروي ظمأ القُرّاء، ويشفي غليلهم في الاطلاع على كُتُب الأسفار.

وبما أن تعظيم آثار العظماء، من المهامِّ الحميدة التي أُلقيت على عواتق الكرماء في هذا العهد الميمون الذي تزَيَّنت فيه مملكة إيران بوجود الأقدس المبارك سلطان السلاطين، وخاقان الخواقين، جلاله ظلَّ الله في الأراضين، الملك العادل الباذل الملجأ للمسلمين، مظفَّر الدِّين أبد الله دولته وسلطنته، فقد قام معالي المستطاب الأجل، الأُمجد الأكرم، الأفخم الأعظم، السيِّد حُسين قليخان مخبر الدولة، الوزير العام لتلغراف الممالك الإيرانية بيده الساعية أباً عن جدِّ في إشاعة العلوم والمعارف، وتحفيز أرباب الفنِّ والأدب، وتكريس جُلِّ وقته وجهده، بعد انصرافه من مشاغله ومهامِّه الوزارية والشخصية، لجمْع الكُتُب، وقراءتها.

ومن محاسن الصدف، ولطائف الأقدار أن وقعت بين يديه مسوِّدة هذه الرحلة، فعزم على نسخها أكثر من نسخة، ليُخلد الزمان رحلة الأمير العظيم، وللاحتفاظ بنسخة منها في مكتبته الخاصة، وأخرى لمطالعة القراء، فاستدعاني أنا غلامه، كي أُعيِّن كاتباً حسنَ التعبير والتدوين.

وامثالاً لأوامره المباركة، قمتُ بتكليف بعض الكُتَّاب للاستنساخ، غير أنه بدا أنه من المتعذِّر عليهم نقل المخطوطة، إلَّا في حالة أن يُملِّي أحدهم مُسوِّدتها، ولم يكن هذا الأمر مُيسِّراً من جانب، ومن جانب آخر، وبصفتي غلاماً من غلمانه، فليس من اللائق إهمال أو تأخير تنفيذ أمره المطاع، لهذا، ومع ضعف بصري، وكثرة مشاغلي الدائمة المكلف بها من جنابه، قمتُ بمباشرة العمل بنفسي، وانتهيتُ من نسخها في غضون خمسة أشهر، وإنتي لأجد نفسي من أهل السعد لامتثالي لأوامر حضرته المُعظَّمة، ويحدوني الرجاء بأن يكون هذا الجهد المتواضع مُلحَقاً لخدماتي السابقة، وأن يحظى بالملاحظة والعناية في حَرَمِ ساحته المباركة.

أنا العبد الضعيف الفاني، علي العلي آبادي المازندراني، حفيد المرحومين نصير المُلك أبا، والميرزا تقي آغا أمّا. قد تمَّت الكتابة بعون الله الملك الوهاب، في شهر جُمادى الآخرة سنة 1323 هجرية.

تمَّ تصحيح رحلة حسام السلطنة وإعدادها، في مُحَرَّم الحرام سنة 1416 الهجرية القمرية، الموافق لشهر خرداد سنة 1374 الهجرية الشمسية، راجياً القبول بمنَّه وكرمه.

ملحق

رحلات الحجّ في الأدب الفارسي

رحلات الحجّ في الأدب الفارسي

من المناسب هنا أن نسرد قائمة بالمخطوطات الفارسيّة في أدب الرحلات الإيرانيّة إلى مكّة المكرّمة⁽¹⁾:

سفرنامه منظوم، بانوي أصفهاني القرن الثاني عشر الهجري، مكتبة جامعة طهران، ج9، الرّقم 2591 (نُشِرَت أخيراً في طهران).

سفرنامه مكّه، ضياء الدّين قاري 1129 هجرية، المتبقي منه صفحة واحدة، قائمة منزوي رّقم 4031.

مسير الحرّمين، أو حالات الحرّمين، مولوي رفيع الدّين مراد آبادي، قائمة منزوي رّقم 3999.

تذكرة الطريق في مصائب حُجّاج البيت العتيق، مكتبة برلين رّقم 454.

سفرنامه مكّه، محمّد ولي ميرزا 1260 هجري، نُشِرَت أخيراً ضمن مجموعة تحت عنوان: (به سوى أمّ القرى).

(1) عملنا على إتمام القائمة الواردة في الكتاب بالرجوع إلى بحث الأستاذ صادق العبادي الموسوم بـ "أدب الرحلات الفارسية إلى مكّة المكرّمة"، والمنشور في كتاب ميقات الحجّ، سازمان حجّ وزيارت، ج20، ص 240-250.

سفرنامه مگّه، محمّد علي فراهاني 1263 هجري، مخطوطات مكتبة مجلس الشورى الإسلامى، رَقْم 2310.

سفرنامه مگّه، علي خان حاجب الدولة 1263 هجري.

دليل الزائرین، عبد العلي أديب الممالك 1272 هجري.

سفرنامه عتبات ومگّه، سيف الدولة 1279 هجري، نُشِرَت في إيران.

سفرنامه مگّه، ميرزا علي خان اعتماد السلطنة 1285 هجري، مخطوطات مكتبة أستان قدس رضوي، رَقْم 4125، نُشِرَت أخيراً في طهران.

سفرنامه مگّه، الكاتب مجهول، إهداء إلى ناصر الدين شاه القاجاري، 1288 هجري.

تاريخ كعبة، محمّد معصوم بن محمّد صالح دماوندي، القرن الحادي عشر الهجري، رحلة من سورت الهند إلى الحجاز، (مطبوعة بتحقيق: رسول جعفریان).

سفرنامه مگّه، محمّد رضا بن عبد الجليل حَسَنِي حُسَيْنِي طباطبائي تبريزي 1296 هجري، مكتبة ملك رَقْم 2357.

سفرنامه مگّه، خانم معتمد الدولة فرهاد ميرزا 1296 هجري، مجلس الشورى الإسلامى، رَقْم 1225 (تحت التحقيق والنشر، بواسطة مجد طباطبائي).

دليل الأنام في سبيل زيارت بيت الله الحرام، سفرنامه مگّه، سلطان مراد ميرزا حسام السلطنة 1297 هجري، مكتبة مجلس الشورى

الإسلامي، رَقْم 693، نشر مشعر، طهران عام 1415هـ، تحقيق رسول جعفریان.

سفرنامه مَكَّة، عبد الحُسَيْن خان أفشار 1299 هجري.

سفرنامه مَكَّة، ميرزا إبراهيم مشتري طوسي حسام الشعراء، 1300 هجري، نُظِّمَت الرحلة شِعْراً، مكتبة ملك رَقْم 4834، ومكتبة جامعة طهران، ج5، رَقْم 3806، طبع أخيراً في إيران.

تحفة الحرَمَيْن، نايب الصدر 1305 هجري، طُبِع في طهران.

سفرنامه مَكَّة، محمَّد حُسَيْن بن حاجي ميرزا عبد الصمد قاضي رضوي همداني (1307 هجري)، قائمة منزوي رَقْم 4030.

سفرنامه مَكَّة ومدينة وكرَبَلَاء، الكاتب مجهول، 1309 هجري، مكتبة إمام جمعة كرمان برَقْم 393.

سفرنامه حجاز، محمَّد حُسَيْن شهرستاني، قائمة كتاب الذريعة، ج12 ص196.

سفرنامه مَكَّة، الكاتب مجهول 1319 هجري، قائمة كتاب آشنایي با چند نسخه خطي، ص 105.

سفرنامه مَكَّة، مدير الدولة -1321- 1322 هجري، قائمة مكتبة ملك رَقْم 3899.

سفرنامه مَكَّة، ميرزا داود وزير وظايف 1324 هجري، مكتبة آستان قدس رضوي، رَقْم 6562، نُشِرَت محقَّقة أخيراً بطهران، باسم سفرنامه ميرزا داود.

سفرنامه مَكَّة، لطفعلی أعلی، مكتبة آستان قدس رضوي، رَقْم 4243.

سفرنامه مَكَّة، الكاتب مجهول، إهداء إلى ناصر الدِّين شاه القاجار 1297 هجري، المكتبة الوطنية رَقْم 865.

منازل بين أصفهان ومَكَّة، فهرست مكتبة فرهنگستان باكو، آذربايجان.

منازل الحجّ، بند علي بن خيرات علي (1241).

فتوح الحرَمَيْن، محيي لاري القرن العاشر الهجري، منظوم شِعراً، طُبِع أخيراً في قم.

سفرنامه مَكَّة، محمّد حُسَيْن فراهاني 1303 هجري، المكتبة الوطنية رَقْم 573 ف.

سفرنامه مَكَّة، ميرزا علي أصفهاني 1331 هجري، طُبِعَت في مجموعة (به سوى أمّ القرى).

سفرنامه مَكَّة، الكاتب مجهول 1316 هجري، مكتبة المرعشي، قم، رَقْم 6388.

سفرنامه مَكَّة، سيّد محمّد تاجر طهراني 1317 هجري، مكتبة المرعشي، قم، رَقْم 9008.

سفرنامه مَكَّة، مخبر السلطنة، مهدي قلي هدايت، مطبوع.

سفرنامه مَكَّة، أمين الدولة علي بن مجد الملك، مطبوع.

سفرنامه مگّه، میرزا علي صدر الذاكرين تفرشي طهراني، قائمة
الذريعة ج12 / رَقْم 189.

هداية السبيل وكفاية الدليل، معتمد الدولة فرهاد ميرزا مُتوفى
1305 هجري، مطبوع في طهران.

سفرنامه حجّ البيت، مولى إبراهيم بن درويش محمّد الكازروني،
الذريعة ج12، رَقْم 186.

حجازية، أبو الأشرف محمّد يزدي مُتوفى 762 هجري.

سفرنامه مگّه، محمّد بن إسماعيل قيري 1247 هجري.

بزم غريب، محمّد علي بن محمّد رضي بروجردي 1262 هجري،
قائمة عبد العزيز طباطبائي، مكتبة علامة طباطبائي، شيراز.

أنيس الحُجّاج، صفي بن ولي 1087 هجري، قائمة منزوي، رَقْم
3992.

سفرنامه مگّه، ميرزا جلاير، في عهد محمّد شاه، قائمة منزوي،
رَقْم 4033.

سفرنامه حجاز، هدايت علي بن شيخ فضل علي 1230 هجري،
من حُجّاج الهند، كُتِبَت بالفارسيّة، فهرست مشترك، مكّتبات باكستان،
ج1، ص62.

منهاج السعادات سفرنامه حجّ، حكيم غلام محمّد دهلوي، في
حُجّاج الهند، كُتِبَت بالفارسيّة، فهرست مشترك، مكّتبات باكستان،
ج10، ص62.

سفرنامه حجّ، شاه خواجه بن رحمة الله خواجه، المتخلّص بالنديم،
من حُجَّاج الهند، كُتِبَت بالفارسيَّة، فهرست مشترك، مكتبات باكستان،
ج10، ص66.

سفرنامه حجّ، محمّد حَسَن جان هندي 1321 هجري، من حُجَّاج
الهند، كُتِبَت بالفارسيَّة، فهرست مشترك، مكتبات باكستان، ج10،
ص67.

تحفة العراقيّن، خاقاني شرواني بعد عام 551 هجري، مطبوع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعض الرسائل الفارسيّة المخطوطة والمطبوعة
حول جغرافيّة الحرَمَيْن الشريفَيْن، ولم تُكْتَبْ على
شكل أدب الرحلات، نضيفها إكمالاً للفائدة:

فضائل مكّة، الترجمة الفارسيّة لفضائل مكّة، المؤلّف حسن البصري،
كتاب خطّي، فهرست مشترك، باكستان، ج10، ص43.

الوجيز في تعريف المدينة 1294 هجري، محمد ميرزا مهندس،
نُشِرَتْ ضمن مجموعة: به سوى أمّ القرى، تحقيق رسول جعفریان،
طهران 1414 هجري.

مفرحة الأنام في تأسيس بيت الله الحرام، زين العابدين كاشاني
1039 هجري، نُشِرَ في سلسلة ميراث إسلامي إيران، تحقيق: رسول
جعفریان.

توصيف مدينة، (وصف المدينة)، إسماعيل هرندي 1255 هجري،
نُشِرَتْ في مجلة ميقات مُنظمة الحجّ الإيرانيّة، طهران.

ترجمة فضائل مكّة، حسن بصري، فهرست مشترك، باكستان، ج10،
ص43.

مكّة، مبارك علي هندي (حول الكعبة)، فهرست مشترك، باكستان،
ج10، ص44.

مكّة، الكاتب مجهول، فهرست مشترك، باكستان، ج10، ص45.
أحوالات مكّة، خواجه محمّد بارسا، مُتوفى 822 هجري، قائمة
منزوي، رَقْم 3932.

الرسالة المباركة، عبد الرحمن سمرقندي، قائمة منزوي، رَقْم 3982.
تعريف الحرَمَيْن، محمود بن محمّد 991 هجري، فهرست مشترك،
باكستان، ج10، ص15.

زاد السفينة في أحوال المدينة، 1133 هجري، فهرست مشترك،
باكستان، ج10، ص26.

مكّة، الكاتب مجهول، 1060 هجري، فهرست مشترك، باكستان،
ج10، ص23.

جذب القلوب إلى ديار المحبوب، ترجمة خلاصة الوفاء، فهرست
مشترك، باكستان، ج10، ص17.

أخبار حُسَيْنِيّة در أخبار مدينة، ترجمة خلاصة الوفاء 969 هجري،
فهرست مشترك باكستان، ج10، ص11.

مساحت كعبة، الكاتب مجهول، قائمة منزوي، رَقْم 3982.

رسالة در أحوال مكّة معظمّة ومدينة مشرّفة، محمّد علي كرمانشاهي،
مرآة الأحوال، ج1، ص-135 149.

مكّة، مبارك علي هندي 1240 هجري، تقرير عن أبعاد ومقاييس
الكعبة قديماً حتّى تأليف الكتاب، خطّي، فهرست مشترك، باكستان،
ج10، ص45.

قائمة بالمخطوطات المطبوعة حديثاً بعد التحقيق في أدب الرحلات الفارسيّة إلى مكّة المكرّمة:

تحفة الحَرَمَيْنِ، رحلة نايب الصدر، سفرنامه نايب الصدر، محمّد
معصوم شيرازي عام 1270 هجري.

سفرنامه أمين الدولة، رحلة أمين الدولة، 1316هـ، ميرزا علي خان
صدر أعظم، تحقيق إسلام كاظمية، نشر طوس، طهران 1365 هجري.

دليل الأنام في سبيل زيارت بيت الله الحرام، سفرنامه مكّة، سلطان
مراد ميرزا حسام السلطنة 1297 هجري، مكتبة مجلس الشورى
الإسلامي، رَقْم 693، نشر مشعر، طهران عام 1415هـ، تحقيق رسول
جعفریان.

سفرنامه مكّة، رحلة مكّة، محمّد ولي ميرزا 1260 هجري، طُبِعَت
ضمن مجموعة بعنوان: به سوى أمّ القرى، تحقيق رسول جعفریان.

رسالة خاطرات سفر حجّ، 1324 هجري، سلطان حُسَيْن تابنده
كنابادي، طبعة ثانية، طهران، 1398 هجري.

سفرنامه حجّ، 1330 هجري، ميرزا علي أصفهاني، نُشِرَ ضمن مجموعة
به سوى أمّ القرى، تحقيق رسول جعفریان، نشر مشعر، 1414 هجري.

سفرنامه حاجّ علي خان اعتماد السلطنة، رحلة اعتماد السلطنة، تحقيق علي قاضي عسكر، نشر مشعر، طهران، 142 هجري.

سفرنامه ميرزا داود وزير وظيف، رحلة ميرزا داود وزير وظيف، تحقيق علي قاضي عسكر، نشر مشعر، طهران، 2000م.

سفرنامه منظوم حجّ، رحلة الحجّ شعراً، رحلة نُظِمَتِ شعراً بواسطة سيّدة من أصفهان في القرن الثاني عشر، تحقيق رسول جعفریان، نشر مشعر، طهران 1995م.

سفرنامه عتبات ومكّة، رحلة العتبات ومكّة، عام 1279 هجري، سيف الدول.

سفرنامه مكّة، رحلة مكّة، ميرزا إبراهيم مشتري طوسي حسام الشعراء 300 هجري، منظوم شعراً.

فتوح الحرّمين، محيي لاري، رحلة منظومة شعراً، قم، 1994م، تحقيق رسول جعفریان.

سفرنامه مكّة، أمين الدولة علي بن مجد الملك، تُوفّي ١٢٢٢ هجري. هداية السبيل وكفاية الدليل، معتمد الدولة فرهاد ميرزا، تُوفّي 1305 هجري، تحقيق مجد طباطبائي.

داستان باريافتگان، سفرنامه حجّ، رحلة الحجّ، قصّة ضيوف الرحمن، القرن الثالث عشر الهجري، أحمد هدايتي، تحقيق علي قاضي عسكر، الطبعة الثانية، نشر دار مشعر، طهران، 1419 هجري.

سفرنامه مكّة، رحلة مكّة، القرن الرابع عشر الهجري، مهدي قلي

خان هدايت (مخبر السلطنة)، تحقيق أحمد حُسَيْنِي كازروني، نشر دار أرمغان، طهران، 1419 هجري.

مرآة الحرَمَيْنِ يا سفرنامه مكَّة، رحلة مكَّة، أو مرآة الحرَمَيْنِ، القرن الرابع عشر الهجري، أيوب صبري باشا، ترجمة عبد الرسول منشي، تحقيق جمشيد كيان فر، نشر ميراث مكتوب، طهران 1419 هجري.

سفرنامه مكَّة رحلة مكَّة، 1279 هجري، سيف الدولة سلطان محمَّد، تحقيق علي أكبر خدابست، نشر ني، طهران، 1404 هجري.

سفرنامه ميرزا محمَّد حَسَن فراهاني، (رحلة ميرزا محمَّد حَسَن فراهاني)، تحقيق مسعود گلزاري، نشر فردوسي، طهران، 1403 هجري.

- قائمة بأدب الرحلات الفارسيّة الحديثة المطبوعة
في القرنين الرابع والخامس عشر الهجريّين:
- سفر به قبلة عشّاق، (السفر إلى قبلة العشّاق)، رحلة عام 1418
هجري، محسن يزدي خواه، دار نشر ستايش، طهران 142 هجري.
- سفرنامه حجّ، (رحلة الحجّ)، القرن الخامس عشر الهجري، مهراكيو
كوفكر، دار نشر طنين، طهران، 1419 هجري.
- خسي در ميقات، (قشّة في الميقات)، القرن الرابع عشر الهجري،
جلال آل أحمد، عدّة طبعات، طهران.
- أز خانه خود تا خانه خدا، (من بيتك إلى بيت الله)، علي دارابي،
القرن الرابع عشر الهجري، دار التبليغ الإسلامي، طهران، 1415 هجري.
- جای پای إبراهيم، سفرنامه حجّ، مكان أقدام إبراهيم، القرن الخامس
الهجري، محمّد ناصري، دار التبليغ الإسلامي، طهران، 1413 هجري.
- ره آورد حجّ، سفرنامه حجّ، (هدية الحجّ أو رحلة الحجّ)، القرن الخامس
عشر الهجري، حبيب الله صابري، دار پیام عدالت، طهران، 1413 هجري.
- سفرنامه حجّ، (رحلة الحجّ)، القرن الخامس عشر الهجري، لطف الله
صافي، دفتر انتشارات إسلامي، قم، 1405 هجري.

سفرنامه حجّ، لحظه های غنیمت، (رحلة الحجّ ولحظات الغنيمه)،
القرن الخامس عشر الهجري، رضا بنده خدا، مُنظمة التبليغ الإسلامي،
قسم الفنون والقصة، طهران، 1414 هجري.

در ملکوت زمين، سفرنامه حجّ، (في الملكوت الأرضي، رحلة الحجّ)،
القرن الخامس عشر الهجري، جواد محقق نيشابوري، دار نشر روزگار،
طهران، 1419 هجري.

طواف در باران، خاطرات سفرهای حجّ، (الطواف تحت المطر)،
القرن الخامس عشر الهجري، هاشم رضوي، نشر دار کاتبان، مشهد
1419 هجري.

زائري در وادي أيمن، سفرنامه، (حله، زائر في الوادي الأيمن)، القرن
الخامس عشر الهجري، علي عمودي، نشر بوستان توحيد، طهران،
1419 هجري.

سفرنامه حجّ، برستو در قاف، (رحلة الحجّ، عصفور السنونو في جبل
قاف)، القرن الخامس عشر الهجري، مُنظمة الإعلام الإسلامي، قسم
الفنون، طهران، 1416 هجري.

يار کجا است، سفرنامه حجّ، (أين الحبيب، رحلة الحجّ)، القرن
الخامس عشر الهجري، رحيم مخدومي، مُنظمة الإعلام الإسلامي، قسم
الفنون، طهران 1413 هجري.

پرواز عشق در کهکشانشها، (رحلة الحبّ إلى فضاء المجرّات)، القرن
الخامس عشر الهجري، محمّد رضا خاني، طهران 1419 هجري.

راهیان سفر روحان، (السالكون في السّفَر الروحاني)، القرن الخامس

عشر الهجري، محمّد رضا خاني، إعداد حشمت الله رياضي، طهران، 1410 هجري.

در حريم حرم، (في حريم الحرّم)، 1415 هجري، جواد محدّثي، نشر مشعر، قم 1416 هجري.

حجّ، (الحجّ)، القرن الرابع عشر الهجري، الدكتور علي شريعتي، نشر حُسَيْنِيّة إرشاد، طهران، 1392 هجري.

سفرنامه حجّ، (رحلة الحجّ)، القرن الرابع عشر الهجري، سيّد محمود طالقاني.

سفرنامه حجّ وراهنماي حُجّاج، (رحلة الحجّ، ودليل الحُجّاج)، القرن الخامس عشر الهجري، حُسَيْنُ ذُو القدر.

به سوى خدا مي رويم با حجّ، (الذهاب إلى الله في الحجّ)، 1370 هجري، سيّد محمود طالقاني.

خاطرات سفر مكّة، (مذكّرات رحلة مكّة)، محمّد علي هدايتي، مطبعة حيدري، طهران، 1384 هجري.

خاطرات زيارت خانه خدا وعبّات، (مذكّرات رحلة بيت الله والعبّات)، 1387 هجري، محمّد رضا خاني، تحقيق حبيب الله باك كوهر ومحمود سعدي، مطبعة خواجه، طهران، 1407 هجري.

سفرنامه حجّ، اي قوم به حج رفته، (رحلة الحجّ، يا قوم الحُجّاج)، 1392 هجري، جواد مجابي، نشر موج، طهران، 1393 هجري.

سعي هاجر، 1397 هجري، شكوه ميرزادكي، نشر فاروس إيران، طهران، 1398 هجري.

ميعاد با إبراهيم، (الميعاد مع إبراهيم)، الدكتور علي شريعتي، نشر
مونا، طهران 1411 هجري.

تحليلی از مناسك حجّ، (تحليل حول مناسك الحجّ)، الدكتور علي
شريعتي، نشر الهام، طهران، 1411 هجري.

با كاروان إبراهيم، (مع قافلة إبراهيم)، رحلة 1412 هجري، رسول
جعفریان.

با كاروان عشق (مع قافلة العشاق)، رحلة عام 1412 هجري، رسول
جعفریان.

به سوی أمّ القرى (نحو أمّ القرى)، رحلة عام 1414 هجري، رسول
جعفریان، نشر مشعر، طهران 1415 هجري، ويشتمل أيضاً على ثلاث
رسائل خطيّة محقّقة.

فهرس الرحلة

5	استهلال.....
9	هذه الرحلة.....
11	مقدّمة المترجم.....
15	مقدّمة المحقّق.....
22	حول رحلة حسام السلطنة.....
25	نصُّ الرحلة.....
27	الانطلاق من إيران.....
32	قزوين.....
34	آغا بابا.....
35	بيك كندي.....
35	باشنار.....
36	منجيل.....
40	السليل هاشم.....
47	أنواع البواخر.....
58	شهر نو.....

- 59..... باد كوبه
- 66..... بحر الخَرَّر وبحر قزوين**
- 67..... بطروسكي
- 68..... بحر قزوين
- 72..... حاجي طرخان
- 72..... ساراتسين
- 74..... سَكَّة الحديد
- 75..... لوازم سَكَّة الحديد
- 76..... قراس
- 77..... أَرْلِ
- 77..... كَيْف
- 78..... في الشُّمَنْدُفِرِ
- 80..... إدسا
- 82..... البحر الأسود
- 83..... الوصول إلى إسلامبول**
- 83..... عمارة كوك صو
- 84..... استضافة جلاله السلطان العثماني
- 86..... بوغاز
- 89..... إسلامبول
- 90..... العمارات السلطانية
- 93..... نسب السلاطين العثمانيين

95	المساجد العالية
109	بحر مَرْمَرَة
110	ميناء سَامُس
113	البحر الأبيض وقناة السويس
113	ميناء رُودُس
114	البحر الأبيض
116	بورت سعيد
117	قناة السويس
123	مدينة السويس
125	البحر الأحمر
130	جُدَّة
133	البيضاء
134	السعدية (يَلْمَم)
137	مكَّة المعظَّمة
141	وصف مكَّة المعظَّمة
142	المسجد الحرام
143	أبواب الحَرَم المبارك
144	بناء الكعبة
145	عرض وطول الكعبة المعظَّمة وأستارها
146	أركان الكعبة
146	باب الكعبة المعظَّمة

147 الحجر الأسود
147 مقام إبراهيم
147 حِجْرُ إِسْمَاعِيلَ
148 المستجار
148 بِئْرَ زَمْرَمَ
148 شَاذِرُوَانَ
149 الْمُصَلَّى
149 الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ
149 الحَظِيمِ
156 عرفات
158 مِنَى
160 مسجد الخيف
162 الجَمَرَاتِ
166 جبل النور
174 مُحَرَّمٌ عام 1298 للهجرة
175 رَابِعٌ
177 المَحْمَلُ الشَّامِي
184 المدينة المنورة
184 بَوَابَاتِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ
184 مسجد النبي خاتم الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .
186 أساطين المسجد النبوي
187 أدوات المسجد

188	أبواب المسجد
188	الروضة المباركة
189	الصحن المبارك
191	مقبرة البقيع
194	جبل أُحُد
197	مسجد قُبَا
203	آبار المدينة
204	مساجد المدينة المنورة
205	جبال المدينة
205	حَرَّة المدينة
206	وادي العقيق
216	مدائن صالح
222	تَبُوك
226	مَعَان
237	الوصول إلى دمشق
242	الشام
244	حدود الشام
245	ألقاب الشام
245	أقسام الشام وأبوابها
248	متنزهات الشام
249	الجامع الأموي

- 250 صحن الجامع الأموي
- 252 مسجد الرأس
- 253 مسجد الرّئيبيّة وصحنه
- 255 بقعة السيّدّة رُقَيّة عليها السلام
- 257 محيي الدّين العربي
- 258 بقعة محيي الدّين ومسجده
- 264 وصف بيروت**
- 267 وصف يافة
- 270 الرّملة
- 272 اللّطرون
- 272 أبو غوش
- 276 بيت المقدس**
- 277 باني مدينة بيت المقدس
- 278 هدم المدينة وعمارتها
- 278 حصن المدينة
- 279 جبال المدينة
- 280 الشوارع المعروفة في المدينة
- 281 بئر أيّوب
- 281 وادي جهنم
- 282 صحن الصخرة الشريفة وقبّتها
- 283 المسجد الأقصى
- 284 باني المسجد
- 284 قبة الصخرة الشريفة

- 286 الصخرة الشريفة
- 287 الأحاديث المكتوبة حول الصخرة الشريفة
- 288 التواريخ المكتوبة حول قبة الصخرة الشريفة
- 289 بيان الجامع القبلي
- 290 أبنية الصحن المرتفع وقبابه
- 293 أبواب الصحن
- 294 قباب الصحن المنخفض
- 295 أروقة الصحن
- 295 مهد عيسى
- 296 مقبرة السيِّدة مريم
- 297 مقبرة النبي داود
- 300 حَبْرُون
- 301 بقعة إبراهيم الخليل والأنبياء
- 302 سور سليمان
- 303 وصف المسجد
- 304 بقعة إبراهيم والأنبياء
- 305 مسجد الجاولية
- 306 الصحن
- 306 بيت لحم
- 315** دخول مصر
- 316 عمارة رأس التين
- 316 وصف الإسكندرية

- 318 ميدان المنشية.
- 319 حديقة النزهة
- 320 منارة فاروس الإسكندرية
- 320 معمل تصفية المياه
- 323 عمارة السيِّدة فائقة
- 325 بقعة السيِّدة زينب، عليها السلام
- 325 بقعة رأس الحسين
- 326 الحديقة الوطنية
- 327 وصف مصر
- 330 نهرُ نيلِ مصر
- 333 فروع نيل مصر
- 334 مسرح مصر
- 335 قلعة جوهر القائد
- 337 مقبرة الإمام الشافعي
- 337 مقبرة إبراهيم باشا
- 337 مقبرة السيِّدة نفيسة
- 340 الأهرام
- 342 باني الأهرام وسبب البناء
- 343 أبو الهول
- 344 حديقة شُبرًا
- 345 حديقة النزهة وحديقة الشوكاني
- 347 المتحف

349 العودة إلى إسلامبول

- 350 جزائر طريق الإسكندرية حتى إزمير
- 351 مرساة جزيرة ساقز في البحر الأبيض
- 352 خليج إزمير
- 353 إزمير
- 355 باغشه آواسي
- 356 إسلامبول
- 368 مقبرة أبي أيوب الأنصاري

369 العودة إلى إيران

- 371 مَرْمَرَة
- 373 وصف باطوم
- 374 مرساة بوتي
- 376 وصف نهر رايوني
- 376 ميناء بوتي
- 380 نهر كُر
- 384 وصف تَبْلِيْسِي
- 387 مراكز البريد في طريق تَبْلِيْسِي
- 391 مراكز البريد في أرض إيروان
- 394 مراكز البريد في شرور وادي لي كُر
- 394 مراكز البريد في نخجوان
- 395 وصف نخجوان
- 395 نهر آراس

- 396 الباروم
- 397 عمارات شواطئ آراس
- 399 كَرَكَر
- 400 مَرَنَد
- 400 قرية صوفيان
- 402 حديقة الشَّمَال
- 402 تبريز
- 409 عمارة السلطانية
- 410 مدينة السلطانية القديمة
- 411 قبة الشاه خدابنده
- 418 الخاتمة بقلم الناسخ**
- 421 ملحق: رحلات الحج في الأدب الفارسي**
- 427..... بعض الرسائل الفارسيّة المخطوطة
والمطبوعة حول جغرافيّة الحرَمين
الشريفيّن، ولم تُكْتَب على شكل أدب
الرحلات.
- 429..... قائمة بالمخطوطات المطبوعة حديثاً بعد
التحقيق في أدب الرحلات الفارسيّة إلى
مكّة المكرّمة.
- 432..... قائمة بأدب الرحلات الفارسيّة الحديثة
المطبوعة في القرنين الرابع والخامس
عشر الهجريّين.

السلطان مراد ميرزا المشهور بلقب «حسام السلطنة»

وهو نجل عباس ميرزا، من رجال الدولة البارزين، ومن الشخصيات المرموقة في العهد القاجاري، وكان عمّ الملك ناصر الدين شاه. شغل عدّة مناصب في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة، أهمّها تسنّمهُ حُكْم ولايات مختلفة، ويُعدُّ غزو مدينة هرات الحدّث الأهمّ في حياته إلا أن عواقبه كانت وخيمة، وأبرزها انفصال المدينة عن إيران. عام 1287، رافق ناصر الدين شاه في رحلته إلى العراق لزيارة العتبات المقدّسة، وكان مسؤولاً عن أمن معسكر الملك وحمّيته. وفي عام 1288، وبالإضافة لتوليّه ولاية يَزْد، تمّ تعيينه للمرّة الرابعة والياً على خراسان، وفي السنة ذاتها أُحيلت إليه ولاية أصفهان عوضاً عن يَزْد، وفي الزيارة الأولى لناصر الدين شاه إلى أوروبا عام 1290 كان حسام السلطنة من المُلَازِمِين لركاب الملك، وفي نهاية عام 1293 كُلف بحكومة كردستان وكرمانشاه. تُوفّي في الثاني من جمادى الأولى 1300 للهجرة عن عُمر يناهز السابعة والسِتِّين.

د. عبد الكريم علي عبد الحميد جرادات، دكتوراه

الدولة في اللغة الفارسية وآدابها - جامعة طهران 2001 - 2004. نُشر وترجم مئات الأبحاث ما بين اللُغَتَيْن العربيّة والفارسيّة. من تأليفه وترجمته: "الفارسية والعرب" تأليف د. عبد المنعم محمّد نور، طهران 2001. المشاركة في تأليف كتاب شرح الشاهنامه بالاعتماد على ترجمة البنداري العربيّة، نشر هيرمند، طهران، 2002. تصحيح وتحقيق وإكمال ترجمة كتاب "فريدة الأصقاع في ترجمة سلوان المطاع" 2009. ترجمة مجموعة من القصص الفارسية، نشر وزارة الثقافة الأردنيّة، مجلّة أفكار، أعداد مختلفة، ترجمة كتاب تاريخ الأساطير الإيرانيّة، (مشترك مع الدكتور مازن النعيمي)، دمشق 2015 "تعلّم المكالمة اليوميّة عربي - فارسي"، (مشترك مع الدكتور أحمد موسى) طهران، 2003.

ابن بطوطة

تُعدُّ هذه الرحلةُ واحدةً من أهمِّ رحلات الحجِّ المكتوبة باللُّغة الفارسية، ليس فقط للمكانة التي تتمتع بها صاحبها بوصفه من بين أشهر الأُمراء القاجاريِّين، فهو عمُّ الملك ناصر الدين شاه، وشخصية سياسية بارزة وواسعة النفوذ، ولكن، أيضاً لكونها رحلة ذات مسار طويل عبر قارَّات ثلاث، وسفر في البرِّ والبحرِّ وعبر الممالك، من إيران إلى روسيا فتركيا ومصر والحجاز فالشام. استقبل خلال رحلته من قبل السلاطين والملوك والحكَّام ورجالات الدول بحفاوة كبيرة. ولا غرو في ذلك، فقد كان حسام السلطنة الشخصية الثانية بعد السلطان القاجاري. وقبل قيامه بهذه الرحلة إلى الحجِّ، والتي استمرَّت أكثر من تسعة شهور ما بين 6 آب/أغسطس 1880، و23 أيَّار/مايو 1881، فإن صاحب هذه اليوميات سبق له أن رافق ناصر الدين شاه في رحلته الأولى إلى أوروبا في سنة 1873.

إلى جانب دقَّته في الترجمة وأمانته في النقل من الفارسية إلى العربية في لغة سلسة ورائقة، بذل المترجم جهداً كبيراً في تصويب ما يمكن أن يكون خطأ وقع فيه الناسخ أو حتَّى المؤلف، لا سيَّما في ما يتعلَّق بأسماء الأماكن ومواقعها، والشخصيات وتواريخها ممَّا ورد في متنِّ النصِّ الفارسي وحواشيه. وقد استحقَّ عن هذه الترجمة جائزة ابن بطوطة - فرع الرحلة المترجمة.



ISBN 979-12-80738-38-7



9 791280 738387

المعتوسط